عبدالله بن عباس

السيد محمد تقي الحكيم

دار الهادي

عبد الله بن عباس

شخصيته وآثاره

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الله بن عباس

شخصيته وآثاره

العلامة

السيد محمد تقي الحكيم

الجزء الأول

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

المؤلف في سطور

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف في سطور

- ولد سماحة سيدي الوالد في مدينة النجف الأشرف بالعراق عام ١٩٢١م ، ولازال يسكنها.
- نشأ نشأةً علمية بتوجيه من والده سماحة السيد سعيد الحكيم (ت١٣٩٥هـ)، وأعلام أسرته ، فدرس علوم العربية والمنطق والبلاغة وأصول الفقه والفلسفة والتاريخ على أيدي الأساتذة الأجّلاء العلماء الأعلام: أخيه السيد محمد حسين الحكيم (ت١٤١٠هـ)، والشيخ نور الدين الجزائري، والسيد صادق السيد ياسين ، والشيخ علي ثامر، والسيد يوسف الحكيم (ت١٤١١هـ) ، والسيد حسن الحكيم (ت١٣٩٤هـ)، والسيد محمد علي الحكيم ،والشيخ محمد رضا المظفر،والسيد موسى الجصاني.
- حضر دروس البحث الخارج في الفقه والأصول على أيدي الآيات العظام السيد محسن الحكيم (ت١٣٩٠هـ) والسيد أبي القاسم الخوئي (ت١٤١٣هـ) والشيخ حسين الحلي (ت١٣٩٥هـ) والسيد ميرزا حسن البجنوردي (ت ١٣٩٥هـ). والفلسفة على يد الشيخ محمد رضا المظفر والسيد ميرزا حسن البجنوردي.
- درّس السطوح العالية في الفقه والأصول لطلبة الحوزة العلمية في النجف الأشرف سنوات عديدة.
- قام بتدريس الفقه لطلبة البحث الخارج في الحوزة العلمية في النجف الأشرف

على متن كتاب (المكاسب) للشيخ مرتضى الأنصاري، وأصول الفقه على متن كتاب (الكفاية) للشيخ محمد كاظم الخراساني.

- درّس طلاب البحث الخارج علم أصول الفقه المقارن بآراء أئمة المذاهب الاسلامية، وكتب بعض طلابه تقريرات درسه.
- درّس طلاب البحث الخارج علم القواعد الفقهية ابتداءً من عام ١٣٨٨هـ ولعدة سنوات، وسجل بعض طلابه تقريرات درسه.
- أسس مع عدد من الأعلام (جمعية منتدى النشر) في النجف الأشرف وواكب نشاطها لأكثر من ربع قرن، ودرس في كليتها (كلية منتدى النشر) النحو والصرف البلاغة والأدب والتاريخ والفقه والأصول وعلم النفس وعلم الاجتماع، ابتداءً من عام ١٩٤٤م.
- أسس مع عدد من المفكرين (المجمع الثقافي لمنتدى النشر) عام ١٩٤٣م وساهم في نشاطاته الثقافية المختلفة.
- أسس مع عدد من الأعلام (كلية الفقه) في النجف الأشرف عام ١٩٥٨م، وتولى فيها تدريس علوم أصول الفقه المقارن، والقواعد الفقهية المقارنة، وفقه اللغة، والتاريخ الاسلامي، وعلمي الاجتماع والنفس، مما يكشف عن موسوعية معرفية كبيرة.
- انتُخب عميداً لكلية الفقه عام ١٩٦٥م وشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٧٠م.
- درّس أصول الفقه المقارن بمعهد الدراسات الاسلامية العليا / جامعة بغداد/ من عام ١٩٦٧م وحتى عام ١٩٧٠م.
- منحته جامعة بغداد درجة الاستاذية بقرار من مجلس الجامعة عام ١٩٦٤م.
- أشرف على العديد من الرسائل الجامعية لطلبة الدراسات العليا وناقش مجموعة من رسائل الماجستير والدكتوراه.

- اختير خبيراً علمياً أكاديمياً لرقية حملة الشهادات العليا لرتب جامعية أعلى.
- انتخب بالإجماع في عام ١٩٦٤م عضواً عاملاً في المجمع العلمي العراقي، بترشيح من علامتي العراق المرحومين الشيخ محمد رضا الشبيبي، والدكتور مصطفى جواد، وشغل العضوية حتى عام ١٩٩٦م، ومثل المجمع في عدد من المؤتمرات العلمية.
- انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية المصري عام ١٩٦٧م .
- انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية السوري عام ١٩٧٣م .
- انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية الأردني عام ١٩٨٠م .
- انتخب عضواً في مجمع الحضارة الاسلامية الأردني عام ١٩٨١م .
- كلّف عام ١٩٨١م من قبل الجامعة العربية / المنظمة العربية لمكافحة الجريمة/ بوضع مصطلحات للعقوبات تكون معتمدة لدى دول الجامعة، ولكن هذا المشروع لم يكتمل لظروف خاصة.
- عين عضو شرف في المجمع العلمي العراقي عام ١٩٩٧م.
- دعي لحضور العديد من المؤتمرات والندوات العلمية في البلاد العربية وغيرها، وشارك في جملة منها، من ذلك:

أ/ مؤتمر كراجي المنعقد بالباكستان عام ١٩٥٧م ، بمناسبة مرور ١٤ قرن على ولادة الإمام علي (عليه السلام) ممثلاً عن سماحة السيد محسن الحكيم (قده).

ب/ المؤتمر الأول لمجمع البحوث الاسلامية المنعقد بالقاهرة عام ١٩٦٤م.

ج/ المؤتمر المشترك بين مجمعي اللغة العربية المصري والعراقي المنعقد ببغداد عام ١٩٦٥م.

د/ المؤتمر المشترك بين مجمعي اللغة العربية المصري والعراقي المنعقد بالقاهرة عام ١٩٦٧م.

هـ/ مؤتمر دراسة أحرف الطباعة العربية بدعوة من المنظمة العربية للثقافة والعلوم المنعقد بالقاهرة عام ١٩٧١م.

و/ ندوة المصطلحات القانونية بدعوة من اتحاد المجامع العربية المنعقدة بدمشق عام ١٩٧٢م.

ز/ المؤتمر التأسيسي لجمعية الجامعات الاسلامية بدعوة من جامعة القرويين والمنعقد بمدينة فاس عام ١٩٧٤م.

ح/ ندوة معالجة تيسير النحو العربي المنعقدة بالجزائر عام ١٩٧٥م.

مؤلفاته المطبوعة

١- مالك الأشتر ، مطبعة الغري/ النجف الأشرف/ عام ١٩٤٦م.

٢- شاعر العقيدة (السيد الحميري) ، مطبعة دار الحديث / بغداد / عام ١٩٦٣م.

٣- الأصول العامة للفقه المقارن، دار الأندلس / بيروت / عام ١٩٦٣م.

٤- الزواج المؤقت ودوره في حل مشكلات الجنس ، دار الأندلس / بيروت / عام ١٩٦٣م.

٥- فكرة التقريب بين المذاهب ، مكتبة المنهل / الكويت / عام ١٩٧٨م.

٦- مناهج البحث في التاريخ ، مكتبة المنهل / الكويت / عام ١٩٧٨م.

٧- تاريخ التشريع الاسلامي - كتاب المعهد - معهد الدراسات العربية والاسلامية / لندن / عام ١٩٩٨م.

٨- التشيع في ندوات القاهرة ، دار التجديد / بيروت / عام ١٩٩٩م.

٩- من تجارب الأصوليين في المجالات اللغوية ، مؤسسة الألفين / الكويت / عام ٢٠٠٠م.

١٠- عبد الله بن عباس ، حياته وسيرته ، شخصيته وآثاره ، (هذا الكتاب).

مؤلفاته المخطوطة

١- القواعد العامة في الفقه المقارن.

٢- زرارة بن أعين.

٣- مع الإمام علي (عليه السلام).

٤- مشكلة الأدب النجفي.

٥- الاسلام وحرية التملك والمفارقات الناشئة عن هذه الحرية.

٦- أبو فراس الحمداني (مفقود).

٧- تعليقة على كتاب (كفاية الأصول) للشيخ محمد كاظم الخراساني.

٨- انطباعاتي عن محاضرات الاستاذ الشيخ حسين الحلي.

٩- تعليقة على كتاب (مستمسك العروة الوثقى) للسيد محسن الحكيم.

- قدم لمجموعة من الكتب بمقدمات ضافية ، منها:

١- كتاب (النص والاجتهاد) للامام شرف الدين ، مطبعة النجف / النجف الأشرف / عام ١٩٥٦م.

٢- كتاب (الكندي الرائد الأول للفلسفة الاسلامية ومفخرة الفكر العربي) للدكتور محمد بحر العلوم ، مطبعة النجف / النجف الأشرف / عام ١٩٦٢م.

٣- ديوان السيد الحميري ، جمع وتحقيق وشرح شاكر هادي شكر ، دار الحياة / بيروت / عام ١٩٦٦م.

٤- كتاب (القياس حقيقته وحجيته) للدكتور مصطفى جمال الدين ، مطبعة النعمان / النجف الأشرف / عام ١٩٧٢م.

٥- كتاب (العقل عند الشيعة الامامية) للدكتور رشدي عرسان عليان ، مطبعة

دار السلام / بغداد / عام ١٩٧٣م.

٦- كتاب (عقد الفضولي في الفقه الاسلامي) للدكتور عبد الهادي الحكيم ، مطبعة الآداب / النجف الأشرف / عام ١٩٦٥م.

- نشر العديد من البحوث والمقالات في الصحف والمجلات العراقية والعربية منها:

البذرة ، الهاتف ، النجف ، الإيمان ، الأضواء ، البيان ، الدليل ، الغري ، النهج ، العرفان ، البلد ، الحياة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مجلة مجمع اللغة العربية المصري ، وغيرها.

- أصدر الدكتور محمد كاظم مكي كتاباً عن حياته ، وآثاره ، ونشاطاته العلمية ، تحت عنوان (من ثمرات النجف في الفقه والأصول والتاريخ والأدب ، السيد محمد تقي الحكيم) مطبعة دار الزهراء / بيروت / عام ١٩٩١م.

- أصدر الدكتور عبد الأمير زاهد كتاباً عن منهجيته تحت عنوان (التنظير المنهجي عند السيد محمد تقي الحكيم) النجف / ١٩٩٩م.

علاء الدين السيد محمد تقي الحكيم

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين.

وبعد.. فهذه دراسة تختصر عصرها، لبطل يختصر عصره، علماً، وثقافة، وسياسة، وعلائق اجتماعية، وقد صوّرتْ حوادث ما يقرب من سبعين عاماً من خلال منظار هذا البطل، وأكثرها من حديثه الخاص.

وقد جهدتُ أن تكون مستوعبة لمختلف نواحي حياته وسيرته. وكان الذي يؤخرني عن نشرها - بعد تدوينها منذ زمن ليس بالقصير - محاولتي أن أجد في بطون الكتب ما يضع لي خطاً جديداً في مخطط حياته.

ثم فضّلت نشرها الآن، تاركاً لي - أو لغيري - في طبعات قادمة إن شاء الله إضافة ما أجده من ذلك.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين، وله الشكر.

النجف الأشرف **محمد تقي الحكيم**

تمهيد

أضواء على الكتاب

اضطراب تأريخه

بين يديّ الآن -وأنا أحاول دراسة ابن عباس والترجمة له- قصاصات من أوراق مختلفة، جَمعتُ المواد الأولية لذلك، وفيها ألوان من الأحاديث لايمكن الاطمئنان إلى أكثرها بحال؛ لتناقض قسم منها، واضطراب مداليل قسم آخر ، وخروج قسم ثالث على مقتضيات زمنه. وقد سرى مفعول ذلك إلى آراء المؤرخين له، فأكسبها تناقضاً واختلافاً بينهم.

فاختلاف في الولادة، ينشأ منه اختلاف في مدّة بقائه مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، واختلاف في مقدار علاقته بالخلفاء الثلاثة، ثم مقدار علاقته بالإمام(عليه السلام) ينشأ منه اختلاف في شأنه ببيت المال في البصرة، ونظائر ذلك من اختلافات سرت إلى جلّ ما يتعلق به، وبخاصة آراؤه ورواياته.

والحديث عنه -مع هذه الاختلافات- حديث لا يخلو من جهد، وليس من اليسير أن يخرج منه الكاتب وقد وفّاه ما يستحقه من بحث وتصوير. وما أدري إلى أيّ مدى سأوفق في ذلك، وكل ماأرجوه أن نتعاون أنا والقارئ -الذي سيشرفني بقراءة الكتاب- على إبراز الصورة الكاملة له، وذلك بالإشارة إلى ما أكون قد أغفلته من الظلال أو الألوان الضرورية في إبراز صورته، والتسديد لما أكون قد وقعت فيه من الأغلاط. فمن حقه إذاً -وأنا أرجو معاونته- أن يسائلني عن المنهج الداخلي والخارجي لهذه الدراسة؛ ليسايرني في ضوئها إن شاء. كما أنّ من حقه أن يسائلني

عن أسباب هذا التناقض وعوامله، وها أنذا أضع بين يديه في هذا التمهيد الإجابة على كلّ ذلك، بادئاً بذكر العوامل التي أدّت إلى كلّ هذا الإضطراب..

وهي -على كثرتها وتشعّبها- تعود إلى عاملين رئيسين:

(أوّلهما): ما تقتضيه طبيعة تداول الأحاديث بين الرواة، وتنقّلها من فم إلى فم مع اختلافهم بالفهم وحسن التلقّي، من الزيادة والنقيصة اللتين قد يكون لهما الأثر في تغيير مفاهيمها، وتبديلها تبديلاً ربّما بَعّدها عن الواقع كثيراً، هذا بالإضافة إلىٰ من يوجد فيهم من أهل السهو والغفلة والتخليط، وقد ترجم مؤلفو الرجال من هؤلاء جماعة عرفوا بالتوثيق، ومع ذلك فقد ابتلوا بهذه الآفات.

(وثانيهما): كثرة الوضّاع والمنتحلين من أصحاب الحديث وأرباب السير في مختلف العصور، وقد ألّفت في هؤلاء وفي أحاديثهم كتب كثيرة، وتعرّض للكثير منهم أرباب الجرح والتعديل في كتب الرجال، ووضعوا بازاء بعضهم مقدار ما وضعوه من الأحاديث.. فصرنا نقرأ مثلاً أنّ عبد الكريم بن أبي العوجاء وضع أربعة آلاف حديث[1]، ومحمد بن يونس الكديمي ألف حديث[2]، وجعفر بن الزبير أربعمائة حديث[3]، وقد قدّروا ما تُرك من

---

(١) انظر تأريخ ابن الأثير -المطبعة الأزهرية، مصر، ط١، سنة الطبع ١٣٠١هـ- ج٦: ٣.

(٢) انظر ميزان الاعتدال -مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ط١، سنة الطبع ١٣٨٢هـ- ج٤: ٧٤، رقم الترجمة ٨٣٥٣ .

(٣) انظر خلاصة تذهيب الكمال -ط١،المطبعة الخيرية،مصر،سنةالطبع ١٣٢٢هـ- : ٥٣.

حديث عبّاد بن صهيب البصري بخمسين ألفاً[١]،ومارُمي من حديث عمر بن هارون البلخي بسبعين ألفاً[٢]. وحسبك أن تعلم أنّ أحمد بن حنبل لم يعتمد -من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث كانت لديه- إلاّ ثلاثين ألفاً[٣]، وهي التي حشدها في مسنده المعروف باسمه، وأنّ مسلماً لم يحشد في صحيحه أكثر من أربعة آلاف حديث، عدا المكرّرات،من أصل ثلاثمائة ألف كان يملكها من الأحاديث[٤]، والبخاري لم يذكر في الصحيح أكثر من سبعة آلاف حديث انتقاها من ستمائة ألف حديث[٥].

على أنّ هذه الكتب ونظائرها لم تسلم من الأحاديث التي لا يُطمأنّ إلى رواتها؛ لما ورد فيهم من الجرح الكثير من أعلام هذا الفن أمثال ابن حجر وغيره[٦]. وقد صحّ ليحيى بن سعيد القطّان -وهو الناقد المعروف- أن يقول: ((لو لم أروِ إلاّ عمّن أرضى، ما رويت إلاّ عن خمسة))[٧]، كما صحّ لأبي حنيفة أن لايطمئنّ إلى أكثر من سبعة عشر حديثاً صحّت

---

(١) انظر ميزان الاعتدال ج٢: ٣٦٧ رقم الترجمة ٤١٢٢.

(٢) انظر الغدير -مطبعة الحيدري، طهران، ط٢، سنة الطبع ١٣٧٢هـ- ج٥: ٢٤٨.

(٣) انظرطبقات الشافعية -المطبعةالحسينية المصرية،ط١، لم تذكر سنة الطبع- ج١: ٢٠٢.

(٤) انظر الغدير ج٥: ٢٩٣.

(٥) انظر المصدر السابق ج٥: ٢٩٢.

(٦) انظر دلائل الصدق -المطبعة الحيدرية، النجف، سنة الطبع ١٣٧٢هـ- ج١: ٩ -١٤.

(٧) المصدر السابق ج١: ١٧.

لديه[١]. ونهاية المبالغات -في ذلك كلّه- ما حدّثوا عن يحيى بن معين أنّه قال:((كتبنا عن الكذّابين وسجّرنا به التنور وأخرجنا به خبزاً نضيجاً))[٢].

ويعلم الله كم كان نصيب صاحبنا من الوضع عليه في ذلك، مع أنّ جميع العوامل الباعثة على الوضع من الوضّاع والكذّابين كانت تلتقي به، فهو محور الحركة الثقافية والتشريعية في زمنه وبعد زمنه إلى عدّة أجيال، وسنوضح في هذه الكلمات أسباب الوضع عليه، قبل أن نذكر منهجنا في معالجة ذلك.

أسباب الوضع عليه

والأسباب كثيرة، وإن كانت في جوهرها لاتعدو ثلاثة:

(أوّلها): سبب سياسي: ونريد بهذا السبب أن يعمد بالوضع إلى تأييد دولة قائمة وتركيزها، أو دولة يراد قيامها، تأييداً مباشراً أو غير مباشر، وذلك بخلق أحاديث تؤيّدها تأييداً صريحاً، أو تحطّ من مراكز أعدائها في نفوس الرأي العام؛ ليتسنّى لهم من هذه الطريقة إبعادهم عن الحكم.

وقد كان نصيبه من الوضع عليه لهذا السبب كثيراً، فقد قُدّر له أن يعاصر معتركات سياسية قوية، ويلابس معتركات أُخر بعد وفاته، وكلّها تساعد على الوضع عليه؛ نظراً لأهميّة مركزه في تلكم العصور.

---

(١) انظر ميزان الاعتدال ج١: ٢٠٩ رقم الترجمة ٨٢٠ .

(٢) تأريخ بغداد -دار الكتاب العربي، لبنان، لم تذكر سنة الطبع- ج١٤: ١٨٤.

فالصراع الذي كان قائماً إذ ذاك بين أتباع الخلفاء على الخلافة بعضهم مع بعض، ثم بين الخلافة والملك ودعاتهما. وكان يرأس الفريق الثاني مؤسس النظام الملكي في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، كما كان يرأس الفريق الأول الأئمة من أهل البيت(عليهم السلام). ومعاوية -كما تعرفون عن تأريخه- كان خالياً من الأمجاد الكبيرة التي كان يتمتع بها خصومه من الهاشميين، كما كان وصولياً إلى أبعد حد، لايهمّه في سبيل تركيز مَلَكيّته أن يسلك إليها من أيّ طريق. فكان لابدّ من بثّ الوضّاع؛ ليضعوا له ولبعض الصحابة أحاديث عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، تشبه ما انفرد به أئمة أهل البيت(عليهم السلام) وعُرفوا به بين الناس، وبخاصة الإمام علي(عليه السلام)؛ ليقلّل من قيمتهم في نظر الرأي العام بمشاركة غيرهم من الصحابة لهم في هذه الفضائل.

حدَّث المدائني في كتابه الأحداث قال: ((كتب معاوية إلى عمّاله -بعد أن أمرهم بإفشاء الحديث عن عثمان- إنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وأتوني بمناقض له في الصحابة مفتعلة، فإن هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله))(١).

---

(١) شرح نهج البلاغة -مطبعة دار الكتب العربية،مصر،سنة الطبع ١٣٢٩هـ-ج ٣ :١٦ نقلاً عن المدائني.

وهنا بدأنا نسمع منهم، ومن حاملي أفكارهم في هذا التأريخ، وبعد هذا التأريخ من مختلف العصور استجابة لهذا النداء، بتتبّع فضائل آل البيت الواردة في الأحاديث التي يطمئنّ إلى صدقها الثقات، ووضع ما يناسبها إلى كبار الصحابة والخلفاء، ثم ينسبونها إلى من يوثق بنقله من الرواة. وقد حدّث ابن عرفة عن كثرة الوضع إذ ذاك قال: ((إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيّام بني أميّة تقرّباً إليهم بما يظنّون أنّهم يرغمون به أنوف بني هاشم))[١].

وبالطبع كان ابن عباس في الطليعة ممّن يوضع عليه في هذه الأمور؛ لاشتهاره برواية الفضائل للإمام علي(عليه السلام) ، حتّى وجدنا لكثير من الأحاديث التي يرويها في الإمام أو واحد من آل البيت ما يضارعها في الخلفاء والسابقين منسوباً إليه. وقد سجّل الكثير من ذلك في الكتب المعنية بإحصاء الموضوعات وتتبّعها، وصرّحوا بوضعها، وربّما عيّنوا الواضع وشخّصوه[٢]. وكان لابدّ أيضاً من بثّ الوضّاع بين الرأي العام؛ ليحدّثوهم عن مثالب خصومهم من الهاشميين، وينسبوها أحاديث إلى كبار الصحابة؛ ليمهّدوا بذلك إلى تنشئتهم على بغضهم تنشئةً تُطمئِنهم إلى عدم عودتهم للحكم مهما كلّف الأمر. وحسْبُ معاوية أن يسنّ سبّ علي(عليه السلام) وأولاده على المنابر والمآذن، وأن يبقى ذلك سُنّة لديهم حتى أيّام عمر بن عبد العزيز[٣].

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٦ نقلاً عن المدائني.

(٢) انظر سلسلة بأسماء الكذابين والوضّاعين في كتاب الغدير ج٥: ٢٠٩ -٢٨٨.

(٣) انظر تأريخ الخلفاء -مطبعة السعادة، مصر، سنة الطبع ١٣٧١هـ- : ٢٤٣.

ولعلّنا سننتهي -فيما بعد- إلى اعتبار الكثير ممّا ورد على لسان صاحبنا -من الكتب في شأن بيت المال وغيرها- من الموضوعات عليه لهذا السبب.

أما المعتركات السياسية التي لابسته و لم يدركها في حياته، فأهمّها ما وقع من الصراع بين الأمويين والهاشميين بعد حادثة كربلاء، وبين الهاشميين أنفسهم في أثناء تولّيهم الحكم. فكلنا يذكر جيداً الدعوة السرّية إلى الرضا من آل محمد من قِبَل الهاشميين، ويذكر اجتماعهم في الأبواء ومبايعتهم لمحمد ذي النفس الزكيّة، ثم تفرّقهم في البلدان لنقض الأمر على الأمويين، ثمَّ محاولة العباسيين للاستئثار بالحكم. ولازم هذه المحاولة أن نبدأ فنسمع التهامس بين أشياعهم على اعتبار الوراثة والوصاية بهم دون العلويين[١]، وقد انحدرت إليهم -كما جاء في بعضها- من العباس[٢]، ومن محمد بن الحنفية كما جاء في بعضها الآخر[٣]. وأن نسمع بعضها يبشّر بالسفّاح على الخصوص[٤]، وبعضها بالمنصور[٥]، وثالثة بالمهدي[٦]، ورابعة بالعباس حتى يسلّموها إلى المسيح[٧].

---

(١) انظر ذخائر العقبى -مطبعة القدسي، مصر، سنة الطبع ١٣٥٦هـ- : ١٩٤.

(٢) انظر الفخري في الآداب السلطانية -مراجعة وتنقيح محمد عوض إبراهيم، مطبعة المعارف، مصر، ط٢، سنة الطبع ١٩٣٨م- : ١١٩.

(٣) انظر الإمامة والسياسة -مطبعةمصطفى محمد،مصر، لم تذكر سنة الطبع- ج٢: ١٢٨.

(٤) انظر تهذيب تأريخ ابن عساكر- تصحيح عبد القادر أفندي، مطبعة روضة الشام، دمشق، ط١، سنة الطبع١٣٣٠هـ-ج٧ :٢٤٤.

(٥) انظر ذخائر العقبى: ٢٠٥.

(٦) انظر تهذيب تأريخ ابن عساكر ج٧: ٢٤٤.

(٧) انظر البداية والنهاية -مطبعة السعادة،مصر،ط١، سنة الطبع ١٣٥١هـ- ج١٠: ١٢٢.

ومن أولى بصاحبنا من نسبة ذلك كلّه إليه وهو أبو الخلفاء. وأبو الخلفاء -في عرف السياسة- يجب أن لايكون كسائر الآباء، وفي مستواهم الطبيعي، وإلاّ لكان أبناؤه كسائر الأبناء، بل يجب أن يرتفع عنهم؛ ليرتفع أبناؤه بارتفاعه، فهو إذا ذهبت كريمتاه لا تذهب إلاّ لرؤيا جبريل، ورؤيا جبريل تورث العمى! ولكن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يؤخّر ذلك إلى أخريات عمره رأفة به[1]، وهو إذا علم كان علمه غير طبيعي، بل يستند إلى دعاء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) له فلا يستوحش إلى مسألة أحد من الناس[2]، والخليفة عمر يدعوه إلى العُضل الحادثة ولا يدعو غيره[3]...إلى آخر ما هنالك من مبالغات سنشير إلى بعضها فيما يأتي من أحاديث.

وآراؤه هي الأخرى يجب أن لايضارعها رأي لأيٍّ كان من سائر الناس، ويكفي للشخص -مهما كان مقامه العلمي- أن يخالفه ليكون عرضة لسخط الخليفة، مالم تكن المخالفة في صالح السلطة.

هذا محمد بن إسحق يريد أن ينتقم من أبي حنيفة، فيشي به عند المنصور بأنّه يخالف ابن عباس في استثناء المنفصل، فيغضب عليه ويقول له: أتخالفه؟! ويدرك أبو حنيفة حراجة موقفه، فيُعمل لباقته للتخلص منه، فيقول: لكلام ابن عباس تأويل صحيح وقد قال(عليه السلام): ((من حلف على يمين واستثنى فلاحنث عليه))، والاستثناء لايكون إلاّ موصولاً، وهؤلاء لايرون خلافتك، ويقولون أنّهم بايعوك كرهاً وتقيّة، فلهم الاستثناء متى شاؤا، ويخرجون

---

(١) انظر البداية والنهاية ج١٠: ٢٩٨.

(٢) انظر المصدر السابق ج٨: ٢٩٧.

(٣) انظر الإصابة في تمييز الصحابة -مطبعة السعادة، مصر، ط١، سنة الطبع ١٣٢٨هـ- ج٢: ٣٣٣.

من بيعتك، فغضب المنصور على ابن إسحق[1]. وكما ترون لو لم يتدارك أبوحنيفة الأمر بالإشارة إلى نقطة الضعف في نفس المنصور، لكانت مخالفته لرأي ابن عباس وحدها كافية لغضب السلطة عليه.

وكما يجب أن يرتفع أبو الخلفاء عن مستواه في عرف أبنائه ليركّز مقامهم، يجب أن يهبط عن المستوى في عرف خصومهم السياسيين؛ ليصح لهم أن يجردوهم من كل فضيلة.. حتى فضيلة الانتماء إلى أب في مستوى ابن عباس الحقيقي، وهنا بدأنا نسمع صوراً مشوّهة عن ضعة نفسيته، وخيانته لبيت المال في البصرة، كما بدأنا نسمع عن آيات نزلت بحقه وحق أبيه أمثال: ﴿**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا**﴾[2].. ونظائر ذلك[3]، مما يهبط به عن المستوى الطبيعي له.

(وثانيها): سبب عقيدي بحت: ونريد به أن يقصد الواضع إلى الدسّ والكذب ؛ لتأييد عقيدة يعتقدها هو، أو تفنيد عقيدة يعتقدها سواه، أو غير ذلك مما ينبعث له بدافع من العقيدة الخالصة.

وهذا الضرب من الدسّ والوضع كثير في العصور الإسلامية وبخاصة بعد أن تعدّدت المذاهب وتكثّرت مبانيها الفقهية واختلفت أحكامها، وأصبح لكل مذهب أحكام قد تختلف جملةً وتفصيلاً، وتستند كل منها في جزئياتها -غالباً- إلى أحاديث يوصلونها إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

---

(١) انظر مناقب أبي حنيفة للكردري -مطبعة دار المعارف النظامية، حيدر آباد، سنة الطبع ١٣٢١هـ- ج١: ١٨٤.

(٢) الإسراء: ٧٢.

(٣) انظر رجال الكشي-المطبعة المصطفوية، بمبئ بائي دهنوي ،سنة الطبع١٣١٧هـ- :٥٢.

وفيهم من لا يتحرّج عن الكذب عليه، في سبيل تأييد ما يراه، بل يكفي لدى بعضهم أن يجدوا كلاماً حسناً ليضعوا له الأسانيد وينسبوه إلى النبي(صلىا لله عليه وآله وسلم)، كمحمد بن سعيد المصلوب بدمشق(١).

وكان الخوارج -فيما يحدّث عن بعضهم عبد الله بن عيسى بن لهيعة- إذا هووا أمراً صيّروه حديثاً(٢). وقد كان من هؤلاء تلميذ صاحبنا عكرمة، وقد حَبَسَهُ بالكنيف علي بن عبد الله بن عباس لتهمته إيّاه بالكذب على أبيه(٣).

وقد تجاوز بعض الزهّاد الحدود المألوفة فجعل يتقرب إلى الله بوضع الحديث، حتى قال يحيى بن سعيد القطّان ((لم نرَ الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث))(٤)، وعنه أيضاً: ((ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير والزهد))(٥). ((وقد قيلت لأبي عصمة: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل القرآن سورة سورة؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد ابن إسحق، فوضعت هذا الحديث حسبة))(٦). ومن الطريف أن يسأل

---

(١) انظر ميزان الاعتدال ج٣: ٥٦٠ رقم الترجمة ٧٥٩٢.

(٢) انظر لسان الميزان -مطبعة مجلس دائرة المعارف، حيدرآباد، ط١، سنة الطبع ١٣٣٠هـ- ج١: ١٠.

(٣) انظر ميزان الاعتدال ج٣: ٩٣ رقم الترجمة ٥٧١٦.

(٤) صحيح مسلم -مطبعة محمد علي صبيح، مصر، سنة الطبع ١٣٣٤هـ- ج١: ١٣.

(٥) اللآلي المصنوعة للسيوطي -المطبعة الأدبية، مصر، ط١، ١٢١٧هـ- ج٢: ٢٤٨.

(٦) التذكار -تخريج وتعليق أحمد بن محمد بن الصديق، لم تذكر المطبعة، ط١، سنة الطبع ١٣٥٥هـ- : ١٥٥.

بعضهم -وقد وضع أحاديث في فضل القرآن وسوره- لِمَ فعلت هذا؟ فقال: ((رأيت الناس زهدوا في القرآن، فأحببت أن أرغّبهم فيه. فقيل: فإن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، فقال: -وهنا موضع الطرافة- أنا ما كذبت عليه وإنما كذبت له))[1].

وتأتي من هذا الباب روايات المناقب والمثالب لبعض رؤساء المذاهب الإسلامية، ممن يراد بهذا الدافع تقوية مذاهبهم، كالروايات الواردة في أبي حنيفة والشافعي على اختلافها في المدح والذم. وقد قال الفيروزآبادي والعجلوني: ((باب فضائل أبي حنيفة والشافعي وذمّهم ليس فيه شئ صحيح، وكل ما ذكر من ذلك فهو موضوع ومفترى))[2]. وجاء في أسنى المطالب: ((لم يرد في أحد من الأئمة بعينه نصّ لا صحيح ولا ضعيف))[3].

وقد نال صاحبنا نصيبه من الوضع عليه لذلك، فقد جاء عنه مثلاً: ((يكون بعد النبي(صلى الله عليه وسلم) بدر على جميع خراسان يكنى أبا حنيفة))[4]. ولهذا نظائر في الأحاديث..كما يأتي في هذا الباب الكثير من الروايات الواردة في شأن بعض المسائل الكلامية المعروفة، كمسألة خلق القرآن، والقضاء والقدر، وما شاكلها، مما أخذ من تلكم العصور مأخذه

---

(١) التذكار: ١٥٦.

(٢) الغدير ج٥: ٢٨٨ .

(٣) أسنى المطالب -مطبعة مصطفى أحمد، مصر، ط١، سنة الطبع ١٣٥٥هـ- : ١٤.

(٤) مناقب أبي حنيفة للموفق بن أحمد المكي-مطبعة مجلس دائرة المعارف، حيدرآباد، ط١، سنة الطبع ١٣٢١هـ- : ١٨.

من احتدام الجدل والنقاش حوله أخذاً ورداً، حتى أريقت من أجل بعضها كثير من الدماء.

ويأتي في هذا الباب أخيراً الكثير من أحاديث بعض الدخلاء على الإسلام، كالزنادقة والكتابيين، ممن اقتضتهم الظروف أن يتظاهروا في الدخول فيه، والكيد له، بوضع أحاديث تشوّه من قيمته، وتترك التضارب في أحكامه، مما يحدث البلبلة في أفكار أتباعه. وقد صرّح ابن أبي العوجاء الزنديق الشهير قبيل مقتله.. بأنه وضع أربعة آلاف حديث حلّل فيها الحرام وحرّم فيها الحلال[1]. قال ابن قتيبة -وهو يتحدّث عن أسباب اختلاف الحديث ودخول الفساد إليه-: ((منها الزنادقة واحتيالهم للإسلام، وتهجينه بدسّ الأحاديث المستبشعة والمستحيلة))[2].

(**وثالثها**): **سبب ذاتيّ نفعيّ**: ونريد به أن يعمد الواضع إلى الوضع لا لتأييد مبدأ أو سياسة خاصة، بل لإشباع شهوة عارمة في نفسه، أو ستر جانب من جوانب النقص فيها. وهؤلاء كثيرون أيضاً، ولعلهم أكثر من غيرهم، وبخاصة في العصور التي بدأ الناس يتنافسون فيها على الحديث، وبدأنا نسمع المبالغات الواسعة في كثرة الحفظ والرواية، وأصبحت كثرة الحفظ مقياساً من مقاييس الرفعة بين المحدثّين.

وقد بدأ ذلك أول ما بدأ في صدر الإسلام، حين كثرت الفتوح، ودخل في زمرة المسلمين خلق كثير، وكلّهم متشوّق لمعرفة هذا الدين وخصوصياته، وسيرة نبيه الكريم وأحاديثه، وبالطبع كانوا يقصدون في ذلك

---

(١) انظر تأريخ ابن الأثير ج٦: ٣.

(٢) لسان الميزان ج١: ١٣. نقلاً عن ابن قتيبة.

كله إلى كل عارف بها أو متظاهر بالمعرفة، ومـاأكثرهم! وليـس مـن السـهل على غير المتورّع أن يُسأل فلا يجيب، وما أيسر أن يجيب بما يخطر على ذهنه، ناسباً له إلى أحد كبار الصحابة، أو مدعياً لنفسـه المشـاهدة أو السـماع، إن كان مما يتأتـى منه ذلك، تقديراً لمركـزه في نفوسـهم، وتدعيمـاً لشـهرته في الحديث، وقد حدّث المؤرخون أن الخليفة عمر استكثر على أبي هريرة كـثرة ما يرويه عن رسول الله(صلى الله عليـه وآلـه وسـلم)، مـع قصـر المـدة الـتي عاشها معه، وأنكر عليه ذلك[١]. كما حدّثوا أن الخليفة عمر كان يطلب من بعض الصحابة البيّنة على ما يروونه من الحديث[٢]. والإمـام علـي(عليه السلام) كـان -كما قيـل- يحلّـف مـن يحدّثـه بحديـث رسـول الله(صلـى الله عليـه وآلـه وسلم)[٣]. وقـد قـال ابـن عباس: ((إنا كنا نُحدّث عن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) إذ لم يكن يُكذب عليه، فلمـا ركـب النـاس الصعـب والذلـول تركنا الحديث عنه))[٤]. وفي رواية أخـرى: ((إنّـا كنـا مـرّة إذا سمعنـا رجـلاً يقول قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ابتدرته أبصارنا، وأصغينـا إليـه بآذاننـا، فلمـا ركـب النـاس الصعـب والذلـول لم نـأخذ مـن النـاس إلاّ مـا نعرف))[٥]. وقد جاء بعضهم إليه بكتاب فيه أقضية علي(عليه السلام) فمحاه إلاّ قدر ذراع ، وهو ما صح لديه منها[٦].

---

(١) انظر البداية والنهاية ج٨ :١٠٦.

(٢) انظر تأويل مختلف الحديث -الدار القومية، مصر، سنة الطبع ١٣٨٦هـ- :٣٩.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) صحيح مسلم ج١: ١٠.

(٥) المصدر السابق.

(٦) انظر المصدر السابق ج١: ١١.

ويدخل في هذا الباب الكثير مما ورد في مدح العرب أو الفرس، من الأحاديث المنبعثة في وضعها عن العصبيات والنزاع الشعوبي في تلكم العصور.

كما يدخل فيه الكثير من أحاديث القصّاصين، قال ابن الجوزي: ((معظم البلاء في وضع الحديث من القصّاص؛ لأنهم يزيدون أحاديث تثقف وترقّق والصحاح يقلّ في هذا))[١]، وعليه ينزّل الغالب من القصص الواردة في غير القرآن من قصص الأنبياء وغيرهم في العهود البائدة. ونصيب ابن عباس من الوضع عليه في هذه الشؤون كثير، كما تجدون ذلك في الكثير من الكتب المعنية بهذه الأمور.

وخاتمة ما نذكره مما يدخل في هذا الباب، ماوجدناه في بعض الفقهاء من التزلّف إلى السلطان، بتبرير بعض أعماله المنافية لمبادئ الإسلام، من طريق وضع الحديث له، كحديث غياث بن إبراهيم الذي دخل على المهدي ابن المنصور -وكان يعجبه اللعب بالحمام- فروى حديث: ((لا سبق إلاّ في نصل أو خف أو حافر أو جناح)). فأمر له بعشرة آلاف درهم، فلّما قام يخرج قال المهدي: ((أشهد على قفاك أنه قفا كذاب على رسول الله، ثم قال المهدي: أنا حملته على ذلك))[٢].

---

(١) كتاب الموضوعات -مطبعة المجد، مصر، ط١، سنة الطبع ١٣٨٦هـ- ج١: ٤٤.

(٢) المصدر السابق ج١: ٤٢.

مع المستشرقين

والغريب -مع هذه العوامل الداعية للوضع عليه وغيرها ممايناسبها- أن نجد بعض المستشرقين حائرين في تعليل هذا الاضطراب في أحاديثه، وربما ألقى بعضهم على عاتقه تبعة الكذب. ففي دائرة المعارف الإسلامية جاءت هذه الفقرة.. ((فلقد فضحوه بقولهم إنه كذاب غير منصف، وتزييفهم إياه يعود (حقاً) إلى حيلة السياسة))[١].

وما أدري من الفاضح له.. أكان من القدماء المعتمدين أم من المُحدَثين؟!.. أما أنا فلم أجد -في حدود ما رأيت- من ينسبه إلى الكذب وعدم الإنصاف،كيف! وهذه الكتب التي تترجم له لم يرد فيها أيّ طعن من قبيل ذلك عليه، وقد نقل جواد علي عن شبرنكر رميه كذلك بالكذب والبهتان، ثم عقّب عليه بقوله: ((وأنا على يقين أنه لو أعمل عقله، ودرس هذه الأقوال المنسوبة إلى ابن عباس دراسة علمية دقيقة، ولو فكّر في العوامل السياسية التي يمكن أن تكون هي المسؤولة أولاً عن ذلك، وهي لا تدخل في بحثنا هذا في زمننا، أقول: لو فكّر في ذلك وتعمّق في البحث عن هذه الأسباب ما تسّرع في حكمه هذا الذي تخالفه أيسر قواعد الجرح والتعديل))[٢].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية إعداد A.A.RGIBB وآخرون -مطبعة بريل ليدن، سنة الطبع ١٩٦٠م- : مادة عبد الله.

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد١ سنة١: ٢١٢.

والحقيقة أن ابن عباس لم يكن بدعاً من كبار الصحابة في الوضع عليه، ولم يكن الوحيد الذي نسب إليه أقوال مختلفة متضاربة، بل كان -كغيره منهم- عرضة للدس والكذب عليه، فإذا جاز أن يُنسب إلى الكذب لذلك، لم يصحّ بعد ذلك لدينا وجود صادق واحد في السابقين الأوّلين، ممن عرفوا بسعة العلم وكثرة الحديث ؛ لكثرة ما وقع في تأريخهم من اضطراب. وقد يكون صاحبنا أوفرهم نصيباً ، للعوامل التي ذكرناها في هذا الحديث ولكثرة ما شارك في مختلف النواحي الثقافية التي كانت في عصره.

على أنّا -ونحن في بداية الحديث- لا يسوغ لنا أن نتعجّل في إصدار الحكم عليه، قبل أن تستوي لنا دلائله وإماراته، وما يدريك، لعلنا سننتهي فيه إلى غير ما تركّز في أعماقنا عنه، متى عالجنا مختلف نواحي حياته معالجة موضوعية خالصة.

منهج المؤلف

أما كيف سنعالجها؟ وأيّ منهج سنسلك إليها منه، مع هذه الاضطرابات، فيما خلص إلينا من تأريخ حياته وآرائه؟ فذلك ما نتحدّث فيه الآن..

أمامنا بادئ ذي بدء أن نصنّف أحاديثه إلى أصناف، نجعل في الأول منها ما ورد في كتب الثقات من الأحاديث الناهضة بمداليلها، التي لم نجد ما يصلح لمعارضتها من الأحاديث الأخر، ولا من يكذّبها من هواة التمحيص، مع أنها بمرأى منهم ومسمع. كما لم نجد فيها أيّ خروج

على مقتضيات بيئته وعصره. ومثل هـذا الصنف لا نتوقف عن الأخذ بـه والاعتماد عليه.

ويأتي في الصنف الثاني.. أحاديثه المتعارضة في مفاهيمها، وهـذه -بالطبع- لا نأخذ منها إلاّ ما يصحح أسانيده أرباب الجرح والتعديل، ما لم يكن في مداليله ما يخالف العقل، أو يخرج على إجماع المسلمين، أو يتنافى مع ما لعصره أو بيئته من اعتبارات، وإذا وجدنا فيما صحّت أسانيده بعد ذلك تضارباً وتناقضاً عمدنا إلى إعمال قواعد التعادل والتراجيح، من الرجوع إلى الاعتبارات الخارجية، من ملابسات زمنية أوبيئية، أو حوادث جزئية وردت في خفايا التأريخ، لنحكّمها في تقديم بعضها على بعض.

وصنف ثالث يجمع كل ما ندر عن الصنفين السابقين، ومثل هـذا بالطبع لا يكون مصيره غير الإهمال وعدم الأخذ به.

وسنحاول جهد الإمكان أن لا نعتمد من الروايات التي تمسّ بعض النقاط العاطفية في نفوس بعض الفرق من المسلمين، غير ما صح مضمونه لدى الجميع. وما تنفرد بنقله إحدى الطوائف سوف لا نحمّل الطوائف الأخرى بلوازمه، وإذا اطمأننّا إليه أخذنا به وأشرنا إلى جهة الانفراد بنقل الحديث. ولا يفوتنا أن نسجّل أننا سنجتزئ من الحوادث المتشابهة في دلالتها على ناحية من نواحي حياته، بذكر بعضها؛ لنوفّر على القراء شيئاً مما يعطونه لهذا الكتاب من وقت.

أما المنهج الداخلي للترجمة له، فهو قائم على دراسته وعرض حياته منذ بدايتها. وقد وزّعت البحث فيها إلى جزئين..

يبدأ الأول منهما في مسايرته منذ ولادته، والتدرج معه في مختلف أدوار حياته، طفولة، وشباباً، وكهولة، مشيراً إلى كل ما يتعلق بحياته من الحوادث العامة، مما أعتقد بتأثيرها عليه أو تأثّرها به، واضعاً لها في موضعها من سنيّ حياته.

ويبحث الجزء الثاني دراسة شخصيته دراسة سايكولوجية مستقلة، ملتمساً عناصرها الأولية مما يتراءى لنا خلال بحثنا الأول من سلوكه العام، ومن آثاره العلمية والثقافية التي خلصت إلينا من بين عشرات المئات من الأحاديث.

أما بعد.. فهذا بحث شائك لا أدّعي لنفسي أنني وفّيته حقه من درس، وبخاصة وأن مواده الأوّلية لا يمكن استيعابها؛ لتفرّقها في مختلف الكتب، وبعضها لا يتأتّى لمثلي الوقوف عليه. وحسبك أن تعلم أن صاحبنا لا يكاد يخلو من ذكره كتاب إسلامي ألّف في الفقه أو التفسير أو الأدب القديم أو التأريخ. وكل ما هنالك أنها محاولة أضعها بين أيدي الباحثين المنهجيين -ممن هم أقدر مني على البحث والاستقراء والاستنتاج- لتكون نواة لبحوثهم القيّمة في هذا الموضوع.

ولعلي أوفّق إلى إتباعها بجزء ثالث يتكفّل ذكر ما يقع لديّ من أحاديثه، كمسند مستقل يضمّ مختلف آرائه ورواياته في الفقه والأدب والتفسير والتأريخ وغيرها.. إن ساعدني التوفيق.

الفصل الأول

حتى المراهقة

هذه المرحلة

وفي ضوء المنهج الذي تحدّثنا عنه، نبدأ فنصحب في هذا الفصل صاحبنا منذ ولادته إلى زمن مراهقته، ثم نستأنف الصحبة معه من جديد..

وهذه المرحلة هي التي يعدّها السايكولوجيون أخطر مراحل الحياة وأكثرها تأثيراً في تلوين الصورة التي يطبعها الزمن للشخص، وعليها يتوقّف حلّ مستقبله، وإليها تعود جملة من المؤثرات الفعّالة في تكوين نواة الشخصية الثابتة له ، وفيها أكثر من غيرها تتظافر العوامل الوراثية والبيئية على خلقها وتطوّرها، وربّما تنافرت فحوّلت صاحبها إلى مصطرع زاخر بالعقد والانفعالات.

فاجتياز هذه المرحلة مع صاحبنا يستدعينا أن نتمهّل في السير؛ لندقّق النظر في ملابسات بيئته، ونلتمس علاقتها بماورثه عن آبائه من صفات. على أن الفصل بين عوامل البيئة وعوامل الوراثة من الصعوبة بمكان؛ لما يؤثر عن العلم من التوقّف في إعطاء كلمته الأخيرة في هذا الموضوع. كما أن تحديد موروثاته كمّاً وكيفاً لا يخلو من صعوبة، فكم يرث الولد من أبيه؟ وكم تورّثه أمه؟ وماذا ينقلون إليه عن أبويهما أو أجدادهما؟ وما هي نوع الصفات الموروثة؟ وهل تورّث الصفات المكتسبة؟ كل ذلك لم يُبتّ به حتى الآن. وإن كنت أعتقد برجحان ما يقوله بعض العلماء من أن الغرائز الفطرية موروثة، والذكاء موروث، وبعض الصفات المكتسبة إذا اتخذت في صاحبها

طابع الثبوت والاستقرار، وتحوّلت فيه إلى شبه غريزة، فهي موروثة أيضاً. كما أن كثيراً من الصفات الفسيولوجية مما تورّث عادة.

وليس من المصادفة البحتة -فيما أعتقد- أن يتفق حلّ البيت الهاشمي في الوسامة والجمال والكرم والشجاعة والذكاء وسلامة النفس والجاذبية والغيرية ونظائرها، ثم ليس من المصادفة البحتة أيضاً أن يقترب صاحبنا من أبيه -كما ينصّ المؤرخون- في الطول والجمال -وكما رأيناه من تأريخهما- وفي الذكاء والعقل وحسن الخلق وغيرها.

وربّما لا تساعف المصادفة أن يصاب عبد الله وأبوه وجده بالعمى وهم في أسنان متقاربة، وقد تكون متّحدة، وربّما يعزوها من يعزوها إلى عامل الوراثة التي يطلق عليها العلماء اسم الوراثة المتّحدة الأزمنة. وليس لنا أن نبتّ الآن في ذلك، فربّما عثرنا في موضعها على عوامل نفسية أو عوارض خارجية أثّرت أو ساعدت على ذلك. على أن الذي يقتضينا الآن هو أن نعرض إلى بعض الصفات البارزة في أبويه، لنعرف منها بعض صفاته الموروثة من أبويه أو المكتسبة منهما، بحكم تشكيلهما لبيئته الأولى، وتأثيرهما في أكثر مراحل حياته وبخاصة المرحلة التي عقد هذا الفصل للتحدّث عنها.

أبـواه

وأبوه هو أبو الفضل العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد منـاف، وأم العباس نثيلة بنت جناب بن كليب[١]، وهـي أول عربيـة كسـت الكعبـة بـالحرير والديبـاج وأصنـاف الكسـوة[٢]. وقـد ولدتـه قبـل أن يولـد النـبي (صلى ا لله عليه وآله وسلم) بسنتين، وقيل بثلاث[٣]، ونشأ كما ينشـأ لِداتـه من بني هاشم في بيت عـز ومنعـة ونجـدة، وكـانت لـه زعامـة في قريـش في الجاهلية، كما كانت له السقاية والعمارة في بيـت ا لله الحـرام[٤]، ولـه مـن ثروتـه ووجاهته ووسامته وعقله وتدبيره مـا يؤهّلـه لكـل ذلـك.

أسلـم -فيمـا يرويـه غلامـه أبـو رافـع[٥]، وولـده عبـد ا لله[٦]- قبـل واقعة بدر، وقبل أن يهاجر، وأُوكل إليه مهمة حماية بعـض المستضعفين مـن المسلمين من عاديـة خصومهـم مـن المشـركين، وكـان بمنزلـة العـين لرسـول ا لله(صلى ا لله عليه وآله وسلم) على قريـش.. يوافيـه بأخبـارهم ويكتـب لـه

---

(١) انظر طبقات ابن سعد -مطبعة ليدن، سنة الطبع ١٣٢٥هـ- ج٤ قسم١:١.

(٢) انظر الاستيعاب -هامش الإصابة- ج٣: ٩٤.

(٣) انظر أسد الغابة -المطبعة الوهبية، مصر، سنة الطبع ١٢٨٠هـ- ج٣: ١٠٩.

(٤) انظر المصدر السابق ج٣: ١٠٩.

(٥) انظر المستدرك على الصحيحين -مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، ط١، سنة الطبع ١٣٣٤هـ- ج٣: ٣٢٣.

(٦) انظر طبقات ابن سعد ج٤ قسم١: ٢.

بكل ما تجدّ لديهم من أمور(١)، وله من كتمان إسلامه ما يعينه على أداء هاتين الوظيفتين.

وقد كتب إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يطلب إليه الإذن بالهجرة، فأبى عليه(صلى الله عليه وآله وسلم) وأمره بالإقامة بمكة لحاجة في إقامته هناك(٢). وأخرجه المشركون معهم إلى بدر كرهاً، وأسر فيمن أسر وعامله(صلى الله عليه وآله وسلم) معاملة المشركين(٣) إتماماً لتأدية مهمته عندما يعود إلى مكة.

وقد قيل في إسلامه غير ذلك.. فهو لدى بعضهم أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه إلى أن أسر ببدر فأظهر إسلامه(٤)، ولدى آخرين أنه أسلم بعد واقعة بدر(٥)، ولدى غيرهم أنه أسلم قبل حادثة خيبر(٦).

والذي أقرّبه هو الثاني، وأقرّب أن يكون قد أظهر إسلامه في أحد هذه الأوقات، ويكون ذلك بمنزلة الجمع بين الأقوال، وإلاّ فمن البعيد جداً أن يقف العباس من ابن أخيه هذه المواقف المشرّفة من أخذه للبيعة على الأنصار(٧)، ومناصرته للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكثير من المسلمين في أكثر من موقف، وهو مع ذلك غير مؤمن به.

---

(١) انظر الإصابة في تمييز الصحابة ج٢: ٢٧١.

(٢) انظر أسد الغابة ج٣: ١١٠.

(٣) انظر المصدر السابق ج٣: ١٠٩.

(٤) انظر تهذيب تأريخ ابن عساكر ج٧: ٢٢٩.

(٥) انظر الإصابة في تمييز الصحابة ج٢: ٢٧١.

(٦) انظر نكت الهميان - لم تذكر الطبعة، لم تذكر سنة الطبع- : ١٧٦.

(٧) انظر طبقات ابن سعد ج٤ قسم ١: ٢.

وعقيدتي أن أُسرة النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) -إلاّ من شذّ منهم- لم تجد بُداً من انشطارها إلى قسمين، يؤيد أحدهما النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) ويعلن إسلامه، ويقف الآخر في جنب المشركين؛ ليخذّل في صفوفهم من طريق غير مباشر. وكان العباس وأبو طالب من الشطر الثاني، كما كان علي وجعفر وحمزة من الشطر الأول.

وليس من الحزم أن تقف هذه الأسرة متكاتفة مجتمعة فتُعَرّض نفسها ودعوتها لعصبيات قريش، وربّما اعتبرت دعوتها قبلية صرفة، وعندها تفقد طابعها الإصلاحي العام، ويكون نجاحها لذلك بطيئاً ومحدوداً جداً.

و لم يهاجر العباس إلاّ بعد فتح خيبر[1]، وبعد أن أنهى مهمته في مكة و لم يبق لها موضوع، وشهد مع النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) فتح مكة وحُنيناً، وكان أحد القلائل الثابتين بعد هزيمة أصحابه[2]، كما شهد بعد ذلك بقية مَشاهده كلها. وللنبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) فيه كلمات تدلّ على منتهى عطفه عليه، وترفعه إلى مكانة قلّما يبلغها أحد من الصحابة[3].

وكان من جملة الهاشميين الذين انضموا إلى علي(عليه السلام) في حياة النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) وبعد وفاته. و لم يبايع لذلك أبا بكر رغم

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج٤ قسم ١: ١١.

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر المستدرك على الصحيحين ج٣: ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٢٩.

محاولاته الواسعة في هذا السبيل[1]، وقد كان له نشاط ملحوظ في شأن الخلافة.. سنلمس خطوطه في موضعه من هذا الحديث.

ومن الملاحظ أن معارضته للسلطة لم تؤخّر مقامه في نفوس الخلفاء الثلاثة، بل كانوا يراعونه ويكرمونه ويخصّونه -لمكانته من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولقوّة شخصيته- بمكانة ممتازة قلّما يطمع بها أحد. فكانوا يترجّلون له إذا رأوه وهم راكبون إجلالاً له[2]. وقد استسقى به عمر في عام الرفادة وتشفّع به إلى الله[3].

توفي في أيام عثمان سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة[4]، بعد أن فقد بصره، وقيل سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة، وقيل سنة أربع وثلاثين من الهجرة[5]، واشترك في تغسيله الإمام علي(عليه السلام) ودُفن بالبقيع[6] وله من العقب: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن، وقثم، ومعبد، وكثير، وتمّام، والحارث، وأم حبيبة، وصفية، وأميمة[7]

---

(١) انظر الإمامة والسياسة ج١: ١٤-١٥.

(٢) انظر البداية والنهاية ج٧: ١٦٢.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ج٤ قسم١: ١٩.

(٤) انظر نكت الهميان: ١٧٨.

(٥) انظر تأريخ خليفة بن خياط-مطبعة الآداب، النجف، ط١، سنة الطبع ١٣٨٦هـ-ج١: ١٤٤.

(٦) انظر تهذيب تأريخ ابن عساكر ج٧: ٢٥٠.

(٧) انظر طبقات ابن سعد ج٤ قسم١: ١-٢.

أمـه

أما أمـه، فهي أم الفضل لبابة بنت الحارث بن حزن الهلالية[١]، إحدى مفاخر النساء في بني هلال، وأسرتها من الأسر العربية الثرية بأمجادها، ولها في آبائها أبطال لامعون. وحسبنا عـن مكانـة بيتهـا تسـابق أشـراف العـرب إلى مصاهرته، والعرب -كما تعلمـون- لا تصـاهر غـير الأكفـاء، فهـذا العبـاس -وهو من سادات قومه- يتزوج بلبابـة، وهـذا الوليـد بـن عقبـة سـيد قبيلتـه يتزوج بأختها العصماء، وتحظـى ميمونـة أختهـا الثالثـة بـالزواج مـن رسـول ا لله(صلى ا لله عليه وآله وسلم)... وهكذا.

سارعت إلى الإسلام فكانت أول امـرأة عربيـة تسـلم بعـد خديجـة[٢]، وتحـمّلت في سبيل إسلامها نصيبها من العنت والضيق، مع مـن تحمّلـت مـن نساء الهاشميين اللواتي حوصرن مع أزواجهن في الشعـب، وتولّت حماية بعـض الضعفاء من المسلمين، فهذا أبو رافع غلام العباس يقع بعد واقعة بـدر فريسـة لأبي لهب، فتحمل عموداً من عُمد الحجرة وتتحامل عليه فتشج رأسه شـجّة منكرة، وهي تقول: ((اسـتضعفته أن رأيـت سيده غائبـاً))، يقـول الـراوي: ((فقام ذليلاً يجـرّ رجليـه جـراً و لم يـبق بعدهـا غـير سـبعة أيام أصيـب فيهـا بالعدسة ومات))[٣].

---

(١) انظر أسد الغابة ج٣: ١٩٣.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ج٨: ٢٠٣.

(٣) المستدرك على الصحيحين ج٣: ٣٢٢.

وكان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يحبّها حبّاً جماً، فكان يقيل عندها يوم كان بمكة ويزورها، وعاود ذلك بعد هجرتها إلى المدينة، فكان يزورها ويأتي بيتها كثيراً[١]، وقد قالت له(صلى الله عليه وآله وسلم) -كما في كتاب طبقات ابن سعد ضمن حديث-: ((إن الله نعاك لنا، فلو أوصيت بنا من يكون بعدك، إن كان الأمر فينا أو في غيرنا، قال: إنكم مقهورون مستضعفون بعدي))[٢]، ونرجو أن نحتفظ بهذه الرواية لما فيها من كشف عن مدى اهتمامها بشأن الخلافة، فربّما ألقت بعض الأضواء على مفتاح عقدة سنلمسها في نفس ولدها بعد حين..

وقد شهد(صلى الله عليه وآله وسلم) لها ولأخواتها بالإيمان بقوله -وقد ذُكرن عنده-: ((إن الأخوات لمؤمنات))[٣]، وكانت في الحقيقة مثال المرأة المؤمنة الصالحة، وقد حدّث عنها ولدها أنها كانت تصوم من كل إسبوع يومي الإثنين والخميس[٤].

تزوجت العباس فأولدها الفضل وعبد الله وعبيد الله وقثم وعبد الرحمن ومعبد وأم حبيبة. وفيها وفي زوجها وأولادها يفخر يزيد بن عبد الله شاعر بني هلال..

((ما ولدت نجيبة من فحل   بجبل نعلمه وسهل
كستّة من بطن أم الفضل   أكرم بها من كهلة وكهل))[٥]

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج٨: ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) طبقات ابن سعد ج٨: ٢٠٣.

(٤) انظر المصدر السابق.

(٥) طبقات ابن سعد ج٤: ٢.

((عمّ النبي المصطفى ذي الفضل   وخاتم الرسل وخير الرسل))[١]

وفي كتاب طبقات ابن سعد أنها أرضعت الحسين(عليه السلام) بلبن قثم[٢].

توفيت قبل وفاة زوجها، في أيام خلافة عثمان[٣]، وقد أُثر عنها أحاديث رواها ولدها عبد الله وتمّام وكريب مولى ابنها وغيرهم[٤].

ولادته

وكانت ولادته في الشّعب، وقد حُمِلَ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فحنّكه بريقه، وكان هو الوحيد الذي حصل على هذا الشرف منه(صلى الله عليه وآله وسلم) كما يقول مجاهد[٥].

واختُلف بعد ذلك في مولده.. فقائل أنه ولد قبل الهجرة بثلاث[٦]، وآخر يقول ولد قبلها بخمس[٧]، وثالث بسنتين[٨]، ورابع يدّعي أن ولادته كانت عام الهجرة[٩]. ولكل من هذه الأقوال سند من مأثوراته، والأخير

---

(١) الاستيعاب ج٤: ٢٩٩.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ج٨: ٢٠٤.

(٣) انظر الإصابة في تميز الصحابة ج٤: ٤٨٤.

(٤) انظر المصدر السابق ج٤: ٤٨٣.

(٥) انظر البداية والنهاية ج٨: ٢٩٥.

(٦) انظر الاستيعاب ج٢: ٣٥١.

(٧) انظر الإصابة في تميز الصحابة ج٢: ٣٣٠.

(٨) انظر دائرة المعارف الإسلامية: مادة عبد الله.

(٩) انظر البداية والنهاية ج٨: ٢٩٥.

لا يلتئم مع ولادته بالشِّعب،وهو ماصحّ لدى أكثر المؤرخين،كما لا يلتئم مع ما صحّ من أحاديثه القائل بعضها: ((قُبض رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وأنا ختين))[١]، وبعضها ((وقد ناهزت الاحتلام))[٢]،وما شابهها من الأحاديث،بالإضافة إلى أن بعض قضاياه مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن يناسب صدورها من ابن عشر عادة، والذي عليه الواقدي والزبير بن بكار وغيرهما من أهل العلم بالسِّيَر هو الأول منها[٣]، ويناسبه حديث مناهزته للاحتلام عند وفاة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، والقول الثاني ليس ثمّة ما يمنعه، وقد ورد عن سعيد بن جبير، ويؤيده ما ورد في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: ((قُبض رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وأنا ختين))[٤]،وكانوا -فيما تُحدِّث بعض الروايات- لا يختنون الرجل حتى يدرك[٥]،وجاء عن سعيد بن جبيرعنه:((توفي رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وأنا ابن خمس عشرة))[٦]، وليس ما يمنع القول الثالث لنفس الاعتبارات، وتحقيق ذلك ليس بمهم ما دام تقديم سنة وتأخير أخرى لا يغيّر في مجرى حياته مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا يؤخّر في الحكم له أو عليه، وحسبنا الآن أن نعتمد القول الأول ما دام جلّ أهل العلم بالتأريخ والسِّيَر يقدّمونه على غيره ويعيّنونه من بين هذه الأقوال

---

(١) الاستيعاب ج٢: ٣٥١.

(٢) ذخائر العقبى:٢٢٦.

(٣) انظر الاستيعاب ج٢: ٣٥١.

(٤) الاستيعاب ج٢: ٣٥١.

(٥) انظر المصدر السابق.

(٦) المعرفة والتأريخ -مطبعة الإرشاد، بغداد، سنة الطبع ١٣٩٤هـ- : ٥١٥.

حتى قال الواقدي: ((لا خلاف عند أئمتنا أنه ولد بالشّعب حين حصرت قريش بني هاشم، وأنه كان له عند موت النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاث عشرة سنة))[١].

وهنا تبرز الكثير من الروايات التي تحيط ولادته بملابسات غير طبيعية ؛ لتمهّد لأولاده -بعد حين- إدعاء تبشير النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بهم وبخلافتهم، وبالمهدي منهم، وما شابه ذلك، وليس بينها ما يسلم من مؤاخذات أرباب الجرح والتعديل، وقد تركنا التعرّض لعرضها ومحاكمتها احتفاظاً بوقت القارئ الكريم.

الطفولة المبكرة

ونشأته وحياته قبل الهجرة لا تختلف -فيما أعتقده- عن نشأة وحياة أيّ فتى مثله، يولد في مكة وينشأ في حضني أبوين كريمين موسرين من أسرة كريمة لها زعامة في بيئتها ومركز قوي فيها. فهي لابدّ أن ترعى ما أورثته من قابليات واسعة، وتكيّفها حسبما تقتضيه بيئتها الخاصة ومستقبل الصبي. وقد خلّف لنا التأريخ في حناياه بيتين من الشعر كانت أمه ترقّصه بهما، وهما يشيران بوضوح إلى نوع تلك الرعاية..

ثكلت نفسي وثكلت بكري   إن لم يسد فهراً وغير فهر
بالحسب العدّ و بذل الوفر   حتى يوارى في ضريح القبر[٢]

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج٢: ٣٣٠.

(٢) انظر أمالي القالي -مطبعة السعادة، مصر، ط٣، سنة الطبع ١٣٧٣هـ- ج٢: ١١٤.

فهي -كما ترون- لا ترضى لوليدها في مستقبله أن يكون كسائر الناس، بل تريد له السيادة العامة لفهر وغير فهر، وإلاّ فهي تدعو على نفسها وعلى بكرها بالثكل إن لم يتحقق له ذلك، وقد عينت له أسباب السيادة، فهي تريد له أن يسودهما بالحسب الكثير، وبذل الوفر، وما كان يدور في حُسبانِها أنه سيسود ولكن ليس بهما فحسب، بل بالعلم الوافر والأدب الجم، حتى يُزاحم بهما تيجان الملوك والأمراء.

وليس بعد ذلك ما يشير إلى نوع تربيته، ومدى تكيّفه بالبيئة الداخلية والخارجية له، على أن التأريخ لم يعوّدنا البحث عن طفولة من يعنى بهم من الناس، ولعل ذلك يعود إلى التشابه في حيواتهم عادة، وليس فيها ما يلفت نظره ليخصّها بكثير من الحديث، وما كان يحسب أن حادثة بسيطة يكفي أن تمر بحياة طفل لتوجّه مستقبله جميعاً، وربّما كانت كافية لوضع يد الباحث الحديث على مفتاح شخصيته في تمام أيام حياته.

وما أدري.. أنستطيع أن نستخرج صورة تقريبية لحياته في هذه الفترة.. أعني فترة إقامته بمكة قبل أن يهاجر مع أبويه- وهي فترة تمتد بنا إلى ما يقارب العشر سنوات- نرجو أن نحاول ذلك مستعينين عليه بما نعرفه عن أسرته الخاصة، وهي التي تشكّل بيئته الداخلية، وعن محيطه العام، ثم بما يقوله أرباب الاختصاص من علماء النفس في تحديد خصائص أمثاله من الأطفال وهم بهذه الأسنان.

يقسّم علماء النفس مراحل الطفولة إلى ثلاث(١):

---

(١) انظر أسس الصحة النفسية -مطبعة النهضة،ط:٤،سنةالطبع١٣٧١هـ-:١٥٠-١٥٣.

١- من المهد: ولايهمنا الحديث عنه الآن؛ لأن صاحبنا -فيما نعتقد- لم يكن يختلف عن غيره من الأطفال، ولا أقلّ من أن الأضواء على هذه الفترة معدومة لدينا نهائياً.

٢- الطفولة الأولى: وهي تنتهي تقريباً في سن الخامسة، ويمتاز صاحبها عادة بالميل إلى الحركة واللعب وإحداث التجارب في الأشياء المحيطة به. ويعلّلون ذلك بأن العالم جديد بالنسبة إليه، فهو يميل إلى فهمه بتجاربه الشخصية، ولا يقتصر نشاطه -على اختلاف ضروبه- على تعامله مع البيئة المادية بل يتعداها إلى الأشخاص من سلطة وزملاء، وبذلك يفهم غيره ونفسه فهماً أولياً، ويكوّن له فكرة عن ذاته وفرديته من طريق التقليد وتقمّص السلطة المحيطة به ؛ ولذلك تجده في هذه المرحلة شديد التقليد، كثير اللعب التمثيلي أو الإيهامي الذي قد يعوضه عما يشعر به من نقص في الواقع، عندما يجد نفسه ضعيفاً عن أكثر ما يحيط به من أشياء.

وهذه المرحلة كسابقتها قليلة الأضواء الكاشفة، وإن كنت أخال أن أسرته قد وفّرت لديه أدوات اللعب ومكّنته من الاتصال بمن يناسب بيتهم من أشراف قريش، وهي بثروتها وكرمها وحسن تربيتها لابدّ أن تدفع عنه كثيراً من العقد، التي تنتاب أبناء الفقراء عادة في البيئات التي تجمع بين الأغنياء والفقراء في صعيد واحد، وذلك بما توفّر له من الرفاهية المعاشية وتهيئة وسائل اللهو والارتياح.

٣- الطفولة المتأخرة: وهي تنتهي تقريباً بسن الثانية عشرة، وتمتاز بإتقان للخبرات والمهارات اللغوية والحركية والعقلية السابق اكتسابها، وبهذا ينتقل الطفل تدريجاً من مرحلة الكسب إلى مرحلة الإتقان، كما تمتاز

باهتمامه بالأشياء الخارجية، من حيث كونها موضوعات متميزة عن ذاته، ثم اهتمامه بملاحظة ما يدور حوله بعناية، وبذلك يحاول تحقيق التوازن بين نزعاته الذاتية والموضوعية.

ويحاول بعض الباحثين تقسيم هذه المرحلة إلى قسمين.. يبدأ أولهما من سن الخامسة إلى الثامنة، وفيها تبدأ زيادة اتصاله بالعالم المحيط به، ومحاولة تفهّم عناصره المادية والاجتماعية. وهذه المرحلة بالنسبة إلى صاحبنا مهمة جداً، فهو بحكم اتصاله بعالمه الخارجي ومحاولة تفهّمه، لابدّ أن يكون قد سمع عن الدين الجديد كثيراً، وعرف عن مبادئه كثيراً، ولاحظ من نضال أمه وأخيه، ومن يمتّ إليه بصلة المبدأ -لمن يخالفهم من جوارهم وأبنائهم- الشئ الكثير، ولعلّه سمع عن موقف قريش من أتباعه المؤمنين به بوجه عام، ومن قبيلته الخاصة يوم حاصروهم بالشّعب، وضربوا عليهم الضائقة الاقتصادية في أيام ولادته بوجه خاص. ثم سمع عن موقف قريش من أبيه وأولاد عمه يوم أخرجوهم إلى حرب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كرهاً في بدر، ثم موقف النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) منهم من معاملتهم، مع إظهار مدى عطفه على أبيه.. إلى ما هنالك من ملابسات المبدأ الجديد التي تهمّ أمثاله عادة.

وقد كان -بالطبع- حديث الدعوة، وتتبّع كل ما يتعلق بها من أحداث هو شغل أسرته الشاغل، بل شغل جميع من يتصل بهم بمكة، فهم لا يفتؤون يتحدثون عنها صباح مساء، وفي تقدمها يومياً في صفوف العرب بالفتوح والغزوات من ناحية، وتهافت أهل العقول منهم عليها من ناحية أخرى ما يقدّم للمتحدثين مادة واسعة لملء الوقت بالكلام، فهو -عادة-

يسمع حديثها في البيت، ويسمع حديثها خارج البيت، وربّما كوّن له الحديث عنها صورة لصاحبها تلحقه بأبطال الأساطير.

وأيّ طفل بهذه السن،وبهذا الذكاء والتطلع -الذي سنلمس درجتهما العالية فيما يأتي من حديث- يسمع عن قريب له مثل هذه السلطة والنفوذ، ومثل هذه المواقف البطولية الواسعة فلا يرسم له تلك الصورة الرائعة، ولا يتأثرها ويهتم بها، وتأخذ من وقته أكثره تفكيراً وتحدثاً، وربّما ولّدت له أزمات بينه وبين رفاقه من أبناء المشركين، ممن لا يهشّون إلى مثل هذا الحديث، وقد يكون فيهم الموتور بأبيه أو بأخيه. وما يدريك لعلها تتجاوز بعض الأحيان حديث الكلام إلى غيره من السُباب وشبهه، وربّما طغى حديثها على ما يعتادون مزاولته من ألعاب فهجروها إلى النزاع والشّجار والعِراك.

وهذه المرحلة عادة تمتد إلى المرحلة الثانية، التي تبدأ من التاسعة إلى الثانية عشرة، وفيها تبدأ القوى العقلية من تفكّر وتذكّر وانتباه بالنضج والاستواء، ويشتد ميله للكشف والمعرفة والتحوّل والمخاطرة والمصادقة، ويكثر اهتمامه بالعالم الخارجي من مواد وأشخاص كثرةً لم يسبق لها مثيل. وبالطبع يكون صاحبنا في هذه المرحلة أكثر اهتماماً بشأن مبدئه، وأكثر محاولة لتفهّمه وتعقّله وأشدّ تعصباً له، وقد كان يواجه الحديث عنه أينما يذهب، ويسمع النقاش والنزاع حوله بين أتباعه ومناوئيه على الدوام، كما يسمع الأنباء تتواتر بانتشاره وانتصاره في أغلب المواقع. وربّما كانت تتواتر على سمعه مواقف ابن عمه علي عليه السلام الخارقة للعادة، وانتصار المسلمين به في أكثر من موقع، مما يكون عادة من بواعث إكباره والتشوّق إليه.

وما أدري كيف استقبل نبأ قدوم ابن عمه صاحب الرسالة، ومعه ألف وأربعمائة من أبطال المسلمين للعمرة[1]؟ وما هي الأخيلة التي ساورته قبل التقائه؟ وماذا أعدّ لمواجهته؟ ثم ما هي أنواع الانفعالات التي أعقبتها عندما علم بأن قريشاً لم تسمح له بالدخول، ولم يؤذن هو بقتالها. وكان ما كان من أمر الصلح والعودة من حيث أتى، وبماذا واجه رفاقه من أبناء المشركين؟ وكيف قابل ارتياحهم بمنع ابن عمه من العمرة والدخول إلى مكة أو أيّ أثر تركه ذلك في نفسه؟.

الذي أخاله أنه تأثّر لذلك كثيراً، واهتمّ له كثيراً، وبقي ينتظر الساعة التي يعود بها إلى مكة منتصراً لينتقم لنفسه من هؤلاء الشامتين به. ولكن الزمن قد طال به، وفوجئ بخبر الحجّاج بن علاّط السُّلميّ، وهو يطوف بمكة وحوله مشركو قريش، يبشرهم بهزيمة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في خيبر وأسره وقتل أصحابه، ويستحثهم على جمع ديون له كانت في أعناقهم ليدرك بها خيبر قبل أن يسبقه إليها التجار، ويشتري من فرار محمد وأصحابه[2]. ولم يكن ذلك مفاجأة له فحسب، بل لجميع المسلمين بمكة، فقد غمّهم ذلك غماً شديداً، وبخاصة أبوه العباس، فقد حدّثوا عن حزنه وارتباكه بأنه فتح بابه وأخذ ابنه قثماً وجعله على صدره، -وكان يشبه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)- وهو يردد من دون شعور..

يا قثم يا قثم   يا شبه ذي الكرم[3]

---

(١) انظر تأريخ الطبري -المطبعة الحسينية، مصر، ط١، سنة الطبع ١٣٢٦هـ- ج٣ :٧٢.

(٢) انظر المصدر السابق ج٣: ٩٦-٩٧.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ج٤ قسم١: ١٠.

ولكنّ أثر الصدمة لم يطل، فقد اختلى العباس بالحجّاج، فأخبره بأن هذه حيلةجاء بها الى مكة؛ليستنقذ ماله، وأن النبي(صلىا لله عليه وآله وسلم) قد فتح خيبر وظفر بأهلها وبأموالهم[1]، ولعله حدّثه عن خصوصيات الفتح، وأخبره عن وقوعه على يد علي(عليه السلام)، بعد أن رجع غيره عنها منكفئاً، وأن النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) قال -وقد ساءه رجوع سواه بالراية منهزماً-: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ ا لله ورسوله يفتح ا لله على يديه ليس بفرار))[2]، ثم أخبره عن موقفه من سيدهم مرحب ومن الباب التي قلعها وتترّس بها.. إلى غير ذلك من شؤون الفتح[3]. وبالطبع فقد سارع العباس إلى أهله، وجمعهم حوله، ثم حدّثهم بكل ذلك، ولابدّ أن يكون ذلك الحديث قد لفت هذا الطفل وأصغى إليه بكل جوارحه، ولفته منه على الخصوص موقف ابن عمه البطولي، وما فيه من غرائب لا يتسنّى وقوعها لأكثر الشجعان. وإن حديث القضايا الغريبة مما يستهوي من هم بسنّه أكثر من غيرهم. وما يدريك لعله وجد فيه صدى لما يملأ شعوره بالعزّة، بعد أن جرحه من رفاقه هزء الهازئين، وقد يكون خرج مع أبيه حين تطيّب ولبس أحسن ثيابه، وطلع على قريش في البيت فطاف بالكعبة واستقبله منهم الشامتون، فقال قائلهم:((يا أبا الفضل هذا وا لله التجلد لحر المصيبة قال: كلا وا لله الذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وتُرِكَ عروساً على بنت ملكهم

(١) انظر تأريخ الطبري ج٣: ٩٦.

(٢) سيرة ابن هشام -مراجعة محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، مصر، لم تذكر سنة الطبع- ج٣: ٣٨٦.

(٣) انظر المصدر السابق ج٣: ٣٨٧.

وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه))[١]. ثم جلس لتقبل التهاني من المسلمين.

وقد قيل: إن العباس هاجر بعد هذه الحادثة إلى المدينة، وأعطاه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فيمن أعطى من المسلمين من غنائمها[٢]، ولعله هاجر وحده -إن صحت هجرته- ثم عاد إلى حمل عائلته بعد ذلك، وربّما كانت عودته مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عندما جاء معتمراً في ذي القعدة من هذه السنة -أعني السنة السابعة من الهجرة- ومعه ألفا فارس من فرسان المسلمين.

ولك أن تحدّث ما شئت عن شعور صاحبنا وقد استقبل ابن عمه بعد ذلك الشوق الأكيد، ورآه بتلك القوة والمنعة، ورأى فيه ما يملأ نفسه شعوراً بالعز والكرامة. وبالطبع كان استقبال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) له ولأسرته استقبالاً يطغى عليه الشوق والعطف الواسعين، وبخاصة بعد ذلك الفراق الطويل، وما أدري أكان بهذه السفرة ما حدّثوا عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان يجمع صاحبنا وأخويه عبيد الله وكثيراً ثم يصفّهم بعيداً عنه وهو يقول: ((من سبق إليَّ فله كذا فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبّلهم ويلتزمهم))[٣].

وقد شاهد خالته ميمونة وهي تُزفّ من قِبَل أبيه إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان يأمل -بالطبع- أن يشاهد مراسيم

---

(١) سيرة ابن هشام ج٣: ٤٠٠، وانظر طبقات ابن سعد ج٤ قسم١: ١٠.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ج٤ قسم١: ١٠.

(٣) أسد الغابة ج٣: ٢٤٠.

الزواج، ويحضر الوليمة التي وعد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بها قريشاً إن تركوه يبني بزوجته في مكة، ولكنّهم أبوا عليه ذلك، فاضطر للنزول على عهدة أن لا يبقى أكثر من ثلاثة أيام.. ثم ارتحل عنهم بأصحابه[1]، وأبقى اللوعة في نفس عبد الله وغيره من أُسرته على فراقه.

وبقي عبد الله ينتظر الساعة المباركة التي يتم بها الالتحاق برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والهجرة إلى المدينة، و لم تطل كثيراً فقد بدأت أُسرته تتهيأ للسفر وبدأ هو يهيئ جوّه لملاقاة أسعد الفرص، وبعد أشهر من سفر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان له ما أراد.

العودة إلى مكة

وما كان يدور بحسبانه أنه سيعود إلى بلده قريباً، ويعود مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فاتحاً لمكة، مسيطراً عليها، قامعاً لأصنامها، فقد قُدّر له ولأُسرته أن تلتقي النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ببعض الطريق، ومعه عشرة آلاف من المسلمين، وهم بأعظم عُدّة، وقد قصد بهم إلى مكة ليتولّى فتحها بعد أن نقضت قريش العهود.

قال ابن هشام: ((ولقيه -يعني العباس- بالجحفة مهاجراً بعياله، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله عنه راض))[2].

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٣: ١٠٠ -١٠١.

(٢) سيرة ابن هشام ج٤: ١٨.

وكم كان سرور صاحبنا عظيماً ساعة رأى زعيماً من زعماء المشركين وكبير قوادهم في يوم الأحزاب مستخذياً أمام قوة الإسلام ولائذاً بأبيه، يستجير به من عادية المسلمين، وقد أردفه أبوه خلفه على بغلة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتعهّد له بالحماية حتى أدخله على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وعمر يتهدده بالقتل، ثم موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبول حمايته، وقوله له: ((إذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به))[1]. ويبيت في رحل العباس بمرآى من ابنه وأخوته ولابدّ أن يكون حديثهم في تلك الليلة قد ملأ نفسه نشوة وارتياحاً عظيمين، فقد كان -في طبيعة الحال- منصبّاً على ما بلغه الإسلام من العز والمنعة، وما أدري أسُر صاحبنا بعد ذلك لدخوله في الإسلام مرغما بعد تلك المحاورة بينه وبين النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم بينه وبين أبيه في صبيحة تلك الليلة، فقد حدّثوا عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال له: ((ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلاّ الله.

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً. قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله. قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!. أمّا هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. قال العباس: ويحك أسلم قبل أن تُضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق، ومنّ عليه رسول الله بالعفو، وجعل له (من دخل داره فهو آمن) .

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤: ٢٢.

ثم أمر رسول الله عمه بأن يحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، لتمرّ به جنود الله فيراها)).

وهنا نترك الحديث للعباس، ليحدّثنا عن انطباعات صاحبه عن جنود الله. وما أدري أكان معه ولده ليلتمس أثرها على صفحات وجهه؟ أم حدّثه بعد ذلك أبوه -فيمن حدّث من الأُسرة- فسُرّ لاستخذائه أعظم سرور.

قال العباس: ((فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله أن أحبسه، قال: ومرّت القبائل على راياتها كلما مرّت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟، فأقول: سُليم، فيقول: مالي ولسُليم!!، ثم تمرّ القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة!!، حتى نفذت القبائل، ما تمرّ قبيلة إلاّ يسألني عنها، فإذا أخبرته قال: مالي ولبني فلان، حتى مرّ رسول الله(صلى الله عليه وسلم) في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلاّ الحدق من الحديد فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟!، قال: قلت: هذا رسول الله(صلى الله عليه وسلم) في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!، قال : قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة -وكأنه نسي أنه كان قد أسلم قبل قليل- قال فنعم إذاً))(١).

وسار النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مكة بهذه الجيوش، وسار معه عمّه العباس، وسار معهم صاحبنا الصغير فيمن سار من أُسرة العباس،

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤ : ٢٢ -٢٣.

وراية النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مع سعد وهو يردد بزهوة الفاتح: (اليوم يوم الملحمة اليوم تُستحلّ الحُرُمة)(١)

ويفزع رجل من المهاجرين إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ويبلغه بمقالة سعد بن عبادة، فيأمر(صلى الله عليه وآله وسلم) علياً(عليه السلام) بأخذ الراية منه وإدخالها إدخالاً رفيقاً، ويدخل بها الإمام(عليه السلام) إلى مكة فيتمّ الفتح، ويشهده ابن عباس، ويشهد معه فزع قريش وتهافتهم على دُور الأمان التي جعلها لهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم يشهد -بالطبع- خطبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو واقف على باب الكعبة، وجماهير قريش حضور، وعيونهم معلّقة بشفاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهم أذلاّء ينتظرون مصيرهم بما يصدر من أمر. ولعله كان ينتظر أن يأخذ(صلى الله عليه وآله وسلم) بحقه أو بجزء من حقه، فيُشدّد عليهم جزاء ما فعلوه معه ومع أُسرته من منكرات، ولكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد أراد أن يعطيهم درساً في الأخلاق عظيماً فتناسى معهم كل شئ.

فلنستمع إليه مع صاحبنا كيف يقول، وأرجو أن نتدبر معه هذه الكلمات لنعرف موقعها على نفسه، ولا ننسى أن عمره إذ ذاك كان إحدى عشرة سنة، وهو بداية دور التعقّل والتفكّر والتفهّم -كما سبق أن قلناه- أقول: بدأ(صلى الله عليه وآله وسلم) خطبته بقوله: ((لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى، فهو تحت قدميّ هاتين إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج)).

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤: ٢٦.

وهنا نلاحظ أن صاحبنا قد استشرف وتلفّت مزهوّاً لهذه الكلمة (وسقاية الحاج) لأن السقاية كانت تخص أباه دون سائر الزعماء من قريش إلى أن يقول.. ((يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب -ثم تلا- ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**...الآية﴾[1])).

وهنا نلاحظ صاحبنا يستشرف أيضاً ؛ لينظر أصحابه من أبناء المشركين، ويلمس وقع هذه الكلمة على نفوسهم، بعد أن سمعهم يسخرون بلسان آبائهم من بعض أتباع هذا الدين، لا لشئ إلاّ لأنهم لا ينتمون إلى فلان أو فلان، ممن يسمّونهم الأشراف، أو لا يملكون الكمية الكبيرة من المال، وربّما يسمّونهم بالأراذل استهانة بهم وتوهيناً للدعوة التي جمعت شملهم من هنا وهناك، فكأن الفقر أو ضعة النسب -في تقاديرهم- من بواعث الخزي والعار. وقد جاءت هذه الفقرة من بيان هذا المشرّع الكبير شاجبة لجميع هذه العنعنات التي لا تستند في دعائمها على أيّ أساس.

ويعود صاحبنا إلى شفاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لينظر بعد ذلك ما يقول، إنه يقول: ((يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم))، وتطلّع الناس بعضهم لبعض، وهم يعلمون سلفاً ما يستحقونه من جزاء، ولكن ثقتهم بهذا النبي العظيم وبأخلاقه العالية تترك لهم

---

(١) الحجرات:١٣.

بعض الاطمئنان فيجيبون بلسان واحد ((أخ كريم وابن أخ كريم)) وهنا يدوّي صوته الشريف فيملأ الأسماع: ((إذهبوا فأنتم الطلقاء))(١).

عفو عام يبعث النشوة في نفوس الجميع، وما أدري كيف كان وقعه على نفس صاحبنا؟ وهل سرّه أن يرى طغاة قريش من آباء أصحابه الذين سخروا منه ومن مبادئه غير مرة معافين من كل سوء؟. أحسبُ أن لذة العفو كانت أوقع على نفسه من أيّ إجراء آخر يُتّخذ تجاههم، وللعفو لذة لا يتحسسها إلاّ أقوياء النفوس عادةً، وحسبه أن يكون من آل هذا البيت الذين اشتقّت أخلاقهم من خلق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما كان هو يقول.

شاهد كل ذلك، وشاهد قريشاً رجالها ونساءها يبايعون لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) على الإسلام، ويدخلون في دينه أفواجاً أفواجاً، ثم لاحظ ابن عمه(عليه السلام) وهو يطهّر البيت من الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، فملأه كل ذلك زهواً وارتياحاً، وتركه يتابع ابن عمه في روحاته وغدواته، ولا يفارقه عادة إلاّ في القليل من الأحيان، بل لم يفارقه حتى في ذهابه بالمسلمين وبمن أسلم من قريش لغزو هوازن، وكانت عدّتهم اثني عشر ألفاً.. عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفين من أهل مكة(٢)، وقد التقاهم في حُنين والمسلمون في تخايل من كثرتهم، حتى قال أبو بكر: ((لن نُغلب اليوم من قلّة))(٣)، وكأن الله قد أوكلهم

---

(١) تأريخ الطبري ج٣: ١٢٠.

(٢) انظر المصدر السابق ج٣: ١٢٧.

(٣) البداية والنهاية ج٤: ٣٢٢.

إلى هذه الكثرة -بادئ بدء- ليريهم أنها لا تغني عنهم شيئاً، وقد كانوا من قبل يحاربون بسند عقيدي يمدّهم بأقوى عُدّة، فيربحون المعارك غالباً.وكان ما كان من أمر هزيمتهم الفظيعة،وتركهم لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وحده ومعه سبعة من بين تلك الجماهير، وأكثرهم من أسرة بني هاشم كعلي(عليه السلام) -وكان أشدّهم قتالاً بين يديه[1]-، والعباس وابنه الفضل، وربيعة وأبي سفيان ابني الحارث بن عبد المطلب، وكان الفضل يعود إلى العباس في عودة المسلمين إلى القتال وذلك حين أمره رسول الله(صلى الله عليه وسلم) بأن يخاطب تلك الفلول المنهزمة -وكان صيّتاً- ويعيد إليهم النخوة الإسلامية فناداهم: ((يا معشر الأنصار يا أصحاب السَمُرة يا أصحاب سورة البقرة)) يقول الراوي: ((فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنّت على أولادها، يقولون يا لبيك يا لبيك، فحملوا على المشركين، فأشرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى قتالهم، فقال: الآن حمي الوطيس..، ثم قال للعباس بن عبد المطلب: ناولني حَصَيات.. فناولته حصيات من الأرض، ثم قال: شاهت الوجوه، ورمى بها وجوه المشركين))[2].. وكانت الهزيمة، وتمّ النصر بها للمسلمين.

وبعد هذا العرض السريع للواقعة، أرجو أن نعود إلى ابن عباس لنتابعه في انفعالاته القوية ونلمس أثرها في نفسه، فهو ولا شك قد فوجئ بالهزيمة وهو يتطلع للقتال، واضطرب فيمن اضطرب من الأطفال، وساورته أخيلة متلاحقة قائمة يُحضر بعضها بعضاً، ويأخذ بعضها برقاب بعض، وتجسمت

---

(١)انظر كنز العمال-مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، سنة الطبع ١٣١٢هـ-ج٥: ٣٠٦.

(٢) طبقات ابن سعد ج٢ قسم١ : ١٠٩.

أمامه خيبة أمله بما سبق له أن بناه من صروح، وربّما تمثّل له مصيره المظلم وهو أسير ورفاقه يسخرون منه ويهزؤون، ولكن هذه الأخيلة لم تسايره كثيراً، فها هو ذا ينظر هذه الفلول المنهزمة وهي تعود بأشدّ ما تكون، وأبوه يستثير بصوته الجهوري ما بقي لهم من الهمم، ثم ينظر ما هدمته الأخيلة السود من آماله وهي تُشاد من جديد بأحكم بناء، وإذا بالنصر الذي كان قد أبطأ قليلاً يعود بأقوى عدّة، وها هي ذي أسرى المشركين تُقاد بين يديه بما يملكونه من حليّ وحلل وأموال، وكم سرّه أن يرى أن النصر يعود في أكثر عوامله إلى سيف ابن عمه علي عليه السلام، وصوت أبيه العباس، ونضال أخيه الفضل، وغيرهم من أسرته.

ويعود مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإذا به ينحو بهم نحو الطائف إلى حيث اعتصمت ثقيف بعد هزيمتها، وكانت للطائف أسوار تقيها من الغارات، فأغلقوا عليهم أبوابها، وحوصروا هناك وكانت مدة الحصار من قِبَل جيوش المسلمين نيفاً وعشرين يوماً[1].

وقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن لا فائدة ترجى من إطالة الحصار، وأن الزمن وحده كفيل بتأديبهم، فتركهم وعاد إلى مكة، وعاد معه صاحبنا، وشاهد في الأثناء كيف جاءت رسل هوازن تستوهب من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نساءها وأطفالها وكان معهم مقدّمهم مالك بن عوف، فوهب لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نصيبه ونصيب أسرته من آل عبد المطلب، ثم تتابع الناس بالهبات فكان مجموع من ردّ عليهم من السبي ستة آلاف، ثم شاهد كيف هزت هذه المأثرة مقدّمهم

---

(١) انظر تاريخ أبي الفدا -المطبعة الحسينية، مصر،ط١،سنة الطبع ١٣٣٢هـ- ج١: ١٤٧.

فدخل في الإسلام، وولاّه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على من أسلم من قومه وغيرهم من تلك القبائل . وشاهد بعد ذلك توزيع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للأموال، وسرّه -بالطبع- أن يتألف قريشاً بالإحسان إليهم وتخصيصهم بالوافر منه، كما سرّه من قبل أن يرى غيرية ابن عمه وأريحيّته، فيما مَنّ وأطلق من أسرى المشركين.

ولم يطل مكث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة فقد اعتمر وخرج إلى المدينة[1].

نقطة التحوّل

فخرج معه عبد الله إليها، وكانت رحلته هذه وإقامته فيها نقطة التحوّل في حياته -فيما أعتقد- فقد قُدّر له أن ينتقل من بيئة جاهلية متأخرة إلى بيئة متحضرة نسبياً، ومن أمة داعرة متفسخة إلى أمة محافظة متضامنة، ومن مُرَبٍّ محدود الثقافة والمعارف إلى أعظم مُرَبٍّ عرفته الإنسانية وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وإذا صح ما ذكرناه سابقاً من أن الطفل وهو بين التاسعة والثانية عشرة يبدأ فيه نمو القوى العقلية من تذكّر وتفكير وانتباه، فإن حياته الجديدة من أحفل الحيوات بما يُعمل فيها هذه القوى جميعاً، وحسبه أن يكون -بما عُرف عنه من خِفّة روح وحبّ تطلّع يقلّ نظيرهما في أمثاله، وبما هيّأت له بيئته -كما لمسناه سابقاً- من التشوّق للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٣: ١٣٤-١٣٩.

والرغبة بملازمته- حسبه من كل ذلك أن يكون قريباً من نفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرباً يشجّعه على كثرة التردد عليه، والتزام مجلسه، ووعي كل ما يصدر عنه من حركات.

وأنا أعتبر أن هذا الدور كان دور تعلّمه وتهذيبه وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يرعاه لذلك، ويكثر من تعاهده بالمعرفة، ومن ذلك ما حدّثوا عنه أن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال له -وكان رديفاً له-: ((يا غلام -أو يا غليم- ألا أعلّمك كلمات ينفعك الله بهن، فقلت: بلى فقال: إحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. قد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشئ لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضرّوك بشئ لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً))[(١)]، وهي كلمات حافلة بأهم ما يُربّي فيه مَلَكَة الاعتماد على النفس والثقة بها، ورفعها عن الشعور بالحاجة إلى غيرها من البشر ممن يُخشَون ويُرجَون عادة، وخلق وازع قوي فيها يصنع أمامها قوة مسيطرة عادلة تملك التصرف في جميع شؤونه، ولا يملك معها حولاً ولا قوة، فهو لابدّ أن يقصر رعايته عليها لا على سواها، ممن لا تملك له نفعاً ولا ضراً ((فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشئ لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه... الخ)).

---

(١) مسند أحمد -المطبعة الميمنية، مصر، سنة الطبع ١٣١٣هـ- ج١: ٣٠٧.

ولِمَ لا يرعاها ويفنى في العمل على مـا تريـده، وهـي وحدهـا المالكـة لأزمَّته المتصرفة فيه! ولِمَ يخشى سواها وهي لا تملك أن تضره أو توقف عنـه أيّما نفع! فليراعها إذاً،وليعلم أن مايصيبه من مكروه سوف لايبقى عليه كثيراً ولايصحبه كثيراً وأن الصبر عليه لابدّ أن يعقبه النصر((وأن مع العسريسراً)).

وما له لايؤمن بذلك كله! والمعلّم له رسول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم)، وفي حياته ونضاله العقيدي خير مثل يضرب من أمثال هذه الأمـور. ولعل ما توحيه سيرته لأمثاله من الصغـار هـو أبلـغ وآثـر مـن أيّ درس لأيّ أستاذ كان.

وكانت هوايته المحببة أن يقتفي آثار النبي (صلى الله عليه وآله وسـلم) ويتتبع خطواته، ومتابعته في كل ما يعمل، ومن ذلـك مـا حـدّث عـن نفسـه قال:((كنت عند رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقام إلى سقاء فتوضأ وشرب قائماً، قلت: والله لأفعلنّ كما فعل النبي(صلى الله عليه وآله وسـلم)، فقمت وتوضأت وشربت قائماً، ثم صففـت خلفـه، فأشـار إليَّ لأوازي بـه، أقوم عن يمينه فأبيت فلمّا قضى صلاته قال: مـا منعـك أن لا تكـون وازيـت بي؟ قلت: يارسول الله أنت أجلّ في عيني وأعزّ مـن أن أوازي بـك، فقـال: اللهم آته الحكمة))(١). فهو -كما ترون-يقسم على نفسه أن يفعل كما فعل (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقلده حتى في الشـرب قائمـاً ، ويتـم لـه كـل ذلك.

وهذه القصة قـد رويـت عنـه بمختلـف الطـرق، وفيهـا بعـض الزيـادة والنقيصة وفيهـا -مع الدلالة على ما سقناه لـه- دلالـة علـى منتهـى ذكائـه

---

(١) حلية الأولياء -مطبعة السعادة، مصر، ط١، سنة الطبع ١٣٥١هـ- ج١: ٣١٥.

وتأدّبه، فهو -على صغره- لا يجهل لنفسه قيمتها وللنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قيمته، فيأبى أن يوازي برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تأدّباً معه وحفظاً لمقامه، وقد أعجبت هذه اللفتة البارعة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فدعا له بهذا الدعاء الكريم. وقد روى هذا الدعاء كل من ترجم له، وصحح نسبته إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو طبيعي بمثله من مثل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد لفته منه هذا الحرص على تفهّم مبادئه، والعمل عليها بهذا السن وهذا الذكاء. وقد رويت لهذا الدعاء وما هو بمعناه مناسبات أخرى لا يبعد أن يكون قد تكرر بتكرارها، فهم يحدّثون عنه أيضاً قال: ((أتى النبي الخلاء فوضعت له وضوءً، فلمّا خرج قال: من وضع ذا؟ فقالوا: ابن عباس، فقال: اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل))[١]، وفي بعضها أن عمر كان يقول لابن عباس: إني رأيت رسول الله دعاك يوماً فمسح رأسك وتفل في فيك، وقال: اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل[٢]، والمأثور عنه أنه دعا له مرتين فقط. وإذا صح ما أُثر عنه تكون هذه الروايات ونظائرها متداخلة، تحكي عن تينك المناسبتين حسب، وإن اختلفت لغة الحكاية، وعلى أيّ حال فإن له من ذكائه وحبه للمعرفة ما يستحق بهما أمثال هذه الدعوات المباركة.

ونظير هذه اللغة التي تحدّثنا عنها ما حدّثنا هو من أنه دخل مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، هو وابن خالته خالد بن الوليد على ميمونة زوجة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فسقتهم لبناً وبدأت برسول الله

---

(١) ذخائر العقبى: ٢٢٧.

(٢) انظر المصدر السابق: ٢٢٨.

فشرب، ثم قدّمه رسول الله إليه يقول: ((أنا عن يمينه (صلى الله عليه وآله وسلم) وخالد عن شماله، فقال لي: الشربة لك وإن شئت آثرت بها خالداً فقلت: ما كنت لأؤثر بسؤرك على أحد))(١)، تأملوا لفتته البارعة فهو يأبى أن يقدّم -ولو كان من باب الإيثار- على نفسه ابن خالته، ما دام ذلك يحرمه شرف التبرك بسؤر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتذكّروا أن هذا الكلام يصدر من صبي، وبهذا الإسلوب كان يعلّمه ابن عمه آداب المعاشرة فهو ينبه أن صاحب اليمين مقدّم على غيره بحقوق المجالسة، ثم يشير عليه بإيثاره على نفسه، ولكنّ الصبي يرى في سؤر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يفضل أيّما إيثار.

وكان له من وجود خالته ميمونة في بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يشجّعه على متابعته وكثرة صحبته والتأثر بعمله، فقد كان ربّما يأتي فيبيت معه عند خالته وقد حدّث هو قال: ((أتيت خالتي ميمونة فقلت: إني أريد أن أبيت عندكم الليلة، فقالت: وكيف تبيت وإنما الفراش واحد، فقلت: لا حاجة لي في فراشكم، أفترش نصف أزاري، وأما الوسادة فإني أضع رأسي مع رؤوسكما من وراء الوسادة، قال: فجاء النبي فحدّثته ميمونة بما قال ابن عباس فقال رسول الله: هذا شيخ قريش))(٢)، يريد إنه سيكون -بحكم ما له من الذكاء والنباهة والعقل- شيخاً لقريش في قابل من الأيام، وقد صدقت فراسته (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه.

---

(١) مسند أحمد ج٥: ٢٢٥.

(٢) ذخائر العقبى: ٢٣٥ -٢٣٦.

وربّما كان يبتغي من وراء مبيته أن ينظر نوع عبادته (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يعانق الأسحار، وقد حدّث عن ذلك فقال: ((بتّ عند خالتي ميمونة، فقام رسول الله فتوضأ ثم قام يصلي، فقمت فتوضأت، وقمت عن يساره فأخذ بيدي وأدارني عن يمينه، فتتامّت صلاة رسول الله من الليل ثلاث عشرة ركعة))[1].

وربّما أمره والده العباس -لما يأنس فيه من قوة الحافظة ودقة الملاحظة وصدق التأدية- أن يبيت عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليخبره عن دقائق أعماله العباديّة في الليل ليتأثرها قال: ((أمرني العباس (رض) قال: بُت بآل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة، فانطلقت إلى المسجد فصلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) العشاء الآخرة، حتى لم يبق في المسجد أحد غيره قال: ثم مرّ بي فقال: من هذا فقلت: عبد الله قال: فمه! قلت: أمرني أبي أن أبيت بكم الليلة، قال فالحِق.. فلمّا دخل قال: افرشوا لعبد الله، قال: فأُتيت بوسادة من مسوح، قال: وتقدّم إليّ العباس أن لا تنامنّ حتى تحفظ صلاته، قال: فقدم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنام حتى سمعت غطيطه، قال: ثم استوى على فراشه فرفع رأسه إلى السماء، فقال: سبحان الملك القدوس ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآية من آخر سورة آل عمران حتى ختمها ﴿إن في خلق السموات والأرض..﴾[2]، ثم قام فبال، ثم استنّ بسواكه، ثم توضأ، ثم دخل مصلاه، فصلى ركعتين ليستا بقصيرتين ولا طويلتين، قال: فصلى ثم أوتر، فلما قضى صلاته سمعته

---

(١) ذخائر العقبى: ٢٣٥.

(٢) آل عمران: ١٩٠-١٩٤.

يقول: اللهم اجعل في بصري نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في لساني نوراً، واجعل في قلبي نوراً، واجعل عن يميني نوراً، واجعل عن شمالي نوراً، واجعل أمامي نوراً، واجعل من خلفي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، واجعل من أسفل مني نوراً، واجعل لي يوم لقائك نوراً، وأعظم لي نوراً))[1].

وقد سقت هذا الحديث -الذي صح على شرط الشيخين- بطوله لتتبينوا معي إلى أيّ حد كان في قوة الحافظة ودقة الملاحظة، فهو يسجّل فيه دقائق مشاهدته، ويصف جميع ملابساتها، ولا يغفل حتى سماع الغطيط منها، ثم يحفظ هذا الدعاء الطويل، وهو لا يُلقى عادة من قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أكثر من مرة؛ لأنه سيق في مقام العبادة وليس في مقام التلقين، ولكنّ قوة حافظته وتنبّهه لخصوصيات ما يقول أعاناه على حفظ كل ذلك.

وليس من البعيد بعد هذا أن نسمع عنه أنه حفظ في هذه المدة والتي بعدها في عهد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)المحكم وهو المفصّل من القرآن، وسجّل حتى الجزئيات من كيفية نطق النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) به، فهو يحدّث بعد حين تلميذه ابن جبير عن قوله تعالى: ﴿**لا تحرّك به لسانك لتعجل به**﴾[2] ثم يقول له: أحرّكهما لك كما كان رسول الله يحرّكهما -يعني شفتيه- ثم يحرّكهما له[3]، وليس من البعيد بعد هذا أن يبحث عن أسباب النزول فيعيها وَعياً تاماً، ويحدّثنا عما يهمّه منها.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٣: ٥٣٥ -٥٣٦.

(٢) القيامة: ١٦.

(٣) انظر صحيح البخاري -المطبعة العثمانية، مصر، سنة الطبع ١٣٥٥هـ- ج٩: ١٥٣.

وقد أحصى بعد حين ما نزل في علي عليه السلام على الخصوص من الآيات، فبلغ بها ثلاثمائة آية[١]، ثم فصّلَ لنا الكثير من ذلك.. ولعلنا سنذكر بعضها في مظانّها من هذا الحديث.

على أبواب المراهقة

وكانت حجة الوداع، فكان صاحبنا على أبواب المراهقة والبلوغ، كما كان يحدّث هو عن نفسه. وما دمنا مقبلين معه على هذه الفترة -وهي تمتد بنا إلى ما بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)- وفيها من الأحداث العظام ما أحدث في نفسه عقدة سايرته في أكثر حياته، فعلينا أن نقف قليلاً لنستشير ذوي الاختصاص من السايكولوجيين في الخطوط العامة لحياته النفسية كمراهق، ثم نعود إلى دراسة بيئته الاجتماعية، وفي ضوء ذلك كله نبدأ معه بالسير خطوة خطوة.. لعلنا نقف على مفتاح تلكم العقد النفسية.

يقول القوصي -وهو يتحدّث عن هذه الفترة فيما يتحدّث-: ((يبدأ المراهق على وجه العموم يستقل عن المنزل ويتصل بالمجتمع، ويبحث عن شخص يتجسم فيه المثل الأعلى الذي يرتضي لنفسه أن يحتذيه، وتصل علاقته من ناحيته بالبطل الجديد أحياناً إلى درجة تشبه العبادة، وتسمى عادة عبادة البطل، وتصل عبادة البطولة إلى درجة يصعب على الكبار تصوّرها))، ويقول: ((وينزع المراهق في هذه المرحلة إلى إكمال رجولته والاعتزاز

---

(١) انظر نور الأبصار -المطبعة الميمنية، مصر، سنة الطبع ١٣٢٢هـ- : ٧٣.

بكيانه، ويعمل على الاستقلال في فكره وعمله، ويجرّب أساليب متعددة ليحقق لنفسه شعوره بخروجه من دور الطفولةواكتمال نموه واستقلاله))[١].

وفي مجلة علم النفس من مقال بعنوان (الشعور الديني عند المراهق): ((ولا تكاد تقبل هذه الفترة من حياته، حتى تكون مقدراته العقلية قد تفتحت، وكاد ذكاؤه يبلغ نهاية مستواه))، ويقول -بعد أن يتحدّث عن العوامل التي تزيد معرفته بالعالم الخارجي من مدرسة وغيرها-: ((وتتظافر مع عامل خطير آخر هو النضج الجنسي على إحداث يقظة عامة في الشخصية وتفتّح عام، وازدهار شامل لجميع القوى النفسيّة من حب استطلاع يأخذ أشكالاً عِدّة منها الفلسفة أو اللاهوت، ومن نشاط اجتماعي قد يكون خدمة اجتماعية أو كفاحاً وطنياً))[٢].

وإذا صح ما ذكروه فهل نستطيع أن نلتمس في حياته البطل الذي تأثّره واتخذ منه مثله الأعلى في سلوكه العلمي؟ ثم هل نستطيع أن نعرف نوع نشاطه الاجتماعي، إن كان له في هذا المجال نشاط؟.

والجواب على السؤال الأول لا يكلّفنا كثيراً، ما دمنا قد بلغنا معه إلى هذه المرحلة ومهّدت لنا الصور التي مرّت علينا في مراحله السابقة ما يكفي للتعرف عليه.

وأظننا في غنى عن القول بأن بطله الأول كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان يتأثره حتى في نوع لبسته للأزار، فكان يرخي مقدّم أزاره حتى تقع حاشيتاه على ظهر قدميه، ويرفع الأزار من ورائه،

---

(١) أسس الصحة النفسية: ١٥٩.

(٢) مجلة علم النفس مجلد٣ العدد٢: ١٩٦ أكتوبر١٩٤٧.

فإذا سئل عن أسباب ذلك قال: رأيت رسول الله يأتزر هذه الأزرة[١]، وقد رأيتم كيف كان يحاكيه في صلواته ووضوئه، ويتتبع خطواته خطوة خطوة، وسترون نماذج من ذلك في هذا الحديث.

ولكن الذي أخاله أن حياته كانت قد اتسعت لأكثر من بطل واحد، وإن شئت أن تقول بأن البطل الثاني كان امتداداً للبطل الأول، فهو بحكم ملازمته للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتكرر ذكر الإمام علي عليه السلام في مجلسه، واهتمام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشأنه على نحو لم يعهد له نظير بالنسبة إلى غيره من الصحابة مهاجرين وأنصاراً، فهو نفس النبي[٢] (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في آية المباهلة، وهو أخوه دون سائر المسلمين[٣]، وهو منه بمنزلة هارون من موسى -باستثناء النبوة فقط[٤]- وهو ((أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الغر المحجّلين وخاتم الوصيين))[٥] وهو أحبّ الخلق إليه[٦]، وهو الكفء الوحيد لابنته[٧]، ثم هو إذ تصدّق بخاتمه

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج١ قسم٢: ١٥٣.

(٢) انظر الدر المنثور -المطبعة الاسلامية، طهران، سنة الطبع ١٣٧٧هـ- ج٢: ٣٩.

(٣) انظر أنساب الأشراف -تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي، لبنان، ط١، سنة الطبع ١٣٩٤هـ- ج٢: ٩١.

(٤) انظر الرياض النضرة -مطبعة دار التأليف، مصر، ط٢، سنة الطبع ١٣٧٢هـ- ج٢: ٢١٦.

(٥) حلية الأولياء ج١: ٦٣.

(٦) انظر سنن الترمذي -تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية- ج٢: ٣١٩.

(٧) انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة- مطبعة النجف، النجف، سنة الطبع ١٣٨٤هـ- ج٢: ١٣٣.

نزل بذلك قرآن[1]... ولم يعهد له شبيه في نظائر هذا المقام، فإذا اعتاد الكتاب العزيز أن يمدح المتصدّقين عادة، فإنه هنا لا يكتفي دون أن يجعل للإمام صفة الولاية العامة، ويقصرها عليه بعد الله والرسول، ولا تكون هذه الحادثة إلاّ بمنزلة الأثارة للدلالة على صاحب هذه المنزلة، وهو.. وهو إلى آخر ما هنالك مما شاهده هذا الغلام من بطله الأول الذي لا ينطق عن الهوى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يرى أن حديثه يملأ عليه بيته صباح مساء فمثار الحديث عن بطولة الإمام (عليه السلام) ومفاجآته المتكررة، وموقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منه، مثار خصب، تتلذذ به نفوس أسرته عادة، وتتعطر به أحاديثهم كل يوم، بالإضافة إلى أن حديثه كان يأخذ من الناس مأخذه خارج البيت نقضاً وإبراماً، على خلاف المجتمعين ومدى ترحيبهم بما يسمعون، على أنّا في غنىً عن التدليل، فحسبنا ملازمته له في تمام أيام حياته وتتبعه لجميع آثاره وتسجيل كل ما أُثر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ففيه ما يكشف لنا عن كل ذلك.

وإذا تم كل هذا تفتّح لنا منفذ للجواب على السؤال الثاني، فلم يعد خافياً على المسلمين في ذلك الحين أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعدّ الإمام(عليه السلام) للنهوض بمسؤولية الحكم من بعده، وكان يمهّد لذلك بالتصريح تارة والتلميح أخرى فهو يقول يوماً لأُسرته الأولين وقد جمعهم لينذرهم ويبشرهم ويعنّي من يؤازره منهم بالخلافة من بعده، فلا ينبري له غير الإمام(عليه السلام) فيقول: ((هذا أخي ووصيي وخليفتي

---

(١) انظر أسباب النزول -مطبعة هندية غيط النوبي، مصر، سنة الطبع ١٣١٥هـ-: ١٤٩.

فيكم فاسمعوا له وأطيعوا))[١]، ويوماً يقول -وقد وُشي بالإمام (عليه السلام) وهو متأثر ومنفعل من هؤلاء الوُشاة-: ((ما تريدون من علي؟. إن علياً مني وأنا منه، وهو وليّ كل مؤمن))[٢]، ويقول -في يوم آخر-: ((من كنت وليّه فعلي وليّه))[٣].. إلى آخر ما هنالك من نصوص وافية الدلالة، ولكنها لم تأخذ -بعد- طابع البلاغ العام شأن التشريعات الهامة التي تقرر مصائر أمة، ولعلهم كانوا ينتظرون الزمن الذي يعلن فيه مثل ذلك التشريع، وتلميحاته أكثر من أن تحصى، فيوماً يسد الأبواب الشارعة في المسجد ويترك باب علي(عليه السلام) ؛ ليدلّ الناس على تميّزه بالحكم عن سائر المسلمين، فهو كالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، له أن يجتاز جُنُباً في المسجد[٤]، ويوماً يبعث أبا بكر بسورة براءة ليقرأها على الناس بمكة، ثم يرسل عليه علياً(عليه السلام) ليأخذها منه ؛ لأن جبرئيل جاءه فأخبره أنه لا يؤدي عنه إلاّ هو أو رجل منه[٥]، وهو يخصّه بحكم ما أُوحي إليه من بين الرجال بتطبيق آية: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾[٦] ويؤكد ذلك تسعة أشهر، كما شاهده صاحبنا فيما يحدّث عنه قال: ((شهدنا رسول الله تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة، فيقول:السلام عليكم

---

(١) تأريخ الطبري ج١: ٢١٧.

(٢) المستدرك على الصحيحين ج٣: ١١١.

(٣) مسند أحمد ج٥ : ٣٥٠.

(٤) انظر خصائص النسّائي -مطبعة التقدم، مصر، سنة الطبع ١٣٤٨هـ- : ١٣.

(٥) انظر مسند أحمد ج٣: ٢١٢.

(٦) الأحزاب: ٣٣.

أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿إنما يريد الله...الآية﴾، رحمكم الله، كل يوم خمس مرات))[1]. وأيّ تأكيد وتقرير لهذه المأثرة في نفوس المسلمين أكثر من هذا؟! ونظائر ذلك من أمور إن وافقت -بالطبع- هوىً في بعض نفوس المسلمين فإنها لا توافق قبول أكثرهم إذ ذاك.

أحزاب المسلمين

والمسلمون لم يكونوا بدعاً من الناس فيتفقوا على كل تشريع، وإن مس نقاط الضعف في نفوسهم، بل كان لكل فئة منهم عواطف خاصة تمتاز عن غيرها ببعض الشؤون، وقد تصطدم ببعضها فتحدث ما بينهم صراعاً قد لا يخلو من عنف، وطبيعة البحث هنا تدعونا إلى أن نخصّها بالتحدّث عنها من وجهة عامة أولاً، ثم من وجهة نظرتها لخلافة الإمام(عليه السلام) على الخصوص ؛ ليتسنى لنا الجواب على السؤال الثاني بسهولة ؛ ولنعرف تأثير هذه الاختلافات على نفسية صاحبنا في هذه الفترة.

نستطيع -استناداً إلى ما بأيدينا من النصوص التأريخية- أن نوزّع الإتجاهات التي كانت سائدة بين المسلمين إلى فئاتٍ ثلاث أو فقل إلى أحزاب ثلاثة.

(أولها): **حزب الأنصار**، ويضم أكثرية الصحابة من أهل المدينة، وله من نصرته للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الهجرة، واحتضان فكرته وتبنّيها والدفاع عنها، وإيواء كثير من المهاجرين، وبذل أمواله، ما يجعل له

---

(١) الدر المنثور ج٥: ١٩٩.

الدالـة الكبيرة على الدعوة وعلى سائر المسلمين، وكان لهذا الحزب جناحـان هما الأوس والخزرج، وكانا متنابذين قبل الإسلام، وكانت بينهما حـروب، فألّف بينهم الإسلام ودُفنت أحقادهم في عقولهم الكامنة، ومـا كـانت تظهـر إلاّ في فترات يختفي فيها العقل الواعي كفترات الغضب ونظائرها. وهـا نحـن أولاء نذكر لكم بعض النماذج لنضـع أيديكـم علـى نقطـة الضعـف في هـذا الحزب، وسنعرف بعد حين كيف استُغلّت هذه النقطة للنفوذ منها إلى الغلبـة عليه في أهم صراع وقع بينه وبين حزب قريش، فمـن ذلـك مـا حدّثـوا عـن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه خطب النـاس بعـد قصـة الإفـك فقال: ((يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قـد بلـغ أذاه في أهـل بيـتي، فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً ولقد ذكروا رجـلاً مـا علمـت عليـه إلاّ خيراً وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي)). وفهم الناس أن النـبي (صلـى الله عليـه وآلـه وسـلم) كـان يسـتعذر مـن عبـد الله بـن أُبـيّ بـن سـلول -المنـافق المشـهور- صـاحب هـذه المقالـة، فقـام سـعد بـن معـاذ الأنصـاري -وهو زعيم الأوس- فقال: ((أنـا أعـذرك منـه يـا رسـول الله إن كـان مـن الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك)). قالت عائشـة -وهـي محدّثـة هـذا الحديـث-: ((فقـام سـعد بـن عبـادة وهـو سـيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً ولكن احتهلته الحميّـة، فقـال لسـعد بـن معـاذ: كذبت -لعمر الله- لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أُسيد بن حضـير وهـو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبـادة: كذبـت -لعمـر الله- لنقتلنـه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين)) تقول عائشة: ((فثار الحيّان الأوس والخزرج

حتى همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله قائم على المنبر فلم يزل رسول الله يُخفّضهم حتى سكتوا وسكت))[١].

وهذه الحادثة -على تفاهتها- أثارت في نفوسهم رواسب الحقد القديم وأنستهم موقع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم.

وأتفه من هذه الحادثة وأقوى دلالة على تأصّل هذه الرواسب ومدى تمكّنها من نفوسهم ماحدّثوا عن أنس:((قيل للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم): لو أتيت عبد الله بن أبي -ولعل غرضهم من ذلك تألّفه- فانطلقَ إليه وركب حماراً، وانطلق المسلمون -وهي أرض سبخة- فلما أتاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إليك عني فوالله لقد آذاني نتن حمارك. قال: فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجل من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهما ضرب بالجريد وبالأيدي وبالنعال)) قال: ((فبلغنا أنها نزلت فيهم: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾))[٢].

وكما ترون فقد عاودتهم رواسبهم، وتغافلوا عن مقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بينهم، وانتصر الخزرجيون لعبد الله على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا لشئ إلاّ لأن فلاناً الأوسي قد انتصر لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على صاحبهم، وقد اتهموه ببواعث نصرته واعتبروها تعريضاً بهم.

---

(١) صحيح مسلم ج٨ :١١٥.

(٢) المصدر السابق ج٥: ١٨٣.

ولهاتين الحادثتين نظائر يجدها القارئ متفرقة هنا وهناك، وهي -كما يظهر- لا تبدو إلاّ في فترات من أمثال هاتين، وإلاّ فالأخوّة الظاهرية بينهم ليس عليها غبار، وكثيراً ما توحّدهم المصيبة كما سترونه في ما يأتي من حديث..

وزعماء هذا الحزب سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حضير، وغيرهم.

(وثانيها): حزب قريش، وينتظم أكثرية المهاجرين وغيرهم من أهل مكة وبعض الأنصار، وقد دخل أكثر هذا الحزب إلى الإسلام بسيف علي(عليه السلام) ، وسيوف الأنصار وبعض المهاجرين، ولم يستطع الإسلام -لقصر المدة- أن يقضي على رواسب أكثرهم؛ لدخولهم فيه متأخرا ؛ ولأنهم لم يُقبِلوا عليه طواعية ورغبة فيه، بل كان دخولهم تحت ضغط القوة، وبالطبع كانت نقمتهم على الفاتحين كبيرة، وبخاصة بعد أن كانوا لا يرونهم من الأكفاء لهم في الحروب.

وكانت مهمة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في التأليف بين الحزبين شاقة للغاية، فهو إذ فتح مكة وقال قولته المعروفة: ((من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن))، قالت الأنصار: ((أمّا الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته ورغبة في قريته))[1]، متّهمين إياه بمصانعة قومه، ناسين مهمته في تأليف أمثال هؤلاء ؛ لإدخالهم في زمرة المسلمين، ثم ناسين أنه رسول الله، وأنه لا يفعل في أمثال هذه الأمور دون أن يرد إليه فيها أمر، ثم هو إذا وزّع أسلاب حنين وخصّ قريشاً

---

(١) صحيح مسلم ج٥ :١٧٢-١٧٣.

والمهاجرين بها ليتألّفهم قال قائلهم: ((إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطي الغنيمة غيرنا))(١).

وفي سيرة ابن هشام، أن سعد بن عبادة زعيم الأنصار دخل على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: ((يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسّمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ -وأرجو أن نتأمل في جوابه- قال: يا رسول الله ما أنا إلاّ من قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحضيرة. قال: فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحضيرة))(٢). وكان ما كان من خطبة النبي واسترضائهم بها. فهم لم يقدّروا ظروف الإسلام ولم يلحظوا جانب المصلحة العامة، أو خفيت عليهم معالمها فاتّهموا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بمصانعة قومه.

ثم هو أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي ، أو يعطيه كفناً من ثيابه ؛ ليتألف منافقي قومه ويجلبهم إلى حضيرة الإسلام، أو كما قال (صلى الله عليه وآله وسلم): ((والله إني لأرجو أن يسلم به أكثر من ألف من الخزرج))(٣) اندفع بعض المهاجرين ليقف بصدر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويمنعه من الصلاة عليه بشدة، ثم يعدد له مساوئ ابن أُبي(٤).

---

(١) البداية والنهاية ج٤: ٣٥٧.

(٢) سيرة ابن هشام ج٤: ١٤٧.

(٣) الدر المنثور ج٣: ٢٦٦.

(٤) انظر سيرة ابن هشام ج٤: ٢١٠.

ومثل هذا الحديث عادة يثير في نفوس أهل الميت كوامن الأحقاد. وقد رأينا مدى تقديرهم له -على نفاقه- في الحديثين السابقين، ومدى خضوعهم للدوافع القبلية من أجله.

ولولا أن يقف رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) موقفه الحازم فيغضب على القائل، ويصرّ على الصلاة عليه، لما انتهت تلكم الحادثة بسلام. وهكذا نرى في الأنصاري أنه ينكر على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) تألّف قريش، ولا ينكر عليه تألّف قومه بالصلاة على ابن أُبي، كما نرى في المهاجري إنكاره عليه(صلى الله عليه وآله وسلم) تألّف الأنصاري ولا نراه قد أنكر عليه في تألّفه لقريش مما يدل على سعة ما بينهم من الفجوات. ولعل خير ما يمثل هذه السعة الخطب والأشعار المتبادلة بينهم بعد حادثة السقيفة.. وسنأتي على بعضها في موضعها من هذا الحديث.

ومن رؤساء هذا الحزب الخلفاء الثلاثة، وخالد بن الوليد، وأبو عبيدة، وسالم مولى أبي حذيفة، وغيرهم.

(وثالثها): **حزب الهاشميين**، ومن يمتّ إليهم بسبب الولاء إذ ذاك، كعمار وسلمان والمقداد والزبير وأبي ذر ونظائرهم، ومن رؤساء هذا الحزب -بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)- عليعليه السلام والعباس. وكانت الفجوة بينه وبين حزب قريش واسعة جداً، كما تدلّ على ذلك تصريحات أقطاب الحزبين، وسيتكرر عندنا ذكر هذه التصريحات في مواضعها، كما يتكرر التعرض لأسباب هذه الفجوة، فلا نطيل بذكرها الآن.

أما الفجوة بين الحزبين الأول والثالث فلم يكن لها جذور عميقة، بل لم يكن لها جذور إذا استثنينا ما نشأ عن قضية الخلافة بعد حين.. وكما قلنا

إن المسلمين لم يكونوا بدعاً من البشر ليتفقوا على الأخذ بكل تشريع، حتى وإن مس أهم نقاط الضعف فيهم، فقد رأيناهم يختلفون في شأن بعض التشريعات، فيقبلها فريق، ويغضب لها فريق، وقد رأينا سابقاً كيف غضبت الأنصار لتألّف قريش، وبعض قريش لتألّف الأنصار. وترون الآن كيف غضب الحيّان من قريش والأنصار معاً حين قسّم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما بعثه علي عليه السلام من اليمن بين أربعة.. الأقرع بن حابس الحنظلي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الخير الطائي، وعلقمة بن علاثة، وقالوا: ((أيعطي صناديد أهل نجد ويدعنا))[1]، فأوضح لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سر إعطائه بأنه يتألّفهم بهذا العطاء، بل رأيناهم يسخرون من بعض التشريعات -وإن لم تمس شيئاً من نقاط الضعف- فقد حدّث جابر قال: ((أهللنا أصحاب محمد بالحج خالصاً وحده، قال عطاء: قال جابر: فقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) صبح رابعة مضت من ذي الحجة فأمرنا أن نحل.. قال: حلّوا وأصيبوا النساء. فقلنا: لم يكن بيننا وبين عرفة إلاّ خمس))، وهنا أرجو أن تتأملوا موضع السخرية في قولتهم هذه: ((أمرنا أن نفضي إلى نسائنا فنأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المني))، وقد غضب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لهذا الكلام فقام فيهم خطيباً وقال: ((قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبرّكم ولولا هديي لحللت...الخ))[2].

ومن يرجع إلى كتب السيرة وروايات الفقه في الكتب المصنفة يجدها مليئة بالاعتراضات فردية وجماعية حتى في أمثال هذه التشريعات،

---

(١) صحيح مسلم ج٣: ١١٠.

(٢) المصدر السابق ج٤: ٣٦ -٣٧.

التي لا تمس مواضع العاطفة في النفوس. فكيف نرجوا لهم بعد ذلك أن يتفقوا على مثل هذا الشأن الخطير، وهو يوحّد مصير أمة في أدق شؤونها وأهمها مصير الحكم بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فليس بدعاً -كما قلنا- أن تختلف وجهات النظر بالنسبة إليه، ويتناسى من أحله أمر كل تشريع سماوي يصدر فيه.

موقفهم من الخلافة

و لم يعد خافياً على المسلمين -كما قلنا- أن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعد النفوس لقبول هذا التشريع بالنسبة للإمام علي(عليه السلام) سواء بتصريحاته التي لم تأخذ طابع البلاغ العام بعد، والتي يراد بها تهيئة أجوائهم لقبوله في حينه، أو بتلميحاته التي ذكرنا قسماً منها، أو بإعلان أبرز ما في الإمام(عليه السلام) من صفات يقتضيها منصب النيابة العامة عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأتها من بابها))[1]، و((أقضى أمتي علي))[2]. والقضاء من اهم مناصب الولاية العامة، إلى غير ذلك من تمهيدات لابدّ أن يكون قد وعاها صاحبنا ورواها، ما دامت تتعلق ببطله الجديد. ولكن أقطاب الأنصار كانوا ينظرون الأمر من زاوية أخرى، فهم إذا قبلوا بهذا التشريع فقد أعطوا السيادة لقريش ،ويوشك أن لاتخرج منها بعد حين،

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٣: ١٢٧.

(٢) الرياض النضرة ج٢: ٢٦٢.

ومعنى ذلك أنهم يُحرَمون من هذه الإمارة، مع أنها قامت على أكتافهم، ولولا تضحياتهم بنفوسهم وأموالهم لما تمّ للإسلام ما تمّ. على أن الأمر بالنسبة إليهم يهون لو اعتقدوا بأن الإمام علياً عليه السلام سوف يتمكن من مزاولة الحكم، فهم ينظرون أنها لا تتم له ما دامت أكثريّة قريش لا ترضى به.

وأمّا قريش -بأكثريّتها طبعاً- فقد كانت لها منافذ للرؤية قد تختلف باختلاف الأشخاص ولكنها تلتقي جميعاً بمعارضة هذا التشريع، فبعضهم كان يرى فيه انتصار القبيلة على قبائل، وهذا ما يسوء منافسيها من قبائل قريش، وقد عبرّ عن ذلك بعد حين لسان الحزب بقوله لابن عباس: ((إن قريش كرهت أن تجمع لكم النبوة والخلافة))[1]، فكأنّما كانت النبوة هبة منهم لهذا البيت فهم لا يريدون أن يضموا إليها هبة أخرى فتمتاز بالزعامة المطلقة عليهم. وقد كان يخشى البعض في دخولها لهذه القبيلة أن لا تتسع بعد ذلك لغيرها من القبائل، فهو يقول لبعض صحابته من المهاجرين: ((مالكم أتريدون أن تنتظروا وصل الحبلة من أهل هذا البيت وسّعوها في قريش تتسع))[2].

على أن كثيراً منهم كان يخضع في معارضته لعوامل نفسية يصعب التحلل من تأثيرها، فالموتور بأبيه أو بأخيه والمغلوب على أمره في الدخول بالإسلام، يجد نفسه مسوقاً بدافع لا شعوري إلى الانتقام من الواتر، فإن عجز عنه انتقم من أقرب الناس إليه.. وما أكثر المنتقمين من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشخص الإمام(عليه السلام) بعد أن أعجزهم الانتقام

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٣: ٣١.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٢: ١٨.

منه نفسه(صلى الله عليه وآله وسلم). وقد كانوا يجدون فيه صدى للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سواء بتبنيه لمبادئ الإسلام والنضال فيها أو بالتزامه له (صلى الله عليه وآله وسلم) على نحو ما عرفتموه سابقاً من الالتزام. والعربي -كما تعلمون- لا ينام على وتر بحال.

وبعض أهل السابقة ممن يكبرونه بالسن كانوا يحسبون للسن ألف حساب، وسترون بعد هذا كيف طعنوا بإمرة أسامة بن زيد لصغره، يوم أمّره عليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكيف خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مغضباً، وخطب خطبته المعروفة وهو مريض، ومن الصعب جداً أن تكلف من كانت لهم قدم في السن وثقة بالنفس بالخضوع لمن هو دونهم فيها، وبخاصة إذا كان ذلك الشخص من ذوي القابليات الواسعة، وكان إبراز أية منها ينبّه في أعماقهم جانباً من جوانب شعورهم بالقصور عن مجاراته، واللجوء إلى التعويض إمّا بالتعالي أو بالتفاخر أو التهوين من شأن كل ما يتعلق به من أمور، وربّما جعلوا من ذرائع تهوينه وتأخيره عن حقه تأخره عن منافسيه في السن، فكأن السن وحدها كافية للطعن بكل ما فيه من إمكانيات، وقد صوّر هؤلاء الخليفة الثاني في حديث له مع صاحبنا في أيام خلافته قال: ((يا ابن عباس ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلاّ أنهم استصغروه))(١).

وهناك عامل آخر.. وهو ما يحسبه البعض من خشونته وعدم تساهله في ذات الله. وعلى اختلاف هذه العوامل وتفرقها في أفراد هذا الحزب

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ١٨.

أو التقائها أو بعضها في كثير منهم، فإن هناك وحدة تجمعهم جميعاً وهي محاولة إبعاده عن الحكم بمحاربة هذا التشريع بأي ممن كان.

وإذا صح ما صورناه من بيئته، وما قرّبناه في تشخيص بطله، فقد سهل علينا النفوذ إلى الجواب على السؤال الثاني. فإن نشاط هذا الشاب كان -بالطبع- منصبّاً في درجته الأولى على ملاحقة هذه الأحزاب، والتماس ما لها من نشاط في هذا السبيل، ثم ملاحقة بطله، ووعي كل ما يجدّ من شؤونه العامة والخاصة، وربّما نشط لإحباط حركة أو معارضة فكرة تتعلق بهذا البطل من خصومه السياسيين.

في حجة الوداع

وقد كانت هذه الفترة فترة نشاط ليس له فحسب، بل لجميع أسرته ولغيرهم من سائر المسلمين، على اختلاف ما لهم من أحزاب، وكما لم يعد خافياً على المسلمين -كما قلنا- قيام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بمحاولة تهيئة أجوائهم لإصدار بلاغه العام، لم يعد خافياً على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مدى ترحيبهم بهذا البلاغ ومدى ما لهم من نشاط لإحباطه. فقد كان(صلى الله عليه وآله وسلم) أعرف الناس بأصحابه، وبعواطفهم وميولهم تجاه هذا الموضوع، وما أيسر أن يتّهموه بمصانعته، كما سبقت لهم نظائر هذه التهمة. وقد ذكر لنا صاحبنا مدى تخوّفه من ذلك بما جاء عنه من حديث قال: ((لـمّا أُمر النبي أن يقوم بعلي بن أبي طالب المقام الذي قام به،

فانطلق النبي إلى مكة فقال: رأيت الناس حديثي عهد بكفر وجاهلية، ومتى أفعل هذا به، يقولوا صنع هذا بابن عمه))[١].

ويبدو من هذا الحديث أن الأمر صدر إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قبل حجة الوداع، وتُرك إليه تعيين وقت الصدوع به، فكان يتهيّب التعجيل به؛ لئلاّ يفسّر على غير وجهه فيفقد قيمته التأريخية. فكان لابدّ من التسويف حتى يتم له اتخاذ جميع ما يحتاجه الأمر من تمهيد.

وسار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مكة، وسار معه الخلق الكثير من المسلمين، بعد أن آذنهم بالمسير إلى الحج، فتجمعوا لديه من هنا وهناك، وقد قدّرَ موكبه إذ ذاك بمائة وعشرين ألفاً[٢].

وخرج معه ابن عباس فيمن خرج من صغار المسلمين، وهو مأخوذ بروعة هذا الموكب العظيم، وما يطغى عليه من التهليل والتكبير والتسبيح والدعاء، وما إلى ذلك من معالم الروح الإسلامية. وبالطبع كان لا يفارق رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في رواح ولا مغدى، وقد أشحذ فكره وقلبه لوعي كل ما يصدر عنه، سواء فيما يتعلق ببطله أم بشؤون مبدئه، وبخاصة وقد أقبل على طقوس لم يكن يعرف عنها من قبل كل ما فيها من خصوصيات.

وبلغوا مكة فخرجت -كما تقتضي العادة- بأجمعها لاستقبال الموكب الرائع، وخرج -بالطبع- فيمن خرج أصحابه ولِداته، وخفّ إلى استقبالهم عادة بشئ من الشوق، وداخله شئ من الزهو، لما يرى فيهم من الدهشة

---

(١) الغدير ج١: ٥٢ نقلاً عن الحافظ المحاملي في أماليه.

(٢) أنظرتذكرة الخواص -المطبعة العلمية، النجف، ط٢، سنة الطبع ١٣٦٩هـ- : ٣٥.

بما بلغه الإسلام -موضع أحاديثهم السابقة- من القوة والمكانة، وربّما وجد في نفسه ما يرفعها عن مستوى هؤلاء؛ لقربها من مصدر التشريع وأخذها بأطراف من المعرفة واسعة لم يكن لهم إلى إدراكها من سبيل، ووجد فيها معالم رجولة لم يجد ملامحها في أصحابه فهم إذاً ما يزالون أطفالاً وهو في مستوى الكبار.

وكان -كما عوّدنا من قبل- قوي الملاحظة حاضر الفكر سريع الحافظة، يسجّل كل ما يقع عليه نظره من شؤون الحج وغيرها من الملابسات، فكان يحدّث أن رسول الله أهلّ بالحج عند الظهر من ذي الحليفة، ويحدّث عن لون تلبيته فيقول: ((كان يقول: لبَّيك اللهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)). وقد أذن له فيمن أذن له من أهل الضعف نساءً وأطفالاً أن يأتي قبل حطمة الناس إلى منى فيرمي.. قال: ((وجعل يلطّخ أفخاذنا ويقول:((يا بنيَّ لاترموا حتى تطلع الشمس))[(١)]، وكان هو يلقط لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الحصى الصغار بعد أن أمره بذلك يقول: ((فلما وضعتها في يده قال: نعم بأمثال هؤلاء، وإياكم والغُلُو، إنما هلك من كان قبلكم بالغُلُو في الدين))[(٢)]. وهكذا سجّل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى أمثال هذه الكلمات التعليمية، ولم يترك الحديث عن أكثر ما جاء في أمور الحج من تعاليم.

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ قسم١: ١٢٥.

(٢) المصدر السابق ج٢ قسم١: ١٣٠.

ولم يكن بطله وابن عمه علي(عليه السلام) مع الموكب الفخم حين خرج من المدينة، وقد كان على رأس جيش بعثه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى اليمن، ولمّا أنجز مهمّته عاد الإمام(عليه السلام) مسرعاً ليلحق بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأمّر بعض أصحابه على ذلك الجيش،وقد لحق به بمكة بعد أن أهلّ كما أهلّ رسول الله وشاركه (صلى الله عليه وآله وسلم) بهديه.

وجاء ذلك الجيش فخرج الإمام(عليه السلام) لاستقباله ، وما أدري.. أخرج صاحبنا معه وشاهده مع الإمام (عليه السلام) وعليه ما عليه من الحلل التي جاء بها من اليمن؟ ثم شاهد الإمام (عليه السلام) كيف غضب وأنكر عليهم هذا التصرف قبل أن يلتقوا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وكيف أخذها منهم واحدة واحدة وهم مغضبون؟. وشاهد بعد ذلك كيف شكوه إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فأغضبه ذلك وخطب فيهم خطبته المعروفة التي قال فيها: ((يا أيها الناس لا تشكوا علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله وفي سبيل الله))[1].

ثم ما أدري.. أقدّر صاحبنا في نفسه أن هذه الخشونة وعدم التساهل في أمور الدين ستكون من عوامل إبعاد الإمام(عليه السلام) عن الحكم؟. والذي أخاله أنه شاهد وقدّر -بحكم ذكائه واهتمامه ببطله- كل ذلك.

وما أدري أيضاً.. كيف كان شعوره وهو يسمع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يتحدّث إلى المسلمين بخطبته المعروفة، وهو -بالطبع- حاضر؛ لما نعرفه عنه من ملازمته له (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد أوقف

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٣: ١٣٤.

(صلىا لله عليه وآله وسلم) ربيعة بن أمية بن خلف تحت صدر راحلته ليقوم بنقل صوته إلى هذه الجماهير.

ونظراً لأهمية هذه الخطبة التأريخية -واهتمام صاحبنا عادة بما جاء فيها من تسجيل وتلخيص لأهم بنود التشريعات الإسلامية التي ترتبط بالشؤون الاجتماعية من ناحية، وبالتمهيد لإعلان بلاغه العام في شؤون الخلافة من بعده من ناحية أخرى- سنورد أهم ما جاء فيها من فقرات، متمثلين صاحبنا في الحضور، ومحاولين التماس تأثيرها على شعوره.

قال (صلىا لله عليه وآله وسلم): ((يا ربيعة قل: يا أيها الناس إن رسول ا لله يقول: لعلكم لا تلقوني على مثل حالي هذه وعليكم هذا، هل تدرون أيّ بلد هذا؟ وهل تدرون أيّ شهر هذا؟ وهل تدرون أيّ يوم هذا؟)).. تأملوا هذه اللغة التقريرية وتأثيرها على نفوس الجماهير، وهم يستمعون إليها ويجيبون بصوت واحد، وعيونهم شاخصة لشفاه النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم): ((نعم هذا البلد الحرام والشهر الحرام واليوم الحرام))، لينظروا بعد ما يريد بهذا الاستفهام.. قال(صلى ا لله عليه وآله وسلم): ((فإن ا لله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة بلدكم هذا وكحرمة شهركم هذا وكحرمة يومكم هذا، ألا هل بلّغت؟))، وهذا الاستفهام التقريري أيضاً تأملوه.. كيف يؤكد هذا التشريع، ويمكّنه من نفوسهم، ويتركهم يجيبون بصوت واحد: (نعم)، قال: ((اللهم اشهد))، ثم قال: ((واتقوا ا لله، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها))، ثم قال(صلىا لله عليه وآله وسلم) -وقد لخّص أهم الأسس التي ترتكز عليها أيّة عدالة اجتماعية واقعية-: ((الناس في الإسلام

سواء، الناس طف الصاع لآدم وحوّاء، لا فضل لعربي على عجَمي ولا عجَمي على عربي إلاّ بتقوى الله، ألا هل بلّغت؟)).

وما أدري.. كيف كان وقع هذا الكلام على نفوس الكثير من أولئك الذين دخلوا في الإسلام أخيراً وهم مثقلون برواسب التعاظم بالآباء، وستر جوانب النقص فيهم بادّعاءات هذا الشرف الكاذب، ومحاولة إعطائهم بعض الميزات لذلك، وإذا بهذا التبليغ يشجب هذه الادّعاءات من الأساس، ويريهم أن الإسلام لا يعترف بالشرف العنصري وأن الناس أمامه شرع سواء، ثم أكّد(صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الحقيقة فقال: ((لا تأتوني بأنسابكم واتوني بأعمالكم، فأقول للناس هكذا ولكم هكذا ألا هل بلغت، قالوا: نعم))[1]. وهنا أعتقد أنها خرجت تتعثر من بعض الأفواه بينما انطلقت من بعضها الآخر سريعة عالية تملأ الفضاء، ثم أراد أن يلاحق هذه النزعات فيقضي على أهم ما لها من عوامل فقال: ((كل دم كان في الجاهلية موضوع تحت قدميّ)) .ولم يكتف بذلك بل أعطاهم درساً عملياً لتطبيقه على نفسه وأسرته أولاً؛ لئلاّ يقال بأن التشريعات الإسلامية تجامل فريقاً على حساب فريق اسمعوه: ((وأول دم أضعه دم آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب -وقد سبق أن قتله بنو سعد- ألا هل بلّغت، قالوا: نعم)). وهنا أيضاً أعتقد أنها لم تخرج من جميع الأفواه على حد سواء، وما أكثر الدماء المطلولة في الجاهلية، وما أكثر ما أطلّ منها في سبيل الإسلام بسيف الإمام(عليه السلام)، والإسلام يأتي فيشجب كل ذلك ويجعلها نسياً منسيّاً.

---

(١) تأريخ اليعقوبي -مطبعة الغري، النجف، سنة الطبع ١٣٨٥هـ- ج٢: ٩١.

إن هذا الكلام ليصعب سماعه على كل عربي يعيش برواسب الجاهلية، وبخاصة إذا لم يكن في الإسلام عريقاً.

ثم يأتي(صلىا الله عليه وآله وسلم) إلى عامل آخر، كان مثاراً للتفاوت والإثراء غير المشروع فيشخّصه بكلمة واحدة، قال: ((وكل ربا كان في الجاهلية موضوع تحت قدميَّ هاتين وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب)). وهنا نلمح صاحبنا وقد استشرف لينظر وقع هذا الكلام على أبيه، وهو يعلم كم كان له من الديون الربويّة في أعناق الناس في الجاهليـّة، والنبي(صلىا الله عليه وآله وسلم) يضربه مثلاً لتنفيذ هذا التشريع، وكأنـّه يقول.. لو كان يعرف الإسلام استثناءً في الحكم لحساب مخلوق، لكان العباس خير من يراعى في هذا السبيل ؛ لقربه من النبي(صلىا الله عليه وآله وسلم)، ولكنّ النبي(صلىا الله عليه وآله وسلم) يضرب به مثلاً لصرامة التنفيذ ليدلّهم على أن محمداً لا يراعي في تطبيق أحكامه أيَّ شخص كان، وكأنّه(صلى ا الله عليه وآله وسلم) يريد أن يومئ إلى أنه كما لا يجامل في سبيل الإسلام قرابة قريبة منه،لا يجامل عليها ماحباها الإسلام من حقوق، ثم قال(صلىا الله عليه وآله وسلم) -وهو يحاول القضاء على عامل انحلالي آخر كان ينخر في جسم المجتمع العربي، وهو عامل احتقار المرأة وعدم الاعتراف لها بأيّ حق-: ((أوصيكم بالنساء خيراً، فإنما هنّ عوارٍ عندكم، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنما أخذتموهن بأمانة ا الله واستحللتم فروجهنّ بكتاب ا الله، ولكم عليهنّ حق ولهنّ عليكم حق كسوتهنّ ورزقهنّ بالمعروف، ولكم عليهنّ أن لا يُوطئن فراشكم أحداً، ولا يأذنَّ في بيوتكم إلاّ بعلمكم وإذنكم، فإن فعلن شيئاً من ذلك فاهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ ضرباً غير مبرح،

ألا هل بلّغت؟، قالوا: نعم، قال: اللّهم اشهد))[1]، ثم قال بعد حديث -وقد تمكّن من نفوس القوم-: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً مضلّين يملك بعضكم رقاب بعض، إني قد خلّفت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا هل بلّغت؟، قالوا: نعم، قال: اللّهم اشهد، ثم قال النبي -مؤكداً ذلك-: إنكم مسؤولون فليبلّغ الشاهد منكم الغائب))[2].

ورواية الصواعق المحرقة:((إني أوشك أن أُدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثّقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا بِمَ تخلّفوني فيهما))[3].

والملاحظ هنا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يصرّح باسم الإمام(عليه السلام)، ولعله أراد أن يختبر موقع هذا الكلام من نفوسهم ويمهّد به لإصدار بلاغه في وقته، وهنا أرجو أن نلمس ما يومئ إليه هذا التمهيد من محاولة تغيير ذهنيتهم عن الحكم وتفسير موقفه(صلى الله عليه وآله وسلم) تجاه ابن عمه بالاستجابة للنزعة القبلية، فهو أولاً شجب كل نزعة جاهلية قبلية، فيما مهّد به من كلام؛ ليلمّح إلى أنه لم يندفع إلى اختيار أهل بيته للخلافة بدافع عاطفي، وإنما كان ذلك لتمثّل روح الإسلام بهم، ووعيهم لجميع

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج٢: ٩٢.

(٢) المصدر السابق، وانظر صحيح مسلم ج٧: ١٢٣، والمستدرك على الصحيحين ج٣: ١٤٣.

(٣) الصواعق المحرقة -دار الطباعة المحمدية، مصر، سنة الطبع ١٣٧٥هـ- : ١٤٨.

ما جاء في الكتاب، وفهمهم لأساليب تطبيقه. ولا يراد من الحاكم إلاّ أن يفهم روح الأنظمة والقوانين ويتقيّد بها ولا يحيد عنها مهما كلّف الأمر، وقد كنّى عن كل ذلك بعدم افتراقهم عن الكتاب. وأيّة ضمانة لذلك أقوى من إخبار اللطيف الخبير؟!، ثم أرجو أن نلمس هذه الإيماءة الخفيفة إلى ما ينطوي عليه من التخوّف عليهم من عدم الاستجابة لهذا النداء بقوله: ((فانظروا بِمَ تخلّفوني فيهما)). وكم كان مهمّاً لو قُدّر لنا أن نعرف أثر هذه الخطبة في نفوس المسلمين، وفي نفس صاحبنا على الخصوص، وإن كنت واثقاً بأنه تأثّر بها إلى حد بعيد. وغيّرت كثيراً من نظرته القبليّة -لو قدّر لها أن تكون فيه بحكم طفولته ونشأته بمكة، وإلفته للتفاخر مع أصحابه وَلِداته من قبل- وجعلته ينظر القضية من زاوية أخرى.. زاوية المصلحة التي نظرها النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) للمسلمين، باختيار عترته لشؤون الولاية العامة.

أما المسلمون.. فالذي أعتقده أنها لم تهن على الكثير منهم؛ لما وجدوا فيها من محاربة كثير من ميولهم ونزعاتهم -على اختلافها واختلاف ما جاء فيها من تعاليم- وبخاصة أولئك الذين كانوا لايرون في الإمام(عليه السلام) ما يوافق ميولهم في الحكم، ولا يسيغون له خشونته وعدم تسامحه في تطبيق ماجاء في الإسلام من تعاليم. وبالطبع كان صاحبنا نشيطاً في تتبّع هذه الانطباعات، ومعرفة مدى ما تحدثه من نشاط في معارضة هذا التشريع.

والذي يبدو لي أن نشاط المعارضة كان منصبّاً على التشكيك في مدلول هذا الكلام، بلحاظ أنه لا يفيد الإلزام، وسنرى فيما بعد.. من تأكيدات النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في حادثة الغدير، واندفاعة

ابن عباس إلى التصريح بأنها وجبت في أعناق القوم، ما يكشف عن بعض هذه الخطوط وأمثالها من التشكيكات.

وكانت هذه الحجة هي حجة الوداع فيما يسمّيها الأصحاب؛ لما استشعروه من عدم عودة النبي(صلىا لله عليه وآله وسلم) إليها. وكان صاحبنا بعد ذلك يكره لها هذه التسمية ويسمّيها بحجة الإسلام، وكأنّه لما تحضره كلمة الوداع من إيذان بموت النبي (صلى ا لله عليه وآله وسلم) وما جرّه عليهم من ملابسات سنأتي على بعضها في موضعها من هذا الحديث، وسمّاها بعضهم بحجة البلاغ؛ لكثرة ما بلّغ فيها النبي (صلى ا لله عليه وآله وسلم) من أحكام وبخاصة في خطبته السابقة التي كان يكرر فيها قولته هل بلّغت؟.

البلاغ العام

وخرج النبي (صلى ا لله عليه وآله وسلم) من مكة ولم يقم بها -ولعل صاحبنا كان يودّ أن يقيم قليلاً ليتزوّد من الذكريات التي توحيها ملاعب صباه- وكان (صلىا لله عليه وآله وسلم) يكره النزول بها، وقد سئل في ذلك فقال: ((ما كنت لأنزل بلداً أُخرجت منه))[1]. فخرج معه المسلمون، وخرج فيمن خرج منهم صاحبنا وأسرته، وهو قلق -عادة- لتأخّر النص والتصريح باسم بطله، ولعله قدّر في نفسه أن الفرصة ستفلت منهم والمسلمون سيتفرقون وتذهب القبائل إلى مواضعها، وإذا تفرقوا صعب

(١) تأريخ اليعقوبي ج٢: ٩٢.

جمعهم بعد ذلك. ومثل هذا الأمر لا يُصدع بـه عـادة على غـير أكـبر عـدد ممكن من الناس في مختلف الجهـات.

ويفاجـأ النبـي (صلـى ا لله عليـه وآلـه وسـلم) -وقـد أشـرف علـى غدير خم، وكاد الركب يتفرق لبلوغه مفـترق الطـرق- بـالوحي يسـتوقفه، ويأمره بالتبليغ، ويهدده على الترك، ويضمـن لـه العصمـة مـن النـاس، بهـذه اللهجة الرفيعة..

﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل فما بلّغـت رسالته وا لله يعصمك من الناس﴾[١].. وماذا يصنع أمام هذا الأمر الصـارم؟ وهل يملك له(صلىا لله عليه وآله وسلم) ردّاً وهو يتهدده بالحرمان من شرف النبوة؟! وأيّ تهديد أبلغ من هذا التهديد **﴿فإن لم تفعل فما بلّغت رسـالته﴾** ولماذا يتخـوف وقـد ضمـن لـه العصمـة مـن النـاس؟ وهـل بعـد ضمـان ا لله ضمان؟.

وقدحدّث المؤرخون أن النبي(صلىا للهعليهوآله وسلم) فرّق عنه الحرس بعد نزول هذا الوعد[٢]. ويبدو من ذلك أنه كان(صلى ا لله عليه وآله وسلم) يتخوّف على نفسه من إعلان هذا البلاغ.

ويقف النبي(صلىا لله عليه وآله وسلم) ويقف مَن حواليه، ويبعث على مَن تقدّمه من الركب ليعود به، وعلى مَن تأخر عنه ليسرع به، وعلى وسطه ليوقفه، ويدهش الجمع لذلك ؛ فليس المنزل بمنزل استراحة ولا الجـو يسـاعد

---

(١) المائدة : ٦٧.

(٢) انظر تفسير الطبري -مطبعة مصطفى البـابي، مصـر، ط٢، سـنة الطبع١٣٧٣هـ- ج٦: ٣٠٨.

على ذلك فقد كان الوقت ضحى والحرّ شديد، ويجتمع الناس ويتساءلون، ويهتم صاحبنا ويتساءل، وإذا بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يقطع عليهم كل تساؤل بالخروج إليهم، وهو آخذ بعضد علي‌عليه‌السلام.. ولنترك الحديث لابن عباس فهو أبلغ على أداء ما نريد، وليس الشاهد كالغائب -كما يقولون-.

قال: ((لما أمر الله رسوله أن يقوم بعلي فيقول له ما قال، فقال: ياربي إن قومي حديثو عهد بجاهلية. ثم مضى بحجه فلما أقبل راجعاً ونزل بغدير خم أُنْزِلَ عليه:﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك..الآية**﴾. فأخذ بعضد علي فقال: أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟! قالوا: بلى يا رسول الله قال: اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأعن من أعانه واخذل من خذله وانصر من نصره، وأحبَّ من أحبّه وابغض من أبغضه))(١). وحسب صاحبنا -وهو من هو بذكائه ودقة معرفته- أن يرى في هذا الكلام وفي هذا الدعاء -بما احتواه من ملابسات- نصاً على الإمام(عليه السلام) لا يقبل الأخذ والردّ، وفيه من الإلزام بالإطاعة ما يدفع أيّة شبهة في هذا السبيل، وأين مجال التأويل؟! والنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يبدأ أولاً فيأخذ عليهم الإقرار له بأنه أولى بهم من أنفسهم، وكأنه يذكّرهم بهذا الحق المجعول له

(١) الغدير ج١: ٥٢، وانظر حديث الغدير في البداية والنهاية ج٧: ٣٤٧، والمستدرك على الصحيحين ج٣: ١٣٤، وذخائر العقبى: ٦٧، والاستيعاب ج٣: ٣٦، وغيرها.

بآية ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[١]، فإذا أقرّوا بذلك، بدأ فأعمل هذا الحق باختياره الأصلح لهم، والأقدر على إدارة شؤونهم، ثم أعطاه هذا الحق المجعول له، وأبلغهم ذلك بهذه الصيغة الرائعة -اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه- ثم أعقبه بهذا الدعاء الذي لا يليق بغير ولاة الأمور، فهو يدعو لمن والاه وأعانه ونصره وأحبه، بالموالاة والإعانة والنصرة والحب من الله، وعلى من عاداه وخذله وأبغضه بمعاداة الله وخذلانه وبغضه، ثم حسبه من كل ذلك لأن يندفع إلى التصريح بقوله: ((وجبت والله في رقاب القوم))، كما جاء في تتمّة هذه الرواية.

وقد جاء في الكثير من الأحاديث[٢] أن الله تبارك وتعالى لم يترك الحفل يتفرق دون أن يباركه بآية من كتابه العزيز تصلح أن تكون مادة دستورية لأعظم عيد يمرّ على المسلمين وذلك بقوله... ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[٣]. وأيّ عيد أعظم من إتمام النعمة وإكمال الدين؟! وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة. وقد حدّث أبو سعيد الخدري أن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال -بعد نزول الآية-: ((الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتي وبالولاية لعلي، ثم قال: اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله))[٤].

---

(١) الأحزاب : ٦.

(٢) انظر الغدير ج١: ٢٣٢-٢٣٨.

(٣) المائدة : ٣.

(٤) مناقب الخوارزمي -المطبعة الحيدرية، النجف، سنة الطبع ١٣٨٥هـ- :٨٠.

وقام المسلمون وهم يهنّئون الإمام(عليه السلام) على ما حباه الله من هذه النعمة، وشاهد صاحبنا -فيمن شاهد- عمر بن الخطاب وهو يقول له: ((هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن))(١).

ولاهتمام ابن عباس بهذا الحدث العظيم ؛ لارتباطه ببطله سابقاً، ومولاه -بنص هذا الحديث- لاحقاً، فقد حدّث عنه جملة وتفصيلاً، وورد على لسانه عدة مرّات، كما تكرر عند ذكر بعض ملابساته معه من حديث التخوّف من اتهام قومه له بالمصانعة لحداثة عهدهم بالجاهلية وقولته: ((وجبت والله في أعناق القوم)). وهي كلمة تصوّر لنا مدى فهمه للهجة الإلزام من كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). والذي أخاله أنها لم تصدر منه لو لم يشاهد التشكيك من بعضهم، في دلالة حديث الثقلين السابق على ما يريده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من إلزامهم بالولاية لأهل البيت (عليهم السلام).

وبهذه المناسبة نذكر أن حديث الثقلين ورد على لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمضمونه السابق في خطبة الغدير، فيما جاء عن غير ابن عباس وكأنه إنما ورد ليربط بين هاتين الواقعتين.

وقد ذكروا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبة مطوّلة تشتمل على تمهيدات وتأكيدات أوفر قالها في هذا اليوم التأريخي ولم يذكرها ابن عباس(٢). وكأنه قد اجتزأ منها بما يهمّه من نتائجها.

---

(١) البداية والنهاية ج٧: ٣٤٩.

(٢) انظر الصواعق المحرقة: ١٢٠.

وبما يجب أن يذكر أن هذه الحادثة قد أخذت من اهتمام المحدّثين والرواة ما لم تأخذه أيّة حادثة أخرى، فقد أوصلها صاحب كتاب الغدير -في حدود تتبّعه وهو شخص واحد- إلى مائة وعشرة من أعاظم الصحابة من طرق أهل السنّة[١]، فما رأيكم بروايتها من طرق الشيعة، وأكثر طرقها بين صحيحةوموثّقةوحسنة،وقد سجّلها شاعرالنبي(صلىا الله عليه وآله وسلم) -فيما حفظ ابن عباس- حسان بن ثابت بأبيات من الشعر أنشدها المسلمين في ذلك اليوم جاء فيها..

فقال له قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا[٢]

وتتابع على ذكرها مئات الشعراء في مختلف العصور، واعتبر آل البيت هذا اليوم من أهم أعيادهم، والتزمه شيعتهم حتى هذا العصر.

ولما تمّ كل شئ نهض النبي (صلى ا الله عليه وآله وسلم) بالمسلمين ليواصل سيره إلى المدينة، ونهض معه صاحبنا وهو في غاية النشوة والاطمئنان؛ لاعتقاده -فيما أعتقد- بأن الأمر قد تم لابن عمه وبطله، وليس بعد بيان النبي (صلى ا الله عليه وآله وسلم) بيان، ولا بعد هذه التأكيدات مجال للشك والإرتياب، وربّما كان هذا الاعتقاد سائداً شائعاً بين عامة المهاجرين وجُلّ الأنصار.. فقد حدّث الزبير بن بكار قال: ((وكان عامة المهاجرين وجُلُّ الأنصار لا يشكّون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول ا الله(صلىا الله عليه وآله وسلم)))[٣]، وقال معاوية في كتابه لمحمد بن أبي بكر:

---

(١) انظر الغدير ج١: ١٤ -٦١.

(٢) مناقب الخوارزمي: ٨٠-٨١.

(٣) الموفقيات -تحقيق سامي مكي العاني، مطبعة العاني، بغداد، سنة الطبع ١٩٧٢م-: ٥٨٠.

((فقد كنا –وأبوك معنا– في حياة نبيّنا نعرف حق ابن أبي طالب لازماً لنا))[١]. وبالطبع كان شعور المهاجرين والأنصار وعدم شكّهم بأن الأمر سيكون بعد النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) للإمام(عليه السلام) واقعاً بعد هذه الحادثة، كما أن شعور معاوية –ومن حدّث عنه بضمير الجمع– بلزوم حقه لم يكن عادة إلاّ بعد هذا الإلزام.

والذي أعتقده أن هذه الحادثة كانت من بواعث مضاعفة إلفته للإمام(عليه السلام) وشدة تعلّقه به، ومثل هذا الأمر يملك عادة عواطف أمثاله من المراهقين، وربّما بلغ بها إلى درجة تشبه العبادة والفناء في البطل، وهي درجة يصعب على الكبار تصوّرها كما سبق أن تحدّث إلينا القوصي.

طرق المعارضة

وكانت الفترة بين واقعة الغدير وموت النبي(صلىا لله عليه وآله وسلم) لا تبلغ ثلاثة شهور على أكثر تقاديرها، وهي فترة كافية لأن تعيد لحزب قريش وعيه ورشده بعد هذه الصدمة، وتوسع من آفاقه للعمل على إحباط هذا الأمر مهما كلف الحال، وبخاصة وقد انضم إليه كثير من القرشيين الموتورين، ممن لم تسبق لهم هجرة ؛ لدخولهم في الإسلام بعد الفتح، وربّما كان الكثير منهم قد جاء مع النبي(صلىا لله عليه وآله وسلم) من مكة،

(١) جمهرة رسائل العرب –مطبعة مصطفى البابي، مصر،ط١،سنة الطبع ١٣٥٦هـ– ج١: ٥٤٥.

وفي مجيئه هذا وهو غير مزوّد بما يركّز أفكاره الإسلامية في أعماقه، وكانت لهم إلى إحباطه خطوات..

(أولاها): التهوين من شأن أهل البيت في نفوس الأنصار، والتطاول عليهم والاستهانة بمركزهم من قريش. وقد بلغ بهم التطاول أن شبهوهم بالكناسة، حتى قالوا عنهم: وما مثل محمد في أهل بيته إلاّ كمثل نخلة في كباء. وقد تضايق بعض الأنصار فشكوهم إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم). حدّث عبد المطلب بن ربيعة قال: ((أتى أناس من الأنصار النبي(صلى الله عليه وسلم) فقالوا: إننا لنسمع من قومك حتى يقول القائل منهم: إنما مثل محمد مثل نخلة نبتت في كباء))[1]، وحتى أنهم جاهروا بهذا القول أمام صفية بنت عبد المطلب، وقد اجتمع بعضهم عندها وجعلوا يتفاخرون ويذكرون الجاهليّة، فقالت صفية: ((منّا رسول الله، فقالوا: تنبت النخلة أو الشجرة في الأرض الكبا، فقالت: وما الكبا؟ قالوا: الأرض التي ليست بطيّبة، فذكرت ذلك صفية للنبي(صلى الله عليه وسلم) فغضب وقال: يا بلال هجّر بالصلاة، فهجّر فقام(صلى الله عليه وسلم) على المنبر فنادى بصوت فقال: ((أيها الناس من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، قال: انسبوني، قالوا: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: ما بال أقوام يتذلون أهلي فوالله إني لأفضلهم أصلاً))[2].

وما كان (صلى الله عليه وآله وسلم) ليغضب لدوافع قبيلته، بل أدرك ما يكمن وراء هذه الألفاظ من محاولة تأخيرهم حقهم من هذه الطريق،

---

(١) مسند أحمد ج٤: ١٦٦.

(٢) ذخائر العقبى: ١٤.

وكأنهم يستثيرون في نفوس الأنصار، من رواسبهم التي تأبى عليهم أن يملك أمورهم من هو أحط منهم نسباً، ويبدو أنهم تجاوزوا بذلك إلى النيل من الإمام(عليه السلام) نفسه والتصريح بأنهم سوف لا يطيعونه ولا يوالونه، وربّما صرّح بعضهم ببغضه، وبالطبع كانت هذه الأحاديث تبلغ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فيرد عليها بأمثال: ((من أحبّ علياً فقد أحبّني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن آذى علياً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل))[١]، و((من أحبّ علياً فقد أحبّني ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل))[٢]، وفي رواية عمار بن ياسر زيادة: ((ومن تولاه فقد تولاني ومن تولاني فقد تولى الله))[٣]، وفي حديث أبي ذر: ((من أطاعك فقد أطاعني ومن أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاك فقد عصاني))، وفي بعضها زيادة: ((ومن عصاني فقد عصى الله))، وفي رواية أخرى: ((يا علي من فارقني فقد فارق الله ومن فارقك فقد فارقني))[٤]، وبالطبع كان صاحبنا يسمع نظائر هذه الأحاديث ويحدّث بها، وقد جاء عنه أنه قال: ((أشهد بالله لسمعته من رسول الله يقول: من سب علياً فقد سبني، ومن سبّني فقد سب الله، ومن سب الله أكبّه الله على منخريه))[٥].

---

(١) ذخائر العقبى: ٦٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق: ٦٦.

(٥) المصدر السابق: ٦٥.

وهذه الأحاديث بمضامينها متواترة، وهي لا تثار عادة دون أن يكون لها مواضع للإثارة، وإلاّ فمن البعيد جداً أن يحدّث بها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ابتداءً وبلا أيّة مناسبة على أن بعضها صرحت بمناسبتها، ففي حديث بريدة -وكان يبغض علياًعليه السلام ويقع فيه-: ((لا تقع في علي فإنه مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي))[١]، وفي رواية عمرو بن شاش الأسلمي، وكان من أصحاب الحديبية، وقد شكا علياًعليه السلام في مسجد النبي بعد عودته من اليمن لموجدة حدثت بينهما هناك، وقد بلغ رسول الله فحدّ النظر إليه فقال: ((أما إنه والله يا عمرو لقد آذيتني، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون أعوذ بالله والإسلام أن اؤذي رسول الله، فقال: بلى من آذى علياً فقد آذاني))[٢].

ويبدو أن الأزمة بين حزب بني هاشم وحزب قريش قد تطورت وأصبحت مكشوفة لدى الجميع، وتجاوزت حتى حدود المجاملة الظاهرية، فقد كان القرشيون إذا شاهدوا هاشمياً عبسوا في وجهه، وقطعوا حديثهم من بينهم إذا كانوا يتحدثون -وبالطبع- فهم يقطعون الأحاديث التي تمس شؤون الخلافة وملابساتها، وإلاّ فما يدعوهم إلى قطع الأحاديث إن كانت من الأحاديث المتعارفة لديهم!، وقد صح فيما يحدثون أن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال -مستنكراً- وقد شكا إليه العباس ما يلقون من قريش، من تعبيسهم في وجوههم وقطعهم حديثهم عند لقائهم، فغضب (صلى الله عليه وآله وسلم) لذلك غضباً شديداً حتى احمر وجهه

---

(١) ذخائر العقبى: ٦٨ نقلاً عن مسند أحمد والترمذي.

(٢) البداية والنهاية ج٧: ٣٤٦.

وعرق بين عينيه قال: ((والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله))(١).

والذي يظهر أن العباس -وهو الحازم الطلعة- كان يحسّ بشيء من النشاط من قِبَلهم بإحباط هذا العمل، فكان يتتبعهم لذلك، وكانوا هم يضيقون به لإفساده عليهم تشاورهم، وربّما سرى ذلك الإحساس إلى جلّ رجال البيت الهاشمي، فكان نصيبهم نصيب العباس، ففي حديث صحيح عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): ((ما بال أقوام يتحدثون فإذا رأوا الرجال من أهل بيتي قطعوا حديثهم، والله لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبهم لله ولقرابتهم مني))(٢). وما أدري كم كان نصيب صاحبنا من هذه التعبيسات والسكوت!، وكم أثّرت على نفسه بحكم شدّة تحسّسه وهو بهذا السن، وفي مثل هذه القضايا التي ترتبط بيطله رأساً!.

والذي أعتقده أن نصيبه كان وافراً منها؛ لما نعرف في طبعه من الحركة المتواصلة والنشاط المتناهي، ولكنّه ترك التحدّث عنها ؛ لما يشعر فيها من جرح بكبريائه قد لايقوى على هضمه، فهو يحاول تناسيها جهده، وسنعرف في ما بعد أثر هذا الجرح بما يطغى على لسانه من كلام.

(وثانيها): تخلفهم عن جيش أسامة وتمرّدهم عليه وطعنهم في إمرته، وربّما قدّروا في أنفسهم..أن الهدف من إصرار النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على بعث الجيش -بما فيه من شيوخ المهاجرين والأنصار- هو إخلاء المدينة من هذه الوجوه ليصفو للإمام(عليه السلام) وجهها من أقطاب المعارضة،

---

(١) الصواعق المحرقة : ٢٢٨.

(٢) المصدر السابق.

وبالطبع كانوا يقدّرون أن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أن مرض سوف لا يعافى من مرضه هذا، وقد أحسّوا بذلك من إطباق المرض عليه ونعيه لنفسه أكثر من مرة، وقد ألجؤه أن يخرج مغضباً فيستحثّهم على الخروج، ويؤنّبهم على الطعن في إمارته، وقد جاء في كتاب طبقات ابن سعد: ((أن النبي بعث سرية فيهم أبو بكر وعمر واستعمل عليهم أسامة ابن زيد، فكان الناس طعنوا فيه أي في صغره، فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن الناس قد طعنوا في إمارة أسامة وقد كانوا طعنوا في إمارة أبيه من قبله وإنهما لخليقان لها، وإنه لمن أحبّ الناس إليَّ، ألا فأوصيكم بأسامة خيرا))[1].

وهذه هي المرة الأولى التي نشاهد فيها تخلّفاً في أكثر صحابة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عن أمر يصدره في بعث سريّة من السرايا، وإذا كنا قد شاهدنا من قبل اعتراضاً على حكم شرعي أو على تعيين قائد من القوّاد، كما حدثنا(صلى الله عليه وآله وسلم) عن اعتراضهم على تعيين زيد فإن ذلك لم يعد الاعتراض في الكلام فقط، أما التأخّر والتمرّد على القائد فلم يكن إلاّ نادراً ومن أفراد معدودين، كما وقع في وقعة تبوك[2]. على أني لا أرى أن السبب في تخلّفهم عنه هو ما أبدوه في طعونهم في صغر سنّه ؛ لأن هذا السبب لم يزل بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قائماً، مع أنّا لم نعهد في أحد منهم التأخر عن الالتحاق بالجيش والسير تحت لوائه حين أنفذه أبو بكر بعد ذلك، وإن كنت أتخيل أن هذا الطعن

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ٤١.

(٢) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ٥٢.

كان ذريعة للتأخر أولاً وللإيماء إلى أن السن دخيل في قابليات ذوي المناصب الكبيرة ثانياً ؛ ليصح لهم بعد ذلك اعتذارهم -بلسان قادتهم كعمر وأبي عبيدة- من استصغار سن الإمام (عليه السلام) وحمل النفوس -من طريق غير مباشرة- إلى تقبّل مثل هذه الأعذار.

وكم ساءه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يرى هذه السابقة الخطرة.. سابقة التمرّد على أوامره والاعتراض عليها، ولعلّه قدَّر ما يرمون إليه من ورائها، فألحَّ على الإنفاذ أكثر من مرّة، ثم لعن من تخلّف عن جيش أسامة[١]، ومع ذلك فإن الجيش لم يتكامل ولم ينبعث إلى مهمته مدة بقاء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وقد قدّروا هذه المدة بما يقارب الشهر[٢].

(وثالثها): إشاعة بعضهم أن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى إلى غير علي(عليه السلام) بأمور الخلافة ؛ ليكون ذلك بمنزلة النسخ لنصّه الأول، وقد علم بها العباس فأحبطها في الوقت. فقد حدّث المقريزي في النزاع والتخاصم: ((أن العباس خلا بعلي فقال له: هل تعلم أن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى إلى غيرك بشيء، فقال علي: اللّهم لا، فخرج العباس على بغلة له حتى أتى عسكر أسامة بن زيد فلقي أبا بكر وعمر وغيرهما، فقال:هل أوصاكم رسول الله بشيء،قالوا:لا، فرجع إلى علي فقال:إن رسول الله مقبوض فامدد يدك أبايعك ، فيقال: عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله، ويبايعك أهل بيتك فإن مثل هذا الأمر لا يؤخر))[٣].

---

(١) انظر الملل والنحل -مطبعة حجازي،مصر، ط١، سنة الطبع ١٣٦٨هـ- ج١: ١٤.

(٢) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ٩٣.

(٣) النزاع والتخاصم -المطبعة الإبراهيمية، مصر، سنة الطبع ١٩٣٧م- : ٤٩.

ويأبى عليه الإمام(عليه السلام) ويعتذر -كما في رواية أخرى- بأن له في رسول الله شغلاً. وهذا الاهتمام من العباس والتأكد من الإمام أولاً، ثم ذهابه إلى معسكر أسامة لأخذ اعترافهم بعدم الإيصاء لهم، لم يكن عادة بغير منشأ انتزاع -كما يعبّر الأصوليون- والمنشأ هنا لابدّ أن يكون أمثال هذه الإشاعات، والذي يبدو أن هذه الإشاعة بلغت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه فردّ عليها بالتأكيد من نصّه على الإمام، ففي رواية ابن حجر: ((أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال -في مرض موته-: أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فيُنطلق بي، وقد قدّمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا إني مخلّف فيكم كتاب ربي عز وجل، وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فرفعها، فقال: هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض، فاسألوهما ما خلّفت فيهما))[1]. ومثل هذا الكلام لا يحتاج إليه عادة بعد ما سبق نظيره منه (صلى الله عليه وآله وسلم)، لو كانت القضية تسير سيراً طبيعياً، ولم يكن فيها مجال للنقض والإبرام، ولكنّه ما يصنع (صلى الله عليه وآله وسلم) والأمر محتاج إلى التأكيد، ما دامت دواعيه متوفرة بأمثال تلكم الإشاعات، وهنا أرجو أن تتأمل أيضاً في هذه الصيغة فهي كسابقاتها.. همّها التأكيد على اختياره لمنصب الخلافة لم يكن لولا ملازمته للكتاب، وعدم افتراقه عنه حتى يردا عليه الحوض، وماذا ينتظر من الحاكم -كماسبق أن قلنا- أكثر من هضمه لدساتير الحكم، فهماً وتطبيقاً؟ وهل للمسلمين دستور غير ما جاء في الكتاب وما هو بحكمه من سنّة الرسول؟.

---

(١) الصواعق المحرقة: ١٢٤.

ولم يكتف (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا التأكيد، فعمد إلى الوصيّة حيث قال -كما في الموفقيات-: ((أوصي من آمن بالله وصدّقني بولاية علي بن أبي طالب، من تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله، ومن أحبّه فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله عز وجل))[1].

وبالطبع كان صاحبنا يتابع هذه الخطوات، بما عُرف عنه من نشاط، وما كان ليخفى عليه نشاط أبيه العباس في هذا السبيل، وقد زاده ذلك علقة ببطله واهتماماً بأمره، كيف! وهو يرى أباه -وهو من هو بمقامه من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وزعامته في قريش- يخضع هذا الخضوع لابن أخيه، وينشط هذا النشاط لإتمام الأمر له، وقد سمعتم رأيه بالمسارعة إلى البيعة والنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حي؛ ليقطع بها السبيل على كل محاولة لإحباط ذلك.

(ورابعها): وكانت أشدَّ الخطوات على صاحبنا وأمضاها أثراً في أعماقه وهي -فيما يبدو لي- أنها كانت وليدة فشل سابقتها، بعد أن أحبطها العباس بأخذ إقرارهم بعدم الإيصاء لهم، والقضاء على تلك الإشاعة من الأساس، وقد أخذت على أثرها لهجة المعارضة لوناً آخر، ينطوي على التشكيك في وجود بعض الألفاظ في نصوصه مثلاً، وتأويل بعض ما لها من مداليل، وكان الجواب الوحيد من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يثبّت عهده على ورق ليكون مرجعاً للجميع عند

---

(١) الموفقيات: ٣١٢.

الاختلاف[(١)]، وهنا نترك الحديث لابن عباس، فقد شهد هذه الحادثة وحدَّث عنها بقوله لما حُضر رسول الله قال: ((ائتوني بكتف أكتب لكم فيه كتاباً لا يختلف منكم رجلان بعدي، قال: فأقبل القوم في لَغَطهم فقالت المرأة: ويحكم عهد رسول الله))[(٢)]، فالمسألة إذاً مسألة عهد كما هو واضح حتى لهذه المرأة وقد حيل عنه، وقد حدثنا صاحبنا عن كيفية حيلولتهم دونه.. قال: ((لمّا حُضر رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي(صلى الله عليه وسلم): هلمّ أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول: ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي، قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم): قوموا))[(٣)]. وقد كنّى ابن عباس عن قول عمر هنا، ولفظه الصريح -كما في روايات أخر عنه- أنه قال: إن الرجل ليهجر[(٤)]، أو قالوا: هجر رسول الله[(٥)].

---

(١) ((حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر أن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) دعا عند موته بصحيفة ليكتب فيها كتاباً لا تضلون من بعده قال: فخالف عليها عمر بن الخطاب حتى رفضها)). مسند أحمد ج٣: ٣٤٦.

(٢) مسند أحمد ج١: ٢٩٣.

(٣) صحيح البخاري ج٧: ١٢٠.

(٤) انظر سر العالمين لأبي حامد الغزالي -مطبعة الحجر الباهرة، بومبي، سنة الطبع ١٣١٤هـ- :٩.

(٥) انظر مسند أحمد ج١: ٢٢٢.

وهنا نلاحظ أن عمر لم ينفرد بالمعارضة، بل انضم إليه جملة ممن حضر في البيت، وأنهم نجحوا بإيقاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قصده بما أومؤا إليه من إسلوب محاربة هذا الكتاب لو أصرّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على كتابته، وما قيمة كتاب يصدر عن صاحبه وهو في حالة هجر؟!، وكأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لذلك توقّف عن كتابته، وأعلن غضبه عليهم بطردهم من البيت، ويبدو أن صاحبنا قد اعتبر هذه الحادثة هي الأساس في حرمانهم من الخلافة. وحرمان الأمة من الهداية وعدم الضلال، وهي التي حالت بينه وبين ما كان ينيه لنفسه من أحلام دينية أو دنيوية، فيما إذا تسنّم بطله كرسي الخلافة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان إذا ذكرها يبكي حتى يبلَّ دمعه الحصى. يقول سعيد بن جبير: وكأنّي أنظر إلى دموع ابن عباس على خدّه، كأنّها نظام اللؤلؤ، وكان يقول: الرزيّة كل الرزيّة ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب[1]، ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس، فإذا سُئل عن يوم الخميس، نقل هذه القصة، فهو يذكرها حتى بعد عشرات من السنين.

وأظننا -بحكم مسايرتنا له حتى الآن وفهْمنا لمدى علائقه ببطله- استطعنا أن نضع أيدينا على مفتاح هذه العقدة النفسية التي لازمته آثارها في أكثر أيام حياته على نحو ما سترون...

وقبل أن ننتقل عن هذه الخطوة لنلمس نتائجها، أحب أن أنقل لكم حديثاً لصاحبنا مع عمر بن الخطاب في أيام خلافته يلقي أضواءً على بعض ما قلناه..يقول: ((دخلت على عمر في أول خلافته وقد أُلقي له صاع من تمر

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ٣٧.

على خصفة، فدعاني إلى الأكل فأكلت تمرة واحدة، وأقبل يأكل حتى أتى عليه ثم شرب من جر كان عنده، واستلقى على مرفقة له وطفق يحمد الله، يكرر ذلك ثم قال: من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد. قال: كيف خلّفت ابن عمك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر. قلت: خلّفته يلعب مع أترابه. قال: لم أعن ذلك، إنما عنيت عظيمكم أهل البيت. قلت: خلّفته يمتح بالغرب على نخيلات من فلان وهو يقرأ القرآن. قال: يا عبد الله عليك دماء البدن إن كتمتنيها هل بقي في نفسه شئ من أمر الخلافة؟ قلت: نعم. قال: أيزعم أن رسول الله نصّ عليه. قلت: نعم، وأزيدك سألت أبي عمّا يدّعيه فقال: صدق. فقال عمر: لقد كان من رسول الله في أمره ذرو من قول لا يثبت حجّة ولا يقطع عذراً، ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعته من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام، لا وربّ هذه البنيّة لا تجتمع عليه قريش أبداً، ولو وليها لانتفضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله أني علمت ما في نفسه فأمسك، وأبى الله إلاّ إمضاء ما حتم))[1]. ولعل في قوله ((لا يثبت حجّة ولا يقطع عذراً)) -مع اعترافه بوجود القول- امتداداً لما تخيلناه، وإلاّ فسنرى -فيما بعد- أن ابن عباس سيحتج عليه بالنص فلا يملك إلى ردّه سبيلاً.

والذي نعجب منه لباقته في الحديث، فهو لا يكتفي بأن يقول له نعم، بل يزيده -في غير طلب للاستزادة- بأنه سأل أباه عمّا يدعيه فقال: صدق.

وعلى أيٍّ، فالذي يهمنا من هذا الحديث اعتراف الخليفة بأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد أن يصرّح بالنص في مرض الموت فمنعه

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣: ٩٧.

؛لأن قريشاً لا تجتمع عليه، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عرف ذلك فأمسك، وقد سبق لصاحبنا أن حدثنا عن أسلوبه في المنع، وعن مدى ترحيب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) به حين طردهم بقوله: ((قوموا عني)) بعد أن قالوا ما قالوه وكثر لغطهم وغموه كما في رواية كتاب الطبقات[١].

وقد جسّمت هذه الحوادث ونظائرها للبيت الهاشمي هول ما ينتظرهم من مصير، ودبّت إليهم حالة من اليأس والقلق بدأت تظهر على ألسنتهم، ففي حديث أم الفضل زوجة العباس وأم صاحبنا أنها قالت: ((أتيت النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه فجعلت أبكي فرفع رأسه وقال: ما يبكيك؟ قلت: خفنا عليك وما ندري ما نلقى بعدك يا رسول الله، فأجابها (صلى الله عليه وآله وسلم) بتأثر وانفعال: أنتم المستضعفون بعدي))[٢]، وفي رواية ابن سعد في الطبقات: ((إنكم مقهورون مستضعفون بعدي))[٣]، ومن حديث العباس مع الإمام علي عليه السلام :((أنت والله بعد ثلاث عبد العصا))[٤]، يريد إنك ستُمنع من حقك وتُساق بها إلى البيعة سوقاً.

ومن حديث صاحبنا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال لعلي عليه السلام : ((أما إنك ستلقى بعدي جهداً. قال: في سلامة من ديني؟ قال: في سلامة من دينك))[٥]، وفي عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ٣٧.

(٢) مسند احمد ج٦ : ٣٣٩.

(٣) طبقات ابن سعد ج٨ : ٢٠٤.

(٤) المصدر السابق ج٢ قسم٢: ٣٨.

(٥) المستدرك على الصحيحين ج٣: ١٤٠.

و ((عن علي(رض) قال: إن مما عهد إليّ النبي (صلى ا لله عليه وآله وسلم) أن الأمة ستغدر بي بعده))[1]، وقد مرّ بكاء ابن عباس لحادثة الخميس، ولهذا نظائر كثيرة لا يهم استقصاؤها الآن.

ويقال أن العباس وقد استبد به اليأس والهلع، كان يرى أن يمضي ومعه الإمام (عليه السلام) إلى النبي (صلى ا لله عليه وآله وسلم) ليسألاه أن يوصي بهم، إن لم يكن يرى أن الأمر سيكون فيهم، وكان الإمام (عليه السلام) لا يرى ذلك -ومعه حق- لأن أيّة كلمة يفوه بها النبي (صلى ا لله عليه وآله وسلم) ربّما تأخذها التأويلات مأخذاً قد تنتهي بها إلى غير صالحهم، ويبدو من بعض الروايات أن العباس لم يقتنع بوجهة نظر الإمام فذهب إلى رسول ا لله وحده وسأله أن يكلم الناس فأبى عليه (صلى ا لله عليه وآله وسلم)، قال الراوي -والرواية صحيحة-: ((قال العباس: إني أعلم ما بقاء رسول ا لله فينا إلاّ قليلاً، قال: فأتاه. فقال: يا رسول ا لله لو اتخذت مكاناً تكلم الناس منه، قال: بل أصبر عليهم ينازعونني ردائي، ويطؤون عنقي، ويصيبني غبارهم، حتى يكون ا لله هو الذي يريحني منهم))[2]، وهي كلمات تدل على منتهى تأثره، وتحمل في أعماقها ما كان يحسه من سوء المصير.. تأملوا كلمة (ينازعونني ردائي)، وما فيها من كناية رائعة على تجاذبهم لحقه وعملهم على الاستئثار به، وقد عبّر عن مدى تأثير ذلك في نفسه بقوله: (يطؤون عنقي -ا لله أكبر- ويصيبني غبارهم حتى يكون ا لله هو الذي يريحني منهم).

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٣: ١٤٠.

(٢) ذخائر العقبى: ٢٠٤.

وكان لابد لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) -مع هذا الشعور وهذه المقابلة التي لمسها لإحباط تشريعه- أن يحسب للإسلام حسابه، فلا يتركه يذهب ضحية للمشاحنات على الخلافة من بعده، وهو عندما اختار لهم -وما ينطق عن الهوى- أقدرهم على إدارة الشؤون وأكثرهم هضماً لمبادئ الإسلام وأوفرهم عدالة، لم يكن غرضه إرضاء هوى في نفسه -وحاشاه- بل كان غرضه التماس أصلحهم لمبدئه الذي جاهد مر الجهاد في سبيله -ثم لهم أنفسهم- وإذا كانوا هم لا يحسنون أن يفهموا هذه الجهات، أو لا يريدون أن يفهموها على الأقل -لأي اعتبار- فإن عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يحسب للظروف حسابها، فلا يترك لولي عهده مجالاً لأخذ حقه بأي اسلوب كان، وإن أدى ذلك إلى معارك دموية قد يكون من ضحيتها الإسلام نفسه، فإذاً لابد من رسم خطط خاصة يعهد بها إلى وليّه ليسير في حدودها إلى ما يريد ولا يتجاوزها إلى غيرها، وإن أدى ذلك إلى ضياع حقهم من الأساس. وقد حدثنا صاحبنا عن وجود مثل ذلك العهد وإن لم يرسم لنا خطوطه واضحة، ففي حديث له مع معاوية: ((فأما الذي منعنا من طلب هذا الأمر بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فعهد منه إلينا، قبلنا فيه قوله ودنّا بتأويله، ولو أمرنا أن نأخذه على الوجه الذي نهانا عنه لأخذناه أو أعذرنا فيه، ولا يعاب أحد على ترك حقه، إنما المعاب من يطلب ما ليس له، وكل صواب نافع وليس كل خطأً ضاراً))(١).

ومن حديث للإمام (عليه السلام) مع أبي سفيان وقد جاءه ليبايعه: ((إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه، وقد عهد إليّ رسول الله عهداً

---

(١) عيون الأخبار -مطبعة دار الكتب المصرية،القاهرة،سنة الطبع ١٣٤٣هـ- ج١: ٦.

فأنا عليه))[١]، وقد حدّث عن ذلك أيضاً الفضل بن العباس من كلام له مع قريش بعد أيام من حادثة السقيفة يقول: ((وإنا لنعلم أن عند صاحبنا عهداً هو ينتهي إليه))[٢].

أما متى كان ذلك العهد ومتى رسم خطوطه لهم (صلى الله عليه وآله وسلم) فالذي أعتقده أنّه كان في يوم الاثنين.

يوم الاثنين

وجاء هذا اليوم، فكان أفظع يوم يمر لا على صاحبنا فحسب ولا على آل الرسول وحدهم، بل على المسلمين عامّة فقد قدّر لهم أن يفجعوا بنبيهم (صلى الله عليه وآله وسلم) في ضحوته ويفقدوا حظهم من بقائه، وإذا خصّ آل الرسول بمزيد من الأسى فلموقع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من نفوسهم، ولما انتهى إليه هذا اليوم من إنجاز ما توقعوه من حرمان.

وكانت بوادره تؤذن بنتائجه، فها هو بلال يؤذن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بصلاة الغداة، فيقعد به المرض عن الخروج إلى الصلاة، ويصلي بالناس أبو بكر، ويعلم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك فيخرج وهو متوكئ على علي عليه السلام والعباس، ويدرك (صلى الله عليه وآله وسلم) المسلمين قبل أن يتمّوا، فيصلي بهم من جلوس، وتكون هذه الحادثة بعد ذلك مثار اختلاف كبير بين السنّة والشيعة.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٢ : ٧.

(٢) المصدر السابق ج٢: ٨ .

أما أهل السنّة فإنهم يقولون: إن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي أمر أبا بكر بالصلاة، وتختلف بعد ذلك رواياتهم وتتضارب، ويدخلها التناقض من عدة زوايا.

ويقول الشيعة: إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يأمره بذلك وإنما قال: مروا الناس فليصلّوا، فتزيّد متزيّد وتحدّث متحدّث، ورواياتهم في ذلك كثيرة، وربّما وجدوا لهم سنداً في أحاديث أهل السنّة، أمثال رواية أم سلمة القائلة: ((إن رسول الله كان في وجعه إذا خفّ عنه ما يجد خرج فيصلي بالناس، وإذا وجد ثقلاً قال: مروا الناس فليصلّوا فصلى بهم ابن أبي قحافة يوماً الصبح.. الخ))[١] فهي -كما ترون- لا تعني أمراً خاصاً من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لأي أحد، وربّما اعتبروا أم سلمة أقرب إلى الحياد في هذه القضية، لأن بقيّة روايات المسألة كانت تنتهي غالباً إلى عائشة، وفيها تقول: إنه أمر أباها بالصلاة. وعلى أيٍّ فلسنا هنا في صدد محاكمة هذه القضية لنبحثها من جميع أطرافها، والذي نخاله أن خروج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه الحالة المؤلمة -وهو متوكئ على العباس وشخص لم تسمّه عائشة لأنها لا تطيب نفسها له بخير -كما يقول صاحبنا- وسمّاه ابن عباس وقال: إنه علي[٢]- لم يكن طبيعياً ولم يكن لخفة وجدها في نفسه -كما تعلل بعض الروايات[٣]- وأين موضع الخفة وقد خرج ورجلاه تخطّان الأرض من المرض، وصلى بهم من جلوس،

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ٢٢.

(٢) انظر المصدر السابق ج٢ قسم٢: ٢٩.

(٣) انظر المصدر السابق ج٢ قسم٢: ١٧.

وقد كان قبل لحظات لايقوى على الخروج،وأمر الناس أن يصلوا فهل أتته القوة دفعة واحدة؟!! وربّما يقرّب من يقرّب بأنه(صلى الله عليه وآله وسلم) ما كان ليخرج لو لم ير أن دعوة هذا الشخص المعيّن إلى الصلاة في هذا الظرف الدقيق ربّما سيحمّل أكثر من طاقته، فيتذرع متذرع ويتأول متأول، فخرج على هذه الحالة المشجية؛ ليدفع ما ربّما سيتذرّع به المتذرعون بعد حين.

وربّما اتضح هذا المعنى إذا أخذنا برواية أم سلمة والطائفة التي تعضدها، ولا تشير إلى تعيينه شخصاً معيناً للصلاة. على أن هذا المعنى الدال على تأثره بخروجه قد يستطيع أن يجلو لنا خطبته بعد صلاته تلك، فقد توجه إلى الحاضرين بالكلام فرفع صوته وهو يقول: ((أيها الناس سعّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تمسكون عليّ بشيء، إني لم أحلّ إلاّ ما أحلّ القرآن ولم أحرّم إلاّ ما حرّم القرآن))[1].

تأملوا هذه الصورة القاتمة التي رسمها (صلى الله عليه وآله وسلم) لأمته، نيران تسعر وفتن كقطع الليل المظلم، وهي بمثابة نذير شر لما سيحدث من بعده، ثم تأملوا هذا القسم ((إني والله ما تمسكون عليّ بشيء))، والقسم لا يؤتى به عادة إلاّ في مقام التهمة والإنكار ليؤكد به الحقيقة التي يراد إثباتها من ورائه، فهو يقسم أنهم لا يمسكون عليه بشيء، فإذاً المسألة مسألة تهمة من قبلهم -أو بعضهم على الأقل- توجه إليه بأنه خارج على حدود رسالته وحدود القرآن، فهو يؤكد بهذه السلسلة من التأكيدات ((إني لم أحلّ إلاّ ما أحلّ القرآن ولم أحرّم إلاّ ما حرّم القرآن))، ليرفع (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه التهمة عن نفسه، وما أدري إلى أيّ مدى ترتبط

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤: ٣٣٢، وانظر تأريخ الطبري ج٣: ١٩٦.

هذه التهمة بما كان يتخوّفه على قومه من اتهامهم له بالمصانعة في ابن عمه كما سبق لابن عباس أن حدّثنا عنه.

وعاد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى بيته فدعا علياً ليوصيه -والظاهر أن دعوته له كانت بهذا اليوم- فقالت عائشة: ((لو بعثت إلى أبي بكر. وقالت حفصة: لو بعثت إلى عمر. فاجتمعوا عنده جميعاً.. يقول صاحبنا -وهو المحدّث بهذا الحديث-: فقال رسول الله: انصرفوا فإن تك لي حاجة أبعث إليكم))[1]، وهي كلمة تدل على ضجر وسأم من هذه المضايقات، فهم يأبون عليه أن يخلّوا بينه وبين أخيه حتى في هذه الحالة.

وتشتد حالته (صلى الله عليه وآله وسلم) فيكثر من الاستفسار عن علي حتى تقول له فاطمة(عليها السلام): كأنّك بعثته في حاجة! تقول أم سلمة -فيما صحّ عنها من هذا الحديث-: ((والذي أحلف به إن كان عليّ لأقرب الناس عهداً برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، عدنا رسول الله غداة وهو يقول: جاء علي؟ جاء علي؟ مراراً، فقالت: فاطمة(رض) كأنّك بعثته في حاجة، قالت: فجاء بعد. قالت أم سلمة: فظننت أن له إليه حاجة فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب -وكنت من أدناهم إلى الباب- فأكبّ عليه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وجعل يسارّه ويناجيه، ثم قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من يومه ذلك، فكان علي أقرب الناس عهداً))[2].

---

(١) تأريخ الطبري ج٣: ١٩٥.

(٢) المستدرك على الصحيحين ج٣: ١٣٨-١٣٩.

ولعله (صلىا لله عليه وآله وسلم) في هذه المسارّة والمناجاة جمع لوصيه فأوعى، وذكر فيما ذكر له ذلك العهد الذي حدّثنا عنه صاحبنا والفضل، وتحدّث عنه الإمام(عليه السلام) وجعله دستوراً يسير في حدوده إلى المطالبة بحقه، ولا يحيد عنه مهما كلّف الحال، ونظير ما حدّثت به أم سلمة ما جاء عن الإمام(عليه السلام) أنه قال: ((قال رسول ا لله(صلىا لله عليهوآله وسلم) في مرضه: ادعوا لي أخي. قال: فدعي له علي، فقال: ادن مني. فدنوت منه فاستند إليّ فلم يزل مستنداً إليّ وإنه ليكلمني حتى أن بعض ريق النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) ليصيبني، ثم نزل برسول ا لله (صلىا لله عليه وآله وسلم) وثقل في حجري، فصحت يا عباس أدركني فإني هالك. فجاء العباس فكان جهدهما جميعاً أن أضجعاه))[1].

ولكن السيدة عائشة التي كانت لا تطيب له نفساً تأبى عليه هذه المكرمة وتنسبها إلى نفسها، فكانت تحدّث: أن رسول ا لله مات بين سحرها ونحرها. حتى اضطر ابن عباس إلى تكذيبها يقول ابن غطفان :((سألت ابن عباس أرأيت رسول ا لله توفّي ورأسه في حجر أحد، قال: توفي وهو لمستند إلى صدر علي. قلت: فإنّ عروة حدّثني عن عائشة أنها قالت: توفي رسول ا لله(صلىا لله عليه وآله وسلم) بين سحري ونحري. فقال: ابن عباس أتعقل! وا لله لتُوفيّ رسول ا لله(صلى ا لله عليه وآله وسلم) وإنه لمستند إلى صدر علي.. الرواية))[2].

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ٥١.

(٢) المصدر السابق.

وفاة الرسول

وجاءت الساعة المنتظرة فكانت أسوأ ساعة تمر على آل البيت من ذلك اليوم، وقبض رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وأعلن الخبر فسرت في الحضور وجمة طبقت أرجاء البيت ثم ندّت من أحدهم صيحة نبّهت الحاضرين إلى ما أحاط بهم من هول الفاجعة، فتجاوب الصياح من الجميع، وتسامع الناس فأقبلوا يهرعون، وجاء - فيمن جاء - عمر بن الخطاب ومعه المغيرة وكان أبو بكر إذ ذاك بالسنح فدخلا عليه - فيما تحدّث عائشة -: ((وكشفا الثوب عن وجهه فقال عمر: واغشيا ما أشد غشي رسول الله ثم قاما فلما انتهينا إلى الباب قال المغيرة: يا عمر مات والله رسول الله، فقال عمر: كذبت ما مات رسول الله ولكنّك رجل تحوشك فتنة، ولن يموت رسول الله حتى يفني المنافقين...))[1] ثم قام خطيباً فتوعّد أهل النفاق وقال فيما قال -كما في رواية عكرمة-: ((إن رسول الله لم يمت ولكن إنّما عُرج بروحه كما عُرج بروح موسى، لا يموت رسول الله حتى يقطع أيدي أقوام وألسنتهم، قال: فما زال عمر يتكلم حتى أزبد شدقاه...))[2].

وما أدري..أين كان صاحبنا عند موت النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ وهل شاهد ابن الخطاب وهو يشكّك الناس بموته، ويتهدد من يقول

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ٥٤.

(٢) المصدر السابق ج٢قسم٢ : ٥٣، وانظر تأريخ اليعقوبي ج٢ :٩٥، وانظر تأريخ ابن خلدون ج٢ : ٢٦٩، وانظر تأريخ الطبري ج٣ : ١٩٧.

بذلك -كما في رواية أخرى- بالقتل[1] وهل داخله الشك به لهذا الكلام؟. الذي أقرّبه أنه كان حاضراً إذ ذاك وما كان ليغيب عن أمثال هذه المشاهد، وشاهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) وهو يلقي بنَفَسِه الأخير وإنه لمستند إلى صدر علي -كما تشعر به الرواية السالفة-.

وجزع فيمن جزع من آل البيت -وقد يكون من أكثرهم جزعاً- واستمع لحماسة ابن الخطاب، وربّما تأثر فألهته عن التفكير فيما عداها من الشؤون، وود لو أنها تصدق فيرجع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، واسترسل بتلكم الأحلام لولا أن يقطعها عليه صوت أبيه -وهو مَن هو بيقظته وحزمه- وقد رابه ما رابه من أمر هذا التشكيك غير الطبيعي، وتوجس خيفة مما يراد به، فأراد أن يوقفه عند حده بقوله: ((إن رسول الله قد مات فادفنوا صاحبكم، أيميت أحدكم إماتة واحدة ويميته إماتتين؟! هو أكرم على الله من ذلك، فإن كان كما تقولون فليس على الله بعزيز أن يبحث عنه التراب فيخرجه إن شاء الله، ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً، أحلّ الحلال، وحرّم الحرام، ونكح وطلّق، وحارب وسالم، وما كان راعي غنم يتبع بها صاحبها رؤوس الجبال، يخبط عليها الغضاة بمخبطه، ويمدر حوضها بيده، بأنصب ولا أدأب من رسول الله كان فيكم))[2] فيعيده إلى هذه الحقيقة المرة. ولكن ابن الخطاب بقي على حماسته وتهديده حتى جاءه أبو بكر من السنح وخطب خطبته وتلا هذه الآية: ﴿**وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٣: ١٩٨.

(٢) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ٥٣ -٥٤.

ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾[1] فقال عمر - متعجباً-: ((هذا في كتاب الله؟! قال: نعم، -تقول هذه الرواية- فقال: أيها الناس هذا أبو بكر وذو شيبة المسلمين فبايعوه))[2].

وإذا صح مدلولها فإن الدعوة لأبي بكر بالبيعة كانت قبل حادثة السقيفة، ولعل ذلك أقرب لمنطق الحوادث كما سنراه بعد حين، وعلى أيٍّ فإن المهم أن نعرف عن صاحبنا -وهو يشهد هذه الرواية بجميع فصولها- هل استطاع أن يوفق بين إصرار عمر هنا على أنه(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يموت، وإنما غاب كما غاب موسى(عليه السلام) وبين قولته يوم الخميس حين أراد رسول الله أن يكتب لهم كتاباً لن يضلوا من بعده أن الرجل ليهجر وحسبنا كتاب الله، مما يدل على أنه كان حاسباً لموته ألف حساب، ومقدّراً للأمة العصمة من الضلالة -بعد موته- مكتفية بكتاب الله عن هذا الكتاب ؛ لذلك يقول: حسبنا كتاب الله، وهل اعتبرها صدمة نفسية وهي عادة لا تكون إلاّ بعد المفاجأة بالخبر المفجع الذي لم تسبقه بوادره مع أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندهم مريض يكرر نعي نفسه يوماً بعد يوم، ويُعِد أجواءهم لتقبل ذلك، على أن الصدمة في العادة لا تكون إلاّ بعد سماعه للخبر بلا فصل، وهو -كما شاهدتم- يسمع الخبر بهدوء فيأتي مع المغيرة ليكشف عن وجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيقول: واغشياً، ويجيبه المغيرة وهما عند الباب ((مات والله رسول الله))... إلى آخر هذه اللعبة. وهل اعتبرها مع من اعتبرها من الناس ثورة مصطنعة دبرها

---

(١) آل عمران :١٤٤.

(٢) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ٥٤.

هو والمغيرة بمجيئهم ليؤخروا الناس عن التفكر في شؤون الخلافة حتى يجيئ أبو بكر، وإلاّ فما باله لم ينصع إلى العباس وهو ينكر عليه هذه الثورة بتلك اللهجة المركزة التي تنطوي على مرارة الواقع، وانصاع لأبي بكر، وماذا قال أبو بكر أكثر من تلاوته للآية التي تشعر بانقلابهم بعد موته، وهي لا تحدد زمن الموت وهو لا ينكره بتاتاً، بل يقول: حتى تقطع أيدي أقوام وألسنتهم، ثم استفهامه أهذه في كتاب الله، ليصعق بعده كمن صدّق بالخبر كما تحدث بعض الروايات[1]، فينسى كل شئ إلاّ دعوة الناس إلى بيعة أبي بكر ذي شيبة المسلمين.

وعلى أيّ حال فقد أخذت هذه الحادثة مأخذها في التماس المبررات، فهو يقول تارة للمسلمين في اليوم الثاني من بيعة أبي بكر: ((أمّا بعد فإني قلت لكم أمس مقالة لم تكن كما قلت، وإني والله ما وجدتها في كتاب أنزله الله ولا في عهد عهده إليّ رسول الله، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله - يقول الراوي - فقال كلمة يريد حتى يكون آخرنا فاختار الله لرسوله الذي عنده))[2]. فهو هنا يصرح بأنه لم يجد هذه المقالة بكتاب الله ولا بعهد من رسوله، وهو أمام صاحبنا يلتمس بعد حين آية من القرآن يبرر بها موقفه ذاك قال ابن عباس: ((والله إني لأمشي مع عمر في خلافته، وهو عامد إلى حاجة له وفي يده الدرّة، وما معه غيري، قال وهو يحدّث نفسه ويضرب وحشيّ قدمه بدرّته قال: إذ التفت إليّ فقال: يا ابن عباس هل تدري ما كان حملني على مقالتي التي قلت حين توفي رسول الله؟

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٣ :١٩٨.

(٢) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢ :٥٦ وانظر سيرة ابن هشام ج٤: ٣٤٠.

قال: قلت: لا أدري يا أمير المؤمنين أنت أعلم، قال: فإنه والله إن كان الذي حملني على ذلك أني كنت أقرأ هذه الآية ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**﴾[١]، فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها فإنه الذي حملني على أن قلت ما قلت))[٢].

فهي - كما ترون - تسايره خواطرها حتى إلى ما بعد أيام خلافته، حتى إذا وجد آية من القرآن تحتمل الظن بما يريد حمّلها واستند إليها لتبرير هذه الفعلة، ولم يبررها بالدهشة، كما حاول أن يبررها بعد ذلك ابن روزبهان[٣] وغيره.

ومهما يكن من أمر فقد نجح عمر بموقفه هذا وأخر الناس عن التفكير بالخلافة حتى مجئ أبي بكر.. وسنحاول أن نتعرف إلى خطوات الأحزاب الثلاثة التي سبق أن تحدثنا عنها في هذه القضية الهامة.

اجتماع السقيفة

أمّا أهل البيت(عليهم السلام) - وهم أصحاب الحق الشرعي - فقد اجتمعوا - ومعهم بعض كبار أنصارهم كالزبير وعمار والمقداد وسلمان - على صاحبهم وأغلقوا الباب عليهم، واشتغلوا بتجهيز

---

(١) البقرة :١٤٣.

(٢) سيرة ابن هشام ج٤: ٣٤١.

(٣) انظر دلائل الصدق ج٣ قسم١: ٧٢.

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). وقد اختلفت وجهتا نظر زعيمي الحزب علي(عليه السلام) والعباس تجاه هذا الأمر، فالعباس كان يرى أن يستبق الحوادث ويعجّل بالبيعة للإمام(عليه السلام)؛ ليقول الناس: عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بايع ابن عم رسول الله، ثم يبايعه أهل بيته(عليهم السلام)، فهو يقول له -كما تحدّث الرواية- وهم في الدار مشغولون بجهاز النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ((أبسط يدك أُبايعك فيقال: عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ويبايعك أهل بيتك فإن هذا الأمر إذا كان لم يُقَل)) وكان جواب الإمام (عليه السلام) جواب من يتجاهل الأحداث ؛ ليقطع على محدثه سبيل الأخذ والرد، فهو يقول له: ((ومن يطلب هذا الأمر غيرنا))[1]. وفي رواية أخرى: ((أوَيطمع فيها طامع غيري))، فيجيبه العباس -كمن ينطوي على مضض- ((ستعلم))[2].

وكانت وجهة نظر الإمام(عليه السلام) - فيما كشفها بعد للأنصار - هي قوله: ((أكنت أترك رسول الله ميتاً في بيته لا أجهزه وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه))[3].

وقد تكون وجهة نظر العباس لا تخلو من ارتجال، والحق في جانب الإمام (عليه السلام)، فبيعة العباس ومن معه وحدها لا تجدي كبير نفع إذا لم يخرج الإمام (عليه السلام) بنفسه ليدعو الناس إلى بيعته - وبالطبع هو يعرف أن استجابتهم لندائه لا تأتي بسهولة وبلا أخذٍ وَرَد - وقد عرف مدى

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ٤-٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ٥٣.

(٣) المصدر السابق ج٢: ٥.

معارضتهم السابقة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) -بما فيها من رميه بالهجر - ليوقفوا النص عند حدّه. وإذا قُدّر له أن يخرج لينازع الناس في أمر الخلافة فأيّ خزي سيلحق المسلمين وأهل بيته (عليهم السلام) على الخصوص، إذا قيل أنهم تركوا نبيهم (صلى الله عليه وآله وسلم) مسجّىً لم يدفن بعد ودخلوا في مشاحنات على سلطانه.

على أن جانباً آخر لم يكشفه الإمام (عليه السلام) تماماً، وإنّما كشفته الأحداث فيما بعد، فلو قُدّر للإمام(عليه السلام) أن يستجيب للعباس ويتقبّل بيعته وبيعة أهل بيته، و لم يقدّر لبقية المسلمين أن يستجيبوا إليها، فماذا يكون موقفه؟.. أيتنازل عنها؟!.. وفيه من الفشل الكبير ما يسدّ كل منفذ للتفكير فيه، وإذا أصرّ واستمر واعتبر نفسه هو صاحب الحق، كان عليه أن يعمل قوّته لإجبارهم وهو أمر يتنافى وخُلُقَه، كما عرفناه فيما بعد حين ترك جماعة من المسلمين أمثال سعد بن أبي وقاص وابن عمر لمجرد عدم رغبتهم فيها، وإلاّ فما الفائدة من مثل هذه البيعة التي لا توصل صاحبها إلى الحكم؟! على أن الأمر قد لا ينتهي - لو أراد إجبارهم - إلى خير، وربّما عرّض الإسلام في عاصمته إلى ثورة دموية لا يستفيد من ورائها غير الطامعين والانتهازيين من أعداء المسلمين، أو من المسلمين الذين لم يتركّز الإسلام في نفوسهم بعد. وسيأتي حديثه مع أبي سفيان ما يشرح هذا الجانب.

فكان لابدّ لهذا وأمثاله أن يأبى على العباس قبول بيعته في الوقت، ويجيبه بذلك الجواب الذي يقطع على صاحبه سبيل المناقشة في الموضوع، ويرجئ الإجابة الصريحة إلى وقت يسعها درساً وعملاً، وما أدري.. ما كان رأي صاحبنا في هاتين النظرتين؟ وإلى أيّهما مال؟ وإن كنت أعتقد أن سنّه

لم تساعده على الدخول في الموضوع نقضاً وإبراماً، أو ما كان على مثله إلاّ أن يسمع فيطيع، وبخاصة وأن الحديث يدور بين قطبي حزبه الكبيرين.

وأما حزب قريش فهو - مع اتفاق أكثره على معارضة الإمام (عليه السلام) والوقوف دون إتمام الأمر له، للأسباب التي أشرنا إليها فيما سبق - لم تكن كلمته بعد متفقة على مرشح مخصوص وإن كان رأي الكثير منهم متجهاً إلى أبي بكر، ولعل كلمة عمر السابقة ((هذا أبو بكر ذو شيبة المسلمين فبايعوه)) كانت بمنزلة الإثارة للتفكير الجدي السريع من قبل أقطاب بعض القبائل وقبائلهم، فقد اجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان، وبنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن[1]، ويبدو أن هاتين القبيلتين كانتا أهم القبائل القرشية التي ترى لنفسها شأناً في قبالة بقية قبائل قريش.

وبقية الأقطاب - فيما يبدو - كانوا مع أبي بكر كعمر وأبي عبيدة وسالم مولى حذيفة وخالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة وأضرابهم.

وكان موقف الأنصار طبيعياً في اجتماعهم على سعد بن عبادة كبير زعمائهم وأظهرهم إذ ذاك، فما كانوا ليتركوا الأمر لقريش وبينهم ما بينهم من الترات والمفارقات التي أشرنا إلى قسم منها فيما سبق، وسنشير إليها مفصلاً فيما يأتي.

على أن الأمر يهون بالنسبة إليهم لو قدّر لقريش أن لا تخرج على أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتسلم الحق إلى صاحبه. أما وقد أجمعت كلمتها على معارضته وصرف الأمر عنه - كما أحسّوا بذلك من مجموع ما مر عليهم من أحداث - فإنهم لا يطيقون أن يسلّموا

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج٢: ٥ .

الأمر إليهم وبينهم ما بينهم من تنافس وترات لمسنا فيما سبق شيئاً من آثارها.

وقد أوجز سعد بن عبادة لقومه ما لهم من حقوق على قريش تستوجب أن يكون الحق لهم بكلمات جاء فيها: ((إن لكم سابقة إلى الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان، فما آمن به من قومه إلاّ قليل. والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا يعزوا دينه ولا يدفعوا عنه عداه، حتى أراد الله بكم خير الفضيلة وساق إليكم الكرامة، وخصّكم بدينه ورزقكم الإيمان به وبرسوله والإعزاز لدينه والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدّ الناس على من تخلّف عنه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم، حتى استقاموا لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داحضاً حتى أنجز الله لنبيكم الوعد، ودانت لأسيافكم العرب، ثم توفاه الله تعالى وهو عنكم راض، وبكم قرير عين، فشدّوا أيديكم بهذا الأمر فإنّكم أحق الناس وأولاهم به)).

وكانت هذه الكلمة وحدها - بما اشتملت عليه من تعداد فضائلهم ومواقفهم المشرّفة تجاه قريش، وإيماءتها الخفيّة إلى ما بينهم من ترات في سبيل الإسلام - كافية لأن تجمع كلمتهم على التمسّك بحقهم قبالة حزب قريش مهما كلّف الحال. وبالفعل ((فقد أجابوه جميعاً أن وُفِّقت في الرأي وأصبت

في القول ولن نعدو ما أمـرت، نولّيـك هـذا الأمـر فـأنت لنـا مقنـع ولصـالح المؤمنين رضى))(١).

والغريب في أمر هذه الخطبة أنها تناست كل ما يتعلّق بالنص وبالإمـام عليعليه السلام ، ونظرت المسألة من زاوية قَبَليّـة بحتة، وكـأنّ ذلك إنّـما كان ؛ لما يحسّه في أعماقه هو وجماعته من اليأس مـن انتهائهـا للإمـام (عليـه السـلام)، ما دامت قريش لا تريد ذلك، وإذا تـمّت لقريش خافوهم على أنفسهم.

وعلى أيٍّ فقد أحدث هذا التناسـي لحديـث النـص عقـدة عائليـة بـين سعد وابنه بعد حادثة السقيفة، ويبدو أن قيساً كان متأثراً أول الأمـر بـأقوال المعارضين وتشكيكاتهم في أمر النص ؛ لذلك وقع في ركاب أبيه في الدعـوة له، ولكنه عدل بعد ذلك لتصريح سمعه من أبيه فأحدث بينهم هـذه العقـدة. حدّث أبو الحسن النوفلي قال: ((سمعت أُبيّاً يقول: ذكَر سعد بن عبادة يوماً علياً بعد يوم السقيفة، فذكَر أمراً من أمره نسيه أبو الحسـن يوجـب ولايتـه، فقال له ابنه قيس بن سعد:أنت سمعت رسول الله(صلىالله عليه وآلـه وسـلم) يقـول هـذا الكـلام في علـي بـن أبـي طـالب ثـم تطلـب الخلافـة، ويـقـول أصحابك: منا أمير ومنكم أمير، لا كلمتك والله من رأسـي بعـد هـذا كلمـة أبداً))(٢).

والحقيقة إن هذا التصريح من سعد لا يهمّنا أن يحدث عقدة بينه وبـين ولـده أو لا يحـدث، بقـدر مـا يهمّنـا مـن معرفـة أثـره في نفـس صاحبنـا

---

(١) شـرح نهـج البلاغـة ج٢: ٣، وانظـر تأريـخ الطبري ج٣: ٢٠٧، وانظر الإمامة والسياسة ج١: ٥.

(٢) المصدر السابق ج٢ : ١٨ .

- إن كان قد قدّر له سماعه ومدى تأثّره - وهو يشهد هذا الحق الصراح كيف يُتَجاهل ثم يُعتَرف به ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن ذهب شعاعاً على مذبح الأهواء والأطماع، وسنرى بعد حين اعترافات أُخر من أقطاب آخرين تبلغ سمع ابن عباس فيتلقّاها بما عوّدنا عليه من السكوت على مضض.

ثم هل سمع محاورته مع أبي علقمة؟ وما كان رأيه بهذه التصريحات المهمّة التي اضطره الزمن لكشفها؟ يقول أبو علقمة -فيما يحدّث الطبري-: قلت لابن عبادة - وقد مال الناس إلى بيعة أبي بكر -: ((ألا تدخل فيما دخل فيه المسلمون قال: إليك عنّي فوالله لقد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: إذا أنا مت تضل الأهواء ويرجع الناس إلى أعقابهم، فالحق يومئذ مع علي،وكتاب الله بيده لاتبايع أحداً غيره، فقلت له: هل سمع هذا الخبر أحد غيرك من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: أناس في قلوبهم أحقاد وضغائن، قلت: بلى نازعتك نفسك أن يكون هذا الأمر لك دون الناس، فحلف أنه لم يهمّ بها و لم يردها، وأنهم لو بايعوا علياً كان أول من بايعه))(١).

وإذا صحّت هذه التصريحات فإنّها تكشف عن جانب من السر في حضور سعد للأنصار، فهو لم يردها لنفسه، وإنّما كان ذلك لمعارضة حزب قريش، وإلاّ فهو أول مَن يبايع لو قُدّر لكلمتهم أن تجتمع على الإمام (عليه السلام)، وما يدرينا لعلّه كان صادقاً في دعواه، وكانت هذه المحاولة منه إقداماً على وأد فكرة المعارضة في قريش بأخذ البيعة له أولاً ثم تسليمها

---

(١) تنقيح المقال -المطبعة المرتضوية، النجف، سنة الطبع ١٣٥٢هـ- ج٢: ١٦ نقلاً عن الطبري.

للإمام (عليه السلام). وسنرى كيف أجمع الأنصار أو معظمهم - بعد فشل هذه المحاولة - على القول: بأنا لا نبايع إلاّ علياً ولولا أن يستغل أبو بكر - كما سيأتي - نقاط الضعف في هذا الحزب فيشطره على نفسه، لما استطاع أن يكسب الموقف في ذلك اليوم.

ولعلّكم تذكرون ما سبق أن قلناه من أن أهمّ نقطة ضعف في هذا الحزب هو انقسامه إلى قبيلتين كانتا متنافستين في الجاهليّة، وبقيت رواسب ذلك إلى الإسلام، ونزيد الآن أن قبيلة الخزرج نفسها كانت منقسمة على نفسها، وكان التحاسد بين قطبيها بشير بن سعد وسعد بن عبادة قائماً على ساق، فسعد كان مبغوضاً مقامه للأوس ؛ لانتمائه إلى الخزرج، ولقسم كبير من الخزرج، للمنافسة بينه وبين زعيمهم[١]، ونضيف أيضاً أن قسماً من هؤلاء كانوا يعملون للمهاجرين في صفوف الأنصار، كعويم بن ساعدة ومعن بن عدي، وهما اللذان أخبرا المهاجرين وطلبا إليهم أن يتداركوا الأمر قبل أن يفلت من أيديهم الزمام، وكان بينهما وبين سعد بغض وشحناء كما تقول الرواية[٢].

وهنا نترك الحديث لابن عباس ليحدّثنا عن موقف هذه الأحزاب الثلاثة من الخلافة - وبالطبع هو لم يشاهد قسماً منه بنفسه، وإنما كان طريقه إليه زميله بعد حين عمر بن الخطاب - قال مالك بن أنس: حدّثني ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره - والحديث طويل ولعلّنا نأتي عليه في موضعه ونجتزئ الآن منه بما يتعلّق

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج٢: ٧.

(٢) انظر المصدر السابق ج٢: ٨.

بحديث السقيفة من خطبة عمر - بقول عمر: ((وقد بلغني أن قائلاً منكم يقول:لو قد مات عمر(رض) بايعت فلاناً، فلا يغترّن امرؤ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، ألا وإنها كانت كذلك، ألا وإن الله عز وجل وقى شرها، وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر (رض)، ألا وإنه كان من خبّرنا حين توفي رسول الله أن علياً والزبير ومن كان معهما تخلّفوا في بيت فاطمة(رض) بنت رسول الله، وتخلّفت عنا الأنصار بأجمعها في سقيفة بني ساعدة. واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر (رض) فقلت: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكرا لنا الذي صنع القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلت: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. فقالا: عليكم أن لا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين. فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرنا رجل مزّمل، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ قالوا: وجع. فلمّا جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله، وقال: أمّا بعد فنحن أنصار الله عز وجل وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفّت دافّة منكم يريدون أن يخزلونا من أصلنا ويغصبونا من الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زوّرت مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، وهو كان أحلم مني وأوقر. فقال أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أغضبه وكان أعلم مني وأوقر، والله ماترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلاّ قالها في بديهية وأفضل حتى سكت. فقال: أمّا بعد، فما ذكرتم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الأمر

إلاّ لهذا الحي من قريش. هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، فلم أكره مما قال غيرها، وكان والله أن أقدّم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم أحبّ إليّ من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر إلاّ أن تغير نفسي عند الموت. فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكّك وعذيقها المرجّب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. فقلت لمالك: ما معنى أنا جذيلها المحكّك وعذيقها المرجّب؟ قال: كأنه يقول أنا داهيتها. قال: وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر. فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم: قتلتم سعداً، فقلت: قتل الله سعداً. وقال عمر (رض): أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبي بكر (رض)، حتى خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإمّا أن نتابعهم على ما لا نرضى، وإمّا أن نخالفهم فيكون فيه فساد، فمن بايع عن غير مشورة فلا بيعة له هو ولا الذي بايعه تَغِرَّةً أن يُقتّلا))(١).

وهذه الخُطب - التي ينقلها ثقات المؤرّخين باختلاف بسيط جداً لا يضر بجوهر المضمون - تصحّح بعض الأخطاء التأريخيّة في نقل بعض الناقلين، وتملأ أكثر الفجوات في هذه الحادثة فهي ظاهرة:

---

(١) مسند أحمد ج١ :٥٦، انظر تأريخ الطبري ج٣ :٢٠٠ -٢٠١، وانظر شرح نهج البلاغة ج١: ١٢٣، وانظر تأريخ الخلفاء :٦٧-٦٨، وانظر سيرة ابن هشام ج٤: ٣٣٦-٣٣٩ .

١- باجتماع المهاجرين على أبي بكر قبل اجتماع الأنصار على سعد، كما يبدو من قوله: ((واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر وتخلّفت عنا الأنصار بأجمعها))، وكما يبدو من قول خطيب الأنصار: ((وقد دفّت دافّة)). ولعلّ اجتماعهم كان بعد نداء عمر السابق: ((هذا أبو بكر ذو شيبة المسلمين فبايعوه)) كما مر في حديث عكرمة، بل إذا توسّعنا وأخذنا بتلكم الرواية - وهو بعيد - فإن بيعة أبي بكر كانت قبل حادثة السقيفة ؛ لأن تلك تقول في تتمّتها: ((فبايعه الناس))، ولا ينافي ذلك ما ذكرناه سابقاً من انحياز بعض قبائل قريش إلى زعمائها، فالحكم إنما يساق بلحاظ أكثريّتهم، وأكثريّة المهاجرين كانت مع أبي بكر.

٢- إن أبا بكر لم يذهب إلى الأنصار هو وعمر وأبو عبيدة وحدهم - كما تصوّرهم بعض الروايات[١] - بل ذهب معهم المهاجرون كما يشعر بذلك خطاب الرجلين الصالحين لهم: ((يا معشر المهاجرين))[٢]، والمعشر لا يطلق على اثنين[٣]، وهو أقرب إلى منطق الحوادث عادة، وإلاّ فما كان ليقدم شخص كمثل أبي بكر - يعدّ نفسه ويعدّه حزبه لتحمّل أكبر مسؤولية في الأمّة - على الذهاب إلى حزب آخر يعارضهم بالفكرة ليخذّلهم عن مرشحهم المعد للخلافة ، مع ما في ذلك من تعريض نفسه للخطر المتوقع من أمثال هذه الاجتماعات.

---

(١) انظر الإمامة والسياسة ج١: ٥.

(٢) انظر تأريخ الطبري ج٣: ٢٠٠.

(٣) انظر لسان العرب -دار صادر، بيروت، سنة الطبع ١٣٧٥هـ- مادة (عشر).

٣- إن البيعة لم يسبق إليها الأنصار، بل سبق إليها المهاجرون، كما في صريح قوله: ((فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار)).

٤- إن أبا بكر لم يحتج عليهم بحديث الأئمة من قريش، كما جاء في بعض الأحاديث[١]، بل قال - كما جاء في أكثرها - : ((ولم تعرف العرب هذا الأمر إلاّ لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً)). لأن هذا الحديث لو صحّ وروده عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما احتج به أبو بكر ؛ لما فيه من تذكير الأنصار بحديث النص على الإمام (عليه السلام)، وربّما انتقض عليه الأمر بالأساس، وهو - بالطبع - لو صدر لكان بمنزلة التمهيد والتعميم الذي يسبق التخصيص عادة في مثل هذه الأمور المهمّة التي تحتاج إلى ترويض الأفكار، وكان طبيعياً بعد ذلك أن يشير لهم الخليفة بطرف خفي إلى ما ينتظرهم من مصير، لو قدّر للبيعة أن تتمّ لمرشحهم، فالعرب لا ترضى بهم ولا تخضع لهم، بل لا تخضع إلاّ لهذا الحي من قريش.

وعلى أيٍّ فقد تمّت البيعة لأبي بكر، وكانت كما حدّث عمر فلتة وقى الله المسلمين شرها، وكادت تذهب بأرواح كثير من صحابة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بما أحدثوا من نزاع في السقيفة عبّر عنه الخليفة بكثرة اللغط وارتفاع الأصوات، وأشار بعض المؤرخين إلى ما فيه من خطوط، عرفنا منها مصادمة عمر للحباب وتجريد سيف الحباب في وجهه، وتهديد عمر له بالقتل بقوله: إذن يقتلك الله. وجواب الحباب له[٢].

---

(١) انظر أنساب الأشراف -تحقيق محمد حميد الله، سلسة ذخائر العرب:٢٧، مطبعة دار المعارف، مصر، سنة الطبع ١٩٥٩م- ج١: ٥٨٢.

(٢) انظر الإمامة والسياسة ج١: ٧ -٨، وتأريخ الطبري ج٣: ٢٠٩-٢١٠ .

ولو قدّر لنا أن نسمع هذا اللغط لوجدنا فيه أصواتاً ترتفع من الأنصار أو بعضهم وهم يقولون: لا نبايع إلاّ علياً[١].

ولولا أن تتوافر في أبي بكر صفات الخطيب الجماهيري المبدع الذي يحسن أن يتلاعب بعواطف المستمعين، بما أوتي من قدرة وخبرة بنقاط الضعف فيهم، واستغلال ذلك في وقته المناسب، لرأينا كيف انتهى أمر الإسلام ذلك اليوم.

أمّا ماذا قال أبو بكر حتى شقّهم على أنفسهم، فذلك ما يحدّثنا عنه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، يقول: ((قال أبو بكر: نحن أهل الله وأقرب الناس بيتاً من بيت الله وأمسّ الناس رحماً برسول الله. إن هذا الأمر إن تطاولت إليه الخزرج لم تقصّر عنه الأوس، وإن تطاولت إليه الأوس لم تقصّر عنه الخزرج. وقد كانت بين الحيين قتلى لا تنسى، وجراح لا تداوى، فإن نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي أسد يضغمه المهاجري ويجرحه الأنصاري))[٢].

تصوّروا هذه اللباقة الكبيرة التي استطاعت أن تضع يدها على مفتاح الضغائن بين هاتين القبيلتين ((وقد كانت بين الحيين قتلى لا تنسى وجراح لا تداوى)) وذكّرتهم بها بعد أن أثارت فيهم روح التنافس ((فإن تطاولت إليه الخزرج لم تقصّر عنه الأوس))، ثم جسّمت لهم سوء المصير بتيقظ الهيآت

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٣: ١٨١.

(٢) البيان والتبيين -تحقيق حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط٢، سنة الطبع ١٣٥١هـ- ج٣: ١٨١

المعارضة من المهاجرين والأنصار الذين لم يحصلوا عليها ((فإن نعق ناعق فقد جلس بين لحيي أسد يضغمه المهاجري ويجرحه الأنصاري)).

وكان من ثمرات هذا القول ونظائره أن سمعنا بعض الأوسيين يقول لبعض: ((لئن وليتموها سعداً عليكم مرة واحدة لا زالت لهم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر))[1].

وما أيسر أن تخضع النفوس للغريب عنها ولا تخضع لمنافسها القريب. وهذا المعنى هو الذي ترك الأوس والخزرج الذين هم من أتباع بشير بن سعد منافس سعد بن عبادة يتسابقون بزعمائهم إلى بيعة أبي بكر، وتركت عمر وجماعته ينزون على سعد وهو يقول - لمن قال: قتلتم سعداً - : قتل الله سعداً[2].

على أن هناك عاملاً نفسياً مهماً أثّر أثره الكبير في تخاذلهم عن مرشحهم، وهو ما ينطوون عليه من عدم الثقة بأنفسهم وضعفهم عن منافسيهم من قريش، وقريش بمكانتها في العرب وجبروتها وقوّة شخصيتها لا يتطاول إلى مقامها أمثال هؤلاء من الأوس والخزرج. وإذا قدّر لهم أن يعزّوا بالإسلام وتذلّ قريش به، فليس معنى ذلك أنهم تخلّوا عن رواسبهم المنطوية على إكبارها والشعور بالضعف أمامها، وبخاصّة وقد فقدوا سندهم القوي وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد بدا ذلك الضعف حين بدأوا يتشاورون قبل مجئ المهاجرين وقال قائلهم - وقد ذكروا

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ٩.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج٤: ٣٣٩.

ما سوف يحتج به المهاجرون - : نقول لهم: منا أمير ومنكم أمير. فقال سعد: هذا أول الوهن(١).

على أن اجتماعهم على مرشحهم لم يكن لولا تخوّفهم من استغلال قريش لمركزهم لو قدّر لهم أن يملكوا، وربّما استأثر بالملك منهم من قُتل أبوه أو أخوه في سبيل الإسلام، وقد أفصح عن ذلك خطيبهم حباب بن المنذر حين قال - رادّاً على المهاجرين منا أمير ومنكم أمير - : ((والله ما ننفس هذا عليكم أيها الرهط ولكنّا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم))(٢).

وهذا الكلام صريح في دوافع اجتماع السقيفة، فهم لا ينفسون على المهاجرين هذا المقام لو قدّر له أن يكون في أهله، ولكنهم كانوا - لما يرون من عمل حزب قريش المتواصل للوقوف دونه - يخشون أن يلي هذا الأمر منهم من قتلوا آباءهم وإخوانهم في سبيل هذا الدين.

ولعلّ من عوامل اندفاعهم إلى بيعة أبي بكر ورضاهم بها شعورهم بشيء من التنفيس عن الكابوس الذي جاء من ذلك الشعور بالخوف ؛ لأن أبا بكر كان من ذوي السابقة إلى الإسلام، ولم يكن بينه وبينهم شيء من الترات، وربّما أمنوا بجنبه من تحكم الموتورين.

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٣: ٢٠٨.

(٢) كنز العمال ج٣ : ١٣٠.

أحداث ما قبل الدفن

وأخالنا أنّا بعُدنا عن صاحبنا - إلى حدّ ما - في هذه الفترة، ودخلنا في شؤون قد لا تعتبر في الصميم من حياته.

والحقيقة أن ما عرضناه من الحوادث كان من أهمّ الأمور التي اهتمّ بها عادة وتساءل عنها وتتبّع جزئياتها، وما كان لمثله أن يغفل منها شأناً من الشؤون ، وهي تمثّل بالنسبة إليه قمّة المأساة. فنحن إذاً مضطرون إلى ذكرها والتوسّع فيها، ثم التوسّع بكل ملابساتها بعد حين.

وقد سبق إلينا أن تركنا العباس وهو على مضض لامتناع الإمام (عليه السلام) عن قبول بيعته في الحال،وبالطبع كان أهل بيته(عليهم السلام) لا يقلّون عنه مضضاً ولا قلقاً، وهم يتوجسون طلائع الأخبار.

وها هو ذا الباب يطرق بعنف وشدّة فتضطرب له النفوس ويسارعون إلى فتحه - وربّما كان صاحبنا أول من سارع - وإذا بالبراء بن عازب وقد جاءهم بخبر هام، فلنستمع إليه.. يقول البراء: ((لم أزل لبني هاشم محبّاً فلما قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خفت أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم، فأخذني ما يأخذ الوالهة العجول، مع ما في نفسي من الحزن لوفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكنت أتردد إلى بني هاشم وهم عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحجرة، وأتفقّد وجوه قريش، فإني كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر، وإذا قائل يقول: القوم

في سقيفة بني ساعدة،وإذا قائل آخر يقول:قد بويع أبو بكر،فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة وهم محتجزون بالأزر الصنعانيّة، لا يمرّون على أحد إلاّ خبطوه وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه شاء ذلك أو أبى، فأنكرت عقلي، وخرجت أشتدّ حتى انتهيت إلى بني هاشم، والباب مغلق، فضربت عليهم الباب ضرباً عنيفاً، وقلت: قد بايع الناس لأبي بكر بن أبي قحافة)).

وكان لهذا الخبر على نفوسهم وقع شديد لا يطاق، وقد أخذتهم المفاجأة وعلتهم الدهشة له، فما كان يدور بحسبانهم أو بحسبان أكثرهم أن القوم سيتركون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بَعدُ لم يدفن، ويجهزون على سلطانه فيخرجونه من بيته، وإذا كان فيهم من تحسّب لهذه الأمور حسابها فهو العباس، كما سبق له أن حذّر الإمام (عليه السلام)، والإمام - فيما نعتقد - صاحب عهد وخطّة خاصّة لا يعدوها.

وقد تلقّى العباس هذا النبأ بهذا التصريح الذي نقله البراء بن عازب نفسه يقول: ((فقال العباس: تربت أيديكم إلى آخر الدهر، أما إني قد أمرتكم فعصيتموني))[١] . وفي رواية أخرى أنه أنشد قول دريد..

((أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلاّ ضحى الغد))[٢]

والحقيقة أن هذه الرواية تكشف عن أيّ جو تمّت به البيعة! وكيف أُخذت من الناس أخذاً لا هوادة فيه!، وقد صوّرتهم بأزرهم الصنعانيّة

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٧٣ -٧٤ .

(٢) المصدر السابق ج١: ٥٤.

وهم ((لا يمرون على أحد إلاّ خبطوه وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه شاء ذلك أم أبى)).

ولما انتهوا إلى المسجد - كما في رواية أُخرى - التفت عمر إلى بني أمية وهم مجتمعون على عثمان، وإلى بني زهرة وهم مجتمعون على سعد وعبد الرحمن، فقال: ((مالي أراكم ملتاثين، قوموا: فبايعوا أبا بكر فقد بايع له الناس وبايعه الأنصار فقام عثمان ومن معه، وقام سعد وعبد الرحمن ومن معهما فبايعوا أبا بكر))(١).

ورغم كل ذلك فقد لوحظ على الناس الانقباض.. يقول أبو سعيد الخدري: ((لما بويع أبو بكر رأى من الناس بعض الانقباض، فقال: أيها الناس ما يمنعكم ؟.. ألست بأحقكم بهذا الأمر...؟ ألست...الخ))(٢).

وتمّ كل شئ ، ولم يبق إلاّ عليعليه السلام ومعه بنو هاشم وخُلّص أصحابه، وهم الصفوة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كأبي ذر، وعمار، وسلمان، والمقداد، ونظائرهم من أعاظم أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإلاّ سعد وولده وخواصه من الخزرج، ثم جماعة من سائر الناس لا يحسب لهم حساب. ويأتي بعد ذلك خالد بن سعيد بن العاص وأبو سفيان الأمويان، ولم يكونا ساعتها في المدينة. أما أبو سفيان فقد جاء - فيما أخال - بعد تمام البيعة لأبي بكر من ذلك اليوم، وكان قد أرسله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ساعياً، ((فرجع من سعايته وقد مات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلقيه قوم فسألهم، فقالوا: مات

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٥، وانظر الإمامة والسياسة ج١: ١٠.

(٢) تأريخ الخلفاء : ٧٠ -٧١.

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال: من ولي بعده؟ قيل: أبو بكر، قال: أبو فصيل! قالوا: نعم. قال: فما فعل المستضعفان علي والعباس؟! أما والذي نفسي بيده لأرفعنّ لهما من أعضادهما))(١).

أما خالد بن سعيد فقد كان والياً من قِبَل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على اليمن، فلما جاء ودعي إلى بيعة أبي بكر - وذلك بعد يومين أو ثلاثة من حادثة السقيفة - أجاب بأني لا أبايع إلاّ علياً(٢).

وكان من نشاط أبي سفيان في ذلك اليوم أن مرّ على بيت علي بن أبي طالب عليه السلام فوقف وأنشد..

((بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلاّ فيكم وإليكم وليس لها إلاّ أبو حسن علي
أبا حسن فاشدد بها كف حازم فإنك بالأمر الذي يرتجى ملي
وأي امرئ يرمى قصيا ورأيها منيع الحمى والناس من غالب قصي

فقال علي عليه السلام لأبي سفيان: إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه وقد عهد إليّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عهداً فأنا له))(٣).

وما كان الإمام بحاجة إلى كشف أستار الغيب ليفهم نفسيّة أبي سفيان وهدفه من هذه المعارضة، فأبو سفيان ما يزال ينظر القضيّة بمنظار قبلي بحت، فيأسى على إعطائها لتيم وهي أحقر قبيلة في قريش. والإمام (عليه السلام) حرب على هذه الفكرة، فما كان يرى الخلافة لنفسه

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ١٣٠.

(٢) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٠٥.

(٣) الموفقيات :٥٧٧-٥٧٨.

لأنّه من بني هاشم، وبنو هاشم من أسياد قريش، بل يراها وظيفة شرعيّة أثقل كاهله بها ؛ ليتمّ رسالة الإسلام عن طريقها، وما دام المنظار مختلفاً فإن تقبّل البيعة من أبي سفيان معناه المساومة على المبادئ، والإمام (عليه السلام) يرفع نفسه عن هذا المستوى، على أن إقبال أبي سفيان أو إدباره لا يفرح له ما دامت عواطفه تشترى بالمال، وهو لا يحضر أن يساوم على العواطف مهما كلّف الحال، كما عودنا على معرفة ذلك في أيام تولّيه للحكم.

وكانت الخطوة الثانية أن يذهب أبو سفيان إلى العباس زميله القديم ليعرض عليه بيعته، وهنا ما ندري هل رضي صاحبنا بهذا الرأي من أحد شيوخ قريش؟ وهل هش له ورحّب به حيث شاهد كفه تمد إلى كف أبيه لتقول له: ((يا أبا الفضل أنت لها أهل وأحق بميراث ابن أخيك، امدد يدك لأبايعك فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتي إياك))، وما أدري هل ضحك مع أبيه أم قطّب لجوابه حين قال: ((يا أبا سفيان يدفعها علي ويطلبها العباس))[1]، وهو جواب كافٍ لأن يبعث اليأس في نفوس أمثال أبي سفيان، والظاهر أن صاحبنا ـ في حدود ما عرفناه ـ أصبح قادراً على النظر بالمنظار الذي كان ينظر به الإمام (عليه السلام) وأبوه من رعاية المصلحة الإسلاميّة قبل أيّ اعتبار.

وقد شهد هذا اليوم التأريخي نشاطاً منقطع النظير، وشهد بالطبع صاحبنا معه ذلك النشاط، ولابدّ أن يكون قد رأى ـ فيما رأى ـ هذا الاجتماع الذي عقد في بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان قوامه الزبير وأبا سفيان وجماعة من المهاجرين، وذلك حين طلبوا الخلوة

---

(١) شرح النهج ج٢: ٧، وانظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٠٥، والموفقيات:٥٧٨.

بالإمام (عليه السلام) وأبيه، وربّما شهد حديثهم ورآهم كيف كانوا يستعملون أساليب التهيّج والاستنهاض وتحضير أنفسهم للنضال معهم، وعليّ عليه السلام محتبٍ يستمع إلى الحديث فابتدرهم العباس قائلاً: ((قد سمعنا قولكم فلا لقلة نستعين بكم، ولا لظنة نترك آراءكم، فأمهلونا نراجع الفكر، فإن يكن لنا من الإثم مخرج يصرُّ بنا وبهم الحق صرير الجدجُد، ونبسط إلى المجد أكفّاً لا نقبضها، أو نبلغ المدى، وإن تكن الأخرى فلا لقلة في العدد ولا لوهن في الأيد، والله لولا أن الإسلام قيد الفتك لتدكدكت جنادل صخر يسمع اصطكاكها من المحل العلي)). يقول الراوي: ((فحلّ عليّ عليه السلام حبوته، وقال: الصبر حلم، والتقوى دين، والحجّة محمد، والطريق الصراط. أيها الناس شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرّجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح، هذا ماء آجن، ولقمة يغصّ بها آكلها، ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه، فإن أقُل يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت، هيهات بعد اللتيا والتي! والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه، بل اندمجت على مكنون علم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة))(١).. ثم نهض فدخل إلى منزله وافترق القوم.

وهذه المحاورة تكشف عن اختلاف المنظار، فهؤلاء - فيما يبدو من الجواب - كانوا يستثيرونهم على أيّ حال، ويدعونهم للحرب، ولا يحسبون للمصلحة الإسلاميّة حسابها.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٧٢.

والعباس يلتمس المخرج من المأثم ليريهم كيف يجرؤن على غصب حقهم، ولكنّه يرى نفسه مقيداً في حدود المبادئ الإسلامية، فيمتنع عن الفتك. فإذاً المسألة في رأيه مسألة دين، ولابدّ أن يكون السير في حدوده إلى الغاية.

والإمام (عليه السلام) يوضح لهم هذا، ثم يأخذ بهم إلى واقعهم وينأى بهم عن المسارح العاطفيّة التي قرّبتهم من الخيال، تأمّلوا هذه السياسة الواقعيّة: ((شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرّجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة)). فهو يبعدهم عن هذه العاطفة التي تسُدّ أمامهم كل باب للعقل والتدبير، ثم تأمّلوا قوله: ((أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح))، وما تنطوي عليه من إيماءة رائعة إلى أن عددهم وحده غير كافٍ للنهوض بهذا الأمر. وما أبلغ قوله بعد ذاك: ((ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه))، وأيّ جدوى يبلغه مثل الزارع من زراعته بغير ما يملكه من أرض ما دام لا ينتهي ثمره إليه؟!. وقد صوّر بعد ذلك كلّه حراجة موقفه بين عاذليه، فهو إذا سكت اتُّهم بالجبن، وإن نطق قالوا: إنه حريص على الملك، و لم يقدّروا في ذلك كلّه ظروفه الخاصّة، و لم يحسبوا للمنظار الذي ينظر به الواقعة أيّما حساب. وماذا يصنع وهو أمام خطّة مرسومة لا يستطيع أن يحيد عنها - بحكم مبدئه - وكان مقطع القول أن يشير لهم إشارة إلى هذه الخطّة فيقول: ((بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة)).. يقول ابن أبي الحديد في تفسير هذا الكلام: ((وهذا إشارة إلى الوصيّة

التي خصّ بها (عليه السلام) إنه قد كان من جملتها الأمر بترك النزاع في مبدأ الاختلاف عليه))[1].

وهكذا تفرّق اجتماعهم عن فشل المحاولة العاطفيّة التي قاموا بها، وظلّوا في انتظار سياسة حكيمة يمليها عليهم واقعهم وواقع مبدئهم الإسلامي.

وقد أعقب هذا النشاط في يومها نشاط آخر لا يقل أهميّة عنه - وقد يكون أقرب إلى السياسة الواقعيّة - فقد اجتمع ثلّة من كبار صحابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن شيعة علي عليه السلام ؛ لالتماس منفذ لإلغاء هذه البيعة التي لم تؤخذ من المسلمين أخذاً طبيعياً، بل كانت كما عبّر هو عنها بالفلتة في إحدى خطبه ،وعبّر عنها كذلك زميله عمر كما مر في الحديث السابق، ومهما أرادوا بالفلتة من البغتة والمفاجأة أو الزلّة والخطيئة، فإنها لم تكن عن تدبر واختيار صحيح وإنّما أُخذوا بها أخذاً كما قلنا،سواء بتنويم الخليفة لهم بخطبته السابقة وسوقهم إليها سوقاً لا شعورياً بما أبدع من بيان، أو بأخذها بالرغم من بعضهم كما صوّر ذلك البراء في حديثه السابق.

وعلى أيّ حال فقد صحا المسلمون وأظهر الأنصار ندمهم، وكان من جرّاء ذلك هذا الاجتماع الذي عقد في فضاء بني بياضة في جنح الليل، وكان مؤلفاً من المقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، وأبي ذر الغفاري، وحذيفة بن اليمان، وأبي الهيثم بن التيهان ثم البراء بن عازب - وهو المحدّث بهذا الحديث - وكانوا يفكرون بالأمر، وقد حدّثهم حذيفة بعزم الأنصار على نقض ما كان منها،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٧٢.

وقال قائلهم له: أفتعلم حقاً؟ قال: والله ما كذبت وما كُذِّبت، ثم والله ليكوننّ ما أخبرتكم به.. وبعد حديث توجهوا إلى أُبي بن كعب ليتأكّدوا من أمر الأنصار وعزمهم على نقض البيعة، فأكّد لهم أُبي ذلك[١]، وتفرّقوا في انتظار ما يمليه عليهم الصباح من العمل.

وبات آل محمد(عليهم السلام) في تلكم الليلةوهم أشدّ مايكونون قلقاً وانفعالاً وتألماً،لايدرون ماذا يبيّت لهم الغد من أحداث،وبالطبع فقد بات صاحبنا - بحكم سنه وشدة حساسيّته - وهو من أشدّهم توجّساً وخيفة، وما أخال أن ليلة مرّت عليهم كانت أوحش ولا أطول منها، فهذا رسول الله(صلى اللهعليهوآلهوسلم) -وهوسندهم الوحيد- مايزال ملقىبين أيديهم لم يدفن بعد،وهاهم أولاء صحابته قد انشغلوا بأمور الخلافة عنه، وقد أجهزوا علىحقهم فيها فحازوه دونهم،وباعدوا بينهم وبينه،ولم تبق إلاّ محاولات يدرك الإمام(عليهالسلام) تماماً مدى نجاحها،بعد أن فلت من أيديهم الزمام.

وأسفر الصبح عن محاولة قام بها عمر، فأحبط كل أمل للتفكير بحركة انقلاب من أي شخص كان، وذلك بدعوة المسلمين لتجديد البيعة لأبي بكر[٢]، وبالطبع فإن فكرة ندم الأنصار ومحاولتهم للقيام بنقض البيعة قد بلغته، وبلغه أيضاً أن هذه المحاولة لم توضع خطوطها بعد، ولم يجمعوا على كلمة في هذا الموضوع، فعجّل عليهم بالدعوة إلى تجديد البيعة، ومعنى ذلك أن كل فرد منهم كان يخشى التخلّف ما دام لا يعرف مصير فكرتهم بعد، وربّما فكر أنه إن تخلّف وحده كان عرضة للعقاب الصارم.

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج١: ١٣٢.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج٤: ٣٤٠.

وعلى أيّ حال فقد نجحت هذه الدعوة، وكانت بما فيها من مفاجأة أساساً لإحكام الأمر والقبض على زمام الموقف الخطير.

وتسامع أبو بكر وعمر باجتماع من اجتمع من كبار الصحابة في فضاء بني بياضة، وغمّهما الأمر، وضاعت عليهما سبل الرأي، فأرسلا على عضُدَيهما أبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة، وفكّروا مجتمعين، وقلّبوا وجوه الرأي، فانتهى بهم الأمر إلى الأخذ برأي المغيرة - وكان من دهاة العرب - قال المغيرة: ((الرأي أن تلقوا العباس فتجعلوا له ولولده في هذا الأمر نصيباً)) ؛ ليقطعوا بذلك ناحية علي بن أبي طالب‏عليه‌السلام. وهذا الرأي - على ما فيه من وصولية قد لا يقرّها الإسلام - يكشف عن عمق في تفكير هذا الرجل ودقة تجربة في هذه الشؤون، وقد كاد ينجح لو كان أبو الفضل ممن تشترى عواطفه بالمال أو السلطان.

والحقيقة أنهم لو استطاعوا أن يخزلوا العباس عن الإمام(عليه السلام)، ويشقّوا بني هاشم على أنفسهم لقضوا على أكبر جبهة معارضة، ولكن حزم العباس وإيمانه بعدالة قضيتهم وقفّا هذه المحاولة، يقول محدّث الحديث: ومضى أبو بكر يتبعه عمر إلى عم رسول الله(صلى‌الله عليه وآله وسلم) - وتضم بعض الروايات إليهما المغيرة وأبا عبيدة - ودخلوا عليه وبدأ أول ما بدأ الخليفة الحديث، فقال: ((إن الله ابتعث لكم محمداً نبياً وللمؤمنين ولياً، فمنّ الله عليهم بكونه بين ظهرانيهم، حتى اختار له ما عنده، فخلّى على الناس أمورهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين، فاختاروني عليهم والياً ولأمورهم راعياً... وما انفكّ يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامّة المسلمين، يتخذكم لجأً فتكونوا حصنه المنيع وخطبه البديع، فإما دخلتم

فيما دخل فيه الناس أو صرفتموهم عمّا مالوا إليه، فقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً ولمن بعدك من عقِبَك...))(١). وهنا أرجو أن نتتبّع هذا الحوار بدقّة، ثم نتتبّع وقعه على نفس صاحبنا،وما أخال أنه غاب عن هذا المجلس الخطير وغفل عن ملاحقة ما دار فيه من حوار، فهو يهمّه إلى حدٍّ بعيد، وبخاصّة أنه يجري مع أبيه في أمور تهمّهم على الخصوص، وإذا قدّر أن لا يكون حاضراً فما من شك أنْ تكرر على سمعه حديثه مراراً.

وأخال أن عيون الأمة تعلقت بشفتيّ أبيه لتنظر بِمَ تتحركان، وقد أرهف لهما سمعه ليعيَ كل ما يقول، قال العباس: ((..فإن كنت برسول الله طلبت، فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم..فإن كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين، وما أبعد قولك..إنهم طعنوا من قولك أنهم مالوا إليك))(٢).

وهو منطق تعضده الحجّة ويقف عنده الجدال، لو كان لسماع الحجج والأخذ بها مسرح في لغة السياسة، وإلاّ فماذا يقولون في الجواب عليه؟!.. أيقولون إنهم أخذوه برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فما بالهم إذاً يزوونه عن أخص الناس وأقربهم منه؟ ولم لا يسلّمونه إليهم وهم في لغة الحجة أولى بها؟ وإن كانوا أخذوه بالمؤمنين فآل البيت وغيرهم منهم، وهم لم يتقدموا في أمرهم فرطاً - كما تقول الروايات الأخر(٣) - بل هم كارهون لها، وهذه اللغة القويّة في الحجج هي التي حفّزت عمر لاستعمال خشونته،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٧٤، وانظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٠٣-١٠٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٠٤.

ليبعد بالحديث عن منطق المناظرة، وما جاؤا ليناظروا آل البيت في هذا الأمر بل ليشقّوهم على أنفسهم، فليجمع إذاً إلى ترغيب الخليفة توعيداً أو تهديداً لعلّه يستطيع النفوذ بهما إلى قلب العباس.. قال عمر: ((إنا لم نأتكم حاجة إليكم، ولكن كرهنا أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم، فيتفاقم الخطب بكم وبهم، فانظروا لأنفسكم))[١]، وقبل أن يجيب العباس على هذا التهديد ((فيتفاقم الخطب بكم وبهم)) سارع أبو بكر إلى الترغيب ليقطع عليه السبيل إلى استعمال لغة الثورة العاصفة - وهو يعرف أن العباس لا يسكت على مثل هذا التهديد - وربّما دخلوا في جوّ محموم قد لا ينتهي في صالحهم بحال.. وقال: ((وقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في أمرنا نصيباً لك ولمن بعدك من عَقِبك، إذ كنت عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)))[٢].

وهنا برز إيمان العباس بحقهم وإباؤه وشممه ؛ ليقف دون ذلك الغرض، بهذا الأسلوب الرفيع: ((فما تريد أن تعطيناه حقك أم حق المؤمنين أم حقنا، فإن يكن حقك أعطيتناه فأمسكه عليك، وإن يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن يكن حقنا لم نرض لك ببعضه دون بعض))[٣].

وماذا يقول له الخليفة بعد هذا الترديد البليغ؟.. أيقول: حقي؟.. والعباس أرفع من أن ينال من هذا الحق، وهو يعرف مقامه وزعامته في الجاهلية والإسلام، ثم هو يسمع ترفّعه عنه بقوله: ((فإن يكن حقك أعطيتناه

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٠٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ٧٤ ، وانظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٠٣ -١٠٤.

(٣) المصدر السابق .

فأمسكه عليك)) على أن هناك تساؤلاً يأتيه.. من أين جاءك هذا الحق و لم ينحدر إليك من ميراث، و لم يُجعل لك بنص و لم تقلّده باختيار جارٍ على أصوله، وإن يقل: حق المؤمنين، يأتيه التساؤل عن المسوّغ في التصرف فيه من دون أخذ رأيهم واستشارتهم واستيهابهم له ؛ لجعله فيمن يشاء، وقد عوّدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - مع أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم - أن يستشيرهم إذا أراد التصرف بحقوقهم الخاصة، ويترك لهم الاختيار في هبتها، كما صنع ذلك في رده سبايا هوازن[1] ونظائره، و لم يعمل حقه في حرية التصرف إلاّ في موارد ورد فيها نص أو دعته إليها ضرورات، وإن يقل: إنه حق آل البيت -ولا يقوله- جاءه قول العباس بأنهم: ((لا يرضون ببعضه دون بعض)).

ويسكت الخليفة، ويسكت معه أصحابه فلا يجيبون على شئ من هذه النقاط، ويمسك من كلامه الكلمة الأخيرة ؛ لأنها تقبل شيئاً من المغالطة، وقد تدعوه المجاملة إلى السكوت فيقول: ((قد كان رسول الله منا ومنكم يا أبا الفضل))، فيبتسم العباس لذلك ويجيبه لا لرجاء في جدوى ما يأتي به من جواب، وهو يعلم أن القوم لا يثنيهم عن أمرهم شئ ولكن للحجة نصيبها من البيان.. اسمعه: ((وما أقول هذا أروم صرفك عما دخلت فيه، ولكن للحجة نصيبها من البيان))[2]، ((وأما قولك: إن يك رسول الله منا ومنكم فإنه قد كان من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها))[3].

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٣: ١٣٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ٧٤.

(٣) الإمامة والسياسة ج١: ١٥.

وكانت هذه المحاورة كافية لفهم نفسيّة العباس، ويأسهم من أن يبلغوا منها إلى ما يريدون. وما أدري ما كانت انطباعة صاحبنا عن هذا الحديث؟ وهل ساءه أن يحرم من هذا النصيب الذي لوّح له به الخليفة بقوله: ((ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً ولمن بعدك من عقبك))!.. الذي أخاله أن موقف أبيه - بما فيه من ترفع وشمم - بعث في نفسه الشعور بالعزة والاستهانة بأمثال هذه المساومات.

وإذا قدّر للعباس أن يرتفع عن هذا المستوى، ويحتفظ بعواطفه فلا يبيعها بأيّ ثمن، فإن أبا سفيان كان أهون شأناً من أن يسمو إلى هذا المرتفع، وكان قليل من المال يكفي لاستدراجه وضمّه إلى صفوفهم، وما كانت انتهازيته لتخفى على علي(عليه السلام) - وإن خفيت على العباس - حين جاء ليحفّز الإمام(عليه السلام) على الوثوب، فيجبهه بذلك الردّ، وأيأسه من أن يكون طرفاً لمساوماته التي إن انتفع بها الإمام (عليه السلام) مؤقتاً، فإن خسارتها سوف لا تكون إلاّ على الإسلام.

وكان لابدّ للقوم من شراء هذه العواطف ؛ ما دام لا يكلّفهم شراؤها كثيراً، وحسبهم أن يدفعوا إليه ما جاء به من أموال الصدقات ؛ ليضمّوه إلى جانبهم ويضعفوا به جانب المعارضة، يقول الراوي - بعد أن ذكر شيئاً من كلام أبي سفيان ونشاطه في الدعوة للإمام (عليه السلام) -: ((فكلّم عمر أبا بكر فقال إن أبا سفيان قد قدم وإنا لا نأمن من شره، فدفع إليه ما في يده، فتركه فرضي))[1]، وأراد أن يؤكد من صداقته فولّى ولده يزيد.. يقول الراوي:قيل لأبي سفيان وكان يقول:مالنا ولأبي فصيل،إنما هي بنوعبد مناف

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ١٣٠.

قال: فقيل له: إنه قد ولّي ابنك قال: وصلته رحم[١]، ويبدو أن الخليفة قد تجاوز في المساومة على العواطف حتى بلغ بها النساء وكنَّ - فيما يبدو - أجرأ على المعارضة من رجالهن، ولهن من المواصفات التي ترفع من أقدار الرجال عن مقابلتهن بالشدة ما يشجعهن على ذلك.. وسنرى بعد حين كيف خرجت أم مسطح بن أُثاثة فوقفت عند القبر لمّا اشتدوا على الإمام (عليه السلام) وأنشدت:

((كانت أمور وأنباء وهنبثة   لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها   واختل قومك فاشهدهم ولا تغب))[٢]

وقد خصّهن بتوزيعة من المال لاستمالتهن والحد من نشاطهن، فأدركت ذلك امرأة من بني عدي بن النجار بعث إليها بيد زيد بن ثابت نصيبها من المال فقالت: ((ما هذا؟ قال: قسّم أبو بكر قسمة للنساء، قالت: أتراشوني عن ديني والله لا أقبل منه شيئاً وردّته عليه))[٣] ، وهكذا سمت نفسها عن قبوله بينما انهار أبو سفيان أمامهم ذلك الانهيار.

دفن النبي

وما أدري.. هل شغلت هذه الأحداث ابن عباس عن متابعة بطله ومعه أبوه وأخوه الفضل وبعض الصحابة، وهم بين مباشرٍ لتغسيل الجسد

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٣: ٢٠٢.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ١٣٢.

(٣) المصدر السابق ج١: ١٣١.

الطاهر ومناولٍ له الماء؟ وهل شاهدهم وهم يكفّنونه ويعدّونه للصلاة عليه؟ ثم هل شاهد آل البيت وهم يصلّون عليه؟.. وما يدريك؟ لعلّه كان في طليعة المصلّين، وما كان ليفوته شرف هذه الصلاة على سيدهم. ثم شاهد المهاجرين والأنصار والنساء والصبيان والإمام (عليه السلام) يدخلهم رسلاً رسلاً لا يؤمّهم أحد في الصلاة[1]، حتى إذا انتهوا منها بعث - كما يروي هو - رجلاً إلى أبي عبيدة بن الجراح، وكان يضرح على طريقة أهل مكة، وآخر إلى أبي طلحة زيد بن سهل وكان يلحد لأهل المدينة، ثم قال: اللّهم خر لرسولك[2]، وكانت الخيرة لأبي طلحة فقد سبق صاحبه إليه وجاء به مسرعاً، فنال حظه من شق القبر له.

وأُنزل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى القبر ونزل معه - فيما يحدّث - هو وأبوه وأخواه الفضل وقثم والإمام (عليه السلام) وشقران مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأسامة بن زيد[3] وخرجوا جميعاً عنه، وكان أخوه قثم آخر الناس عهداً به[4].

وأُهيل التراب عليه، ووقف آل البيت على القبر - وكان من أفجع المناظر العاطفية ذلك الموقف الرهيب، وهم يتململون من الجزع والألم - ووقف بينهم بطله وهو يلتمس منافذ للصبر فلا يجد إليها سبيلاً وإذا بصوته ينطلق وقد أكبّ على القبر بوجهه:

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ٦٨.

(٢) انظر المصدر السابق ج٢ قسم٢: ٧٤.

(٣) انظر تأريخ الطبري ج٣: ٢٠٤.

(٤) انظر المصدر السابق.

((إن الصبر لجميل إلاّ عنك يا رسول الله، وإن الجزع لقبيح إلاّ عليك، وإن المصاب بك لجليل، وإنه قبلك وبعدك لجلل))[١].

وهي كلمات - على إيجازها - تصوّر مدى ما تحمّله من طاقة شعورية محرقة من اللوعة والآلام، وبخاصّة إذا عرفنا أنها صدرت من أقوى الناس على ضبط الأعصاب، وأقدرهم على الصبر، فهو هنا لا يطيق الصبر بل لا يستحسنه، وما كان المقام مقام صبر وتسلي والمفقود رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

ثم توجّه بآل بيته إلى حيث يتفرقون؛ ليفرغ كل منهم إلى التنفيس عن هذا الشعور بالبكاء والعويل ومعاودة الذكريات الحرار. ولك أن تحدّث عن مدى شعور صاحبنا بهذا الخطب بعد أن فرغ إلى نفسه، وقد سبق أن عرفت مدى علائقه برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكأني به الآن وهو شارد الفكر موزع الإحساس، بين صور متلاحقة يحضر بعضها بعضاً ويأخذ بعضها برقاب بعض، وتداعي المعاني ينقله بينها، وربّما شرّق به وغرّب، فهو يستحضر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو حي ثم يجرّه تفكيره إلى موقفه من بطله، ومواقفه من النص عليه، ثم محاولاته لتأكيد ذلك، ثم موقفهم من حديث الدواة يوم الخميس، ثم معاملاتهم لهم وتعبيسهم في وجوههم واستهانتهم بمركزهم، وقولة قائلهم: ما رسول الله إلاّ كنخلة في كباء، ونظائر ذلك مما صدر قبل وفاة النبي، ثم موت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومسارعة القوم إلى أخذ حقه، وبحيئهم لأبيه ليخزلوه عن بطله، وموقف أبيه منهم.. وهكذا تتسلسل في خواطره حتى تنتهي به إلى موقفه

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب -مطبعةدارالكتب،مصر،سنةالطبع١٩٤٧م- ج١: ١٩١.

مع أسرته وبطله قبل قليل على القبر،والمساحي تعمل عملها لتهيل التراب عليه، وما أدري هل استطاع أن ينام وهو في غمرة هذه الخواطر؟!..وما يدريك لعله نام ولاحقته في منامه بشكل كابوس مفزع فأيقظته مراراً، وهو خائف فزع ينتظر الصباح بما يملكه من صبر، لعله يخفف من أثقال هذا الكابوس الجاثم على صدره، على أنه كان لا يدري ما يبيّته لهم الصباح من أحداث.

أحداث ما بعد الدفن

(١)

وأقبل الصباح، فأقبل عليهم بفكرة جديدة على الخليفة ومشاوريه - بعد أن أخفقت محاولتهم بالأمس من شق بني هاشم على أنفسهم - وكانت خلاصة الفكرة الجديدة أن يذهب الخليفة بنفسه إلى الإمام (عليه السلام) ومعه صاحباه عمر وأبو عبيدة، ويستعملوا أساليبهم الخاصة في الترغيب والترهيب،، فلربما أثّروا عليه فبايع، وإذا بايع هو لم يبق لبني هاشم مجال للمعارضة.

ودخلوا عليه الدار - وماكان ليفارقه بنو هاشم وبخاصة العباس - وبدأ الخليفة حديثه بما عُرف عنه من لين وقدرة على التلاعب بالعواطف بأساليبه البيانيّة.. فقال: ((ابن عم رسول الله وختنه على ابنته يريد أن يشق عصا المسلمين))، وساءت العباس هذه اللهجة الناعمة التي تفترض لصاحبها أن يكون هو صاحب الحق، وأن المخالف له باغٍ للفتنة وشاق لعصا الطاعة،

فيبادر إلى ردّه بقوله: ((ما أحد أولى بمقام رسول الله منه))، ومهّد بهذا الجواب للإمام (عليه السلام) أن يقول لهم : ((أنا أحق بهذا الأمر منكم فلا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي))، وقبل أن يشرح وجه الأولويّة بدره الخليفة بقوله: ((فهل كانت بيعتي عن غير رضا من الناس))، وكان لابدّ للإمام (عليه السلام) أن يعطف زمام الحديث - بعد هذا التساؤل - إلى قضية البيعة، وكيف أخذت من الأنصار وبأية حجّة تمت لهم ؛ ليريهم أنهم ملزمون حتى بلغة هذه الحجّة يقول: ((ولكنكم زعمتم للأنصار أنكم أولى بها منهم إذ كان محمد منكم، فاعطوكم المقادة، ولست أحتج عليكم إلاّ بمثل ما سلف لكم من الحجة على الأنصار)). وكانت هذه الحجة وحدها كافية لوقف الأمر عند حده، لو أريد من وراء المحاجحة التماس جانب الحق والخضوع له، وإلاّ فماذا يقولون في جوابها؟!.. أينكرون احتجاجهم على الأنصار بالقرب من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أم يقولون إنهم أقرب إليه منه؟!.. أم ينكرون فائدة القرب وبها أخذوا الخلافة من هؤلاء؟!.

ويعود عمر إلى النغمة التي سبق لأبي بكر أن وقّعها في الاحتجاج مع العباس وسمع جوابها منه، يقول عمر: ((قد كان رسول الله منا ومنكم)) فيلتفت الإمام(عليه السلام) غاضباً لهذه المغالطات وهو يقول: ((نحن أولى برسول الله حياً وميتاً، يا عمر إنّا آله وموضع سرّه ولجأ أمره، وعيبة علمه وموئل حكمه، لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمته عليهم أبداً)). وهنا نرى الإمام (عليه السلام) لا يكتفي بذكر مزية الأقربيّة من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل يعمد إلى ذكر الصفات التي استحقوا بها الإمامة ليصحح خطأ تداوله القوم،

وخرج بالقضية من معناها الإنساني العام إلى أفق قَبَلي ضيق، فقال: ((إنا آله وموضع سره ولجأ أمره وعيبة علمه))، فهم لهذه الصفات التي امتازوا بها على سائر المسلمين كانوا موئل حكمه، لا لأنهم أقرب الناس إليه فحسب، بل هم بما عندهم من أسرار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبما أودع فيهم من العلوم، كان لا يقاس بهم من سائر الأمّة أحد.

وهنا لجأ ابن الخطاب ـ بعد أن أفحمته الحجة ـ إلى لغة الحاكم الذي لا يريد أن يصيخ إليها فيصيح: ((إنك إذاً لست متروكاً حتى تبايع))، فصاح به علي عليه السلام ((أفتلزمني البيعة يا ابن الخطاب))، ويجيب الخليفة بأعصاب هادئة ويتناسى كل ذلك الحديث: ((يا أبا الحسن إن الناس قد اختاروني عليهم وإني أحبّ لك أن تدخل فيما دخل فيه الناس))، وكأنّ كلمة ((أحبّ)) بما فيها من لين لم تعجب عمر، واعتبرها من الخليفة ضعفاً فالتفت إليه قائلاً : ((يا خليفة رسول الله لقد لزمته طاعتك إذ بايعك الناس))، وضاق الإمام (عليه السلام) من هذا التحدي وأدرك سرّ ما ينطوي عليه من إصرار عمر ـ وما كان ليخفى عليه ـ فجبهه بقوله: ((يا عمر احلب حلباً لك شطره، وشدّه له اليوم يردده عليك غداً))، ثم التفت إلى أبي بكر ـ فيما تقول الرواية ـ: ((أما والله لقد تقمّصتها، وإنك لتعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير))، وأراد عمر أن يتكلم وخشي الخليفة أن يتطور الحديث إلى غير صالحهم فالتفت إلى عمر قائلاً: ((على رسلك يا عمر))، ثم التفت للإمام (عليه السلام) وهو يهمّ بالقيام: ((لا عليك يا أبا الحسن فإن لم تبايع فلا أكرهك)).

وخرج عمر وأبو بكر وتركوا أبا عبيدة ليحكم لهم الأمر.. يقول المحدّث: فالتفت إلى الإمام (عليه السلام) قائلاً: ((يا ابن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم بالأمور))، وعاود الإمام (عليه السلام) الهدوء واجابه بمرارة وسخريّة: ((أمّا السن فما أزعم لي بها على الرحل قدم))، ومتى كانت السن مقياساً من مقاييس الكفاءة في أمثال هذه المجالات(*)؟! ولكنّ أبا عبيدة يعاود الحديث فيقول: ((فهلاّ يا ابن عم بايعت إني أرى أبا بكر أقوى على الأمر منك))، ويغيض الإمام (عليه السلام) هذا الإصرار فيلتفت إليه متسائلاً: ((أفأنتم خير أم رسول الله خير)). فيجيبه: ((بل رسول الله))، وهنا كنا ننتظر أن يقول الإمام (عليه السلام) له إنه (صلى الله عليه وآله وسلم) تحدى السن بالنص عليه - كما هو معروف لديهم - ولكنّه لم يقل ذلك، لئلا يجعل من الحديث حول النص مسرحاً للتأولات، وما كان ليخفى عليه أنهم قد أعدّوا لهذه المسألة جوابها، - وهي أول ما يُفكّر به عادة - وإن أي كلمة تشكيكية تصدر منهم تأخذ من نفوس الناس مأخذها؛ لما يجدون فيها من تنفيس عن ضغط الضمير عليهم بمخالفتهم الصريحة له، فلابدّ إذاً أن ينأى عن كل ما يشير إليه مؤقتاً ويلزمهم بما ألزموه به أنفسهم من أمثال تلكم الاحتجاجات، وها هو ينقض عليه بما لم يكن بحسبانه: ((لقد كان رسول الله بعث أسامة بن زيد على جيش فيه مشيخة قومك هؤلاء لم يطعن فيه أنه صبي)).

(*) من طريف ما يروى من السخريّة في اعتبار السن ما حدّثوا عن أبي قحافة والد أبي بكر وقد سأل عن أسباب اختيارهم لولده قالوا: لسنّه قال: أنا أسنّ منه، انظر شرح نهج البلاغة ج١: ٧٤.

وماذا ترون؟ أينكرون بعث أسامة وتأميره على كبار المهاجرين والأنصار من أمثال أبي بكر وعمر واستصغارهم لسنّه وغضب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإصراره على ذلك؟! أم ينكرون صغر سنّه أم ماذا؟!.. وهنا يضطر أبو عبيدة لتصحيح كلمته فيقول: ((إني يا ابن عم إنما عنيت أنك حديث السن أنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك ونسبك وصهرك))، ويثير هذا الكلام الإمام (عليه السلام) ويجيبه بغضب:

((الله الله يا معشر المهاجرين تخرجون سلطان محمد في العرب من داره إلى دوركم، وتدفعون أهله عن مقامهم في الناس! أما والله لنحن أهل البيت أحق منكم بالأمر ؛ ما دام فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعيّة، الدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسويّة وإنه والله لفينا يا أبا عبيدة، إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله، وتزدادوا من الحق بعدا))(١). وهو هنا ينأى بحديثه عن النزعة القبلية، ويقرب بهم نحو الهدف الإنساني الذي توخاه الإسلام من تخصيصها بهم، فهي لهم لا لأنهم من بني هاشم رهط النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإلاّ لاستحقها من بقي منهم، وإن لم يكن مرضي السيرة، وإنما هي لهم ما دام فيهم من كان مستكملاً لصفات الخليفة الصحيح التي عدّدها في حديثه هذا، وأشار إليها فيما سبق من حديث الثقلين.

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١١-١٢، وانظر الإمام علي بن أبي طالب - لعبد الفتاح عبد المقصود - ج١: ١٩٥-١٩٩.

وخرج أبو عبيدة فلحق يائساً بصاحبيه ؛ ليدبّروا خطّة جديدة لحملهم على البيعة حملاً. ولسنا بحاجة إلى أن نؤكّد هنا أن صاحبنا قد تتبّع هذه المحاورة - كما تقتضي العادة - ووعاها وعياً تاماً وأنس بقوة حجتها، وتخاذل القوم أمامها وربّما لمسنا آثار أمثال هذه الاحتجاجات على كلامه وتأثره بها تأثراً واضحاً فيما يأتي من حديث..

(٢)

ونشط الإمام (عليه السلام) بعد هذا المجلس - فيما يبدو - للمطالبة بحقه في حدود ما عهد إليه به ابن عمه. فخرج في الليل ومعه فاطمة وولداها(عليهم السلام) وجعل يطوف بهم على مجالس الأنصار، وفاطمة تذكّرهم بما كان له من حق، فكانوا يجيبون: ((يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به)) وكان الإمام (عليه السلام) يجيب: ((أفكنت أدع رسول الله في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس بسلطانه))، وكانت فاطمة (عليها السلام) تؤيد وجهة نظره فتقول :((ما صنع أبو الحسن إلاّ ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم))[١].

وما كانت هذه الحادثة لتخفى على الحاكمين، أو تخفى نتائجها لو قدّر لها أن تتسع، ففكروا بخنقها من الأساس، وذلك باللجوء إلى العنف وإخراج الإمام (عليه السلام) ومن معه من بني هاشم وغيرهم من الصحابة

---

(١) الإمامة والسياسة ج١ :١٢ .

إلى البيعة، وهو آخر سلاح يملكونه في هذا السبيل. يقول ابن قتيبة - بعد أن ذكر الحديث السابق -: ((وإن أبا بكر تفقّد قوماً تخلّفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه، فبعث إليهم عمر فجاء فناداهم وهم في دار علي فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجن أو لأحرّقنّها على من فيها، فقيل له: يا أبا حفص إن فيها فاطمة قال: وإن))[1].

وفي تأريخ الطبري بعد أن ذكر قوله: والله لأحرّقنّ عليكم أو لتخرجن إلى البيعة، قال: ((فخرج عليه الزبير مصلتاً السيف فعثر فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه))[2].

وما كان ليهون على فاطمة (عليها السلام) هذا الموقف الشديد منهم، وهذا التهديد بالإحراق فوقفت على بابها - كما يقول ابن قتيبة - فقالت: ((لا عهد لي بقوم حضروا أسوء محضر منكم تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا و لم تردّوا إلينا حقاً))[3].

ويبدو من رواية النظّام - رأس الفرقة النظاميّة من السنّة - أن عمر - وقد فقد أعصابه - تحامل علىفاطمة فضربها علىبطنها - وكانت حاملاً - ((حتى ألقت المحسن من بطنها، وكان يصيح أحرقوها بمن فيها))[4].

وفي رواية المسعودي قال: ((وضغطوا سيدة النساء بالباب حتى أسقطت محسناً))[5].

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٢.

(٢) تأريخ الطبري ج٣: ١٩٨.

(٣) الإمامة والسياسة ج١: ١٢.

(٤) الملل والنحل ج١: ٧٧ .

(٥) إثبات الوصيّة -المطبعة الحيدرية، النجف، لم تذكر سنة الطبع- :١٤٣.

وعاد عمر ومعه جماعة إلى دار علي(عليه السلام) من جديد بعد أن ذهب بالزبير والجماعة إلى البيعة، يقول المسعودي: ((وتوجهوا إلى منزله فهجموا عليه وأحرقوا بابه واستخرجوه منه كرهاً))[١]، فلما سمعت فاطمة (عليها السلام) أصواتهم نادت بأعلى صوتها: ((يا أبت رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة؟! فلما سمع القوم صوتها وبكاءها انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تتصدع وأكبادهم تتفطر، وبقي عمر ومعه قوم فأخرجوا علياً(عليه السلام) فمضوا به إلى أبي بكر فقالوا له: بايع فقال: إن أنا لم أفعل فمه؟ قالوا: إذن والله الذي لا إله إلاّ هو نضرب عنقك، قال: تقتلون عبد الله وأخا رسوله؟! قال عمر: أمّا عبد الله فنعم وأمّا [أخو] رسوله فلا وأبو بكر ساكت لا يتكلم))[٢].

وبالطبع قد شغله عن الحديث التفكير بنتائج هذا العنف، وماذا سيجنون من ورائه لو استمروا به حتى النهاية، وها هو ذا يرى الناس من حوله وهم بين باك لحديث فاطمة (عليها السلام) ومتهيج لها.

وفاطمة - مهما قدّروا في أنفسهم - لا تعدوا أن تكون بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحبيبته، فإذاً لابدّ من التريّث في الأمر والاكتفاء ببيعة من بايع من أصحاب علي(عليه السلام) يقول الراوي: ((فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمرك فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه تقول الرواية: فلحق علي بقبر رسول الله يصيح ويبكي وينادي: يا ابن أم

---

(١) إثبات الوصيّة: ١٤٣.

(٢) الإمامة والسياسة ج١: ١٣.

إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني))[١].

وما أدري.. هل كانت أعصاب صاحبنا تساعده على متابعة هذه المشاهد وملاحقة فصولها؟! وكيف كان حاله وهو يشهد هذه الجرأة على هتك حرمة هذا البيت مع ما له من مقام رفيع برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثمّ يشهد فاطمة (عليها السلام) وهي تتضوّر من الألم تحت ضربة ابن الخطاب - كما حدّث به النظّام - ويشهدها بعد ذلك وهي تتحامل على نفسها في الذود عن ابن عمها، ثم يشهد بطله - وهو يعرف ما يعرف عن مواقفه في الحروب - كيف يؤخذ أخذاً لا هوادة فيه، ويرى أخيراً هذه اللغة العنيفة التي قابلوه بها، وجرّدوه فيها حتى من شرف مؤاخاته لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، مع أن عهدهم بالمؤاخاة ليس ببعيد، وإذا بَعُد وأمكن أن يتطرق إليهم نسيانه فما بعد قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك: ((ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه ليس نبي بعدي))[٢]، وزاد في البداية والنهاية ((أنه لا ينبغي أن أذهب إلاّ وأنت خليفتي))[٣]، وقد وعى ذلك كله ورواه، أم ترى أنهم تجاهلوه لئلاّ يلزموا بمضمونه ؛ وليقطعوا بذلك السبيل على كل جدل ومحاججة.

وأخال أنّ أفجع منظر شاهده إذ ذاك ولم تتحمله أعصابه هو استضعافهم لبطله وتهديدهم له بالقتل ؛ حتى ألجؤه أن يعلن عن مظلوميته بهذا الأسلوب المفجع: ((يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني)).

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٣ .

(٢) صحيح البخاري ج٦: ٣، وانظر صحيح مسلم ج٧ : ١٢٠.

(٣) البداية والنهاية ج٧: ٣٣٨.

(٣)

وكان لهذه الحادثة آثار - فيما يبدو لي - مهمة..

(أولها): ندم كثير من الأنصار على ما فرّطوا في حق الإمام (عليه السلام)، واحتجاب الإمام(عليه السلام) في داره وعدم إجابتهم بالإيجاب أو السلب ؛ لعدم إيمانه - فيما أعتقد - في جدوى ما يرد به من جواب، حدّث الزبير بن بكّار قال: ((لما بويع أبو بكر واستقر أمره - طبعاً بعد هذه الحوادث - ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته، ولام بعضهم بعضاً، وذكروا علي بن أبي طالب، وهتفوا باسمه وإنه في داره لم يخرج إليهم، وجزع لذلك المهاجرون وكثر في ذلك الكلام، وكان أشدّ قريش على الأنصار نفر منهم سهيل بن عمرو وأحد بني عامر بن لؤي والحرث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل المخزوميان، وهؤلاء أشراف قريش الذين حاربوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم دخلوا في الإسلام، وكلّهم موتور قد وتره الأنصار))... إلى أن يقول: ((فلما اعتزلت الأنصار تجمّع هؤلاء فقام سهيل بن عمرو فقال: يا معشر قريش إن هؤلاء القوم قد سمّاهم الله بالأنصار وأثنى عليهم في القرآن، فلهم بذلك حظ عظيم وشأن غالب، وقد دعوا إلى أنفسهم وإلى علي بن أبي طالب، وعلي في بيته لو شاء لردّهم، فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته، فإن أجابوكم وإلاّ قاتلوهم، فوالله إني لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم))[1].

---

(١) الموفقيات: ٥٤٧-٥٤٨.

وتتابع هؤلاء على هذا النسق من الكلام المثير، وجاء أبو سفيان فنحا نحوهم في الكلام، وبلغ الأنصار ذلك فغاضهم وأثارهم، وقام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس، فهدّأ من خواطرهم وعرّض بهؤلاء الخطباء فقال: ((يا معشر الأنصار إنما كان يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قريش، فأما إذا كان من أهل الدنيا لا سيّما من أقوام كلّهم موتور، فلا يكبرنّ عليهم، إنما الرأي والقول مع الأخيار من المهاجرين، فإن تكلمت رجال قريش الذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء، فعند ذلك قولوا ما أحببتم وإلاّ فأمسكوا))(١).

ثم تناول الموضوع شاعر الأنصار، فهجا هؤلاء بمقذع القول، وأجابه شاعر قريش مروان بن أبي عزة، وكادت الفتنة تهدأ لولا أن يجئ من سفره عمرو بن العاص، فيثيرها من جديد بكلام بذئ تناول به الأنصار بالشتم والسباب، فساءهم ذلك فبعثوا إليه بشاعرهم النعمان بن العجلان، فوقف عليه وتكلم، ثم أنشد شعراً يعرض فيه وجهة نظر الأنصار وبعد أن ذكر مفاخرهم وتفضلهم على المهاجرين قال فيما قال:..

((وقلتم حرامٌ نصب سعد ونصبكم   عتيق بن عثمان حلال أبا بكر
وأهلٌ أبو بكر لها خير قائم   وإن علياً كان أخلق بالأمر
وكان هوانا في علي وإنه   لأهل لها ياعمرو من حيث لاتدري
فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى   وينهى عن الفحشاء والبغي والنكر
وصيّ النبي المصطفى وابن عمه   وقاتل فرسان الضلالة والكفر))(٢)

---

(١) الموفقيات: ٥٨٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٢: ١٣.

... إلى آخر ما قال. وصادف في الأثناء قدوم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن، و((كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) استعمله عليها، وكان له ولأخيه شأن عظيم قديم في الإسلام، وهما من أول من أسلم من قريش ولهما عبادة وفضل، فغضب للأنصار وشتم عمرو بن العاص وقال: يا معشر قريش إن عمراً دخل في الإسلام حين لم يجد بدّاً من الدخول فيه، فلمّا لم يستطع أن يكيده بيده كاده بلسانه، وإن من كيده الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار. والله ما حاربناهم للدين ولا للدنيا، لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا، وما بذلنا دماءنا لله فيهم. وقاسمونا ديارهم وأموالهم وما فعلنا مثل ذلك بهم، وآثرونا على الفقر وحرمناهم على الغنى. ولقد وصّى رسول الله بهم وعزّاهم عن جفوة السلطان، فأعوذ بالله أن أكون وإياكم الخلف المضيّع والسلطان الجاني))(١).

يقول ابن أبي الحديد: قلت: ((هذا خالد بن سعيد بن العاص هو الذي امتنع من بيعة أبي بكر وقال: لا أبايع إلاّ علياً))(٢).. ثم أنشد شعراً في مدح الأنصار.

قال الزبير: ((ثم إن رجالاً من سفهاء قريش ومثيري الفتن منهم اجتمعوا إلى عمرو بن العاص، وقالوا له إنك لسان قريش ورَجُلها في الجاهلية والإسلام، فلا تدع الأنصار وما قالت، وأكثروا عليه من ذلك، فراح إلى المسجد وفيه ناس من قريش وغيرهم، فتكلم وقال: إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها وأيم الله لوددت أن الله خلّى عنا وعنهم، وقضى

---

(١) الموفقيات: ٥٩٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٢: ١٣.

فيهم وفينا بما أحبّ، ولنحن الذين أفسدنا على أنفسنا، أحرزناهم عن كل مكروه، وقدّمناهم إلى كل محبوب، حتى أمنوا المخوف، فلما جاز لهم ذلك صغروا حقنا، ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم.. والتفت فرأى الفضل بن العباس بن عبد المطلب وندم على قوله ؛ للخؤولة التي بين ولد عبد المطلب وبين الأنصار، ولأن الأنصار كانت تعظّم علياً وتهتف باسمه حينئذ، فقال الفضل: يا عمرو إنه ليس لنا أن نكتم ما سمعناه منك، وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة إلاّ أن يأمرنا فنفعل))[1].

وهنا نرى أن أهل البيت (عليهم السلام) قد وضعوا لأنفسهم نهجاً خاصاً يسيرون في ضوئه ولا يحيدون عنه، وتركوا زمامه بيد ولي الأمر منهم، فهذا الفضل - كما ترون - لا يجيب عمراً ما دام علي(عليه السلام) في المدينة ما لم يأذن له بذلك، ثم يمضي فيبلغه بمقالة عمرو، فيساء الإمام (عليه السلام) ويغضب، ويرى أن يضع حداً لمهاترات هؤلاء الدخلاء على الإسلام، الذين لا يريدون من وراء شتم الأنصار إلاّ الدسّ والكيد لمبادئه، فيخرج إلى المسجد ويتكلم مغضباً وقد اجتمع إليه كثير من قريش يقول: ((يا معشر قريش إن حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق، وقد قضوا ما عليهم وبقي ما عليكم، واذكروا أن الله رغب لنبيكم عن مكة فنقله إلى المدينة وكره له قريشاً فنقله إلى الأنصار، ثم قدمنا عليهم دارهم فقاسمونا الأموال وكفونا العمل، فصرنا منهم بين بذل الغني وإيثار الفقير، ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم، وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن، جمع لهم فيها بين خمس نعم فقال: ﴿والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم

---

(١) الموفقيات: ٥٩٥-٥٩٦.

ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[١]. ألا وإن عمرو بن العاص قد قام مقاماً آذى فيه الميت والحي، ساء به الواتر وسرّ به الموتور، فاستحق من المستمع الجواب ومن الغائب المقت، وإنه مَن أحبّ الله ورسوله أحبّ الأنصار، فليكفف عمرو عنا نفسه))[٢].

ولم يكتف الإمام (عليه السلام) بهذه النصرة التي كشفت عن مدى قيمة الأنصار في نفسه (عليه السلام) ومدى أثرهم في الإسلام، بل أضاف إليها نصرة ثانية بأمره الفضل بن العباس أن ينصرهم شعراً.. يقول الزبير بن بكار: ((وقال علي للفضل بن العباس: انصر الأنصار بلسانك ويدك، فإنهم منك وإنك منهم، فقال الفضل:

قلت يا عمرو مقالاً فاحشاً　　إن تعد ياعمرو والله فلك
إنّما الأنصار سيف قاطع　　من تصبه ظبة السيف هلك
وسيوف قاطع مضربها　　وسهام الله في يوم الحلك
نصروا الدين وآووا أهله　　منزل رحب ورزق مشترك
وإذا الحرب تلظّت نارها　　بركوا فيها إذا الموت برك))[٣]

وكان لهذا الشعر صدى قوي في نفس الإمام (عليه السلام) حتى قال في تقريضه: ((وريت بك زنادي يا فضل أنت شاعر قريش وفتاها فأظهر شعرك وابعث به إلى الأنصار))، وبعث به إلى الأنصار فكان له نفس الصدى،

---

(١) الحشر:٩ .

(٢) الموفقيات: ٥٩٥-٥٩٦.

(٣) المصدر السابق: ٥٩٧ .

وأمروا شاعرهم حساناً أن يجيب عليه، فاستمهلهم حتى يحاكيه في قوافيه لئلاّ يفتضح، ((فقال له خزيمة بن ثابت: أذكر علياً وآله يكفك عن كل شئ فقال:

جزى الله عنا والجزاء بكفه أبا حسن عنا ومن كأبي حسن
سبقت قريشاً بالذي أنت أهله فصدرك مشروح وقلبك ممتحن
تمنت رجال من قريش أعزّة مكانك هيهات الهزال من السمن
وأنت من الإسلام في كل موطن بمنزلة الدلو البطين من الرسن
غضبت لنا إذ قام عمرو بخطبة أمات بها التقوى وأحيا بها الإحن
فكنت المرجّى من لؤي بن غالب لما كان منهم والذي كان لم يكن
حفظت رسول الله فينا وعهده إليك ومن أولى به منك مَن ومَن
الست أخاه في الهدى ووصيّه وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن
فحقك ما دامت بنجد وشيجة عظيم علينا ثم بعد على اليمن))[1].

وهنا نرى أن حديث الوصيّة والعهد إليه والمؤاخاة والأعلمية بدأ يطفح على ألسنة الأنصار، كما شاهدناه في أبيات حسان هذه، وشاهدنا قسماً منه في أبيات النعمان بن العجلان السابقة.

ويبدو أن كلام الإمام (عليه السلام) السابق لم يكف من غلواء عمرو، بالرغم من ذهاب قريش إليه وقولتهم له - كما يحدّث الزبير بن بكّار -: ((أمّا إذ غضب علي فاكفف))[2].

---

(١) الموفقيات: ٥٩٨-٥٩٩.

(٢) المصدر السابق: ٥٩٧.

فقد خرج الإمام(عليه السلام) مرة ثانية إلى المسجد وقال لمن به من قريش وغيرهم: ((يا معشر قريش إن الله جعل الأنصار أنصاراً فأثنى عليهم في الكتاب، فلا خير فيكم بعدهم، إنه لا يزال سفيه من سفهاء قريش وَتَرَه الإسلام ودفعه عن الحق وأطفأ شرفه وفضّل غيره عليه، يقوم مقاماً فاحشاً فيذكر الأنصار، فاتقوا الله وارعوا حقهم، فوالله لو زالوا لزلت معهم ؛ لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لهم: أزول معكم حيثما زلتم))[1].

وكان هذا التهديد من الإمام(عليه السلام) ((لو زالوا لزلت..)) كافياً لاهتمام قريش في الأمر وموافقتها له، وارتباك عمرو بن العاص وتخوّفه، ثم خروجه من المدينة وعدم عودته إلاّ بعد رضا الإمام(عليه السلام) والمهاجرين عنه كما تحدّث هذه الرواية.

وكان لهذه الخُطَب والمشاجرات بين حزب قريش وحزب الأنصار نظائر ذكرها المؤرخون[2].. وقد اكتفينا منها بما نخال أنه كان وافياً بتصوير الفجوات بين الحزبين، بما لها من جذور عميقة، ثم بتصوير الجانب المهم الذي نعتقد أن له أعمق الآثار في نفسية صاحبنا المراهق، ولعلّ من فضول القول أن نصرّح أنه كان يتتبّع هذه الأحداث باهتمام كبير، وبخاصّة بعد أن بلغنا معه في الحديث إلى هذه المرحلة، فلنتحوّل إلى بحث آثارها الأخر فلربما كانت أعمق أثراً في نفسه.

---

(١) الموفقيات: ٥٩٩ .

(٢) انظر الفتوح – مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة الطبع ١٤٠٦هـ– ج١: ١٢.

(وثانيها): هو ضرب لون من الضائقة الاقتصاديّة على هذا البيت وتجريده من جميع موارده الخارجية ؛ ليحدّ من نشاطه السياسي ؛ وليربطه بالسلطة في شؤونه الماديّة على الدوام.

وقد كانت لهذا البيت موارد في حياة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان يرى أهله أنها من قبيل الحق المفروض لهم فلا تقبل الأخذ والرد .

وهذه الموارد بعضها كان عامّاً يشترك فيه جميع أعضاء الأسرة، وبعضها كان خاصّاً ينفرد بواحد أو أكثر منها، ويأتي في القسم الأول نصيبهم من الخمس المفروض لهم بآية: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى**...الآية﴾[1] وقد قسّم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على عهده خمس خيبر، وخصّ نصيبهم بحصن الكتيبة، كما حدّث بذلك الطبري[2]، وفي رواية بعض المؤرخين - كما سبق أن ذكرنا - أن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أسهم للعباس من هذا الخمس.

وتأتي في القسم الثاني فدَك التي أقطعها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة(عليها السلام) في حياته، يقول ابن عباس - كما عن ابن مردويه -: ((لما نزلت آية ﴿**وآت ذا القربى حقه**.. الآية﴾[3] أقطع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة فدَكاً))[4].

---

(١) الأنفال :٤١.

(٢) انظر تأريخ الطبري ج٣: ٩٧.

(٣) الإسراء: ٢٦.

(٤) الدر المنثور ج٤: ١٧٧.

وهناك موارد خاصّة حدثت بعد وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي ما خلّفه لوارثيه من أموال، ثم ما تركه من صدقات كانت بيده، وقد قبض إليه الخليفة ذلك كلّه، فأثار استغراب آل البيت وتساؤلهم واحتجاجهم، وبخاصّة سيدة النساء فاطمة(عليها السلام)، وقد حملت لواء المعارضة، فوقفت أمام الخليفة من ذلك كلّه مواقف صارمة، وكان للخليفة من كل واحدة منها حديث.. فهو يدفع حقهم من الإرث بحديث يرويه عن أبيها جاء فيه: ((أن رسول الله قال: لا نورث ما تركناه صدقة، وإنما يأكل آل محمد في هذا المال))[١].

وقد كان هذا الحديث موضع استغرابها ؛ بانفراد راويه به ؛ ولأنه يناقض ظاهر آيات عدّة في القرآن الكريم حكت وراثة أنبياء سابقين، بالإضافة إلى أن هذا الحكم من الأحكام التي تخصّ الوارثين أنفسهم، فمن البعيد جدّاً أن لا يؤذنهم به رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ويتركهم عرضة للجدل والخصام، بل لايؤذن به إلاّ شخصاً واحداً من بين سائر المسلمين.

وكان حديثه عن الخمس بعد أن سألته فاطمة عنه أنه قال: ((إن الله طعم نبيه طعمة ثم قبضه، وجعله للذي يقوم بعده، فوليت أنا بعده أن أرده على المسلمين))[٢].

أما حديث فدَك فقد كان حديثاً طويلاً شغل الناس قديماً وحديثاً، وتقوم خطوطه الأولى - بعد أن اعتبرتها فاطمة(عليها السلام) نحلة -

---

(١) صحيح مسلم ج٥ : ١٥٣ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج٤ :٨١ .

أن الخليفة أقام من نفسه قاضياً، وطالب فاطمة بالبيّنة، وقد كان هذا الإجراء منه مثار تساؤل من علماء آل البيت ؛ لأن المعتاد في أمثال هذه المسائل أن يترك الحكم فيها لغيره ؛ لأنه كان طرفاً في الدعوى - باعتبار ما يراه لنفسه من الولاية على المسلمين - ولأنه طالب بالبيّنة وهي صاحبة اليد، كما يظهر من رواية ابن عباس السابقة وغيرها، مع أن من أوليّات الفقه أن البيّنة على من ادعى، والمدعي من خالف قوله الحجّة، وقولها هنا موافق لها ما دامت يدها على المال، ووظيفتها اليمين. ولهم فيها مناقشات دقيقة للحكم وظروفه لا يهمّنا التعرض لها الآن.

على أن القضيّة لو أخذت مجراها الطبيعي لكان التكرّم - كما يقول ابن أبي الحديد -: ((رعاية حق رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وحفظ عهده يقتضي أن تعوَّض ابنته بشئ يرضيها، إن لم يستنزل المسلمون عن فدَك ويسلم لها تطييباً لقلبها، وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه))(١).

ولسيدة النساء (عليها السلام) خطبة في الجامع العام عرضت فيها على المسلمين مظلوميتها بإسلوبها الرائع وحججها القويّة، واستنهضتهم للأخذ بحقها(٢)، وقد أخذت من نفوسهم مأخذها، حتى خشي أبو بكر أن يفلت الزمام من يديه، فالتجأ إلى لغة القوة يعزّز بها مركزه،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤: ١٠٦.

(٢) انظر بلاغات النساء - المطبعة الحيدريّة، النجف، سنة الطبع ١٣٦١هـ - : ١٤-٢٠، وانظر أعلام النساء - المطبعة الهاشمية، دمشق، ط٢، سنة الطبع ١٣٧٨هـ -: ١١٦-١١٩.

قال جعفر بن محمد بن عمارة بأسناده: ((فلما سمع أبو بكر خطبتها وشقّ عليه مقالتها صعد المنبر فقال: أيها الناس ما هذه الرعة إلى كل قالة، لئن كانت هذه الأماني في عهد رسول الله، ألا من سمع فليقل ومن شهد فليتكلّم، إنما هو ثعالة شهيده ذنبه مرب لكل فتنة، يقول كروها جذعة بعدما هرمت، يستعينون بالضعفة ويستنصرون بالنساء كأمّ طحال أحبّ أهلها إليها البغي، ألا إني لو أشاء أن أقول لقلت، ولو قلت لبحت إني ساكت ما تركت))، ثم التفت إلى الأنصار فقال: ((قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم وأحق من لزم عهد رسول الله أنتم، فقد جاءكم فآويتم ونصرتم ألا إني لست باسطاً يداً أو لساناً على من لم يستحق ذلك منا))[1]، ثم نزل - فيما يقول الراوي - فانصرفت فاطمة إلى بيتها.

وحسب هذه اللغة بما فيها من توهين وازدراء ومقابلة للحجّة بالتهديد - وهي سلاح الضعيف - بأقوى منها وأشدّ تأثيراً، وذلك بإسكاته وكمّ فمه عن المطالبة بحقه من طريق التهديد والوعيد.. أقول حسب هذه اللغة أن تُغضب فاطمة (عليها السلام) وتُسكتها وتُسكت معها أهل البيت (عليهم السلام) عن المطالبة بحقهم مؤقتاً.

وظل أهل البيت (عليهم السلام) يُصرّون على حقهم بعد ذلك ويسعون للحصول عليه، وكان لهم إلى ذلك أساليب يتخذ بعضها طابع النزاع بين علي(عليه السلام) والعباس، حتى استطاعوا أن يحصلوا على قسم منه في أيام عمر، وقسم آخر في أيام عمر بن عبد العزيز[2]،

(١) شرح نهج البلاغة ج٤: ٨٠.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ج٤: ٨١-٨٢.

وظل صاحبنا كبقيّة أهل البيت (عليهم السلام) يصرّ على أن الخمس لهم، وأنهم مُنعوا من الوصول إليه، وقد كان له مع الخليفة عمر في هذا الشأن كلام سنأتي عليه في موضعه، وسنرى كيف أحدث له إيمانه بهذا الحق أهمّ فجوة في تأريخ حياته، اضطرب في تأويلها المؤرّخون. وقد كتب إليه بعد حين نجدة الحروري يسأله عن الخمس ومسائل أخر فأجاب فيما يتعلّق بهذه المسألة: ((هو لنا لقربى رسول الله قسّمه رسول الله لهم، وكان عمر عرض علينا منه شيئاً دون حقنا فرددناه عليه))[1].

(ثالثها): حدوث فجوة واسعة بين آل البيت والسلطة الحاكمة، ومجانبة ومباعدة لم يصبر عليها الخليفتان، بل أقبلا على هذا البيت يترضّيانه بترضّيهم لفاطمة(عليها السلام)، قال ابن قتيبة: ((قال عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها، فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلّماه، فأدخلهما عليها، فلمّا قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط، فسلّما عليها فلم تردّ السلام. فتكلم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحبّ إليّ من قرابتي، وإنك لأحبّ إليَّ من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أني مت ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله! إلاّ أني سمعت رسول الله يقول: لا نورث ما تركناه فهو صدقة، فقالت: أرأيتكما إن حدّثتكما حديثاً عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به، قالا: نعم، فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخط

---

(١) مسند أحمد ج١ : ٣٢٠ .

فاطمة من سخطي، فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني، قالا: نعم سمعناه من رسول الله، قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونّكما إليه، فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثم انتحب أبو بكر يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق، وهي تقول والله لأدعونّ الله عليك في كل صلاة أصلّيها، ثم خرج باكياً))[١].

وبقيت مدّة حياتها وماتت - كما في رواية البخاري - وهي غضبى عليه[٢]، وأذنت زوجها أن يدفنها بليل لئلاّ يشهد أبو بكر وعمر جنازتها والصلاة عليها[٣] وكأنها أرادت أن تخلّد - بما يثيره هذا الدفن من تساؤل - أقوى صرخة احتجاج ما دام لها في التأريخ ذكر، يقول الزهري: ((سألت ابن عباس متى دفنتم فاطمة؟ قال: دفناها بليل بعد هدأة قال: قلت: فمن صلّى عليها؟ قال: علي))[٤].

وبالطبع ما كان يهون على صاحبنا ولا على أحد من أهل البيت(عليهم السلام) أن تُشيّع ابنة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وتدفن بليل، وأن لا يشهد جنازتها من غير بني هاشم إلاّ نفر قليل لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة في العد، ولكن ما يصنعون وواقع الوصية

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٣-١٤ .

(٢) انظر صحيح البخاري ج٤: ٧٩.

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ج٤: ١٠٤.

(٤) المصدر السابق ج٤: ١٠٣ .

الجأهم إلى ذلك.

أمّا بعد فقد أطلنا بهذا الحديث وبعُدنا في بعضه عن ابن عباس، ودخلنا في تفصيلات ربّما يراها القارئ ضعيفة العلائق به، ولكن الحقيقة أن دراستنا لا تكون مستوفاة ما لم تدخل بمثل هذه التفصيلات، ما دمنا نعتقد أنه شاهدها جميعاً ووعاها جميعاً، وخلّفت في نفسه رواسبها، وبرزت آثار تلكم الرواسب على فلتات لسانه من دون شعور، وربّما كان معرفة مفتاح شخصيته في قابل أيام حياته معلّقة بهذه الأحداث ونظائرها مما لم نعرض له لمشابهته لها، فماذا تركت في نفسه من مخلّفات؟؟.

النبوغ المبكّر

يبدو لي أن هذه المقابلات لأسرته، وهذه الضربات المتوالية عليهم منذ حادثة الغدير حتى وفاة فاطمة(عليها السلام)، مع ما ناله منها من نصيب، شكّكته في تقييم شخصيّته وزعزعت من الثقة والاعتزاز اللذين كوّنهما لها منذ بداية حياته، بتأثير بيئته الخاصّة، وصحبته لبطليه، ومشاهدته لمواقفهما البطوليّة الخالدة على نحو ما عرضناه في هذه الفصول. وربّما تعمّق هذا التشكيك فكَمَنَ في لا شعوره على شكل عقدة ظلّت تبحث عن طريقة للتعويض ؛ لتستعيد به ما تخيلته من فقدان صاحبها لدعائم مركزه، وربّما أشارت إلى نفسها بما يسبق به لسانه من حديث، والمرء - كما يُذكر عن ادلر -: ((إذا شعر بنقص ما، تشكّل سلوكه بأحد أشكال ثلاثة: الانحلال، أو المرض العصبي، أو النبوغ، فإذا لم يتغلّب على الشعور بالنقص، انزلق إلى الفساد والإنحلال أو هربَ إلى الأوهام يحتضنها ويعيش في ظلّها، وهذا هو المرض العصبي، فإذا استطاع تعويض نقصه أصبح نابغاً))[1].

وكان صاحبنا - بما وُهب من إمكانيات واستعداد موروث ومكتسب - من الفريق الثالث، فقد وجهت به هذه العقدة إلى تأكيد ذاته من طريق الثقافة والمعرفة، وقد استغل - فيما أخال - فراغ أستاذه وبطله وابتعاده عن السياسة للتزوّد من ثقافته العميقة من ناحية، ومن ناحية أخرى تصوّر أن جملة وافرة من علوم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كانت

---

(١) مجلة الكتاب، السنة الثانية، ج١: ١٤١.

عند أصحابه، ورأى أن قرب العهد به يجعلهم على ذكر منها، وفيما لديه من فراغ وقته متّسع للأخذ عنهم، وكان ذلك منه، فأقبل عليهم يتزوّد جهده مما لديهم من أحاديث، يقول - فيما يروي عكرمة عنه -: ((لما قُبض رسول الله قلت لرجل من الأنصار: هلمّ فلنسأل أصحاب رسول الله فإنهم اليوم كثير قال: فقال: واعجباً لك يا ابن عباس أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله من فيهم، قال: فتركت ذلك، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل، فأتوسّد ردائي على بابه، تسفي الريح عليَّ التراب، فيخرج فيراني فيقول لي: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟! ألا أرسلت إلي فآتيك فأقول: لا أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث، فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني ، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني))(١).

وهذا الحديث يكشف لنا صفحة من إقباله المبكّر على المعرفة، وفهمه لقيمتها وقيمة حامليها، ويكشف عن الفارق في المستوى الذهني بينه وبين صاحبه الأنصاري، ومثل هذا الإقبال - بما له من عوامله ومواهب صاحبه - لابدّ أن ينهيه إلى النبوغ. وفي حديث آخر عنه يؤكّد لنا مدى ذلك الإقبال قال: ((وجدت عامّة حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عند الأنصار، فإن كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لأوقظ لي، فأجلس على بابه، تسفي على وجهي الريح، حتى يستيقظ متى استيقظ،

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢ :١٢١.

وأسأله عمّا أريد ثم أنصرف))[١].

وهو بالإضافة إلى تأكيده للمضمون السابق يشير بطرف خفي إلى مفعول تلكم العقدة في نفسه، وإلاّ فما حاجته إلى تأكيد ذاته بقوله: ((لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ)) لو كان يشعر بأن هذا من حقوقه الطبيعية، نظراً لعلاقته برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا التأكيد نسمعه منه أكثر من مرّة، فهو يقول مثلاً من حديث: ((ما حدّثني أحد قط حديثاً فاستفهمته، فلقد كنت آتي باب أُبي بن كعب وهو نائم فأقيل على بابه، ولو علم بمكاني لأحبّ أن يوقظ لي لمكاني من رسول الله ولكني أكره أن أملّه))[٢]. وإقحام هذه الجملة ((ولو علم بمكاني.. الخ)) لا دافع له إلاّ اندفاعيّته اللاشعوريّة لتأكيد ذاته، كنتيجة طبيعيّة لتلكم العقدة، وأخال أنّا لا نستكثر عليه قوّة الحافظة، حتى أنه لا يجد نفسه في حاجة إلى استفهام محدّثه، ما دمنا قد سايرناه في هذه الفترة، وأدركنا أن معالم نبوغه ومعداته وثقافته لم يقصرها على الحديث، بل تجاوزه إلى المغازي وغيرها. يقول أبو سلمة الحضرمي: ((سمعت ابن عباس يقول: كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من المهاجرين والأنصار، فأسألهم عن مغازي رسول الله وما نزل من القرآن في ذلك))[٣]. وتأبى العقدة إلاّ أن تشير إلى نفسها فهو يقول في تتمّة الحديث - وكأنّه يدفع

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ١٢١.

(٢) المصدر السابق ج٢ قسم٢: ١٢٣ .

(٣) المصدر السابق ج٢ قسم٢ : ١٢٤ .

بذلك شبهة خالجت السامعين من مضايقته لمسؤليه -: ((وكنت لا آتي أحداً إلاّ سُرّ بإتياني لقربي من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم))).

وقد بلغ من تشبّثه أنه كان يسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما حدّث بذلك طاووس[(١)].

وهكذا قضى بقيّة هذه الفترة - فترة المراهقة - التي امتدّت به إلى نهاية خلافة أبي بكر أو قبلها بقليل - إذا صحّ ما حدّدناه سابقاً من زمن ولادته - ليستقبل مراحل الشباب وهو مزوّد بثقافة عالية لفتت إليها أنظار كبار الصحابة، وبرواسب خلّفها ما مرّ به من أحداث.

---

(١) انظر البداية والنهاية ج٨ : ٢٩٩ .

الفصل الثاني

مراحل الشباب

مع الخليفة الثاني

(١)

وهذه المراحل تفتح لصاحبنا عهداً لا يخلو من جدّة عليه وعلى أسرته، فالعلائق بين السلطة القائمة وبينهم بدأت تأخذ طوراً جديداً، وبدأ التقارب يدبّ إليها تدريجياً. فأبو بكر يعزم على حرب الروم، فلا يقدم قبل أن يستشير الإمام (عليه السلام)، فإذا أشار عليه وبشّره بالنصر، أقدم مطمئناً وهو يقول: بُشّرت بخير[١].

وهو يعلن قُبيل وفاته ندمه على كشفه لبيت عليّ(عليه السلام)، ويتمنى لو تركه ولو أنه أعلن عليه الحرب[٢].

وكان من رأيه أن يجعل له نصيباً في الخلافة، لولا رأيه بعمر، كما حدّث عمر بذلك صاحبنا فيما بعد[٣]، والإمام (عليه السلام) نفسه كان يحسّ بذلك أيضاً، فهو يقول في كتابه لأهل العراق: ((وما طمعت أن لو حدث به حادث - يعني أبا بكر - وأنا حي أن يرد إليَّ الأمر الذي نازعته فيه طمع مستيقن، ولا يئست يأس من لا يرجوه، ولولا خاصّة ما كان بينه وبين عمر لظننت أنه لا يدفعها عني))[٤].

---

(١) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢ :١١١.

(٢) انظر الإمامة والسياسة ج١: ١٨.

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ج٣ :٩٤.

(٤) جمهرة رسائل العرب ج١: ٥٦٤.

ولـمّا أراد أبو بكر أن ينصّ على عمر لم نجد في الهاشميين من وقف دونه أو طعن فيه ولو من طريق الهجر، مع أنه كان يغمى عليه وهو يملي العهد على عثمان[١].

ووثق الخليفة الجديد من مسالمتهم، والسكوت عن الطلب بحقهم، فبدأ يقبل عليهم ويجاملهم، وكان من إقباله عليهم ومجاملته أن أعاد إليهم شيئاً من حقهم في الخمس، ولكنهم ردّوه عليه ؛ لأنـّهم لم يقبلوا أن يأخذوا بعضه ويَدَعوا البعض - كما قد سبق لنا أن نقلنا حديث صاحبنا مع الحروري في هذا الشأن -[٢].

وقد أعاد عليه صدقات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة إثر النزاع - فيما يقال - بين علي عليه السلام والعباس ثم تنازل عنها العباس لعلي عليه السلام بعد إشارة من ولده عبد الله[٣].

وكان من مظاهر إقباله أيضاً وتحبّبه إلى أهل البيت (عليهم السلام) وترضّيهم أنه جذب إلى حضيرته صاحبنا، وهو يعلم أن له - بحكم علائقه ببطله ونبوغه المبكّر في العلم والمعرفة - مكانة في نفس الإمام (عليه السلام)، وكبار بني هاشم لا تعدلها مكانة، وربّما استطاع عن هذا الطريق أن يصل إلى نفوسهم تدريجياً.

وشيء آخر دعاه إلى مزاملة هذا الشاب والتأكيد على صداقته - فيما يبدو لي - وهو أن يصل إلى معرفة ما ينطوي عليه هذا البيت

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٤: ٥٢.

(٢) انظر مسند أحمد ج١: ٣٢٠ .

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ج٤: ٨٢.

من نشاط سياسي، والبلوغ إلى أسراره الخفيّة، وبخاصّة الإمام علي(عليه السلام) بطل صاحبنا، وذلك من طريق تقريره لصاحبه الذي لا تخفى عليه من شؤونهم عادة أيّة خافية، يقول ابن عباس: ((دخلت على عمر في أول خلافته فقال - بعد حديث سبق أن ذكرناه -: ((عليك دماء البدن إن كتمتنيها، هل بقي في نفسه شئ من أمر الخلافة؟ قال: نعم... الخ)). وكان ابن عباس أعمق من أن يؤخذ من هذه الطريقة لو كان لديهم من الأسرار ما يدعو إلى إخفائه، وقد عرفنا أن نشاطهم الحزبي وقف عند حدّه، منذ أحسّوا وأحسّ إمامهم(عليه السلام) أن مثل ذلك النشاط لا ينتفع به غير الانتهازيين والوصوليين من أعداء الإسلام، وما كانوا يرون في التصريح بحقهم غضاضة ما دام لا يعقب ذلك شئ من النشاط. لذلك لم نجد من زعماء هذا البيت أيّ تحرّج من استجابة هذا الشاب لمزاملة الخليفة الجديد، وربّما وجدنا من بعضهم ترحيباً بذلك، فالإمام علي(عليه السلام) لا يمتنع من أن يأمر عبد الله بصحبة الخليفة إلى البقيع، يقول صاحبنا: ((مرّ عمر بعلي وأنا معه بفناء داره فسلّم عليه، فقال له علي: أين تريد؟ قال: البقيع، قال: أفلا نصل جناحك ونقوم معك؟ قال: بلى، فقال لي علي: قم معه، فقمت فمشيت إلى جانبه فشبك أصابعه في أصابعي ومشينا قليلاً)).

ومن الجدير أن نسمع حديثهما وقد انفردا بعد أن خلّفا البقيع، يقول ابن عباس: ((قال لي: يا ابن عباس أما والله إن صاحبك هذا لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله، إلاّ أنّا خفناه على اثنين. قال ابن عباس: فجاء بكلام

لم أجد بدّاً من مسألته عنه، فقلت: ما هما يا أمير المؤمنين؟ قال: خفناه على حداثة سنّه وحبّه بني عبد المطلب))[١].

فالإمام (عليه السلام) هنا يوصل جناحه بعبد الله ويأمر به، ولا يجد بذلك بأساً، وربّما وجد فيه طريقاً إلى تحصيل أمثال هذه الاعترافات من الخليفة بأولويّته في الحكم، وهو لا يريد أكثر من تأكيد هذه الأولويّة.

والعباس يرى في الخليفة مدى اهتمامه بولده، ودعوته مع كبار الصحابة للاستشارة وأخذ الرأي وتقديمه عليهم، فلا يسوؤه ذلك، بل يرى فيه تقديراً لمواهبه العقلية، فيحرص عليها ويبعث عليه ليسمعه دروساً قيّمة تضيف إلى تجاربه النفسيّة تجارب جديدة من شأنها أن تمدّ في عُمُر أمثال هذه الزمالات، يقول: ((يا بني إني أرى أمير المؤمنين يستفهمك ويقدّمك على الأكابر من أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) وإني أوصيك بخلال أربع: لا تفشينّ له سرّاً، ولا يجرّبن عليك كذباً، ولا تطوي عنه نصيحة، ولا تغتابنّ عنده أحداً)).

وهي تجارب تدلّ على عمق في ثقافة صاحبها، وفهم للأصول التي تبتني على أسس المودّة الدائمة عادة، وقد أثّرت في نفس صاحبنا أثراً عميقاً نعرفه من تقييمه لها في حديثه مع الشعبي، يقول الشعبي - وهو يعقّب على هذا الحديث -: قلت لابن عباس: ((كل واحدة خير من ألف قال: أي والله ومن عشرة آلاف))[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢ : ٢٠.

(٢) العقد الفريد - المطبعة العامرة، مصر، سنة الطبع ١٣١٦هـ - ج١ : ٤.

وعلى أيٍّ فإن صاحبنا لم يخرج بتقبّله لهذه الزمالة على خطّة أسرته التي رسمتها لنفسها في الوقوف من السلطة، وربّما وجد فيها ضروباً من تأكيد الذات اقتضتها رواسب الفترة السالفة من حياته، ومجالاً واسعاً لإبراز مواهبه وإمكانياته الثقافيّة وعقيدته في حقهم بالخلافة، وربّما وجدوا هم أيضاً فيها مجالاً لتأكيد حقهم في الأمر عن طريق يقظة هذا الشاب، وعدم تركه لأيّة مناسبة تمرّ دون أن يعلن هذا الحق إعلاناً صريحاً لا مواربة فيه، وله من دالّته على الخليفة، ومن صغره، ورغبة الخليفة في استكناه دفائنهم من طريق إثارته، ما يخلق لذلك أوسع المجالات.

(٢)

وكانت إثارة هذا الشاب وتحفيزه للكلام من قبل الخليفة تأخذ أطواراً مختلفة، فهو تارة يتظلّم للإمام(عليه السلام) ، وأخرى ينتقصه، وثالثة ينتقص أهل البيت(عليهم السلام)... إلى ما هنالك من أساليب الإثارة التي كان يتّبعها الخليفة مع صاحبه في اختلاف المناسبات. وكان صاحبنا في جوابه يعمل كثيراً من اللباقة، فلا يترك فرصة إلاّ واستفاد منها في إعلان عقيدته نقضاً أو إبراماً، وفي كثير من أجوبته لفتات ذهنيّة رائعة.. يقول ابن عباس: ((إني لأماشي عمر بن الخطاب في سكّة من سكك المدينة، يده بيدي إذ قال لي: يا ابن عباس ما أظن صاحبك إلاّ مظلوماً، فقلت في نفسي: وا لله لا يسبقني بها، فقلت: يا أمير المؤمنين فاردد إليه ظلامته، فانتزع يده من يدي ومضى يهمهم ساعة، ثم وقف فلحقته فقال: يا ابن عباس ما أظن القوم

منعهم من صاحبك إلاّ أنـّهم استصغروه، فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى، فقلت: والله ما استصغره الله ورسوله حين أمره أن يأخذ براءة من أبي بكر))(١).

ويبدو أن الخليفة كان في إعلانه التظلّم يريد أن يحمل الشاب على الإفاضة في الشكوى، فيستدرجه إلى معرفة ما يريده، وما كان ينتظر أن يقطع عليه الطريق بهذه اللفتة الرائعة.. ((فاردد إليه ظلامته)) فيوقفه أمام أمر واقع بعد تحصيل هذا الاعتراف منه، ولكن الخليفة يستجمع أفكاره من جديد بعد أن يهمهم ساعة، ويأتيه بهذا الجواب الذي يرفع فيه عن عاتقه ظلامته، ويلقيها على قومه، بعد أن يلتمس لهم المبررات من صغره، وكأنـّه يقول: إن المانع الذي منع من تقبّل خلافته لدى قومه ما يزال قائماً وهو صغره، ولكن ابن عباس يجبهه بلفتة ثانية لا تقلّ براعة عن الأولى، فهو يقول له: ((والله ما استصغره الله ورسوله))، وكأنـّه يقول: متى كان السن مانعاً من توفّر الكفاءات لدى الأكفاء من الرجال.

ويدخل عليه يوماً فيثيره إلى الحديث من طريق انتقاص الإمام (عليه السلام)، يقول ابن عباس: ((دخلت على عمر يوماً فقال: يا ابن عباس لقد أجهد هذا الرجل نفسه في العبادة حتى نحلته رياءً، قلت: من هو؟ فقال: هذا ابن عمك - يعني علياً - قلت: وما تقصد بالرياء يا أمير المؤمنين؟ قال: يرشّح نفسه بين الناس بالخلافة، قلت: وما يصنع بالترشيح؟ قد رشّحه لها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فصُرفت عنه، قال: إنه كان شاباً حدثاً فاستصغرت العرب سنـّه وقد كمل الآن، ألم تعلم أن الله تعالى

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢ : ١٨.

لم يبعث نبياً إلاّ بعد الأربعين، قلت: يا أمير المؤمنين أمّا أهل الحجى والنهى فإنهم ما زالوا يعدّونه كاملاً منذ رفع الله منار الإسلام، ولكنهم يعدّونه محروماً مجدوداً... الحديث))[١].

وكأن الخليفة وقد شقّ عليه أن يتحدّث الناس بعبادة الإمام (عليه السلام) أراد أن يتعرّف أسرارها من زميله بهذه الإثارة، ولكن ابن عباس - على طريقته البارعة - يقطع عليه طريق الإستفادة ((وما يصنع بالترشيح قد رشّحه رسول الله فصرفت عنه))، ولكن الخليفة يعود إلى وتره ليضرب عليه من جديد، فينسب أسباب تأخّره إلى صغره وعدم كماله إذ ذاك، فيسوء ابن عباس نسبته لعدم الكمال، فيبادر إلى الإجابة ((أما أهل النهى والحجى فإنهم ما زالوا يعدّونه كاملاً... الخ)).

ويخرج الخليفة إلى الشام، ويطلب إلى الإمام (عليه السلام) أن يخرج معه فيأبى عليه، ويسوؤه ذلك فيشكوه إلى ابن عباس ليرى أسباب ذلك الامتناع يقول: ((خرجت مع عمر إلى الشام في إحدى خرجاته، فانفرد يوماً يسير على بعيره فاتبعته فقال: يا ابن عباس أشكو إليك ابن عمك، سألته أن يخرج معي فلم يفعل و لم أزل أراه واجداً، فيم تظن موجدته؟ قلت: يا أمير المؤمنين إنك لتعلم، قال: أظنه لا يزال كئيباً لفوت الخلافة، قلت: هو ذاك، إنه يزعم أن رسول الله أراد الأمر له)). ويبدو أن الحديث أثار الخليفة فأغضبه، فهو يقول له: ((وأراد رسول الله(صلى الله عليه وسلم) الأمر له فكان ماذا؟! إذا لم يرد الله تعالى ذلك أن رسول الله(صلى الله عليه وسلم)

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣ : ١١٥.

أراد ذلك وأراد الله غيره، فنفذ مراد الله ولم ينفذ مراد رسوله... الحديث))[(١)].

ويبدو أن غضب الخليفة أسكت عبد الله فلم يرّد عليه بجواب، ولم ينكر عليه تفرقته بين إرادتي الله ونبيّه، مع أنه يقرأ في الكتاب الكريم: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾[(٢)]، وإلاّ فإنّا نرى في محاججة أخرى للخليفة مع زميله، أن عبد الله يثبت أن اختيار الإمام (عليه السلام) للخلافة كان من الله، ويسكت الخليفة عن جوابه.. إقرأ معي هذه المحاورة التي أثار بها الحديث من طريق طعنه بآل البيت:

قال - بعد حديث سنأتي عليه في موضعه، وراوي الحديث عبد الله بن عمر وكان في المجلس نفر من الناس -: ((يا ابن عباس أتدري ما منع الناس منكم؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: لكني أدري، قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفاً، فنظرت قريش لأنفسها فاختارت ووفقت فأصابت))[(٣)]. وما أخال أن صاحبنا كان يثار ويغضب لو اقتصر الحديث على أسباب المنع، فقد سمعها عن الخليفة كثيراً، ولكن الذي أثاره وأغضبه - فيما يبدو لي - أن الحديث كان بمحضر من هؤلاء النفر، وأنه اشتمل على الطعن فيهم، وتصحيح وجهة نظر المانعين وربّما كانوا من الحضّار، فأراد أن يسمعهم كلمة الحق صريحة لا مواربة فيها، فاستأذن الخليفة أن يتحدّث بصراحة..

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣ : ١١٤.

(٢) النجم : ٣ .

(٣) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٠٧.

يقول المحدّث: فقال ابن عباس: ((أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء، قال: أمّا قول أمير المؤمنين: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾[١]، وأمّا قولك: إنّا كنا نجحف، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة، ولكنّا قوم أخلاقنا مشتقّة من خلق رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٢]، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾[٣]، وأمّا قولك: إن قريشاً اختارت، فإن الله تعالى يقول: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾[٤]، وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لوفقت وأصابت قريش)).

وكنا ننتظر بعد هذا الكلام أن نسمع للخليفة تشكيكاً إمّا في تطبيق الآية، كأن يقول له: إن ما كرهته قريش هنا ليس مما أنزل الله وهو خلافة أهل البيت(عليهم السلام)، أو في تطبيق الآية الثانية السابقة للاختيار عنهم في أمثال هذه الشؤون الهامّة، أو يقول مثلاً: إني لا أعلم من اختار الله ردّاً عليه في نسبة العلم إليه.. ((وقد علمت يا أمير المؤمنين من اختار))، ولكن لم يكن شئ من ذلك، وإنّما كانت لفتة من الخليفة، ربّما فسّرها من فسّرها بالمحاولة من قبله إلى توسعة الشقّة بينهم وبين قريش، فهو يقول له:

---

(١) محمد : ٩.

(٢) القلم : ٤.

(٣) الشعراء : ٢١٥.

(٤) القصص : ٦٨.

((على رسلك يا ابن عباس أبت قلوبكم يا بني هاشم إلاّ غشّاً في أمر قريش لا يزول وحقداً عليها لا يحول))، وتسوء ابن عباس نسبة قلوبهم إلى الغشّ، فيثيره إلى الجواب ، ويلتمس المبررات لحقدهم على قريش فيقول: ((مهلاً يا أمير المؤمنين لا تنسب قلوب بني هاشم إلى الغشّ، فإن قلوبهم من قلب رسول الله الذي طهّره الله وزكّاه،وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى لهم: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾[1]، وأمّا قولك: حقداً فكيف لا يحقد من غصب شيؤه، ويراه في يد غيره))[2].

ويبدو أن هذه الأجوبة كانت مغيظة للخليفة ومزعجة له، فقد جرّته من التعميم في الحديث إلى التخصيص، ووجهته به إلى العتاب الشخصي مع زميله فهو يقول له: ((أمّا أنت يا ابن عباس فقد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به فتزول منزلتك عندي، قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ أخبرني به فإن يك باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يك حقاً فإن منزلتي عندك لا تزول به)). قال: ((بلغني أنك لا تزال تقول: أُخذ هذا الأمر منا حسداً وظلماً)). ويرى ابن عباس أنه يقول ذلك حقاً ويتبنّاه، فلا يجد إلى إنكاره سبيلاً، بل ما حاجته إلى الإنكار وهي عقيدة له، وهو لا يجامل في سبيل عقيدته ؛ فليجهر بذلك أمام الخليفة ؛ وليترك المواربة والالتواء في إبرازها قال: ((أما قولك يا أمير المؤمنين: حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأُخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود، وأمّا قولك: ظلماً فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحق من هو)).

---

(١) الأحزاب : ٣٣ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٠٧.

وإذاً هم مظلومون ما دام الحق لهم، وصاحب الحق معروف لديهم، وقد عيّنه الله لهم واختاره من بين المسلمين - كما سبق أن قال - ثم عقّب على ذلك وكأنّه يقول له: إنّكم مؤاخذون حتى بلغة الحجّة التي لجأتم إليها لاختصاص قريش بالخلافة، يقول: ((يا أمير المؤمنين ألم تحتجّ العرب على العجم بحق رسول الله، واحتجّت قريش على سائر العرب بحق رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فنحن أحق برسول الله من سائر قريش)) .

فإذاً هم أصحاب الحق على أيّ حال، سواء أخذوه بالقرابة أم بالنص. ويبدو أن الخليفة ضاق من وجوده بعد هذا الحديث في المجلس، وخشي أن لا ينتهي مجلسهم إلى خير فقال له: ((قم الآن فارجع إلى منزلك فقام)).

وعاود الخليفة حلمه وحبّه لزميله فهتف به يترضّاه: ((أيها المنصرف إني على ما كان منك لراع حقك))[1]. وكان ابن عباس ما يزال غاضباً فردّ عليه: ((إن لي عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقاً برسول الله، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ، ومن أضاعه فحقّ نفسه أضاع))، ثم مضى، فقال عمر لجلسائه: ((واهاً لابن عباس! ما رأيته لاحى أحداً قطّ إلاّ خصمه))[2].

وهو اعتراف صريح بقيمة ابن عباس في مجال الجدل والخصام، نحتفظ به من الخليفة لزميله، فربّما أفادنا في تقييم شخصيّته فيما يأتي من أحاديث.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٠٧.

(٢) المصدر السابق ج٣ : ١٠٧ ، وانظر تأريخ الطبري ج٥ : ٣١ ، وتأريخ ابن الأثير ج٣: ٣١.

وفي ليلة مسيره إلى الجابية دعا زميله ليشكو إليه تخلّف الإمام (عليه السلام) عن المسير معه، فقال له ابن عباس: ((أوَلم يعتذر إليك؟ فقال: بلى فهو ما اعتذر به، ثم قال: أول من ريّثكم عن هذا الأمر أبو بكر، إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوة)). ثم ينقل الجوهري قصّة طويلة يهملها صاحب الأغاني، لأنها ليست من موضوعها في كتابه.

والمهم هنا أن الخليفة يركّز مسؤوليّة إبعادهم عن الحكم على أبي بكر، بينما نراه في مقام آخر يشرك نفسه بهذه المسؤوليّة .

يروي الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء أنه قال لابن عباس: ((يا بني عبد المطلب لقد كان علي فيكم أولى بهذا الأمر مني ومن أبي بكر، ولكن خشينا أن لا تجتمع عليه العرب وقريش لِما قد وترها))[(١)] .

وفي ثالثة يركّزها على نفسه، ففي حديثه مع صاحبنا: ((لقد أراد - رسول الله- في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيطةً على الإسلام))[(٢)].

والحقيقة - فيما يبدو - أن الخليفة - وقد أقلقته هذه الحادثة وملكت عليه من أعماقه مركزها الأول - كان ما يزال يلتمس لها بمناسبة وبغير مناسبة ما يبررها، ويقلّل من ضغط الضمير بما يرضيه من الأسباب والعوامل الدافعة إلى ذلك، فإذا لم يرض أحد التعاليل ضميره لجأ إلى غيره. وهكذا.. وله من وجود صاحبه الذي يهمّه هذا الأمر جدّاً ما يثيره على الدوام إلى مثل هذا الحديث.

---

(١) محاضرات الأدباء -المطبعةالعامرةالشرفية،مصر،سنة الطبع ١٣٢٦هـ- ج٢: ٢١٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٣: ٩٧.

ومن الجدير بالذكر أن كتباً أخرى عرضت لنظائر هذه الأحداث - كتأريخ الطبري، والعقد الفريد، وشرح النهج، وغيرها ، وهي مشابهة لها في مداليلها ومثيراتها - أعرضنا عنها لئلاّ نثقل عليكم بتكرار الحديث في أمور متشابهة، فلننتقل عنها إلى أجواء أخر من علائق صاحبنا مع زميله.

(٣)

وكان الخليفة - بحكم مركزه، وانتشار الإسلام بكثرة الفتوح على عهده - مفزعاً للمسلمين قدماء ومحدثين، يقصدونه فيما يغمض عليهم من مشكلات الفقه ودقائق التشريع، ولم يكن لدى الخليفة من المعارف ما يسع مشاكل الناس وليحيط بدقائق أمورهم، فكان يفزع فيما يشكل عليه إلى فقهاء الصحابة، ثم إلى الإمام(عليه السلام) إذا لم يجد لديهم ما يملأ نفسه إيماناً بصدق الجواب، وما كان الإمام(عليه السلام) ليضنّ عليه بما يملكه من معارف ؛ احتفاظاً بكرامة الإسلام عن أن يرمى بالضيق عن سعة مشاكل الناس، وقد قال الخليفة أكثر من مرّة: ((لولا علي لهلك عمر))(١) و((وأعوذ با لله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن))(٢) وما شاكلها من التعابير(٣).

---

(١) الاستيعاب ج٣: ٣٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين ج١: ٤٥٧.

(٣) انظر الغدير ج٦: ٣٢٧.

وكان في الكثير من الأسئلة ما يقصد بها صاحبنا الشاب، فيتعاون معه على حلّها، وكثيراً ما يأخذ بجوابه فيرسل في حقه كلمة إعجاب تدلّ على عمق ما يكنّه الخليفة لزميله الشاب من تقدير.

هذا يعلى بن أمية يكتب إلى الخليفة من اليمن عن مسألة، فيسأل عنها زميله ويجيبه عنها بالجواب، فيرسل في حقه هذه الشهادة: ((أشهد أنك تنطق عن بيت نبوة))[(١)] و((غص غواص))[(٢)] وقال له: ((لقد علمت علماً ما علمناه))[(٣)]. وقد حدّث سعد بن أبي وقاص عن مدى تقدير الخليفة لعلمه بقوله: ((ما رأيت أحداً أحضر فهماً ولا ألبّ لبّاً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس ولقد رأيت عمر بن الخطاب يدعوه للمعضلات، ثم يقول: عندك قد جاءتك معضلة، ثم لا يجاوز قوله وإن حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار))[(٤)]، وقد قال له مرّة: ((جزاك الله عنا الخير يا ابن أخي،شفيتنا))[(٥)]،بعد أن سأله فأجابه -كما حدّث بذلك عبيدا لله بن عمر-. وفي حديث عبيد الله بن عبد الله قال: ((ما رأيت أحداً كان أعلم بالسنّة، ولا أجلد رأياً ولا أثقب نظراً من ابن عباس، ولقد كان عمر يعدّه للمعضلات مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين))[(٦)]، وكان

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢ : ١٢٢.

(٢) البيان والتبيين ج١: ٢٦٣ .

(٣) البداية والنهاية ج٨: ٢٩٩.

(٤) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ١٢٢.

(٥) ذخائر العقبى: ٢٢٨.

(٦) المصدر السابق: ٢٣٠.

يقول له: ((إنك لأصبح فتياننا وجهاً، وأحسنهم عقلاً وأفقههم في كتاب الله عز وجل))[١].. إلى ما شابه ذلك من التعابير المتواترة عنه مضموناً، والتي تدلّ على مدى تقييمه لمواهب هذا الشاب العلمية.

ومن طريف ما استراح إليه عمر من استنتاجه، ما جاء في الدر المنثور عن المرأة التي جئ بها إليه وقد ولدت لستة أشهر، واستنكر الناس ذلك.. يقول ابن عباس: ((فقلت لعمر: لا تظلم قال: كيف؟ قلت: اقرأ ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهراً**﴾[٢]، ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين**﴾[٣]، كم الحول؟ قال: سنة، قلت: كم السنة؟ قال: اثنا عشر شهراً، قلت: فأربع وعشرون شهراً حولان كاملان، ويؤخّر الله من الحمل ما شاء ويقدّم. قال ابن عباس: فاستراح عمر إلى قولي))[٤].

وكان من تحرّج ابن عباس أنه لا يفتي إذا لم يكن لديه مصدر لفتياه.. سأله الخليفة - فيما يحدّث كريب مولاه عنه - فقال: يا ابن عباس إذا اشتبه على الرجل في صلاته، فلم يدرِ أزاد أم نقص؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما أدري ما سمعت في ذلك شئ، وجاءهم عبد الرحمن بن عوف بعد ذلك، وكان عنده سماع من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)في المسألة فحدّثهم بما عنده[٥].

---

(١) البداية والنهاية ج٨: ٢٩٩.

(٢) الأحقاف: ١٥ .

(٣) البقرة: ٢٣٣ .

(٤) الدر المنثور ج٦: ٤٠ .

(٥) انظر سنن البيهقي - مطبعة مجلس دائرة المعارف ، حيدر آباد ، سنة الطبع ١٣٥٢هـ - ج٢: ٣٣٢.

وكان لا يتسرّع بالفتيا قبل أن يُسأل من قبل الخليفة، وربّما هابه أن يشير عليه ابتداءً فيما يختلف معه في بعض الأحكام.. حدّث عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: ((دخلت أنا وزفر بن أوس بن الحدثان على ابن عباس بعدما ذهب بصره: فتذاكرنا فرائض الميراث، فقال: ترون الذي أحصى رمل عالج عدداً لم يحص في مال نصفاً ونصفاً وثلثاً، إذا ذهب نصف ونصف فأين موضع الثلث؟! فقال له زفر: يا ابن عباس من أول من أعال الفرائض؟ قال: عمر بن الخطاب(رض)، قال: و لم؟ قال: لـمّا تدافعت عليه وركب بعضها بعضاً قال: والله ما أدري كيف أصنع بكم، والله ما أدري أيكم قدّم الله وأيكم أخّر، قال: وما أجد في هذا المال شيئاً أحسن من أن أقسمه عليكم بالحصص، ثم قال ابن عباس: وأيم الله لو قدّم من قدّم الله وأخّر من أخّر الله ما عالت فريضة، فقال له زفر: وأيّهم قدّم وأيّهم أخّر؟ فقال: كل فريضة لاتزول إلاّ إلى فريضة، فتلك التي قدّم الله وتلك فريضة الزوج له نصف، وإن زال فإلى الربع لا ينقص منه، والمرأة لها الربع، فإن زالت عنه صارت إلى الثمن لا تنقص منه، والأخوات لهن الثلثان والواحدة لها النصف، فإن دخل عليهن البنات كان لهن ما بقي، فهؤلاء الذين أخّر الله. فلو أعطي من قدّم الله فريضة كاملة ثم قسمه ما يبقى من أخّر الله بالحصص ما عالت فريضة، فقال له زفر: فما منعك أن تشير بهذا الرأي على عمر؟ فقال: هبته والله))(١).

ويبدو لي أن هذه الهيبة هي التي منعته من الإنكار عليه في كثير من الأحكام التي كانوا يختلفون فيها معه، كالمتعتين والطلاق ونظائرها

---

(١) سنن البيهقي ج٦ : ٢٥٣.

مماكان لمدرسةأهل البيت رأي خاص بها يختلف مع رأي الخليفة اختلافاً كبيرا..ولعلّناسنبحثها بحثاًمفصّلاً في موضعها من الأحاديث الآتيةإن شاء ا لله.

ومن الحق أن نسارع فنذكر أن مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) في الفقه كانت تختلف عن مدرسة الخليفة في أهمّ معالمها وهي التعبّد بالنصوص الثابتة شرعاً، واعتبار أحكامها دائمة لا تزول إلى يوم القيامة، وإذا قدّر أن تطرأ عليها عناوين ثانوية فتبدّل من أحكامها فإن أحكامها الجديدة تبقى ما دام العنوان الثانوي قائماً، فإذا زال عادت إلى أحكامها الأوليّة.

والعقول في نظرهم ليس لها مسرح في عالم النسخ وتبديل الأحكام، وكانت مدرسة الخليفة لا ترى ذلك، وما أكثر ما استحسن أمراً فبدّل وغيّر من حكمه الواقعي، وبقي الحكم الجديد ثابتاً، وما قوله - فيما يحدّث صاحبنا وقد سمعه منه: ((وا لله إني لأنهاكم عن المتعة، وإنها لفي كتاب ا لله، ولقد فعلها رسول ا لله يعني العمرة في الحج))[1] - إلاّ نموذج لذلك.

وسنرى - بعد حين - كيف كان ابن عباس يقول - بغضب - عندما يفتي بالفتيا موافقة للكتاب والسنّة - فيقول له القائل: نهى أبو بكر وعمر عنها -: ((أراهم سيهلكون، أقول: قال النبي(صلى ا لله عليه وسلم)، ويقول: نهى أبو بكر وعمر))[2].

ولعلّ سر الهيبة كان يعود إلى أن الخليفة نفسه كان لا يرضى له الحديث ابتداءً، وربّما زبره إذا سارع من دون أن يطلب منه ذلك،

---

(١) سنن النسّائي - شرح السيوطي، تصحيح حسن محمد المسعودي، المطبعة المصرية، مصر - ج٥: ١٥٣.

(٢) مسند أحمد ج١: ٣٣٧.

يقول صاحبنا: ((قدم على عمر رجل فسأله عن الناس، فقال: قرأ منهم القرآن كذا وكذا، فقال ابن عباس: ما أحبّ أن يسأل عن آي القرآن، قال: فزبرني عمر، فانطلقت إلى منزله فقلت: ما أراني إلاّ قد سقطت من نفسه، فبينما أنا كذلك إذ جاءني رجل فقال: أجب.. فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال: ما كرهت مما قال الرجل، فقلت: يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فأستغفر الله، قال: لتحدّثني، قلت: إنهم متى ما تنازعوا اختلفوا، ومتى اختلفوا اقتتلوا، قال: لله أبوك لقد كنت أكتمها الناس))[١].

ولهذا وأمثاله كان لا يتسرّع في الإجابة، وعلى الأخصّ إذا كان بمحضر من شيوخ المهاجرين والأنصار[٢].

(٤)

وبالطبع كان هو يدرك أن تكريم الخليفة له ودعوته مع هؤلاء من كبار الصحابة - وهو لا يرتفع بسنّه إلى أسنان أبنائهم - لا يهون عليهم بحال، وبخاصّة وهم يسمعونه يقول له إذا عرض في الأمر معهم: ((غص غواص))[٣]، ويقول له وهو يجلس معهم: ((نِعمَ ترجمان القرآن عبد الله بن عباس))[٤]،ويقول له إذا رآه مقبلاً: ((جاء فتى الكهول وذو اللسان السؤول

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج٢: ٣٣٢.

(٢) انظر البداية والنهاية ج٨: ٢٩٩.

(٣) البيان والتبيين ج١ : ٢٦٣.

(٤) البداية والنهاية ج٨ : ٢٩٩.

والقلب العقول))[١].. إلى ما هنالك من ألقاب التشريف التي كان يخصّه بها من بين أبنائهم. وكان يرى ويسمع عنهم ما يشير إلى تأثرهم واستيائهم، ففي حديث لعبد الرحمن بن عوف -كماحدّث هو- أنه قال لعمر: ((أتسأله ولنا أبناء مثله؟ قال: فقال عمر: إنه من حيث علمتم))[٢]. وفي حديث آخر عنه بهذا المضمون: ((كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لِمَ تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ قال: إنه ممن علمتم. قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني - وما دعاني إلاّ ليريهم مني - فقال: ما تقولون في ﴿إذا جاء نصر الله والفتح...الآيات﴾[٣] إلى أن ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نستغفر ونتحّمد إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئاً. فقال لي: يا ابن عباس أكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: أجل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، وفتح مكة فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾. فقال عمر (رض): ما أعلم فيها إلاّ ما يعلم هذا))[٤].

ومهما يكن حظ هذا التأويل من الصحّة، فإنه يدلّ - إذا صحّ عنه - على بصر مبكر بعلم التأويل.

---

(١) البداية والنهاية ج٨ :٢٩٩.

(٢) ذخائر العقبى: ٢٢٨، وانظر المعرفة والتأريخ - تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد، سنة الطبع ١٣٩٤هـ - ج١: ٥١٥.

(٣) النصر: ١-٣.

(٤) ذخائر العقبى: ٢٢٨، وانظر المعرفة والتأريخ ج١: ٥١٥-٥١٦.

وكان يراعي لذلك شعورهم، فلا يتسرّع بالإجابة، بل لا يجيب قبل أن يُسأل تأدباً مع من يكبرونه بالسّن، ويسبقونه بالجهاد والصحبة، وعن عمر أنه قال يوماً لأصحاب النبي: ((فيم نزلت هذه الآية ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل..﴾[1] فسأل الحاضرين: فيم نزلت؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي شئ منها يا أمير المؤمنين، قال: ابن أخي قل ولا تحقّر نفسك، قال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل رجل عمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى غرق عمله))[2].

فهو - كما ترون - لا يتسرّع في هذا الحديث احتراماً لمن يكبرونه بالسّن، والخليفة يحسّ ذلك فيقول له: ((يا ابن أخي قل ولا تحقّر نفسك)) وفي حديث آخر قال له: ((قل ولا تمنعك الحداثة))[3].

والخليفة نفسه كان يراعي شعورهم، فينهى صاحبه الشاب عن الحديث إذا دعي معهم، ولكن أمر نهيه لم يطل، فقد وجد في هذا الشاب ما يملأ نفسه سرعة بديهة وحسن إجابة، فأذن له أن يتكلم إذا دُعي متى شاء. يقول ابن عباس في حديث صحيح - كما يقول الحاكم النيسابوري -: ((كان عمر بن الخطاب إذا دعا الأشياخ من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) دعاني معهم، فدعانا ذات يوم أو ذات ليلة فقال: إن رسول الله

---

(١) البقرة: ٢٦٦ .

(٢) ذخائر العقبى: ٢٢٩.

(٣) انظر حلية الأولياء ج١: ٣١٧.

قال في ليلة القدر ما قد علمتم، فالتمسوها في العشر الأواخر، ففي أيّ الوتر ترونها؟ فقال بعضهم: تاسعة، وقال بعضهم: سابعة وخامسة وثالثة، فقال: ما لك يا ابن عباس لا تتكلّم؟ قلت: إن شئت تكلّمت، قال: ما دعوتك إلاّ لتتكلّم، فقال: أقول برأيي، فقال: عن رأيك أسألك، فقلت: إني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إن الله تبارك وتعالى أكثر ذكر السبع فقال السموات سبع والأرضون سبع، وقال ﴿**ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا وفاكهة وأبّا**﴾(١)، - إلى أن قال - فقال عمر: أعجزتم أن تقولوا مثل ما قال هذا الغلام الذي لم تستو بعد شؤون رأسه؟! ثم قال: إني كنت نهيتك أن تتكلّم، فإذا دعوتك معهم فتكلّم))(٢).

وهذه الالتفاتة - إذا صحّت عنه - وإن لم تصلح لإثبات شئ ، فالواقع في عالمه محفوظ، وافقته السبعات هذه أوخالفته. وكثرة ذكر الأمور السباعيّة لا يوجب أن تكون جميع المغفلات من الذكر من قبيل السباعيّات، والأخذ بالأمور الاستحسانيّة ليس من مذهبه فيما رأينا، والتكلّف عليها ظاهر. ولكنها على أي حال تدلّ إذا صحّت - كما قلت - على براعة صاحبها، وحسبها أن تأخذ من ألباب الحاضرين مأخذها وتستحق لهم كل هذا التأنيب من الخليفة: ((أعجزتم أن تقولوا مثل ما قال هذا الغلام))، وتطلق لصاحبها سراح الحديث إذا دُعي مع هؤلاء . والغريب من شأن

---

(١) عبس: ٢٦-٣١.

(٢) المستدرك على الصحيحين ج٣: ٥٣٩.

بعض الروايات الناقلة لها بالمعنى أنها زادت في عدد السبعات حتى بلغت بها اثنتي عشرة سبعة.

وما أدري متى سمع الحطيئة - وهو الذي لم يرض عن أحد، و لم يترك حتى أبويه من الهجاء - صاحبنا يتكلّم في مجلس عمر بن الخطاب فأعجبه، وقال فيه ما قال من الشعر.. يقول أبو عمرو بن العلاء: ((نظر الحطيئة إلى ابن عباس في مجلس عمر بن الخطاب (رض) غالباً عليه فقال: من هذا الذي برع الناس بعلمه ونزل عنهم بسنّه؟ قالوا: عبد الله بن عباس، فقال فيه أبياتاً منها..

إني وجدت بيان المرء نافلة   تُهدى له ووجدت العيّ كالصمم
والمرء يفنى ويبقى سائر الكلم   وقد يُلام الفتى يوماً و لم يلم))[1]

(٥)

وعلى ذكر الحطيئة وشعره لابن عباس في مجلس الخليفة، نذكر أن الخليفة كان من هواة الشعر ومتذوّقيه والداعين له، وقد قال مرّة: ((أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟، قال: شعر الجاهليّة فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم))[2].

---

(١) الاستيعاب ج٢: ٣٥٤.

(٢) تفسير الكشّاف - دار الكتاب العربي، بيروت، سنة الطبع ١٣٦٦هـ - ج٢: ٦٠٨-٦٠٩.

وله فيه من الكلمات الدقيقة ما يدلّ على ذوق فني رفيع، وكان ميل صاحبنا إلى الشعر أيضاً لا يقل عن ميل صاحبه، يقول عبد الله: ((خرجت مع عمر في بعض أسفاره فإنّا لنسير ليلة وقد دنوت منه إذ ضرب مقدم رحله بسوطه وقال:

كذبتم وبيت الله يقتل أحمد ولمّا نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم قال: أستغفر الله ثم سار فلم يتكلّم إلاّ قليلاً ثم قال:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبرّ وأوفى ذمةً من محمد
وأكسى لبرد الخال قبل ابتذاله وأغطى لرأس السابق المتجرد

ثم قال: أستغفر الله))[1].

ويبدو أن تداعي المعاني كان كثيراً ما يُحضر في ذهن الخليفة أمر الخلافة وصاحبها، فمحمد(صلى الله عليه وآله وسلم) هنا يحضر في ذهنه علياً(عليه السلام) ، ويطفر الذهن إلى عدم خروجه معهم فيسائل صاحبنا عن الأسباب يقول: ((يا ابن عباس ما منع علياً من الخروج معنا؟ قلت: لا أدري)). ويطفر ذهنه إلى الخلافة على ذكر علي(عليه السلام) فتساءل: ((يا ابن عباس أبوك عم رسول الله وأنت ابن عمه، فما منع قومكم منكم؟ قلت: لا أدري، قال: لكنيّ أدري، يكرهون ولايتكم لهم، قلت: لِمَ؟ ونحن لهم كالخير، قال: اللّهم غفراً.. يكرهون أن تجتمع فيكم النبوّة والخلافة فيكون بجحاً بجحاً، لعلّكم تقولون: إن أبا بكر فعل ذلك،لا والله ولكن أبا بكر

(١) تأريخ الطبري ج٥: ٣٠-٣١.

أتى أحزم ما حضره ولو جعلها لكم ما نفعكم مع قربكم. أنشدني لشاعر الشعراء زهير قوله:

إذا ابتدرت قيس بن عيلان غايةً   من المجد من يسبق إليها يُسَوَّد

فأنشدتُه.. وطلع الفجر، فقال: اقرأ الواقعة فقرأتها، ثم نزل فصلّى وقرأ بالواقعة.. الخ))[1]، فهذه الرواية تدلّ على مدى اهتمامه بالشعر وحفظه له وإنشاده وطلب سماعه، ثم إعطاء رأي فيه وفي بعض أقطابه، وإن لم تعلّله، فزهير هنا شاعر الشعراء، أمّا لماذا كان شاعر الشعراء في رأيه؟ فذلك ما تُحدّث به رواية الأغاني يقول: ((قال ابن عباس: خرجت مع عمر في أول غزوة غزاها، فقال لي ذات ليلة: يا ابن عباس أنشدني لشاعر الشعراء، قلت: ومن هو؟ قال: ابن أبي سلمى، قلت: وبِمَ صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتبع حوشي الكلام، ولا يعاظل من المنطق ولا يقول إلاّ ما يعرف، ولا يمتدح الرجل إلاّ بما يكون فيه، أليس الذي يقول:

إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية   من المجد من يسبق إليها يسوَّد
سبقت إليها كل طلق مبرّز   سبوقاً إلى الغايات غير مزنّد
كفعل جواد يسبق الخيل عفوه   فيسرعْ وإن يجهد وتجهدن يبعد
ولوكان حمد يخلد الناس لم تمت   ولكنّ حمد الناس ليس بمخلد

أنشدني له فأنشدتّه له حتى برق الفجر، فقال: حسبك الآن فاقرأ القرآن))[2].

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ٣٠-٣١.

(٢) الأغاني - تصحيح أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم، مصر، لم تذكر سنة الطبع - ج٩: ١٤٠.

وقد تكون هذه هي الرواية الأولى والواقعة واحدة، وإن اختلف التعبير باختلاف رواتها عنه، ولكنّها بما اشتملت عليه من زيادة - إذا صحّت عنه - تكشف عن بصر الخليفة بأساليب الشعراء، ودقّة في الموازنة قد لا نجدها إلاّ لدى القليل من نقّاد ذلك العصر، كما تدلّ على أن ابن عباس كان لا تفوته فرصة دون أن يغنمها في التزوّد من الثقافة، فهو إذا سمعه يطلق لقب شاعر الشعراء على زهير لا يتركه دون أن يستفسر عن أسباب تلقيبه؛ لينتفع بتجاربه في هذا الشأن، ثم هو بعد ذلك ينشده حتى يبرق الفجر، وهذا كما يدلّ على اهتمام الخليفة بالشعر، يدلّ على وفرة في محفوظات صاحبنا الشعرية، وربّما كان لوفرة حفظه هذه ودقّة رأيه وعمق ثقافته، ما استحقّه من الخليفة من تلقيبه بأعلم الناس بها. يقول عبد الله بن عباس:((بينما عمر بن الخطاب(رض) وبعض أصحابه يتذاكرون الشعر، فقال بعضهم: فلان أشعر، وقال بعضهم: بل فلان أشعر، قال: فأقبلت، فقال عمر: قد جاءكم أعلم الناس بها، فقال عمر: من شاعر الشعراء يا ابن عباس؟ قال: فقلت: زهير بن أبي سلمى فقال عمر: هلمّ من شعره ما نستدلّ به على ما ذكرت، فقلت: امتدح قوماً من بني عبد الله بن غطفان فقال:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأوّلهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ماولدوا
إنس إذا أمنوا، جنّ إذا فزعوا ... مرزّؤون بهاليل إذا حشدوا
محسّدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ماله حسدوا

فقال عمر: أحسن، وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحي من بني هاشم ؛ لفضل رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وقرابتهم منه، فقلت:

وُفّقتَ يا أمير المؤمنين و لم تزل موفقاً))[1]. ثم يأتي على حوار دار بينه وبين زميله في شؤون الخلافة وصاحبها، أتينا على ذكر مضمونه في حديث سابق.

وما أدري.. أيهما تأثر صاحبه في تفضيل زهير على بقيّة الشعراء؟ وهل تكفي هذه الأبيات للتدليل على أنه شاعرهم؟.. الظاهر أن ابن عباس جرى على طريقة النقّاد إذ ذاك، فقد كانوا يكتفون للحكم بالتفضيل بذكر بيت أو بيتين من جيّد الشعر فيجعلونها مستنداً لما يأتون به من أحكام. والأبيات - بعدُ - من خيرة شعر زهير، ورأيه في بني هاشم لفضل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وقرابتهم منه، لابدّ أن يكون قد بعث النشوة في نفس صاحبنا فدعا له بذلك الدعاء.

(٦)

وهذا الرأي في بني هاشم كان مستنداً للخليفة في البدء بهم بالعطاء، يوم أراد أن يوزّع المال الذي تكدّس لديه من كثرة الفتوح، ويدوّن في ذلك ديواناً يكون المرجع في التوزيع، ونظراً لأهميّة هذه المبادرة في تأريخ الإسلام، وتأثيرها الواسع في الفترات التي أعقبتها نعطيها شيئاً من الأهميّة في الحديث.

لقد كانت السنّة المتّبعة في عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في توزيع ما يرد على المسلمين من أموال هي المساواة بين المسلمين جميعاً، لا يفرّق بين محدث الإسلام وقديمه، وكثير البلاء في الدفاع عنه وقليله،

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ٣١.

ثم لا يفرّق بين أبناء قبيلة وقبيلة، بل لا يفرّق بين سيّد ومسود ورئيس ومرؤوس[(١)].

وجاء أبو بكر فسار على سيرة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في المساواة بالعطاء.

وكان من رأي عمر وجماعة من الصحابة أن يقدّم أهل السبق في الإسلام على قدر منازلهم فقال أبو بكر: ((أمّا ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني وإنما ذلك شئ ثوابه على الله جلّ ثناؤه، وهذا معاش، فالأسوة فيه خير من الأثرة))[(٢)].

وجاء عهد عمر واتسع المال في زمنه، فرأى أن يحقق فكرته فيفاوت بالعطاء، ويعطي الناس على قدر منازلهم في الإسلام، وقربهم من الرسول، فكانت تصنيفته للطبقات علىهذه الكيفية،يقول عبدا لله - فيما يروى عنه -: ((لما أجمع عمر بن الخطاب على تدوين الديوان وذلك في المحرم سنة عشرين، بدأ ببني هاشم في الدعوة ثم الأقرب فالأقرب برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان القوم إذا استووا في القرابة برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، قدّم أهل السابقة، حتى انتهى إلى الأنصار فقالوا: بمن نبدأ؟ فقال عمر: ابدؤا برهط سعد بن معاذ الأشهلي، ثم الأقرب فالأقرب بسعد بن معاذ. وفرض عمر لأهل الديوان، ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، وكان أبو بكر الصدّيق قد سوّى بين الناس في القِسَم

---

(١) انظر الأحكام السلطانية - المطبعة المحمدية، مصر، لم تذكر سنة الطبع - : ١٩٣.

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف - المطبعة السلفيّة، مصر، ط٢، سنة الطبع ١٣٥٢هـ - : ٤١-٤٢.

فقيل لعمر في ذلك فقال: لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه))[(١)].

ثم تدخل الرواية في تفاصيل القِسَم فمن اثني عشر ألف درهم إلى ثلاثمائة[(٢)]، ويرتفع بعضهم بالتفاوت، فيجعل البدء بالعباس بن عبد المطلب، ويجعل له من النصيب خمسة وعشرين ألف درهم[(٣)]، وتهبط بعض الروايات بالحدّ الأدنى إلى المائتين كما في أعطية أهل هجر[(٤)].

وكان رأي الإمام(عليه السلام) - بالطبع - من رأي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد أعلن عنه في منهاجه الذي ألقاه أثناء خطبته الأولى بعد بيعته العامّة، وقد جاء فيه: ((ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يرى أن الفضل له على من بصحبته فإن الفضل غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، ألا وأيّما رجل استجاب لله ولرسوله، فصدّق ملّتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسويّة، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتّقين عند الله أحسن الجزاء))[(٥)].

وقد نكون - لو قدّر لنا أن نُخيّر فنختار - في جنب رأي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) والفريق المتابع له ؛ لا لأن الرأي الثاني يعتبر تشريعاً جديداً وليس من وظيفة العباد أن يشرّعوا في قبالة رسول الله،

---

(١) طبقات ابن سعد ج٣ قسم١: ٢١٣.

(٢) انظر المصدر السابق: ٢١٣-٢١٤.

(٣) انظر تأريخ أبي الفدا ج١: ١٦٠.

(٤) انظر تأريخ الطبري ج٤: ١٦٣.

(٥) شرح نهج البلاغة ج٢: ١٧١.

ولا لأنّا مكلّفون بالتعبد بأقواله وإن لم تبد لنا أوجه الحكمة فيها، فتلك وظيفة الفقهاء ، ولسنا منهم في هذا البحث ، بل لأنّا نرى أن إحداث مثل هذا التفاوت في العطاء مما يزيد في ضخامة رؤوس الأموال بيد طبقة خاصّة، ويضاعفها باستثمارها عاماً بعد عام، وبذلك يفقد المجتمع الإسلامي توازنه، ويزيد في نقمة الطبقة الضعيفة على سابقاتها، وبخاصّة إذا كان بعضها يرى أنه أحق بهذا المال من غيره ؛ لأنه كان هو السبب المباشر في تهيئته وجلبه، وذلك ببذله أعزّ ما يملك من تضحيات، بينما تكون هذه الطبقات السابقة عليهم متنعّمة في مواضعها، والمال يجبى إليها بحساب وبغير حساب، وهي تعطاه بلا أيّ جهد أو عمل.. اللّهم إلاّ ما كان لها من تضحيات سابقة في عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، أو قرب من نفسه، أوغير ذلك من الاعتبارات التي لا تفهم لغتها أكثريّة الطبقات المنكوبة والضعيفة غالباً.

والغريب أن الخليفة - وقد رأى نتائج توزيعاته الطبقيّة في أواخر أيام حياته - أعلن عن ندمه على تشريعه بقولته المشهورة: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسّمتها على فقراء المهاجرين))[١]. ولكن - كما يقول سيد قطب - ((وا أسفاه.. لقد فات الأوان وسبقت الأيام عمر، ووقعت النتائج المؤلمة التي أودت بالتوازن في المجتمع الإسلامي، كما أدّت فيما بعد إلى الفتنة بما أضيف إليها من تصرف أميّة وإقرار عثمان))[٢].. وسنرى بأنفسنا فيما بعد نتائج هذا التوزيع.

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ٣٣.

(٢) العدالة الاجتماعية في الإسلام -دار احياء الكتب العربية، مصر، ط٤، سنة الطبع ١٣٧٣هـ- : ٢١٠.

ومهما يكن.. فقد تّم هذا التشريع، وصادف هوى في نفوس أكثر أرباب الحل والعقد، ممن ضوعفت أعطياتهم من المسلمين، وكان له - من صرامة عمر في التنفيذ، وعدم استئثاره بالنصيب الأوفى، ووضعه لنفسه ولقبيلته حيث وضعهما الله كما قال للمدوّنين - أكبر الضمانة لتقبّله واستمراره .

وكان العباس أكثر المسلمين من الرجال نصيباً من المال، فقد بدأ به الخليفة، واختلفوا بعد ذلك في نصيبه ومقداره، فقائل: إنه خمسة وعشرون ألفاً، وقائل: إنه اثنى عشر ألفاً، وثالث يهبط به إلى خمسة آلاف - كما في رواية ولده السابقة - ورابع إلى سبعة آلاف - كما عرضت له الرواية السالفة أيضاً - والاتفاق الذي نقله ابن الجوزي أنه لم يفرض لأحد أكثر مما فُرض له، وروى أنه فرض له اثنى عشر ألفاً[١] كما روى ذلك أبو يوسف يعقوب ابن ابراهيم[٢].

واختلفوا - بعد ذلك - أنه متى كان هذا التشريع فالطبري[٣]، وابن الأثير[٤]، ومؤرخون آخرون[٥]، يعتبرونه في السنة الخامسة عشرة من الهجرة، ورواية صاحبنا في الطبقات[٦] واليعقوبي في تأريخه[٧]

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج٣:١٥٣ نقلاً عن ابن الجوزي.

(٢) انظر كتاب الخراج : ٤٣.

(٣) انظر تأريخ الطبري ج٤: ١٦٢.

(٤) انظر تأريخ ابن الأثير ج٢: ٢٤٧.

(٥) انظر تأريخ أبي الفدا ج١: ١٦٠.

(٦) انظر طبقات ابن سعد ج٣ قسم١: ٢١٣.

(٧) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٣٠.

وغيرهما أيضاً[1] يقولون أنه سنة عشرين. وإذا صحّت الرواية الأولى واعتبرنا التشريع نافذاً مدة بقاء خلافة عمر، أي: ما يساوي ثمانية سنوات من حياته، وعلمنا أن الأموال لدى الطبقات الأولى كانت مما تفيض عن حاجتها السنويّة كثيراً، وبخاصة في البيوت التي كان يدخلها أكثر من نصيب واحد لوفرة أهل السهام فيها، أدركنا مدى تكدّس الثروات في أيدي هذه الفئات القليلة جداً بالنسبة إلى غيرها، وسرّ ندم الخليفة على تشريعه هذا، ومحاولته إن بقي أن يردّهم إلى التشريع الإسلامي، ولعلنا سننتهي إلى أن ندمه هذا وإعلانه عنه سيكون من أسباب التعجيل عليه بالقتل قبل فوات الأوان.

والذي يهمنا التعرّض له من أمر هذا التشريع الآن أنه أدخل بعض اليسر على بيوت الهاشميين، وبخاصّة بيت العباس؛ لوفرة نصيبه ونصيب ولده من المال، بعد أن أصابتهم أثارة من عسرة في أيام الخليفة الأول، وشطراً من أيام خلافة الثاني؛ لمنعهم عن حقهم في الخمس وفدك - كما مر[2] - . وقد كان نصيب صاحبنا من المال أربعة آلاف درهم في كل توزيعة كما حدّدت ذلك بعض الروايات[3] ، وربّما كلّفه الخليفة في القيام بالتوزيع على قومه، وإيصال حقهم إليهم من المال كما جاء في بعض الأحاديث[4].

---

(١) انظر فتوح البلدان - تعليق ومراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة الطبع ١٣٩٨هـ - : ٤٢٦.

(٢) انظر الصفحات: ١٦٦-١٧٠ من هذا الكتاب.

(٣) انظر تأريخ الطبري ج٤: ١٦٢.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ج٣ قسم١: ٢١٨.

أما مظاهر الثراء فلم نرها لديهم، والظاهر أن المال كان لا يبقى بأيديهم وكانوا يوصلونه إلى مستحقّيه من بقيّة الطبقات كما يبدو من كثير من الأحاديث[١].

(٧)

والحق أن هذا الرأي للخليفة في بني هاشم وفي زعيميه على الأخصّ عليّ عليه السلام والعباس، كان يبدو منه كثيراً، ولم يمنعه ما حدث بينهم من فجوات من التصريح بفضلهما، ففي حديث لأبي بكر الأنباري في أماليه: ((أن علياً عليه السلام جلس إلى عمر في المسجد وعنده ناس فلما قام عرّض واحد بذكره، ونسبه إلى التيه والعُجب، فقال عمر: حق لمثله أن يتيه، والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعد أقضى الأمة وذو سابقتها وذو شرفها، فقال له ذلك القائل: فما منعكم يا أمير المؤمنين عنه؟! قال: كرهناه على حداثة السّن، وحبّه بني عبد المطلب))[٢].

وفي خروجه إلى الشام لم يمنعه ذلك من تخليفه على المدينة[٣].

وكان يستشيره في تدبير شؤون الخلافة، كاستشارته له في غزو الفرس بنفسه، وإباء الإمام(عليه السلام) عليه ذلك، وقد أبدى له وجهة نظره

(١) انظر طبقات ابن سعد ج٣ قسم١: ٢١٨-٢١٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٣: ١١٥ نقلاً عن ابن الانباري في أماليه.

(٣) انظر تأريخ الطبري ج٤: ١٥٩.

بكلام دقيق جدّاً يدلّ على منتهى العمق في تجاربه في هذه الشأن[1] وكان الإمام(عليه السلام) لا يضنّ عليه بشئ من الرأي.

والعباس نفسه كان موضعاً لاستشارته، وكان يعرف له جودة رأيه، وربّما استشار ولده فأعجبه الرأي فقال له: ((شنشنة أعرفها من أخزم))[2]، يريد عمر - فيما يقول الراوي -: ((إني أعرف فيك مشابهاً في أبيك في رأيه وعقله))[3]. قال الجاحظ: ((ويقال: أنه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس))[4].

وكان من إكباره له إذا رآه وهو راكب ترجّل له إكباراً لمقامه[5] وإذا ركبا لا يتقدمه بالسير تأدباً معه[6] وكان ذلك لا يمنعه من مداعبته أحياناً، يقول اليعقوبي: ((كان العباس يسايره - يعني عمر - وتحت العباس دابة مصعب، فتقدمه عمر، ثم وقف له حتى لحقه، فقال: تقدمتك وما كان لأحد أن يتقدمكم معشر بني هاشم، [ولكنكم قوم فيكم ضعف]،فأجابه العباس: رآنا الله نقوى على النبوة ونضعف عن الخلافة!))[7].

وكادت تقع جفوة بينهما ؛ لمّا أراد عمر أن يوسّع مسجد رسول الله فيأخذ دار العباس ويلحقها به، يقول ابن عباس: ((كانت للعباس دار

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج٢ : ٤٢٤-٤٢٥.

(٢) البيان والتبيين ج١: ٢٦٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر ذخائر العقبى: ٢٠٠.

(٦) انظر المصدر السابق.

(٧) تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٢٧.

إلى جنب المسجد في المدينة، فقال عمر بن الخطاب(رض): بِعْنيها أو هبها لي حتى أدخلها في المسجد فأبى، فقال: اجعل بيني وبينك رجلاً من أصحاب النبي، فجعلا بينهما أُبيّ بن كعب فقضى للعباس على عمر)). وتأثر عمر لهذا الحكم فأعلن عن استيائه من أُبيّ بقوله: ((ما أحد من أصحاب النبي أجرأ عليَّ منك))، فقال أُبيّ بن كعب: ((أو أنصح لك مني)) ثم أدلى له بمستند حكمه، يقول صاحبنا: ((فقال العباس: أليس قد قضيت لي بها وصارت لي؟ قال: بلى، قال: فإني أُشهدك أني قد جعلتها لله عز وجل))(١). وكأنّه فهم من الخليفة التحدّي بطلبه لها، وأراد أن يقصد في التنازل عنها إلى التقرّب المحض، ولم يرد أن يشيبها بشيء من مجاملة الخليفة، فتنازل عنها بعد أن أخذ الحكم وأيأسه منها.

وكادت تقع فجوة أخرى بينهما بسبب تقطير ميزاب العباس عليه أثناء دخوله المسجد يوم الجمعة(٢)، لولا تلافي الخليفة لها بالتنازل له، فقد عمد مرّة إلى ميزاب داره فقلعه بيده، فاستاء العباس وقال له غاضباً: ((والذي بعث محمداً بالحق إنه هو الذي وضع الميزاب في هذا المكان ونزعته أنت يا عمر، فقال عمر: ضع رجليك على عنقي لتردّه إلى ما كان))(٣)، ففعل العباس ذلك، وكان هذا الخضوع من الخليفة - إن صحّت الرواية - بمثابة الترضّي له.

---

(١) المعرفة والتأريخ ج١: ٥١٢.

(٢) انظر المصدر السابق ج١: ٥١١.

(٣) المستدرك على الصحيحين ج٣: ٣٣٢.

وكان من احترام عمر له أنه استسقى به عام الرمادة - بإجماع المؤرّخين - يوم أجدبت الأرض ومنعت السماء.. يقول ابن عمر: ((استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللّهم هذا عم نبيك العباس، نتوجّه إليك به فاسقنا. فما برحوا حتى سقاهم الله، قال: فخطب عمر الناس فقال: أيها الناس إن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده، يعظّمه ويفخّمه ويبر قَسمه، فاقتدوا أيها الناس برسول الله في عمه العباس، واتخذوه وسيلة إلى الله عز وجل فيما نزل بكم))[1].

وبالطبع ان هذه الحوادث ونظائرها من الخليفة مع أبيه وبطله الإمام(عليه السلام) كانت مما تزيد في تقاربهما وتؤكّد من شؤون الزمالة بينهما عادة.

(٨)

وأخال أن هذه الزمالة بلغت من القوّة حدّاً لا تحتاج معه إلى تأكيد، فقد كان الخليفة لا يكاد يفارق صاحبه في سفر ولا حضر، وكان يُلقي إليه بذات نفسه، ولا يُخفي عليه من أموره المهمّة شيئاً. وعبد الله نفسه كان لا يتوقف عن أن يحدّثه حتى في شؤونه الخاصة، ويستشيره فيها ويأخذ بإشارته، يقول ابن عباس من حديث له: ((فركب ومشيت إلى جانبه ولا ثالث لنا، فقلت: يا أمير المؤمنين إنني في خطبة فأشر عليّ،

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٣: ٣٣٤ .

قال: ومن خطبت؟ قلت: فلانة ابنة فلان، قال: النسب كما تحب وكما قد علمت، ولكن في أخلاق أهلها دقّة لا تعدمك أن تجدها في ولدك، قلت: فلا حاجة لي إذاً فيها... الحديث))[1].

ولـمّا مرض عبد الله وعاده زميله، كانت تحيته منه أنه قال له: ((أخلّ بنا مرضك، فالله المستعان))[2].

وعلى كثرة اطمئنان الخليفة لصاحبه وحبّه له، لم يكن ليولّيه إمارة من إماراته، مع علمه بما يملكه من إمكانيات تؤهله لها، ولأكثر منها، وقد يكون ذلك عائداً في دوره إلى عقدة كامنة في أعماقه، وربّما أشارت إلى نفسها في بعض أحاديثه معه، يقول - بعد أن ذكر أنه أرسل عليه فجاءه - إنه قال: ((يا ابن عباس إن عامل حمص هلك، وكان من أهل الخير - وأهل الخير قليل - وقد رجوت أن تكون منهم، وفي نفسي منك شيء لم أره منك، وأعياني ذلك، فما رأيك في العمل؟ قال: لن أعمل حتى تخبرني بالذي في نفسك، قال: وما تريد إلى ذلك؟ قال: أريده، فإن كان شيء أخاف منه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت، وإن كنت بريئاً من مثله، علمت أني لست من أهله، فقبلت عملك هنالك. فإني قلّما رأيت شيئاً أو ظننت شيئاً إلاّ عاينته، فقال: يا ابن عباس إني خشيت أن يأتي عليّ الذي هو آت وأنت في عملك، فتقول: هلمّ إلينا ولا هلمّ إليكم دون غيركم...)).

فالخليفة هنا يخشى أن يستغل ابن عباس المركز الذي يتولى للدعوة إلى هذا البيت دون غيره ؛ لما يعلم من انطوائهم على الإيمان بحقهم إلى حد بعيد.

---

(١) الموفقيات: ٦١٩.

(٢) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ١٢٣.

والغريب أن ابن عباس لم ينكر عليه هذا الرأي بهم، ولم يدافع عن نفسه، وربّما رأى أن المسألة أعمق من أن يزيلها عن نفسه دفاع أو إنكار، أو كان هو ينطوي عليه؛ فلم يرد أن يختاله في النفي بل أجابه بصراحة: ((أراني لا أعمل لك قال: ولِمَ؟ قلت: إن عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينك)) وأقره الخليفة على استعفائه، ثم استشاره فيمن يوليه فأشار عليه أن يستعمل: ((صحيحاً منك صحيحاً لك))[1].

وتقول بعض الروايات - وربماكان ذلك إن صحّ على سبيل المداعبة -: ((كدت أستعملك، ولكنيّ أخشى أن تستحل الفيئ على التأويل))[2] مشيراً إلى إصراره على رأيه في الخمس وكونه لبني هاشم بآية: **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى...** الآية**﴾**[3]، وأن القوم منعوهم منه، كما سبق أن ذكرناه في جوابه للحروري.

والغريب من بعض الروايات - المجهول راويها - أنها تنسب إليه أنه كان على شرطة عمر وكان حاجبه[4] وانفراد هذا الراوي المجهول بها، وعدم اهتمام المؤرّخين بنقلها، وقيام مثل تلكم العقدة في نفس الخليفة، وارتفاع مستوى صاحبنا عن مثلها.. كل ذلك لا يترك لنا المجال لاعتمادها وإعطائها شيئاً من الأهميّة في الحديث.

---

(١) مروج الذهب ج٢: ٢١٣.

(٢) العقد الفريد ج٢: ٢٠٨.

(٣) الأنفال: ٤١.

(٤) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٣٧.

(٩)

وطال أمد الخليفة على قريش، وأصيبوا بشئ من خيبة الأمل، فما كان يقدّر هذا الحزب أن صاحبه سيقف له بالمرصاد، فلا يترك له المجال للضرب في بلاد الله الواسعة، واستغلال نفوذه في إنماء ثروته، وتركيز مقامه في نفوس المسلمين، ثم ما كان يأمل أن يتوسّع في الحجر عليهم، فلا يتركهم يخرجون إلاّ بإذن وأجل، فإذا أعلنوا عن شكواهم وبلغه ذلك قال: ((ألا وإن قريشاً يريدون أن يتّخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأمّا وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة، آخذ بحلاقيم قريش وحُجَزها أن يتهافتوا في النار))[1]. يقول الشعبي: ((لم يمت عمر(رض) حتى ملّته قريش، وقد كان حَصَرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمّة انتشاركم في البلاد، فإن كان الرجل ليستأذنه في الغزو، وهو ممن حُبس بالمدينة من المهاجرين - ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة - فيقول: قد كان لك في غزوك مع رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ما يبلّغك وخير لك من الغزو اليوم ألاّ ترى الدنيا ولا تراك))[2].

وبالطبع إن مثل هذا الحجر عليهم، والحدّ مما كانوا يملكونه من حريات واسعة في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر، بالإضافة إلى ما أصابهم من يسر مادي كان يحث له عن مجالات لإنماء ما تكدّس منه، وكان يبعث في نفوسهم التطلّع إلى آفاق أوسع.. كل ذلك

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٣٤.

(٢) المصدر السابق.

مما يبعث الملل في نفوسهم، ويفسح أمامها المجال للتفكير بمنفذ للخلاص من هذا العهد.

وكان الملل بطبيعة الحال متبادلاً بين الطرفين، فسياسة مثل هؤلاء ومراقبة حركاتهم، والوقوف دون قيامهم بأيّ نشاط ضدّ الوضع القائم لا يهون بحال. وقد آلمه جداً وأثاره ما سمعه عن بعضهم من القول بأنه لو مات لبايع فلاناً، يقول ابن عباس: ((أخبرني عبد الرحمن بن عوف قال: - وكنت في منزله بمنى أنتظره، وهو عند عمر في آخر حجّة حجّها عمر، قال: فرجع عبد الرحمن من عند عمر فوجدني في منزله بمنى أنتظره وكنت أقرئه القرآن - قال ابن عباس: فقال لي عبد الرحمن: لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في فلان يقول: والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلاناً، والله ما كانت بيعة أبي بكر إلاّ فلتة فتمّت، قال: فغضب عمر، فقال: إني إن شاء الله لقائم العشيّة في الناس فمحذّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمرهم، قال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، وإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وإني أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطير بها أولئك عنك كل مطير، ولا يعوها ولا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار السنّة، وتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت بالمدينة متمكناً، فيعي أهل الفقه مقالتك ويضعوها على مواضعها، قال فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومنّ بذلك أول مقام أقومه بالمدينة))(١).

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤: ٣٣٦-٣٣٧.

ثم قدم - فيما يحدّث صاحبنا - وخطب خطبته المعروفة، وقد أتينا على ذكرها في حوادث السقيفة من هذا الكتاب، وحذّر فيها الناس من الانصياع إلى الفوضى في انتخاب الخليفة، وقد كان الخليفة يلقي بذات نفسه أمام ابن عباس - كما قدّمنا - ويبدي له جزعه ومله، وربّما أكثر من تمنيّ الموت، حتى قال له يوماً: ((لقد أكثرت التمنيّ للموت، حتى خشيت أن يكون عليك غير سهل عند أوانه.. فماذا سئمت من رعيّتك؟ إمّا أن تعين صالحاً أو تقوّم فاسداً)) قال: ((يا ابن عباس إني قائل قولاً فخذه إليك: كيف لا أحبّ فراقهم وفيهم من هو فاتح فاه للشهوة من الدنيا، أمّا الحق لا ينويه وأمّا الباطل لا يناله، والله لولا أن أسأل عنكم لبرئت منكم، فأصبحت الأرض مني بلاقع، ولم أقل ما فعل فلان وفلان))[١].

وكان مما يضاعف مله أنه يرى بعينيه ما أحدثه تشريعه السابق من مفارقات تبتعد بروحها عن روح الإسلام، ولا يملك إلى تغييرها سبيلاً، فليس من السهل على من حدث في أعماقه الشعور بالطبقيّة، وتغلغل كنتيجة حتميّة للتفاوت الماديّ، أن تعيده إلى حضيرة الشعور بالمساواة والجماعيّة التي كانت سائدة قبل حدوث هذا التشريع، يقول ابن عباس: ((إن عمر قال لناس من قريش: بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً؛ حتى يقال مَن صحابة فلان مَن جلساء فلان، حتى تحوميت المجالس، وأيم الله إن هذا لسريع في دينكم، سريع في شرفكم، سريع في ذات بينكم، ولكأنّي بمن يأتي بعدكم يقول: هذا رأي فلان، قد قسّموا الإسلام أقساماً، أفيضوا مجالسكم بينكم، وتجالسوا معاً، فإنه أدوَم لإلفتكم وأهيب لكم في الناس، اللّهم ملّوني

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٠٥.

وملتهم، وأحسست من نفسي وأحسّوا مني، ولا أدري بأيّنا يكون الكون، وقد أعلم أن لهم قبيلاً منهم فاقبضني إليك))(١).

وهذا النص التأريخي القيّم له أهميته الواسعة في تصوير المشكلة وتطوّرها، فقد أصبح التكتّل الطبقي بارزاً، وأصبحت الطبقة الدنيا تتحامى حتى الجلوس مع سابقتها؛ لما ترى فيها من ترفع وامتياز، وهو يخشى أن ينسب إليه فيما بعد أسباب هذا التفاوت.. ((لكأنّي بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان))، ومثل هذا الوضع لا يعالج بالوعظ عادة، ما دامت مشكلته كامنة في الأعماق، فلو قيل لهؤلاء ألف مرة أفيضوا بمجالسكم بينكم لما أفاضوا إليها وهم يشعرون بهذا الامتياز.

والذي أخاله: أنه وضع يده على مفتاح المشكلة حين قال قولته المشهورة: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسّمتها على فقراء المهاجرين))(٢) ، ولكن بعد فوات الأوان، وربّما كان هذا القول من عوامل يقظتهم ؛ لتوقع نتائجه لو قدّر له أن يعمل على تنفيذه، فكان من أسباب عملهم الجاهد لإيقافه عنه ولو من طريق القضاء عليه، احتفاظاً باليسر المادي والشعور بالامتياز.

وبالطبع كان هذا الوضع باعثاً له على الملل وعلى أكثر من الملل، فالذي يبدو: أنه كان شاعراً بالمؤامرة ضدّه وكان يقظاً لإحباطها، فهو يقول: ((اللّهم ملّوني وملّلتهم، وأحسست من نفسي وأحسّوا مني، ولا أدري بأيّنا يكون الكون وقد أعلم أن لهم قبيلاً منهم فاقبضني إليك)).

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ٢٥.

(٢) المصدر السابق ج٥: ٣٣.

تأمّلوا.. ((ولا أدري بأيّنا يكون الكون)).. فهي تلقي بعض الأضواء على ما قلناه.

ولسنا بحاجة لأن نؤكّد أن مثل هذا الوضع المتأزّم كان من دوافع تفكير الخليفة بالمرشح للخلافة من بعده، وما كان ليخفى على صاحبنا هذا التفكير، وهو أعرف الناس بصاحبه وأوصلهم إلى دخائل نفسه، يقول عبد الله: ((طرقني عمر بن الخطاب بعد هدأة من الليل فقال: اخرج بنا نحرس نواحي المدينة، فخرج وعلى عنقه درّته حافياً، حتى أتى بقيع الغرقد فاستلقى على ظهره، وجعل يضرب أخمص قدميه بيده وتأوّه صُعداء، فقلت له: يا أمير المؤمنين ما أخرجك إلى هذا الأمر؟ قال: أمر الله يا ابن عباس، قال: قلت: إن شئت أخبرتك بما في نفسك، قال: غص يا غواص إن كنت لتقول فتحسن، قال: قلت: ذكرت هذا الأمر بعينه وإلى من تصيّره، قال: صدقت، قال: فقلت: أين أنت من عبد الرحمن بن عوف؟ فقال: ذلك رجل ممسك، وهذا الأمر لا يصلح إلاّ لمعط في غير سرف، ومانع في غير إقتار، قال: قلت: سعد بن أبي وقاص، قال: مؤمن ضعيف، قال فقلت: طلحة بن عبيد الله، قال: ذاك رجل يناول للشرف والمديح، يعطي ماله حتى يصل إلى مال غيره، وفيه بأو وكبر، قال: فقلت: فالزبير بن العوام فهو فارس الإسلام، قال: ذاك يوماً إنسان ويوماً شيطان، وَعْقَة لَقِس[1] إن كان ليكادح على المكيلة من بكره إلى الظهر حتى تفوته الصلاة، قال: فقلت: عثمان بن عفان

---

(١) وعقةبفتح الواو وسكون العين المهملة: الذي يضجر ويتبرم، واللقس بفتح اللام وكسر القاف: السيء الخلق، انظر المادتين في النهاية لابن الأثير- المطبعة العثمانية، مصر، سنة الطبع ١٣١١هـ -.

قال: إن ولّي حمل بني أبي معيط وبني أمية على رقاب الناس، وأعطاهم مال الله ولئن ولّي ليفعلن، والله لئن فعل لتسيرنّ العرب إليه حتى تقتله في بيته، ثم سكت. قال ثم قال: أمضها يا ابن عباس أترى صاحبكم لها موضعاً؟ قال فقلت: وأين يبتعد من ذلك؟! مع فضله وسابقته وقرابته وعلمه، قال: هو والله كما ذكرت، ولو وَلِيَهم لحملهم على منهج الطريق، فأخذ المحجّة الواضحة إلاّ أن فيه خصالاً.. الدعابة في المجلس، واستبداد الرأي، والتبكيت للناس مع حداثة السّن)).

ولم يكن ابن عباس - وهو أعلم الناس بخلق ابن عمه وبطله - ليهمّه أن يردّ على الخليفة ما نسبه إليه من خصال، وينقضها واحدة واحدة، وكلما أهمه أن يبعد عنه معرّة أسطورة السّن، وهي التي أبعد بها عن الحكم قديماً، ويبدو أنها ما تزال تلاحقه حتى الآن، وربّما اتخذت ذريعة لإبعاده عنه من جديد، فقال: ((يا أمير المؤمنين هلاّ استحدثتم سِنّه يوم الخندق إذ خرج عمرو بن عبد ود، وقد كعم عنه الأبطال وتأخّرت عنه الأشياخ، ويوم بدر إذ كان يقطّ الأقران قطّاً، وهلاّ سبقتموه بالإسلام، فقال: إليك يا ابن عباس، أتريد أن تفعل بي كما فعل أبوك وعلي بأبي بكر يوم دخلا عليه))، وربّما كان ذلك في إحدى مجادلاتهم معه ولم ينقلها إلينا التأريخ، يقول ابن عباس: ((فكرهت أن أغضبه فسكت)) فقال: ((والله يا ابن عباس إن علياً - ابن عمك - لأحق الناس بها، ولكن قريشاً لا تحتمله، ولئن وليهم لأخذهم بمرّ الحق لا يجدون عنده رخصته، ولئن فعل لينكثنّ بيعته ثم ليحاربن))[1].

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٣٦-١٣٧.

وهذا المضمون في تقييمه لكفاءة الإمام(عليه السلام) في الحكم ورأيه في المرشحين الأخر، يكاد يكون متواتراً عنه، وإن نقل بشيء من الزيادة والنقيصة على اختلاف الناقلين.

وأخال أن رأي عمر بالإمام(عليه السلام) طرق أسماع القرشيين، وربّما تحدّث الخليفة به أمام بعضهم، فكان من عوامل يقظتهم ضدّه أيضاً، فقريش كما يقول: لا تحتمله لأنها لا تريد مر الحق، ولأن لها من الترات وغيرها ـ مما تحدّثنا عنه سابقاً ـ ما يوقفها عن قبول خلافته، وما دام الخليفة يرى فيه هذا الرأي فما أوشكه أن يجعل ذلك ذريعة إلى النص عليه، وبخاصّة وقد عرف رأيه ببقية المرشحين من أسياد هذا الحزب، على أنّا لا نحتاج إلى تأكيد هذا الاحتمال إلى خصوص هذا الحديث، فما أكثر الأحاديث الكاشفة عن مثل هذا الرأي في الإمام(عليه السلام) وقد سبق الكثير منها في حنايا ما سبق من أحاديث.

(١٠)

وكان ما توقّعه عمر ووقع الكون عليه، فطُعن بيد أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وما أدري.. أكان من الصدف البحتة أن يكون المغيرة ـ داهية الحزب ـ هو الوسيط لإدخال هذا العلج إلى المدينة، في حين قد سبق من الخليفة المنع عن دخول أمثاله إليها[1]؟.

---

(١) انظر مروج الذهب ج٢: ٢١٢، وانظر طبقات ابن سعد ج٣ قسم١: ٢٥٣.

وهل يكفي ما ذكروه من الأسباب لأن يقدم هذا الغلام على هذه الفعلة؟.. وهل يستطيع الإقدام على مثله من دون أن يشعر بأن له ركيزة يعتمد عليها لنجاته؟.. أمّا أنا فأشك أن يكون قد جرى ذلك كله بهذه السهولة.

وأخال أن مؤامرة حيكت له في الخفاء كان بطلها المغيرة ومن يعمل لهم من أقطاب الحزب، وقد اتخذوا لها هذا العلج ذريعة لتنفيذها ومنّوه بالأماني، فلما وقع في الشرك وتدافع الناس عليه ندم فنحر نفسه، وأضاع على الرأي العام خيوط المؤامرة.

وأخال أيضاً أن كعب الأحبار اليهودي الداهية كان على علم بأطرافها، وربّما كان طرفاً فيها، فقد حدّثوا أنه جاء إلى عمر قبل مقتله بثلاثة أيام فقال له: ((يا أمير المؤمنين إعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام، قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل التوراة، قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللّهم لا ولكني أجد صفتك وحِليَتَك وإنه قد فني أجلك قال: وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً، فلما كان من الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان، قال: ثم جاءه من غد الغد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك إلى صبيحتها، قال: فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة، قال: ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنجر له رأسان، نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات...))[1]، ولم يعد إلى البيت إلاّ محمولاً.

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٢.

وبالطبع ما كان كعب ليعلم من التوراة غير ما يعلمه الأحبار، وما كانت التوراة لتحدد أعمار الناس بهذه الدقة! وكل ما هنالك أنهم أرادوا أن يشغلوا الخليفة بالتفكير بما ينتظره من مصير من كعب، وكأنّه شيء طبيعي محدّد أمره من السماء، وكان موضع غرابة الخليفة أنه لا يشكو ألماً ولا وجعاً وقد كان هذا بمنزلة المخدر له عن التفكير بما يحاك له في الخفاء مما سبق أن أحس به إحساساً غامضاً، وأعلنه أمام ابن عباس في حديثه - كما مر - وكانوا على ثقة من أنّ هذا القلق لا يبلغ به درجة الإيمان بنتائجه، وكان عمر أعمق من أن يعهد ويرقب آثار الموت الخارجيّة لمجرّد قولة كعب، وإن كان لها مفعولها الطبيعي في إحداث قلقه النفسي وانشغاله بالتفكير بها عن أي شيء آخر.

وكان الخليفة فيما يبدو لا يكاد يصدق أن هذه الحادثة جرت بهذه السهولة، فهو لا يفتأ يسأل الداخلين عليه من القوم: ((أعن ملأ منكم هذا؟))، وهو يبعث بصاحبنا - ابن عباس - ليسألهم بهذا السؤال، يقول ابن قتيبة: ((ثم دعا عبد الله بن عباس وكان يحبه ويدنيه ويسمع منه، فقال له: يا ابن عباس إني لأظن أن لي ذنباً، ولكن أحب أن تعلم لي أعن ملأ منهم ورضى كان هذا؟ فخرج ابن عباس فجعل لا يرى ملأ من الناس إلاّ وهم يبكون.. الحديث))(١).

وبالطبع إن خطوط المؤامرة كانت أخفى من أن يعلم بها الرأي العام، وإذا كان هناك تدبير - وصحّ الفرض - فهو لا يتجاوز الآحاد من رؤساء الحزب القرشي، وغاية ما يدلّ عليه هذا التساؤل المتكرر من الخليفة وزميله

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢١.

هو إعلان تشكيكهم ببساطة الحادثة، وأخال أن لو قدّر له أن ينحو منها لكشف -بما له من حزم- عن كل ما يتعلّق بها من خطوط.

ومهما يكن فقد أوقفوه أمام أمر واقع، وبدأ يفكر تفكيراً جدياً فيمن يخلفه على الحكم، وقد وقع -فيما أخال- تحت وطأة من صراع نفسي قوي، فهو يفكر أن مصلحة المسلمين تقتضيه أن يولّي عليهم الإمام (عليه السلام) ليحملهم على المحجّة البيضاء، ويرى أن قريشاً لاتحتمله ؛ لأنها لا تريد مر الحق وتريد أن يقدّم مرشحها الأول عثمان، أو غير علي عليه السلام على أقل تقدير، ويراها مع ذلك مخطئة، فعثمان لو ولّي عليهم -وهو أعرف بنفسيته- لحمل عليهم بني أميّة، وهم أبعد ما يكونون عن روح الإسلام، وربّما ثار به المسلمون فقتلوه، وماله لا يتركهم لأنفسهم يختارون من يشاؤون، ولكن كيف يتركهم وهذا ولده عبد الله يقول له: ((زعموا أنك غير مستخلف، وأنه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها رأيت أن قد ضيّع فرعاية الناس أشد))[1].

وكادت تطغى عليه رعاية المصلحة الإسلامية على رعاية عواطف قريش فيجزم بتوليتهم علياً عليه السلام وقال لهم في ذلك -بعد أن عاودوه بالحديث عن العهد-: ((قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن انظر فأولّي رجلاً أمركم، هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى علي))[2].

ولكنه عاد تحت وطأة الصراع فترك ذلك لرؤيا رآها، وفسّرها بأنه سيموت ولا يريد أن يتحملها حياً وميتاً، وانتهى أخيراً إلى حل

---

(١) صحيح مسلم ج٦: ٥.

(٢) تأريخ الطبري ج٥: ٣٤.

وهو أن يحمّل مسؤوليتها ستة من رؤساء سائر المسلمين على اختلاف نزعاتهم، وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وهم يختارون بينهم من يختارون، وأبلغهم هذا القرار وخرجوا.

فكان من رأي العباس أن لا يدخل معهم علي عليه السلام فقال له الإمام: أكره الخلاف وأجابه العباس محذراً إذن ترى ما تكره[1].

وعادوا في اليوم الثاني فعاودته فكرة أن يخصها من بينهم لعثمان، ولعله أراد بموافقة حزبه أن يلمسهم خطأ رأيهم في إصرارهم على مرشحهم عثمان، أو أنه أراد أن ينتقم لنفسه من قريش التي سئمت حكمه وملّته ليريهم الفرق بين العهدين، وكان تعيينه من طريق عبد الرحمن بن عوف، فقد جعل له رجحان الرأي إذا تساوت الكفتان، وإنه ليعلم أن عبد الرحمن لا يعدل بها عن عثمان.

ولم يكن هذا الأمر ليخفى على صاحبنا -الغواص- وهو أوصل لأعماق صاحبه من أيّ أحد، فقال لما قال عمر -فيما يروي القطب الراوندي-: كونوا مع الثلاثة التي عبد الرحمن فيها قال ابن عباس لعلي: ((ذهب الأمر مِنّا، الرجل يريد أن يكون الأمر لعثمان))[2].

وأثار ذلك استياء الإمام(عليه السلام)، وإن لم يواجه به عمر، مراعاة لتردّي حالته الصحيّة، قال سهل بن سعد الأنصاري: ((مشيت وراء علي بن أبي طالب حيث انصرف من عند عمر، والعباس بن عبد المطلب يمشي في جانبه، فسمعته يقول للعباس: ذهبت منا والله، فقال: كيف علمت؟ قال:

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٥: ٣٤-٣٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ٦٣ نقلاً عن القطب الراوندي.

ألا تسمعه يقول: كونوا في الجانب الذي فيه عبد الرحمن؛ لأنه ابن عمه، وعبد الرحمن نظير عثمان وهو صهره، فإذا اجتمع هؤلاء فلو أن الرجلين الباقيين كانا معي لم يغنيا عني شيئاً، مع أني لست أرجو إلاّ أحدهما، ومع ذلك فقد أحب عمر أن يعلمنا أن لعبد الرحمن عنده فضلاً علينا. لعمرو الله ما جعل الله ذلك لهم علينا، كما لم يجعله لأولاهم على أولانا، أما والله لئن عمر لم يمت لأذكرته ما أتى إلينا قديماً، ولأعلمته سوء رأيه فينا وما أتى إلينا حديثاً، ولئن مات - وليموتن - ليجتمعن هؤلاء القوم على أن يصرفوا هذا الأمر عنّا، ولئن فعلوها - وليفعلن - ليروني حيث يكرهون، والله مابي رغبة في السلطان ولا حب الدنيا، ولكن لإظهار العدل والقيام بالكتاب والسنّة))، يقول سهل: ((ثم التفت فرآني وراءه، فعرفت أنه قد ساءه ذلك فقلت: لا ترع أبا الحسن لاوالله لايستمع أحد الذي سمعت منك في الدنيا ما اصطحبنا فيها،فوالله ماسمعه مني مخلوق حتىقبض الله علياً إلى رحمته))(١).

والغريب أن الخليفة دعاهم فدخلوا عليه وهو ملقى على فراشه يجود بنفسه، فنظر إليهم فقال: ((أكلكم يطمع في الخلافة بعدي؟ فوجموا، فقال لهم ثانيةً، فأجابه الزبير وقال: وما الذي يبعدنا منها؟ ولّيتها أنت فقمت بها، ولسنا دونك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة... فقال عمر: أفلا أخبركم عن أنفسكم قالوا: قل فإنّا لو استعفيناك لم تعفنا))، ثم أنحى عليهم بذكر عيوبهم ونقائصهم حتى بلغ إلى الإمام(عليه السلام)

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٤٠٩-٤١٠. نقلاً عن السقيفة للجوهري، وانظر أنساب الأشراف - باعتناء S.D.F. GOLTEIN ، سنة الطبع ١٩٣٦م - ج٥: ١٩.
وانظر تأريخ الطبري ج٥: ٣٥.

فقال: ((لله أنت لولا دعابة فيك أما والله لئن وليتهم لتحملنّهم على الحق الواضح، والمحجّة البيضاء، ثم أقبل على عثمان فقال: [هي ها] إليك، كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إيّاك، فحملت بني أميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً، والله لئن فعلوا لتفعلن ولئن فعلت ليفعلن، ثم أخذ بناصيته فقال: فإذا كان ذلك فاذكروا قولي فإنه كائن))[١].

وهذا الحديث يدل على مدى ثورته النفسيّة، وتأثره من هؤلاء أو بعضهم على الأقل، وربّما دل على اتهامه الباطني لهم بالمؤامرة عليه لأجل الحكم، وفي تأكيده على إعلان فراسته لعثمان، وتذكيره بقوله هذا، مع تعيينه من طريق عبد الرحمن ما يشير إلى ما ذكرناه من أهدافه في هذا التعيين. وهذا الحديث - فيما يذكر ابن أبي الحديد - يرويه أبو عثمان الجاحظ في كتاب السفيانيّة، ويذكره غيره في باب فراسة عمر[٢] وهو متواتر المضمون في سائر الكتب التأريخية، ويروي أبو عثمان عقيب هذا الخبر عن صاحبنا أنه سمع عمر بن الخطاب يقول لأهل الشورى: ((إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم غلبكم على هذا الأمر معاوية بن أبي سفيان))[٣].

وإذا صح هذا كله وهو صحيح في خطوطه الأولى وربّما تُزيّد في بعضه - كما تقتضي أمثال هذه الأحاديث عادة - فلم يكن ذلك من الخليفة

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٦٢.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

من باب الإخبار بالمغيبات، وإنما كان من باب فهمه لنفسيّة أصحابه، وبصره بالعقول الجماعيّة للجماهير المعاصرة له.

وفي رواية ابن قتيبة أنه أمر أهل الشورى بإحضار ولده عبد الله مشيراً، وليس له في الأمر شئ، وقال لهم أيضاً: ((وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة، وأرجو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من أمركم شئ))[1].

وتوفي عمر أخيراً و لم يفارقه صاحبه حتى الممات، وقد سرّاه قبل الموت بكلمات طيّبة فيما يروي المؤرخون، وحدَّه فأبدع بحدِّه عندما سئل عنه بعد وفاته فأجاب: ((كان كالطير الحذر الذي يرى أن له بكل طريق شركاً يأخذه))[2]. وهي من أبدع ما قرأت دقة تصوير لحزمه ويقظته وقلقه من شعبه، مع وجازة في أدائها.

وأخيراً فقد وقع في الشرك الذي كان يحذره، وانطوت بموته صفحة من تأريخ الإسلام مستقلة بخطوطها، وفتحت صفحة جديدة تختلف عنها في أهم ما لها من عناصر.

وقبل أن نودّع هذا العهد نود أن نلّخص لأنفسنا ما أفاده ابن عباس منه، وما أدخل عليه من تجارب جديدة.

وأول مانلاحظه أنه قوّى علائقه ببطله الإمام(عليه السلام)، بما تبنى من أفكاره العقيديّة التي كان يدافع عنها كلما فسح له المجال - وما أكثرما فسح له في هذا العهد - وبالطبع فإن المرء إذا تبنى شيئاً ودافع عنه ازداد فناؤه فيه.

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ٢٣.

(٢) تأريخ الخلفاء :١٢١.

ويأتي بعد ذلك ما كسبه من قوة جدلية خلقها مرانه الكثير لهذا الفن، واهتمام الخليفة به ودعوته مع كبار الصحابة - مع صغرسنّه - كّان لها التأثير الواسع في إنماء شخصيته وشعوره بذاتيته، وقد كان نهي الخليفة له أحياناً عن المسارعة في الكلام وما وعاه من تجارب سابقة في فوائد التواضع بمثابة نقطة الانطلاق إلى الإحالة بينه وبين طغيان الشعور بالذات، وتحوّله إلى ضرب من الأنانيّة الواسعة.

واحتياج الخليفة إليه في الفقه، وتمكينه من الفتيا في عهده، وأخذه القرآن عنه، من بواعث زيادة إقباله على تثقيف نفسه ؛ لسد هذه الحاجات إليه احتفاظاً بمركزه لدى الخليفة، ومشاورته في الشؤون العامة وكثرة صحبته له واطلاعه على دقائق السياسة الداخليّة والخارجية..كل ذلك مما أزاد خبرته - عادة - في شؤون الحكم.

وأخال أنه بمفارقته لهذا العهد فارق أوسع المجالات وأهمها في إبراز مواهبه وإنماء رصيده من التجارب العلميّة والأدبيّة والاجتماعيّة، وإن كان قد أصبح له من قوة الشخصية وتكاملها ما يرفعه إلى مصاف الكبار من أعيان ذلك العصر وعلمائه على صغره في السن.

مجلس الشورى

ومن الحق -ونحن نستقبل مع صاحبنا عهداً جديداً عليه إلى حد ما- أن نصحبه إلى مجلس الشورى؛ لنلمس مدى صدق فراسته السابقة، فقد دعي المجلس -بعد دفن الخليفة- للاجتماع، ودُعي -فيما يرويه ابن قتيبة-

هو والحسن وابن عمر لشهوده، وإن لم يعط لهم شيء من الصلاحيات - كما أوصى بذلك الخليفة -

وبالطبع إنهم شاهدوا - أول ما شاهدوا - قوة الصراع بين المرشحين، وإن شئت أن تقول بين علي(عليه السلام) وعثمان، فما كان يطمع الزبير أن يكون له شيء مع الإمام(عليه السلام)،وطلحة لم يكن - فيما تقول بعض الروايات - حاضراً في المجلس[١]، وتقول بعضها: كان حاضراً[٢]، وكان لا يرى لنفسه شيئاً مع عثمان، واندكت شخصية سعد بشخصية عبدالرحمن بن عوف، وعبد الرحمن كان لايريدها لنفسه، فانحصر الترشيح إذاً بين هذين الشخصين، وكان لكل منهما حزبه القوي خارج المجلس يؤيّده ويرشّحه.

أمّا علي(عليه السلام) فكان زعيماً لحزب كبير تمثل في بني هاشم وفي حزب الأنصار، فقد انضم إليه أكثر أفراده بعد فشله السابق في قضية تعيين مرشحه للخلافة بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)،وانضم إليه أكثر الطبقات الضعيفة من موالين وغيرهم.

وكان عثمان زعيماً لحزب قريش، وكانت الطبقة الأرستقراطية المترفة منهم تؤيّده جميعاً، وتعمل على فوزه بالمنصب بأي ثمن كان.

فكان علي(عليه السلام) وجماعته يتكلمون باسم الإسلام، وكان جماعة عثمان يتكلمون باسم قريش وتأمير قريش لأنفسها.

وسنرى - فيما يدور بين الحزبين من حديث - مدى تفاوت الذهنيّة التي واجه بها كل منهما قضية الخلافة وشؤون الحكم.

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٥: ٣٤.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ج١: ٦٣.

وكاد ينتهي الاجتماع عن لاشئ لولا أن يقول عبد الرحمن بن عـوف - فيما يروي الشعبي-: ((من رجل منكم يخرج نفسه عن هذا الأمـر، ويختار لهذه الأمّة رجلاً منكم، فإني طيّبـة نفسي أن أخـرج منها وأختار لكـم، قالوا: رضينا إلاّ علي بن أبي طالب فإنه أتهم))(١). وقد عرفنا سر اتهامه من رأيه السابق في عبد الرحمن هذا.

وتدخلت القوة في الموضوع فقال أبو طلحة - كان على رأس الشـرطة الذين وكّلهم عمر في مراقبة مجلس الشورى، وأمره بقتل مـن يخالـف عبد الرحمن إذا تساوت الكفّتان -: ((يا أبا الحسن إرض بـرأي عبـد الرحمن كان الأمر لـك أو لغيرك))، وكـان لابدّ لـه بعـد ذلـك أن يرضـى، فقـال لعبد الرحمن: ((أعطني يا عبد الرحمن موثقـاً مـن الله لتؤثـرن الحق ولا تتبـع الهوى، ولا تمـل إلى صهـر ولا ذي قرابـة، ولا تعمـل إلاّ لله، ولا تـألوا هـذه الأمّة أن تختار خيرها.. قال: فحلف له عبد الرحمن..)).

وخرج يشـاور ثلاثـة أيـام وكـانت اجتماعـات منفـردة مـع كـل مـن عليعليه السلام وعثمان، ولم يعط رأيه إلاّ بعد نهاية الثلاثة وبعـد أن أمسـك بيـده زمام الموقف.

يقول الشعبي - وحديثه هذا مـن أدق الأحاديـث وأوفـاهـا تصويـراً للقصـه وعرضـاً لمختـلـف الآراء الـحزبيّة وغيرها -: ((واجتمع الناس وكثروا على الباب لا يشكّون أنه يبايع علي بن أبي طالب،وكان هوى قريـش كافّـة - ما عدا بني هاشم - في عثمان، وهوى طائفة من الأنصار مع علي، وهـوى طائفة أخرى مع عثمان وهي أقل الطائفتين، وطائفـة لا يـالون أيّهمـا بويـع،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٤١٠.

قال: فأقبل المقداد بن عمرو والناس مجتمعون، فقال: أيها الناس اسمعوا ما أقول: أنا المقداد بن عمرو إنكم إن بايعتم علياً سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا، فقام عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي فنادى: أيها الناس إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم علياً سمعنا وعصينا، فقال له المقداد: يا عدو الله وعدو رسوله وعدو كتابه، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون! فقال له عبدالله: يا ابن الحليف العسيف، ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول في أمرقريش،فقال عبدالله بن سعد بن أبي سرح: أيها الملأ إن أردتم أن لا تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان، فقال عمار بن ياسر: إن أردتم أن لا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا علياً، ثم أقبل على عبدالله بن سعد بن أبي سرح فقال: يا فاسق يا ابن الفاسق أأنت من يستنصحه المسلمون أويستشيرونه في أمورهم، وارتفعت الأصوات ونادى مناد - ولا يدرى من هو، فقريش تزعم أنه رجل من مخزوم، والأنصار تزعم أنه رجل طوّال آدم مشرف على الناس لا يعرفه أحد منهم -: يا عبد الرحمن أفرغ من أمرك وامض على ما في نفسك فإنه الصواب))[١].

وهذه المحاورة تمثل لك الذهنيّة العامة لكل من الحزبين، فحزب قريش وأبطاله - أمثال هذين المتكلمين باسمه - كانوا يرون أن الأمر لا يعدو أن يكون أمراً قبليّاً يخصّ طائفة من الناس، ترى أن الحق لها في التحكم برقاب الناس كيف تشاء، فالأمر أمر قريش وكل حديث من غيرهم باطل.

وحزب عليعليه السلام وأبطاله - أمثال عمار والمقداد وغيرهم - يرى أن القضيّة قضيّة عامّة فهي للمسلمين لا لقريش وما قريش بها إلاّكسائر الناس.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٤١٠.

وقام عبد الرحمن فأقبل على علي‏عليه السلام - فيما يقول الشعبي - فقال: ((عليك عهد الله وميثاقه، وأشد ما أخذ الله على النبيين من عهد وميثاق، إن بايعتك لتعملنّ بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر))[1].

وكان هذا القيد الأخير هو الشرك الذي نصبه عبد الرحمن لعلي‏عليه السلام، فعبد الرحمن - فيما أعتقد - كان من أعرف الناس بخلق الإمام(عليه السلام) وصلابته، وكان يعرف أنه لايعدل بكتاب الله وسنّة نبيه ثم باجتهاد رأيه في التطبيق شيئاً مهما كان، وهو يُعْمل رأيه في الكثير مما انفردت به سيرتهما عن الكتاب والسنّة ومدى اختلافه معه فيهما، وبخاصة في الأمور التي شرّعها الخليفة الثاني باجتهاده، رغم وجود نصوصها التشريعيّة كتوزيعه السابق للمال مثلاً، وهو مايهم أرستقراطيي قريش، وغيرهم من المسلمين ممن أثراهم هذا التوزيع بالدرجة الأولى، وكان الإمام يأباه أشد الإباء - كما عرفنا ذلك منه فيما بعد - لمنافاته لذوقه الخاص فضلاً عن النصوص الواردة ((والله لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف والمال مال الله)).

وقد ضرب الإمام(عليه السلام) أعلى الأمثال في احترام حرفيّة ما يعطيه من عهد والتقيد بمدلوله، واعتباره عقداً اجتماعياً بينه وبين رعيته، لا يصح أن يخرج عليه بحال، لذلك أقدم على التضحية بأعظم منصب كان يستطيع أن يظفر به لو كان من الوصوليين الذين يبررون الوسائط - مهما كانت دنيئة - في سبيل البلوغ إلى غاياتهم، فردّ عليه وهو يعلم ما يدخل عليه هذا الردّ من حرمان بقوله: ((طاقتي ومبلغ علمي وجهد رأيي)) والناس يسمعون.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٤١٠.

فأقبل على عثمان فقال له مثل، ذلك فقال: ((نعم لا أزول عنه ولا أدع شيئاً منه، ثم أقبل على علي فقال له ذلك ثلاث مرات، ولعثمان ثلاث مرات، في كل ذلك يجيب علي على مثل ما كان أجاب به، ويجيب عثمان بمثل ما أجاب به، فقال: ابسط يدك يا عثمان فبسط يده فبايعه، وقام القوم وخرجوا وقد بايعوا إلاّ علي بن أبي طالب فإنه لم يبايع))[١].

وانفض الاجتماع وخرج عثمان على الناس - فيما يقول الشعبي - ووجهه متهلّل، وخرج علي - وخرج بالطبع معه صاحبنا وولده الحسن وقد شهدا فصول المأساة كلّها - وهو يقول لابن عوف: ((ليس هذا بأول يوم تظاهرتم علينا من دفعنا عن حقنا والاستئثار علينا.. الحديث))[٢].

وأخالكم تودون بعد هذا معرفة رأي المغيرة بن شعبة مولى أبي لؤلؤة - قاتل عمر - في هذه البيعة، إنه أقبل على عثمان فقال له: ((أما والله لو بويع غيرك لما بايعناه))[٣].

وكان من الطبيعي أن يجتمع بنو أميّة على مرشحهم بعد فوزه، كما يجتمع الهاشميون على الإمام(عليه السلام) للتداول في نتائج هذه الانتخابات، وسارع الخليفة الجديد إلى بيته قبل أن يواجه المسلمين ويصعد المنبر، واجتمعت عليه أسرته - فيما يحدّث الشعبي -: ((حتى امتلأت بهم الدار ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا قال: يا بني أميّة تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٤١٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

ما من عذاب ولا حساب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة))[١]. وكان جوابه من الخليفة أنه نهره وأمر بإخراجه و لم يصنع شيئاً آخر، مع أنه أفصح عن ارتداد بهذه اللغة البذيئة وحكم المرتد في الإسلام معروف.

وأمّا الهاشميون فقد اجتمعوا على الإمام(عليه السلام) - وكان ابن عباس في الطليعة بطبيعة الحال - فأعلن الإمام(عليه السلام) عن استيائه لهذه المقابلة الصريحة على إقصائهم عن حقهم فقال: ((يا بني عبد المطلب إن قومكم عادوكم بعد وفاة النبي كعداوتهم للنبي في حياته ، وإن يطع قومكم لا تُؤمّروا أبداً ، ووا الله لاينيب هؤلاء إلى الحق إلاّ بالسيف)). وتشاء الصدفة أن يدخل عبد الله بن عمر ويسمع هذا الكلام فيقول له: ((يا أبا الحسن أتريد أن تضرب بعضهم ببعض؟ فقال: اسكت ويحك، فوا الله لولا أبوك وما ركب مني قديماً وحديثاً، ما نازعني ابن عفان ولا ابن عوف))[٢].

وجاء المقداد بن عمرو في اليوم الثاني إلى الإمام(عليه السلام) وصادف في الطريق عبد الرحمن بن عوف ووضع يده في يده فقال له: ((إن كنت أردت بما صنعت وجه الله فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فأكثر الله مالك، فقال عبد الرحمن: اسمع رحمك الله اسمع قال: لا أسمع وا لله، وجذب يده من يده))[٣]. ودخل على الإمام(عليه السلام) فاستحثه على جهاد القوم. ودخل جندب بن عبد الله بعد أن سمع حديثاً بين المقداد وعبد الرحمن قال فيه عبد الرحمن: ((أما وا لله لقد أجهدت نفسي

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٤١١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

لكم))، وأجابه المقداد: ((أما والله لقد تركت رجلاً من الذين يأمرون بالحق وبه يعدلون، أما والله لو أن لي على قريش أعواناً لقاتلتهم قتالي إياهم ببدر وأحد))[١]. ونقله إلى الإمام(عليه السلام) ثم استحثّه على مجاهدتهم، فكان الإمام يصبّره ولا يجيبه إلى ذلك. ووقف عمار في قريش في ذلك اليوم وهو ينادي: ((يا معشر قريش إلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم، تحولونه ههنا مرّة وههنا مرّة، ما أنا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه في غيركم، كما نزعتموه عن أهله ووضعتموه في غير أهله، فقال له هشام بن الوليد بن المغيرة: ((يا ابن سميّة لقد عدوت طورك وما عرفت قدرك، ما أنت وما رأت قريش لأنفسها، إنك لست في شيء من أمرها وإمارتها، فتنح عنها، وتكلمت قريش بأجمعها فصاحت بعمار وانتهرته))[٢].

وبهذا الحديث انتهت صفحة من التأريخ وابتدأت صفحة جديدة، وعلى رأسها عثمان بن عفان.. فلنفتّش عن معالم ابن عباس فيها ولنقرأها في ضوء حديثه وانطباعاته عنها، ثم لنلمس حياته في غضونها ومدى ما كان له من نشاط.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢ : ٤١٢.

(٢) المصدر السابق.

مع الخليفة الثالث

(١)

وسار الخليفة الجديد في بدايته سيراً محبباً إلى الناس، فيه يسر وفيه دعة وفيه رفاهيّة، فقد أزاد في أعطيات المسلمين مائة مائة[1].

وإذا كانت الطبقة الأرستقراطيّة لا ترحّب كثيراً بهذه المائة لكثرة المئات لديها، فإن الرأي العام المسلم كان يراها كثيرة عليه، وجامل الطبقة الأرستقراطية فأطلق لها من الحريات ما عقله الخليفة السابق، وتركها تسيح في بلاد الله الواسعة، لا يصدّها عن التعرف على الناس في هذه المناطق النائية شدة عمر، ولا تمنعها صرامته عن الإتجار وإنماء ثرواتهم المكدّسة بما فتحت لهم من أسواق جديدة، إنماءً مشروعاً أو غير مشروع.

والغريب أن المسلمين لم ينكروا على خليفتهم الجديد ما أزاده من العطاء وما فسح لهم من حريّات، مع أن ذلك مخالف لشرط عبد الرحمن الأخير، فعمر لا يزيد بسيرته العطاء من بيت المال لا لسبب ظاهر إلاّ تحبيب نفسه إلى الرأي العام، وعمر كان لا يسمح لقريش أن تضرب في بلاد الله الواسعة . والظاهر أنهم اعتبروا هذا الشرط نافذ المفعول ما دام يدخل عليهم من الرغبات ما يشبع نفوسهم، أمّا إذا خالف رغباتهم فهم لا يرون لأنفسهم بداً من التسامح فيه، يقول الطبري: ((لم يمت عمر حتى ملّته قريش

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٥: ٤٥.

وقد كان حصرهم بالمدينة... إلى أن يقول: فلما ولي عثمان خلّى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر))[١].

وأخال أن هيأة المعارضة كانت منحصرة إذ ذاك بالحزب الهاشمي وعلى رأسهم الإمام(عليه السلام) والعباس وصاحبنا، وكانت خطتهم فيها ما أعلن عنه الإمام(عليه السلام) في حديث الشورى: ((والله لأسالمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلاّ عليَّ خاصة..))[٢] وأمور المسلمين في هذا التصرف - فيما كان يبدو- سالمة، فالمائة المائة التي وزعها عليهم كانت من حقوقهم المدّخرة، وليس على الإسلام من البأس أن يعجل المسلمون بأخذ بعض حقوقهم من بيت المال، وقد سبق للإمام(عليه السلام) حين استشاره عمر في تدوين الديوان أنه قال: ((تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً))[٣].

وكأنّه لاحظ أن توزيع المال بوقته وإيصاله إلى أهله يكون أقرب لإبعاد السلطة الحاكمة عن التهمة من قبل شعوبها، وآكد في إحداث الإلفة بينها، وأسلم لها من خطر التجاوز على ما في بيت المال لأتفه الأسباب. وخالفه عثمان في ذلك، وأخذ عمر برأي عثمان، وكانت بعض المفارقات التي سنعرض لها من نتائج هذا الرأي، وعلى هذا فالإمام(عليه السلام) - ومعه صاحبنا بالطبع - كان لايرى بأساً في إيصال هذه المائة إليهم لأنها من حقوقهم الخاصّة وقد أخّرت عنهم والتعجيل بها خيرٌ من التأخير.

---

(١) تأريخ الطبري ج ٥ : ١٣٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٢: ٦٠ - ٦١.

(٣) طبقات ابن سعد ج٣ قسم٢: ٣١٢.

وحبْس قريش لم يكن من رأي الإمام(عليه السلام)، فالإنسان حر في تصرفاته وليس لأحد أن يحدّ من هذه الحريّة، ما دام صاحبها لا يستعملها للإضرار بالآخرين، فإذا استعملها ساغ للسلطان أن يحافظ على حرية الآخرين منها، أمّا أن يعجل السلطان من الحدّ منها، فيكون من قبيل تعجيل العقوبة قبل الذنب، وكان يكفي للخليفة أن يعمل حزمه ويقظته بإرسال ضربته في وقتها المناسب، لا أن يعجل بها قبل الوقت، وفي فتحنا على أنفسنا هذا الباب تشريع للقضاء على الحريات من الأساس، ووضع سلاح بيد السلطة لا يقاوم في تنفيذ هذا التشريع، فالإمام(عليه السلام) -كما سنرى من سيرته وموقفه من بعض الصحابة في أيام خلافته - كان لا يتفق مع الخليفة الثاني في هذا الرأي، وربّما كان لذلك وشبهه إباؤه على عبد الرحمن -كما قدمنا - قبول اشتراطه لسيرة الشيخين في ضمن عقد البيعة، فليس إذاً على الإمام(عليه السلام) وصاحبه من البأس إذا لم ينكروا عليه هاتين المخالفتين؛ لأنهما لا يعترفان ابتداءً بهذا الشرط.

وإذا كنّا ننعى على الخليفة شيئاً فهو إطلاق سراحهم بدون مراقبة دقيقة لما يصدر عنهم من مفارقات، وسنرى - بعد حين - مدى تأثيرها على الإسلام ثم عليه أيضاً، وربّما يقال مثل هذا في بعض ما ورد عنه من مخالفات لسيرة صاحبيه، مما لم ينكر الإمام (عليه السلام) أو صاحبنا عليه شيئاً منه.

وكان أول إنكار للإمام(عليه السلام) عليه في ترك إقامته حدود الله تعالى على عبيد الله بن عمر لما قتل الهرمزان[1]، وهو رجل مؤمن لم تقم

---

(١) انظر الرياض النضرة ج٢: ١٨٦.

عليه أيّة بيّنة في المشاركة بقتل الخليفة، بل لم يحاكم إلى أحد من المسلمين ليسمع منه، وكانت هذه الجرأة من هذا الشاب مثاراً لنقمة واستياء كثير من المسلمين، و لم يجد الإمام(عليه السلام) فيها سلامة لأمورهم ؛ لتعطيلها حداً من حدود الإسلام، فأنكرها طبقاً لمنهجه الخاص له بالمعارضة.

ثم سارت الأمور سيراً هادئاً خلال سنوات، قد يرتفع بها بعضهم إلى ست سنوات، و لم تبخل المعارضة بمد يد العون إلى السلطة ما رأت ضرورة ذلك، حتى أن صاحبنا انتظم في جيش تحت قيادة عبيد الله بن أبي سرح لغزو أفريقية، ويقال: إنه لقي هناك جرجيراً ملك الغرب فتحدث إليه وأعجب بحديثه فأرسل فيه قوله: ((ما ينبغي إلاّ أن تكون حبر العرب))[1].

وشارك - فيما يقال - في غزو ((طبرستان وجرجان))[2] وكان في أثناء ذلك لا يترك رسالته في نشر أحاديث النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول ابن ربيع: ((دخل مصر في خلافة عثمان، وشهد فتح المغرب ولأهل مصر عنه أحاديث))[3].

وقد استغل هو وأستاذه الإمام(عليه السلام) فرصة ابتعادهم عن الحكم والانشغال بشؤون السياسة، فاتجهوا إلى تغذية الحركة العلمية وتوجيهها.

يقول السيد أمير علي - وهو يتحدث عن هذا العهد -:((وفيما كان الإسلام ينتشر وتخفق رايته على ربوع تلك الأمصار، كان علي بن أبي طالب يصرف جهوده في المدينة، لتوجيه نشاط العنصر العربي الناشئ إلى الناحية

---

(١) الموفقيات : ١٢٠.

(٢) تأريخ الطبري ج٥: ٥٨.

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي- مطبعة الموسوعات، مصر، لم تذكر سنة الطبع - ج٢: ٩٧.

العلميّة، فشرع مع ابن عمه عبد الله بن العباس في إلقاء محاضرات إسبوعيّة في المسجد الجامع في الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة والفقه))[١].

وأخال أنه يريد بالفلسفة والمنطق غير مدلوليهما المصطلح بشكله الواسع لدى العلماء، وإلا فما عهدنا في ذلك العصر لهذين العلمين أثراً يذكر، والظاهر أنهما دخلا لنا إلى الإسلام من اليونان بعد هذا العصر بكثير، وإن كان لبعض المسائل الفلسفية الإلهية خلاصة وافية في الكتاب العزيز ونهج الإمام مصبوبة بقوالب عربيّة خالصة لا تمتّ إلى النهج اليوناني بأيّة صلة.

والبلاغة كعلم من العلوم لم تؤسس في اللغة العربية إلاّ بعد عصور، وإن كانت في موادها الخام قديمة قدم البلاغة العربية. وما عدا ذلك فقد كانت مدرستهما عامرة بالحديث والفقه كما ذكر أمير علي.

وقد جلّى صاحبنا واشتهر ببعض العلوم كالتفسير، حتى لفت إليه أنظار كبار العلماء في هذا العهد، وقد قال عنه ابن مسعود: ((ولنعم ترجمان القرآن ابن عباس)) و ((لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عشره منا رجل))[٢].

وكان هذا الحزب - مع تجميده لنشاطه السياسي ومع اتجاهه العلمي - لا يألو جهده من إسداء النصيحة للخليفة الجديد ما سمح منه.. و لم يمنعه ما حدث بينهم وبينه من مباعدة من أن يبادروا إليه كلما احتاج إليهم لأخذ الرأي.

---

(١) مختصر تأريخ العرب والتمدن الإسلامي - نقله إلى العربية رياض رأفت، مطبعة لجنة التأليف، مصر، سنة الطبع ١٩٣٨م - : ٤٣.

(٢) كتاب المعرفة والتأريخ ج١: ٤٩٥.

هذا العباس - والد صاحبنا وزعيم الحزب بعد الإمام(عليه السلام) - يرسل عليه عثمان بعدما بويع بالخلافة فيدعوه إليه ثم يقول له:((لم أكن قط أحوج إليك مني اليوم))فيقول له العباس -وكأنه أدرك حاجته إلى نصيحته-: ((إلزم خمساً لا تنازعك الأمة خزائمها ما لزمتها، قال: وما هن؟ قال: الصبر عن القتل، والتحبّب، والصفح، والمداراة، وكتمان السر))[1].

وحفظ له الخليفة - فيما يبدو - هذه اليد وجزاها، حين سمع يوماً رجلاً يستخف بالعباس في منازعة، فأساءه ذلك وضربه الخليفة، فسئل عن أسباب ضربه فقال: ((نعم، أيفخّم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عمه، وأرخّص في الاستخفاف به، لقد خالف رسول الله(صلى الله عليه وسلم) من فعل ذلك، ومن رضي به منه))[2].

(٢)

وكانت هذه السنوات الست التي مضت على المسلمين، وعلى الطبقة الأرستقراطية منهم على الأخصّ - وقد طاف منهم من طاف في البلدان، وتعرف على مختلف العناصر المسلمة - كافية لأن تخلق للخليفة أحزاباً جديدة معارضة تطمع في الحكم، وترجو لأنفسها أن تصل إليه ولو بأي ثمن، وكان لترشيح عمر لبعضهم وإدخاله في الشورى ركيزة مهمة يعتمدونها لبلوغ

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٣٦.

(٢) المصدر السابق.

هذا الهدف، ولجمع الأنصار حولهم من مختلف البلدان، فأصبحنا نسمع مثلاً لطلحة جماعة يلتفون حوله، وللزبير جماعة يرجونها له.

وقد أدرك فيما بعد معاوية سر تكوّن هذه الأحزاب فقال - وقد سأل ابن حصين ما الذي شتت أمر المسلمين فأجابه بما لا يرضيه - فقال معاوية: ((أنا أخبرك، لم يشتت بين المسلمين ولا فرّق أهواءهم إلاّ الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر...)).. إلى أن يقول: ((فلم يكن رجل منهم إلاّ رجاها لنفسه ورجاها له قومه، وتطلّعت إلى ذلك نفسه، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف))[1].

على أن أمر هؤلاء كان هيناً لو أن الخليفة كان بمنجى عما يؤاخذ به مثله كإمام للمسلمين. وقد صدق بعد مدة قليلة من الزمن ظن عمر فيه، فحمل بني أميّة وآل أبي معيط على رقاب الناس، وولاّهم جملة ما لديه من ولايات مهمة، فمعاوية للشام وولاياتها كحمص وفلسطين والأردن، والوليد بن عقبة ثم سعيد بن العاص للكوفة وعبد الله بن أبي سرح لمصر وملحقاتها، وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز للبصرة[2]...وهكذا.

وكان كل واحد من هؤلاء - بما له من بعد عن فهم روح الإسلام وجرأة على أحكامه - كافياً لأن يفسد قلوب مَن حواليه من المسلمين، اللّهم إلاّ معاوية، فإنه تمكّن - من خلال إقامته بالشام والياً من قبل عمر ثم من قبل عثمان - أن يركّز نفسه بإنشاء جيل لا يعترف لغير الحكم الأموي، ولا يعرف من السابقين غير من يذكرهم واليه. وأن الشام -منذ فُتح في أيام

---

(١) العقد الفريد ج٢: ١٨٢.

(٢) انظر تأريخ الطبري ج٥: ٤٧، ٤٨، ٥٤.

أبي بكر - لم يشهد من الولاة غير يزيد بن أبي سفيان ثم أخيه معاوية، واستمر عليها إلى هذا العهد.

وقد أفصح معاوية عن لون تربيته لهذا الجيل في كلامه مع رؤساء الأحزاب الإسلامية يوم جاء إلى المدينة، يقول ابن قتيبة - بعد ذكر حديثه مع بعضهم -: ((ثم أقبل على عمار بن ياسر، فقال: يا عمار إن بالشام مائة ألف فارس كلّ يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون علياً ولا قرابته، ولا عماراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعداً ولا دعوته.. الحديث))(١).

وكانت الشام لذلك مأمناً من الأحداث الطارئة، وقد اتخذها الأمويون بمنزلة المنفى لمن يخشون سطوته من زعماء المسلمين، وقد بعّد إليها جماعة من زعماء الكوفة(٢) كما بعّد إليها أبو ذر من المدينة(٣) وكان يتخذ معاوية أساليب مغرية لإسكاتهم فإذا أعيوه وخشي من بقائهم على أهل الشام، بعّدهم عنه(٤).

وكان وجود هؤلاء الولاة وثقة الخليفة بهم - مع نقمة شعوبهم عليهم لاستهتارهم بمقدراتهم - أول سلاح قوي بيد المعارضة.

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ٢٧.

(٢) انظر أنساب الأشراف ج٥: ٤٣.

(٣) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٤٨.

(٤) انظر تأريخ الطبري ج٥: ٦٦.

شكى أهل الكوفة عاملهم سعيد بن العاص إلى خليفتهم، فلم يحفل بشكواهم مدة من الزمن، واجتمع ولاته من الأمصار فاستشارهم في الأمر، فكان رأي سعيد أن لا يحفل بالشكوى ويعمد إليهم فيجهّزهم في البعوث ((حتى يكون همّ أحدهم أن يموت على ظهر دابته)) يقول الراوي: ((فسمع مقالته عمرو بن العاص فخرج إلى المسجد)) فإذا بطلحة والزبير وهما من أصحاب الشورى، ومن رؤساء الأحزاب في المدينة، وكان الزبير قد جمع قلوب أهل الكوفة عليه، فقالا له: ((إلينا فصار إليهم فقالا: ما وراءك؟ قال: الشر، ما ترك شيئاً من المنكر إلاّ أتى به وأمر به، وجاء الأشتر فقالا له: إن عاملكم الذي قمتم فيه خطباء قد ردّ عليكم وأمر بتجهيزكم في البعوث وبكذا وبكذا، فقال الأشتر: وا لله قد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا به خطباء، فكيف وقد قمنا؟! وأيم ا لله على ذلك، لولا أني أنفدت النفقة وأنضيت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتى أمنعه دخولها، فقالا له: فعندنا حاجتك))[1] ثم أقرضاه مائة ألف درهم فقسّمها بين أصحابه، وسبق سعيد إلى الكوفة فصدّه عنها، وهكذا استفاد طلحة والزبير من الموقف وبذلا ما بذلا من الأموال لإقلاق الكوفة عليه.

وثاني الأسلحة التي استفاد منها المعارضون خروجه على سيرة النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) والخليفتين في توزيعه للأموال، فقد اختط لنفسه أخيراً منهجاً لا يرتبط بسيرته(صلى ا لله عليه وآله وسلم)، فلم يسوّ بينهم بالعطاء، ولا بسيرة عمر الذي وزع الأموال على أساس السابقة والقرب، وإذا سبق أن رحب الرأي العام المسلم بزيادته في أول خلافته

---

(١) مروج الذهب ج٢: ٢٢٦.

لما يدخل عليهم جميعاً من حقوقهم المدّخرة فإنهم - بالطبع - لا يرحّبون بخطته الجديدة التي تجعل المال كله للخليفة يتصرف به كيفما يشاء،.

وقد أفصح عن هذه الخطة في حديثه مع عامل الصدقات بالمدينة، حين دافعه عن تسليم المال إلى الحكم بن أبي العاص، قال: ((إنما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت، فقال: كذبت وا لله ما أنا لك بخازن ولا لأهل بيتك، إنما أنا خازن المسلمين، وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال: أيها الناس زعم عثمان أني خازن له ولأهل بيته، وإنما كنت خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم ورمى بها، فأخذها عثمان ودفعها إلى زيد بن ثابت))[١].

وبهذه الذهنيّة تحدّث سعيد بن العاص حين استقرضه واليها من قبل الخليفة الوليد بن عقبة فأقرضه ولما اقتضاه إياه، كتب الوليد في ذلك إلى عثمان،فكتب عثمان إلى عبد ا لله بن مسعود:((إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من مال)) يقول: ((فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال: كنت أظن أني خازن للمسلمين فأمّا إذاكنت خازناً لكم فلاحاجةلي في ذلك))[٢].

وجرياً على نهجه الجديد وزع على طبقة خاصّة منهم كميّات من المال ما كانوا ليحلمون بها قبل ذلك، فقد أعطى زيد بن ثابت عشرة آلاف دينار، وأعطى أزواج بناته الأربع كل واحد منهم مائة ألف دينار، وأعطى عبد ا لله بن الأرقم ثلاثمائة ألف فردّها تورعاً عن قبولها[٣].. وغيرها كثير،

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٤٥-١٤٦.

(٢) أنساب الأشراف ج٥: ٣٠-٣١.

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ج١: ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٣٥.

وكان لقرباه من ذلك كله نصيبها الأوفر. فالحكم بن أبي العاص طريد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كان من أنصبته - فيما يحدّث ابن عباس - ثلاثمائة ألف وهي ما جباه من صدقات قضاعة ووهبه إياها جملة، ولولده الحارث جملة ما ورده من إبل الصدقة ثم ثلاثمائة ألف درهم، ولمروان خمس أفريقية أو خمس الخمس، ولعبد الله بن خالد بن أسيد الأموي أربعمائة ألف درهم، ولمن وفدوا عليه معه مائة ألف مائة ألف، ولأزواج بناته الثلاث أو الأربع مائة ألف مائة ألف[1]، وفي رواية اليعقوبي أنه أعطى ابن خالد هذا بعد أن زوجه ابنته ستمائة ألف درهم[2] وكتب إلى عامله على البصرة أن يدفعها إليه من بيت المال، وأعطى أبا سفيان مائتي ألف، وفي يومها - فيما يروي ابن أبي الحديد -((أعطى مروان مائة ألف، فجاءه زيد بن الأرقم صاحب المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى، قال: أتبكي أن وصلت رحمي قال: لا ولكن أبكي لأني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله(صلى الله عليه وآله) والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً عليه، فقال: ألق بالمفاتيح يا ابن الأرقم فإنا سنجد غيرك))، ويقول: ((وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة فقسّمها كلّها في بني أمية))[3].. إلى ما هنالك من أعطياته الوافرة، هذا بالإضافة إلى ما وزّع عليهم وأقطع من الأراضي الشاسعة، وما حمى من الحما لإبله وإبل قومه.. إلى غير ذلك من أسباب ثرائهم الواسع.

---

(١) انظر أنساب الأشراف ج٥: ٢٧-٢٨، وشرح نهج البلاغة ج١: ٢٣٤.

(٢) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٤٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ج١ : ٦٦.

وقد تضاعفت على عهده - بفضل سياسته الماليّة، وما فسح لبعضهم من الاتجار وشراء الأراضي في الأقاليم الإسلامية الأخرى - ثروة جماعة من الرأسماليين في المدينة كالزبير بن العوام وقد قدرت ثروته لدى موته إحدى وخمسين أو اثنتين وخمسين ألف ألف[١] وكانت غلّة طلحة في العراق في كل يوم ألف وافٍ درهمٍ ودانقين[٢]، وقد قَدّر ابراهيم بن محمد بن طلحة قيمة ما تركه من العقار والأموال بثلاثين مليون درهم[٣]، وقد قال عنه عثمان: ((وَيلي على ابن الحضرمية - يعني طلحة - أعطيته كذا وكذا أبهاراً ذهباً وهو يروم دمي))[٤]. وعبد الرحمن بن عوف كان ما خلّفه من ذهب قطع بالفؤوس حتى ملجت أيدي الرجال منه[٥] وكذلك كان ما خلّفه زيد بن ثابت أمين ماله الجديد، فقد ذكروا أنه خلّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس أيضاً[٦]، عدا متروكاته من الأموال والضياع. أما الخليفة نفسه فقد قدّر ابن سعد في الطبقات ما نُهب من مال يوم قتله ((بثلاثين ألف ألف درهم، وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار))[٧]. هذا عدا ما خلّفه الأمويون الذين أثروا على عهده - بما حصلوا عليه من هبات الخليفة من بيت المال - ثراءهم المعروف.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج٣ قسم١: ٧٧.

(٢) انظر المصدر السابق ج٣: ١٥٧.

(٣) انظر المصدر السابق ج٣ قسم١: ١٥٧-١٥٨.

(٤) شرح نهج البلاغة ج٢ : ٤٠٤.

(٥) انظر طبقات ابن سعد ج٣ قسم١ : ٩٦.

(٦) انظر مروج الذهب ج٢: ٢٢٣.

(٧) طبقات ابن سعد ج٣ قسم١: ٥٣.

ولسنا بحاجة - فيما أخال - لأن نؤكد أن تزايد الثروات بيد طبقة خاصّة يكون وليد سوء التوزيع عادة الذي يُنتج بدوره حتماً طبقة تعاكسها مبالغة في الفقر، فإذا عرفنا أن أكثر هذه الأموال كانت من أنصبة المسلمين جميعاً بمقتضى التشريع الإسلامي الأولي - وأن الخليفة آثر بها هذه الفئات الخاصّة - أدركنا مدى نقمتهم جميعاً على هذه التصرفات، وما تنتجه هذه النقمة عادة من عوامل الثورة عليه.

وثالث أسلحة المعارضة هو ما اشترعه لنفسه من بعض الأحكام، كالإتمام بمنى، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والخليفتان، وشطراً من خلافته يقصرون بها، وقد بدا له أن يتم فأتم، وأثار استغراب أكثر المسلمين[1]، وكان ذلك من جملة ما طُعن عليه. يقول صاحبنا: ((إن أول ما تكلم الناس في عثمان ظاهراً أنه صلى بالناس بمنى في ولايته ركعتين، حتى إذا كانت السنة السادسة أتمها، فعاب ذلك غير واحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)))[2].

ومن الإنصاف له أن نقول: إنه لم يبتدع سنّة الخروج على الأحكام الأولية الإسلامية بل تأثر سنّة سابقة في ذلك، وقد سبق أن ذكرنا حديث ابن عباس عنه حين قال: ((سمعت عمر يقول: والله إني لأنهاكم عن المتعة وإنها لفي كتاب الله، ولقد فعلها رسول الله يعني العمرة في الحج))[3]. وقد علّل ذلك الخليفة عمر بقوله كما في حديث آخر: ((قد علمت

---

(١) انظر أنساب الأشراف ج٥: ٣٩.

(٢) تأريخ الطبري ج٥: ٥٦.

(٣) سنن النسّائي ج٥: ١٥٣.

أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد فعله وأصحابه، ولكن كرهت أن يظلوا معرّسين بهنّ في الأراك، ثم يروحون في الحج تقطر رؤوسهم))(١). ولكن الفارق بينهما أن الخليفة السابق كان يحسن اختيار المواقع التي يقدم على وضع تشريعه فيها، فلا يقدم إلاّ إذا وثق أن لتشريعه صدى استحسان في نفوس أكثر المسلمين. وقد رأينا مدى إنكارهم سابقاً على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه القضية حين صدع بها، فعن عائشة قالت: ((قدم رسول الله(صلى الله عليه وسلم) لأربع مضين من ذي الحجة أو خمس فدخل وهو غضبان فقلت: من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار قال: أوما شعرتِ إني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت... الحديث))(٢).

والسر في إنكارهم هو ما حدّثنا عنه صاحبنا قال: ((كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، ويجعلون المحرّم صفر ويقولون: إذا برأ الدبر وعفا الوبر وانسلخ صفر أو قال دخل صفر فقد حلّت العمرة لمن اعتمر، فقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه صبيحة رابعة مهلّين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعاظم ذلك عندهم.. الحديث))(٣).

فهذا التشريع - كما ترى - يتنافى مع ما قر في أعماقهم من رواسب تعتبرها في عرفهم من أفجر الفجور، وهذا هو السرّ في عدم إنكارهم

---

(١) صحيح مسلم ج٤: ٤٦.

(٢) المصدر السابق ج٤: ٣٣-٣٤.

(٣) سنن النسّائي ج٥: ١٨٠-١٨١.

على الخليفة تشريعه له، اللّهم إلاّ ما كان من أهل البيت(عليهم السلام) .
وما يقال في هذا يقال في أكثر تشريعاته الأخرى.

أمّا عثمان فما كان في تشريعه ما يستوجب الترحيب - وما يضر المسلم أن يصلي مقصراً ما دام لا يصدم ذلك عاطفة من عواطفه - وعلى العكس فإن ماكوّنه خلال اعتياده لهذا الطقس الديني خلق منه عقيدة يصعب التحلّل من مفعولها.

وتجري تشريعاته الأخرى التي استنكرت عليه كلها على هذا المجرى، وليس فيها ما يتقبله الرأي العام المسلم ليسلم من الإنكار عليه، وما يقال هنا يقال نفسه في تسامحاته في بعض الأحكام، كتغافله عن إقامة بعض الحدود، وجلبه لبعض أقربائه المبعدين من قبل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كالحكم بن العاص وولده، ونظائر ذلك مما لا يجد له الصدى الكافي في نفوس أكثرية المسلمين.

ورابع الأسلحة التي صالوا بها عليه موقفه الصارم من المعارضة وفيهم من أعاظم أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أمثال عمار وأبي ذر وابن مسعود وغيرهم، وفيها من كبار زعماء الأمصار أمثال مالك الأشتر وغيره. واستعمال مختلف الوسائل الإرهابيّة لإخضاعهم كالتهديد والنفي والضرب والسب والأمر بالقتل، وما شابه ذلك من أساليب التخويف، حتى اتسع الخرق عليه، وأجمعت المعارضة - على اختلاف أهدافها وبرامجها - على الوقوف منه موقفها الصارم.

وأخال أن المهم لدينا في هذا البحث - وقد لخّصنا الأسس التي كان يستند عليها المعارضون على اختلاف بواعثهم - أن نعرف مدى نشاط

الحزب العلوي في ذلك، وموقف أقطابه من هـذه السياسـة وبخاصّـة صاحبنـا وأستاذه الإمام(عليه السلام).

(٣)

وأرجو أن لا ننسى منهاجهم في المعارضة ((لأسالمنّ مـا سـلمت أمـور المسلمين و لم يكن فيهـا جـور إلاّ علـيّ خاصّـة)). وأمـور المسـلمين في هـذه السياسة التي انتهجها أخـيراً غـير سـالمة ؛ لمنافـاة أكثرهـا للكتـاب و السنـّة، فكان من الطبيعي أن لايسكت الإمام(عليه السلام) على هذه الأحـداث وأن ينصح للخليفة جهده في أن يكفّ عنها، وكـان مـن الطبيعـي أن لا يسـكت معه تلميذه وابن عمه، وكان ذلك مما يغيظ عثمان وبطانته أمثال مروان بـن الحكم وغيره من الأمويـين، وكـانت هـذه البطانـة لا تفتـأ عـن العمـل علـى توسيع الشقة بينهما ؛ لما تعلم من أن صاحبها إذا سمع لعلي(عليه السلام) أو استجاب له لم يعد لها إلى العبث بمقدرات المسـلمين مجـال، فكـانوا يغرونـه بعلـي(عليه السلام) بأساليب عاطفيـّة تنفـذ إلى أعماقـه - وهـو شـيخ كبـير - يقـول ابـن عبـاس فيما يروي الطبري: ((قد كان وا لله علي له صاحب صدق حتى أوغر نفـس علـي عليـه، جعـل مـروان وسـعيد وذووهمـا يحملونـه علـى علـي فيتحمـل، ويقولون: لو شاء مـا كلّمـك أحـد، وذلـك أن عليـاً كـان يكلّمـه وينصحـه ويغلظ في المنطق في مروان وذويه، فيقولون لعثمان: هكـذا يسـتقبلك وأنـت أمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته فما ظنك بما غاب عنك منه))[1].

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٣٩.

وقد جرّهم هذا الوضع إلى شئ من العتاب كاد ينهيهم إلى خير لولا موقف مروان منه. يقول ابن عباس فيما يروي الواقدي: ((شهدت عتاب عثمان لعلي يوماً، فقال له في بعض ما قاله: نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً، فلعهدي بك وأنت تطيع عتيقاً وابن الخطاب طاعتك لرسول الله(صلى الله عليه وآله) ولست بدون واحد منهما، وأنا أمسّ بك رحماً وأقرب إليك صهراً، فإن كنت تزعم أن هذا الأمر جعله رسول الله(صلى الله عليه وآله) لك، فقد رأيناك حين توفي نازعت ثم أقررت، فإن كانا لم يركبا من الأمر جداً، فكيف أذعنت لهما بالبيعة وبخعت بالطاعة؟! وإن كانا أحسنا فيما وليا - ولم أقصر عنهما في ديني وحسبي وقرابتي - فكن لي كما كنت لهما)) .

وأخال أن الإمام(عليه السلام) لم يرتح لعتاب عثمان هذا ؛ لتجاهله لحقّه في الخلافة بتعبيره عنها بالزعم، ونسبته إليه، فكأن هذا الأمر كان مجهولاً لدى الصحابة جميعاً، ثم ولهذه المقارنة بينه وبين سابقيه، ورجاء أن يسويّه بهم لادعائه مساواته في الدين والحسب، ثم هذه الرحم الماسّة التي أقحمها في حديثه ؛ ليؤثر بها عليه من طريق العاطفة، كل ذلك مما دفعه وأثاره للجواب على نقطة نقطة من هذا الحديث.

قال عليه السلام: ((أما الفرقة فمعاذ الله أن أفتح لها باباً وأسهلّ إليها سبيلاً، ولكنيّ أنهاك عما ينهاك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدك، وأما عتيق وابن الخطاب فإن كانا أخذا ما جعله رسول الله(صلى الله عليه وآله) لي فأنت أعلم بذلك والمسلمون))(١) .

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٣٩٧ نقلاً عن الواقدي.

وإذاً المسألة ليست مسألة زعم ينسب القول به إليه خاصّة، وإنما هو أمر معروف يعرفه الخليفة نفسه ويعرفه المسلمون، وكيف يجهلونه وعهدهم بحادثة الغدير ليس ببعيد؟! ثم عاد وكأنّه يجاريه بمنطقه ويمهد بذلك للإجابة على هذه المقارنة بسابقيه: ((ومالي ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين، فإما أن لا يكون حقي بل المسلمون فيه شرع فقد أصاب السهم الثغرة، وإما أن يكون حقي بدونهم فقد تركته لهم، طبت به نفساً ونفضت يدي عنه استصلاحاً)) يقول صاحبنا: ثم قال: ((وأما التسوية بينك وبينهما فلست كأحدهما، إنهما وليا هذا الأمر فظلما أنفسهما وأهلهما عنه، وعمت فيه وقومك عوم السابح في اللجّة))، ثم رقّ له الإمام(عليه السلام) ولطّف من لهجته في إرشاده فقال: ((فارجع إلى الله أبا عمرو، وانظر هل بقي من عمرك إلاّ كظم الحمار، فحتى متى وإلى متى لا تنهي سفهاء بني أميّة عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم.. والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس، لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك)). وكان لهذا الكلام أثره الكبير في نفسه، يقول ابن عباس: ((فقال عثمان: لك العتبى، وأفعل وأعزل من عمالي كل من تكرهه ويكرهه المسلمون))، ثم افترقا، فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك وقال: ((يجترئ عليك الناس فلا تعزل أحداً منهم))[1].

ويبدو أن ابن عباس كان نشيطاً في حزبه وكان لا يقيم لأوامر الخليفة التي لا تتفق ومبادئه أيّما وزن.

غضب عثمان على عبد الرحمن بن عوف حين قال له - وقد رأى منه بعض ما اعتبره من منافيات شروط بيعته التي عقدها له -: يا ابن عفان

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢ : ٣٩٧-٣٩٨ نقلاً عن الواقدي.

لقد صدّقنا عليك ما كنا نكذّب فيك، وإني أستعيذ با لله من بيعتك، فأمر بإخراجه من المجلس ونهى الناس عن مجالسته فامتنعوا إلاّ صاحبنا فإنه لم يجد مبرراً لهجره فظل على مواصلته له[١]. وقد لاقى عبد الرحمن هذا لائمة المسلمين ومخاصمة حزب صاحبنا على اختياره لصاحبه، وحمّل مسؤولية ما قام به من أعمال منافية حتى قال له الإمام(عليه السلام) يوماً على أثر وفاة أبي ذر بالربذة: ((هذا عملك! فقال عبد الرحمن: إذا شئت فخذ سيفك وآخذ سيفي، إنه قد خالف ما أعطاني))[٢]. وكان عبد الرحمن يقول في مرض موته: ((عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكه))[٣]، وتوفي وهو مغاضب له.

وقد اتهم الخليفة صاحبنا بتأليب الناس عليه، يقول البلاذري فيما أخرجه عن عبد ا لله بن عباس: ((إن عثمان شكا علياً إلى العباس فقال له: يا خال إن علياً قد قطع رحمي، وألّب الناس ابنك، وا لله لئن كنتم يا بني عبد المطلب أقررتم هذا الأمر في أيدي بني تيم وعدي، فبنو عبد مناف أحق أن لا تنازعوهم فيه ولا تحسدونهم عليه)) يقول صاحبنا: ((فأطرق أبي طويلاً ثم قال: يا ابن أخت لئن كنت لا تحمد علياً فما يحمدك له، وإن حقّك في القرابة والإمامة للحق الذي لا يُدفع ولا يُجحد، فلو رقيت فيما تطأطأ، أو تطأطأت فيما رقى، تقاربتما، وكان ذلك أوصل وأجمل، قال: قد صيّرت الأمر في ذلك إليك فقرّب الأمر بيننا)) تقول الرواية: ((فلما خرجنا

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج١: ٦٦.

(٢) أنساب الأشراف ج٥: ٥٧.

(٣) المصدر السابق .

من عنده دخل عليه مروان فأزاله عن رأيه))[١]. فالخليفة هنا - كما ترون - يتهم صاحبنا بتأليب الناس عليه بقوله: ((وألّب الناس ابنك)) ولا يدفع هو عن نفسه هذه التهمة، وإن كنت أخال أن تأليبه كان لا يتعدى تحسس الشعور والنقد البريء، وهي خطة الحزب.

وكانت للخليفة في أعوامه الأولى من الستة الباقية من عمره - وهي التي شغلت حديثنا الآن - من الأحداث ما يتنافى مع مبادئهم المعروفة، فكانوا - كما قلنا - ينكرونها عليه، وكان هو وحزبه الأموي يضيقون بهذا الإنكار.

ومعارضة أبي ذر لسياستهم - وهو من أهم رجالات حزب الإمام(عليه السلام)، ومن ذوي السابقة والمكانة العالية في الإسلام، وشهادات النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) له لايمكن أن يتجاهلها أحد من المسلمين في ذلك العهد - كانت في تلكم الأيام، وقصته معهم نموذج من أعلى النماذج للنضال العقائدي، نسوقها كمثل من الأمثلة على جهاد هذا الحزب في تلكم الأيام.. يقول البلاذري: ((لما أعطى عثمان مروان بن الحكم ما أعطاه، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم، جعل أبو ذر يقول: بشّر الكانزين بعذاب أليم، ويتلو قول الله عز وجل: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة**..الآية﴾[٢]، فرفع ذلك مروان بن الحكم إلى عثمان فأرسل إلى أبي ذر نائلاً مولاه: أن انته عما بلغني عنك، فقال: أينهاني عثمان عن قراءة

---

(١) أنساب الأشراف ج٥: ١٣ - ١٤.

(٢) التوبة: ٣٤.

كتاب الله، وعيب من ترك أمر الله، فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي وخير لي من أن أسخط الله برضاه)). فالمسألة في خطوطها الأولى معارضة هذا الصحابي الجليل تنطوي على إنكار هذا التصرف في مقدرات المسلمين، وادّخار هذه الأموال من قبل قابضها، وهي لا تحل لهم لأنها مما تزيد على حقوقهم في هذا المال، فأخذها لابدّ أن يكون أخذاً في غير حله، وتصرّفهم فيها تصرّف ما لا يملكون، وفي ادّخارها حبسٌ لها عن الوصول إلى مستحقيها من عامّة المسلمين، وهذا بالطبع مما يستحق من مثل أبي ذر وحزبه أعظم الإنكار، وما يهمه بعد ذلك أن يغضب عثمان أو لا يغضب، ما دام لا يريد أن يسكت عن كلمة الحق مهما كلّفه ذلك، يقول البلاذري: ((وقال عثمان يوماً: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال فإذا أيسر قضى؟ فقال كعب الأحبار: لابأس بذلك، فقال أبو ذر: يا ابن اليهوديين أتعلّمنا ديننا، فقال عثمان: ما أكثر أذاك لي وأولعك بأصحابي، إلحق بمكتبك))[1].

وأخالكم تذكرون موقف كعب هذا من الخليفة السابق في المؤامرة عليه، ولعلّه يتضح بذلك سر التزام حزب بني أميّة له، حتى صيروه من أصحاب الخليفة، يسدد من خطواته، ويفتيه بما أحب، وكيف يخفى مثل ذلك على أبي ذر فيسكت عليه؟!.. أوَليس مال المسلمين موضوعاً لمصالحهم، والخليفة من قبيل القيّم عليه؟ فهل يجوز للقيّم أن يتصرف بمال غيره في غير التماس لمصلحة تعود إلى أرباب المال أنفسهم؟ مع ما في ذلك عادة من تعريضه للخطر، وعهدنا - بقرض الوليد بن عقبة من بيت مال الكوفة، وموقف الخليفة منه - ليس ببعيد، حتى كان ما كان من أمرهم

---

(١) أنساب الأشراف ج٥: ٥٢.

مع ابن مسعود وغيره كما مر، وكان جزاؤه من ذلك الإنكار أن حُرم من عطائه وسُيّر به إلى الشام فأراد معاوية أن يترضاه بالمال، فقال أبو ذر لحامله إليه: ((إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها)). وبعث إليه الفهري صاحب معاوية بمائتي دينار فقال: ((أما وجدت أهون عليك مني حين تبعث إليّ بمال.. وردّها)).

ووقف منهم بالشام موقفاً صارماً ؛ لما رأى لديهم من كثرة المفارقات. بنى معاوية داره الخضراء بدمشق فهال ذلك أبا ذر فقال: ((يا معاوية إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة وإن كانت من مالك فهذا الإسراف)) وكان يقول: ((والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا سنّة نبيّه، والله إني لأرى حقاً يُطفأ وباطلاً يُحيى وصادقاً يُكذّب وأثرة بغير تُقى وصالحاً مُستأثراً عليه))[1] .

وضاق معاوية بمعارضة أبي ذر فكتب إلى عثمان في أمره فأجابه: ((أمّا بعد فاحمل جندباً إليّ على أغلظ مركب وأوعره))، فوجّه معاوية مَن سار به الليل والنهار، يقول البلاذري: ((فلما قدم أبو ذر المدينة جعل يقول: تستعملون الصبيان وتحمي الحمى وتقرّب أولاد الطُلقاء))[2]، فسيّره عثمان إلى الربذة وحرّم على الناس مشايعته والحديث معه، ولكنّ الإمام (عليه السلام) - فيما يحدّث صاحبنا - وبعض أقطاب حزبه لم يجدوا لهذا التحريم مبرراً، فخرجوا لمشايعته، وضربوا بذلك أعلى الأمثال في التضامن على إنكار المنكر في حدود ما حدّدوه لهم من نهج.

---

(١) أنساب الأشراف ج٥: ٥٣.

(٢) المصدر السابق.

وكان لمروان موقف ، وللخليفة موقف من الإمام(عليه السلام) ذكره صاحبنا ورواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن الجوهري[١]. كما روى الموقف المؤثر الذي وقفه الإمام(عليه السلام) وجماعته من أبي ذر في توديعهم له وجواب أبي ذر لهم واحداً واحداً.. مما لا نطيل بذكره الآن.

والمهم أن نذكر أن أبا ذر كان ينطق بلسان حزبه في إنكاره عليهم وكان إنكاره منصباً على هذه الفئة التي أثْرت من أموال المسلمين ثراءً غير مشروع، وسنرى - في منهج الإمام(عليه السلام) عند بيعته - تصريحه في تأميم أموال من أثرى على عهد عثمان من هبات الخليفة وأعطياته المعروفة من بيت المال، تلافياً لما أحدثه التصرف من الخليفة في الأمة من مفارقات.

والظاهر أن صاحبنا لم يستمر على المجاهرة بنقد الوضع القائم، وإن شارك الصحابة بالرأي، وذلك لوصيّة صدرت من أبيه إليه، أن لا ينطق بالحديث عنه حتى يرى ما لابدّ منه، يقول الزبير بن بكّار من حديث عن صاحبنا: أنه كان عند أبيه وكانوا على مائدة العشاء إذ أُوذنوا بقدوم الخليفة عليهم واستئذانه في الدخول يقول عبد الله: ((فأذن له وأوسع له على فراشه، وأصاب من العشاء معه، فلما رُفع قام من كان هناك، وثبتّ أنا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا خال فإني قد جئتك أستعذرك من ابن أخيك علي، سبّني، وشهّر أمري، وقطع رحمي، وطعن في ديني، وإني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب، إن كان لكم حق تزعمون أنكم غُلبتم عليه فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم، وأنا أقرب إليكم رحماً منه، وما لمت منكم أحداً إلاّ علياً، ولقد دعيت أن أبسط يدي عليه فتركته

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج٢: ٣٧٥.

لله والرحم، وأنا أخاف أن لا يتركني فلا أتركه)) يقول صاحبنا: ((فحمد أبي الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا ابن أختي فإن كنت لا تحمد علياً لنفسك، فإني أحمدك لعلي، وما علي وحده قال فيك بل غيره، فلو أنك اتهمت نفسك للناس، اتهم الناس أنفسهم لك، ولو أنك نزلت مما رقيت وأرتقوا مما نزلوا فأخذت منهم وأخذوا منك ما كان بذلك بأس، قال عثمان: فذلك إليك يا خال وأنت بيني وبينهم قال: أفأذكر لهم ذلك عنك؟ قال: نعم وانصرف)). يقول عبد الله: ((فما لبثنا أن قيل هذا أمير المؤمنين قد رجع بالباب، قال أبي: إئذنوا له فدخل فقام قائماً، ولم يجلس وقال: لا تعجل يا خال حتى أوذنك، فنظرنا فإذا مروان بن الحكم كان جالساً بالباب ينتظره حتى خرج، فهو الذي ثناه عن رأيه الأول، يقول: فأقبل عليّ أبي وقال: يا بُني ما إلى هذا من أمره شيء، ثم قال: يا بُني املك عليك لسانك حتى ترى ما لابدّ منه))[1]. وكان هذا الحديث - فيما يروي الزبير - قبل وفاة العباس بأسبوع.

وفي مرض العباس - فيما يروي أبو حيان التوحيدي عن الجاحظ[2] - وصيّة للعباس مطوّلة أوصى بها علياً عليه السلام ونصح له بالمسألة، وقد أعرضنا عنها لما يبدو عليها من أثر الصناعة التي لا تناسب جوها بحال، بالإضافة إلى بعض مضامينها القلقة، وقد جاء فيها مما يتعلق بصاحبنا ((فعلى ذلك فقد أوصيت عبد الله بطاعتك، وبعثته على متابعتك، وأوجرته محبتك))[3].

---

(١) الموفقيات: ٦١١.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ج٣: ٢٨٢.

(٣) المصدر السابق ج٣: ٢٨٣.

وقد اشترك صاحبنا والإمام(عليه السلام) في تغسيل العباس[١].

(٤)

ولاحظ الخليفة على صاحبنا صمته وسكوته عن ملاحقته فيما جدّ لديه من أحداث، مع علمه بأن مثله لا يرتضي مثلها بحال، فشكر له موقفه، وبدأ يستنصحه ويستشيره، قال مرّة وقد أمسك به بعد أن انصرف عنه حضّار مجلسه: ((يا ابن عمي ويا ابن خالتي فإنه لم يبلغني عنك في أمري شيء أحبه ولا أكرهه عليّ، ولا لي، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا وقد أحببت أن تعلمني فيما بيني وبينك فأعتذر))[٢].

قال ابن عباس - وقد أوقفه الخليفة أمام أمر واقع -: ((يا أمير المؤمنين إنك قد ابتليتني بعد العافية، وأدخلتني في الضيق بعد السّعة)).. إلى أن يقول: ((والله لوددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك، فإن كان شيئاً تركاه لما رأيا أنه ليس لهما، علمت أنه ليس [لك] كما [ليس] لهما، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذي نيل منك تركته لما تركاه له، ولم يكونا أحق بإكراه أنفسهما منك بإكراه نفسك)) قال الخليفة: ((فما منعك أن تشير عليّ بهذا قبل أن أفعل ما فعلت؟)) قال ابن عباس: ((وما علمي أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل))[٣].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج٤ قسم١: ٢٢.

(٢) الإمامة والسياسة ج١: ٢٩.

(٣) المصدر السابق.

ويطلب الخليفة منه بعد ذلك أن يصمت، فيصمت.

ويخال أن في صمته هذا خروجاً على مبادئ حزبه، فيصحح صاحبنا له وجهة نظره فيه، ويصرّح أمامه أنه ما يزال مع الإمام(عليه السلام) في كلّ ما يراه.

يقول ابن عباس - فيما يروي الزبير في الموفقيات -: ((صلّيت العصر يوماً ثم خرجت، فإذا أنا بعثمان بن عفان في أيام خلافته في بعض أزقّة المدينة وحده، فأتيته إجلالاً وتوقيراً لمكانته، فقال لي: هل رأيت علياً، قلت: خلّفته في المسجد، فإن لم يكن الآن فيه فهو في منزله، قال: أمّا منزله فليس فيه فابغه لنا في المسجد، فتوجهنا إلى المسجد وإذا علي عليه السلام يخرج منه، قال ابن عباس: وقد كنت ذلك اليوم عند علي فذكر عثمان وتجرّمه عليه وقال: أما والله يا ابن عباس إن من دوائه لقطع كلامه وترك لقائه، فقلت له: يرحمك الله كيف لك بهذا، فإن تركته ثم أرسل إليك فما أنت صانع؟ قال: أعتل وأعتل فمن يقسرني؟ قال: لا أحد، قال ابن عباس: فلما تراءينا له وهو خارج من المسجد ظهر منه من التفلّت والطلب للانصراف ما استبان لعثمان، فنظر إليَّ عثمان وقال: يا ابن عباس أما ترى ابن خالنا يكره لقاءنا فقلت: ولِمَ ، وحقك ألزم، وهو بالفضل أعلم، فلما تقاربا رماه عثمان بالسلام فردّ عليه، فقال عثمان: إن تدخل فإياك أردنا، وإن تمض فإياك طلبنا، فقال علي: أي ذلك أحببت؟ قال: تدخل، فدخلا وأخذ عثمان بيده فأهوى به إلى القبلة فقصّر عنها وجلس قبالتها فجلس عثمان إلى جانبه، فنكصت عنهما، فدعواني جميعاً فأتيتهما، فحمد عثمان الله وأثنى عليه وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد يا ابني خالي وابني عمي فإذ جمعتكما

في النداء فأستجمعكما في الشكاية على رضائي عن أحدكما ووجدي على الآخر، إني أستعذركما من أنفسكما، وأسألكما فيأتكما وأستوهبكما رجعتكما، فوالله لو غالبني الناس ما انتصرت إلاّ بكما، ولو تهضّموني ما تعززت إلاّ بعزّكما، ولقد طال هذا الأمر بيننا حتى تخوفت أن يجوز قدره ويعظم الخطر فيه، ولقد هاجني العدوّ عليكما وأغراني بكما، فمنعني الله والرحم مما أراد، وقد خلونا في مسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله) وإلى جانب قبره، وقد أحببت أن تظهرا لي رأيكما وما تنطويان لي عليه، وتصدقا فإن الصدق أنجى وأسلم، وأستغفر الله لي ولكما))(١).

فالخليفة هنا راضٍ عن أحدهما وواجد على الآخر، وبالطبع إن هذا الرضا كان من نصيب صاحبنا خاصة، وقد أدرك ما يريد من وراء هذا الكلام، فقطع على صاحبه طريق الاستفادة منه، وكان لابدّ من الجواب على كل نقطة نقطة منه، يقول ابن عباس: ((فأطرق علي وأطرقت معه طويلاً، أمّا أنا فأجللته أن أتكلم قبله، وأمّا هو فأراد أن أجيب عني وعنه، ثم قلت له: أتتكلّم أم أتكلّم أنا عنك؟ قال: بل تكلّم عني وعنك. فحمدت الله وأثنيت عليه وصلّيت على رسوله، ثم قلت: أمّا بعد يا ابن عمّنا وعمّتنا فقد سمعنا كلامك لنا وخلطك في الشكاية بيننا، على رضاك - زعمت - عن أحدنا ووجدك على الآخر، وسنفعل في ذلك فنذمّك ونحمدك اقتداءً منك بفعلك فينا، فإنّا نذم مثل تهمتك إيانا على ما اتّهمتنا عليه بلا ثقة إلاّ ظناً، ونحمد منك غير ذلك من مخالفتك عشيرتك، ثم نستعذرك من نفسك استعذارك إيانا من أنفسنا، ونستوهبك فيأتك استيهابك أيانا فيأتنا،

---

(١) الموفقيات: ٦١٤-٦١٥.

ونسألك رجعتك مسألتك إيانا رجعتنا..)) إلى أن يقول من حديث طويل: ((وأمّا مساءلتك إيّانا عن رأينا فيك وما ننطوي عليه لك، فإنّا نخبرك أن ذلك إلى ما تحب، لا يعلم واحد منا من صاحبه إلاّ ذلك، ولا يقبل منه غيره، وكلانا ضامن على صاحبه ذلك وكفيل به، وقد برّأت أحدنا وزكّيته، وأنطقت الآخر وأسكتّه، وليس السقيم منّا مما كرهت بأنطق من البريء فيما ذكرت، ولا البريء منا مما سخطت بأظهر من السقيم فيما وصفت، فإما جمعتنا في الرضا وإما جمعتنا في السخط لنجازيك بمثل ما تفعل بنا في ذلك مكايلة الصاع بالصاع، فقد أعلمناك رأينا، وأظهرنا لك ذات أنفسنا، وصدقناك والصدق -كما ذكرت- أنجى وأسلم))[1].

وأعجب الإمام(عليه السلام) فيما يبدو صراحته وقوة منطقه واستيعابه لنقاط الحديث، فنظر إليه نظر هيبة -كما تقول الرواية- وعلّق عليه بحديث عقّب عليه عثمان، وما افترقوا حتى أخذ صاحبنا بيديهما فتصافحا وتصالحا. وكما كان مروان سفير السوء بين الإمام(عليه السلام) وعثمان، كان ابن عباس سفير الخير بينهما، يقارب من خطوهما،ويعمل جاهداً على ملء ما يحدثه الانتهازيون بينهما من فجوات.

قال عثمان له يوماً - وكان في ثورة نفسية عارمة -: ((مالي ولكم يا ابن عباس! ما أغراكم بي وأولعكم بتعقب أمري!)) ثم انحدر بكلام طويل فيه لوم وفيه تقريع، فلطّف من جوّه ابن عباس قليلاً قليلاً، وقال فيما قال: ((فما دعاك إلى هذا الأمر الذي كان منك؟ قال: دعاني إليه ابن عمك علي بن أبي طالب، فقال ابن عباس: وعسى أن يكذب مبلغك،

---

(١) الموفقيات :٦١٦ .

قال عثمان: إنه ثقة، قال ابن عباس: إنه ليس بثقة من بلّغ وأغرى، قال عثمان: يا ابن عباس ألله إنك ما تعلم من علي ما شكوت منه؟ قال: اللّهم لا إلاّ أن يقول كما يقول الناس، وينقم كما ينقمون، فمن أغراك به وأولعك بذكره دونهم؟))[١].

وكان عثمان ما يزال غاضباً يهدر بكلام جاء فيه: ((إني أنشدك يا ابن عباس الإسلام والرحم، فقد والله غُلبت وابتليت بكم، والله لوددت أن هذا الأمر كان صار إليكم دوني، فحملتموه عنّي، وكنت أحد أعوانكم عليه، إذن والله لوجدتموني لكم خيراً مما وجدتكم لي، ولقد علمت أن الأمر لكم، ولكن قومكم دفعوكم عنه واختزلوه دونكم، فوالله ما أدري.. أدفعوه عنكم أم دفعوكم عنه؟))[٢].

ومسّ هذا الكلام عواطف ابن عباس، وبلغ موضع العقدة منه، فثار إلى الجواب بلغة لا تخلو من عنف، وبخاصة بعد أن صدر من الخليفة هذا الاعتراف بحقهم بالخلافة ((ولقد علمت أن الأمر لكم)) قال: ((مهلاً يا أميرالمؤمنين فإنّا ننشدك الله والإسلام والرحم، مثل ما أنشدتنا، أن تُطمِع فينا وفيك عدواً، وتشمت بنا وبك حسوداً، إن أمرك إليك ما كان قولاً، فإذا صار فعلاً فليس إليك ولا في يديك، وإنا والله لنخالفنّ إن خولفنا ولننازعنّ إن نوزعنا، وما تمنيك أن يكون الأمر صار إلينا دونك إلاّ أن يقول قائل منا ما يقوله الناس ويعيب كما عابوا!))[٣].

---

(١) الموفقيات: ٦٠٥.

(٢) المصدر السابق:٦٠٦.

(٣) المصدر السابق .

ثم عاد بعد هذا التهديد والتبكيت إلى غمزة الخليفة في التعقيب على اعترافه بحقهم ((ما أدري أدفعوه عنكم)) وهو في ثورته: ((فأمّا صرف قومنا عنا الأمر فعن حسد قد والله عرفته، وبغي قد والله علمته، فالله بيننا وبين قومنا! أمّا قولك: إنك لا تدري أدفعوه عنا أم دفعونا عنه فلعمري إنك لتعرف أنه لو صار إلينا هذا الأمر ما زدنا به فضلاً إلى فضلنا ولا قدراً إلى قدرنا، وإنا لأهل الفضل..)) إلى آخر ما جاء في حديثه..، وما نقض عثمان عليه بعد ذلك شيئاً من كلامه هذا، وإنما عاد إلى تقريعه، فاستمهله ابن عباس ريثما يلقى الإمام(عليه السلام) فيسمع حجته ليسعى بالصلح بينهما. ولهذه المواقف نظائر لانطيل بذكرها.. وفي شرح نهج البلاغة لها صور فلتراجع هناك[1].

(٥)

وزادت الفجوة بين المعارضة وحزب الخليفة، واتسعت معالمها باتساع المفارقات التي كانت تصدر من الفئة الحاكمة، وتضيف إلى الأحزاب المعارضة أنصاراً جدداً؛ حتى لم يبق للخليفة رصيد شعبي يعتمده للساعة الرهيبة.

وكانت أهم خطوة جريئة قامت بها المعارضة بعثها بكتاب موقّع من أصحاب الشورى وبقية المهاجرين إلى من قام بمصر من الصحابة والتابعين، يستنهضونهم للحدّ من تصرفات الخليفة، ويستحثّونهم على الثورة عليه،

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج٢: ٣٩٥-٣٩٦ .

جاء فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم من المهاجرين الأولين وبقية الشورى، إلى من بمصر من الصحابة والتابعين أما بعد.. أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يُسلَبَها أهلها، فإن كتاب الله قد بُدّل، وسنّة رسوله قد غُيّرت وأحكام الخليفتين قد بُدّلت فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان إلاّ أقبل إلينا، وأخذ الحق لنا وأعطاناه، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيكم، وفارقكم عليه الخلفاء. غُلبنا على حقنا، واستولي على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة، وهي اليوم ملكاً عضوداً من غلب على شئ أكله))(١).

وربّما وُجهت صور منه إلى مَن بالكوفة والبصرة من الصحابة والزعماء وقد أخرجه مالك الأشتر - وهو من زعماء الكوفة - محتجاً به على طلحة والزبير حين منّاهما الخليفة أن يعطيهما النصف من نفسه وأرادا تهدئة الوضع، يقول الراوي: ((فقام مالك الأشتر فقال: أليس هذا كتابكم إلينا؟!))(٢).

والظاهر أن هذا الكتاب كان له أثره الكبير في إلهاب النفوس وتحفيزها للنهوض؛ لما فيه من لغة عاطفية مثيرة. وأيّ مؤمن بالله واليوم الآخر يكتب له كبار الصحابة وبقية الشورى بأن ((كتاب الله قد بُدّل، وسنة رسوله قد غُيّرت)) فلا يثار لهذا التبديل والتغيير؟!.. فإذا أضفت إلى ذلك نقمة المبعوث إليهم وغيرهم من أهل الأمصار على الفئات الحاكمة عندهم ؛ لاستئثارهم

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ٣٣-٣٤ .

(٢) المصدر السابق ج١: ٣٤ .

بجلّ مقدّراتهم، وتحكّمهم في رقابهم من دون دالّة لهم عليهم، من سابقة أو جهاد.. اللّهم إلاّ قربهم من الخليفة، أدركت مدى أثره، وهكذا كان.

فقد أقبلت وفود الأمصار من الكوفة والبصرة ومصر، واجتمعوا في المدينة ناقمين، واستغلت المعارضة وجودهم أبشع استغلال، اللهم إلاّ ما كان من حزب الإمام(عليه السلام) وصاحبنا، فقد وقف موقفاً مشرفاً في تهدئة الخواطر والعمل على استصلاح الفئة الحاكمة، وكاد بذلك يحبط كل مؤامرة تحاك على الخليفة، ولولا وجود مروان ونظائر مروان من بطانته لانتهى اجتماع المؤتمرين في صالح الأمة جمعاء.

وكان من أشد الأحزاب عليه حزب طلحة، وله من تأييد السيّدة عائشة - وهي من أشد الناس علقة به ؛ لقرابتها منه - رصيد قوي، وما كانت هذه السيّدة لتدّخر من جهدها للعمل ضد الخليفة حتى كانت تصيح: ((اقتلوا نعثلاً فقد كفر))[1].

وكان من ذلك أن اجتمع حول طلحة جماهير من أهل الأطماع خشي الخليفة منهم على نفسه، فاستنجد بالإمام(عليه السلام) لتفريقهم عنه، يقول الطبري فيما يروى: ((فدخلنا - يعني هو والإمام - دار طلحة بن عبيد الله وهي رجاس من الناس، فقام إليه فقال: يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه؟ فقال: يا أبا الحسن بعدما مسّ الحزام الطبيين، فانصرف علي ولم يحر إليه شيئاً حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوا هذا الباب...)) ثم أخرج ما فيه من مال ووزّعه على الناس، وأقبل من كان مع طلحة لأخذ نصيبهم منه وبقى طلحة وحده، فاضطر أن يقبل على عثمان معتذراً،

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٧٢، وتأريخ ابن الأثير ج٣: ١٠٢

يقول المحدّث: ((فقال عثمان: إنك والله ما جئت تائباً ولكنك جئت مغلوباً، الله حسيبك يا طلحة))(١).

ولما اشتدّت وطأة المصريين على الخليفة، وبعث إليهم من يترضّاهم فعادوا خائبين، استنجد بالإمام(عليه السلام) من جديد، يقول البلاذري: ((وأتى المغيرة بن شعبة -والمصريون محيطون بدار عثمان- فقال له: دعني آت القوم فأنظر ما يريدون، فمضى نحوهم، فلما دنا منهم صاحوا به: يا أعور وراءك، يا فاجر وراءك، يا فاسق وراءك، فرجع. ودعا عثمان عمرو بن العاص فقال له: ائت القوم فادعهم إلى كتاب الله والعتبى مما ساءهم، فلما دنا منهم سلّم، فقالوا: لا سلّم الله عليك، ارجع يا عدو الله، ارجع يا ابن النابغة، فلست عندنا بأمين ولا مأمون، فقال له ابن عمر وغيره: ليس لهم إلاّ علي بن أبي طالب، فلما أتاه قال: يا أبا الحسن ائت هؤلاء القوم فادعهم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، قال - الإمام -: نعم إن أعطيتني عهد الله وميثاقه على أنك تفي لهم بكل ما أضمنه عنك، قال: نعم))، ولم يكتف الإمام(عليه السلام) بهذا القول دون أن أخذ عليه أوكد المواثيق وأغلظها، ثم ((خرج إلى القوم فقالوا: وراءك قال: لا بل أمامي، تعطون كتاب الله وتعتبون من كل ما سخطتم، فعرض عليهم ما بذل عثمان، فقالوا: أتضمن ذلك عنه؟ قال: نعم قالوا: رضينا)).

ونجح الإمام(عليه السلام) بسفارته هذه، وجاء إلى الخليفة بوجوههم وأشرافهم، فأعتبهم عثمان من كل شيء، فقالوا: اكتب بهذا كتاباً فكتب: ((بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله عثمان أمير المؤمنين

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٥٤.

لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين.. إن لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنّة نبيّه، يعطى المحروم، ويؤمّن الخائف، ويردّ المنفيّ، ولا تجمّر البعوث، ويوفّر الفيء، وعلي بن أبي طالب ضمين للمؤمنين والمسلمين على عثمان بالوفاء بما في هذا الكتاب))(١). ثم أشهد عليه جماعة منهم الزبير وطلحة وسعد وغيرهم، وتفرق المصريون عنه.

وأراد الإمام(عليه السلام) - تتميماً لرسالته - أن يلطّف من جوّه في نظر الرأي العام الساخط عليه، فدعاه إلى أن يخطب في الناس، ويعلن لهم ندمه على ما وقع منه، وخطب فأقرّ بما فعل، واستغفر الله منه، وتكلم بكلام رقّ له الناس، وبكى له من بكى منهم، ثم عاد إلى البيت، وإذا بمروان يعنّفه على موقفه ذاك وإعلانه التوبة، ويقول فيما يقول: ((والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوّف عليها))(٢)، ولم يزل به حتى أمره أن يخرج إلى الناس فيكلّمهم عنه، يقول الطبري: ((فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنّكم قد جئتم لنهب، شاهت الوجوه...الخ))(٣). وغضب الناس فأقبلوا على الإمام (عليه السلام) فأقبل على عثمان مغضباً وهو يقول: ((أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلاّ بإفساد دينك وخديعتك عن عقلك؟! وإني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك..الخ))(٤)

---

(١) أنساب الأشراف ج٥: ٦٣-٦٤، وانظر تأريخ ابن خلدون - اعتناء علاء الفاسي، مطبعة النهضة، مصر، سنة الطبع ١٩٣٦م - ج٢: ٣٩٦-٣٩٧.

(٢) تأريخ الطبري ج٥: ١١١.

(٣) المصدر السابق ج٥: ١١٢.

(٤) أنساب الأشراف ج٥: ٦٥.

وأنّبته بعد خروج الإمام(عليه السلام) نائلة بنت الفرافصة زوجته، وقالت له فيما قالت: ((قد سمعت قول علي بن أبي طالب في مروان، وقد أخبرك أنه غير عائد إليك، وقد أطعت مروان ولا قدر له عند الناس ولا هيبة. فبعث إلى علي فلم يأته))(١). ويبدو أن الخليفة ضعف عن تدبير الأمر وألقى الزمام إلى مروان وغيره من بطانته، يوجهونه كيفما يشاؤون، وكانت مهمتهم الأولى هي إبعاد الشقة بينه وبين الإمام(عليه السلام) وقد استغلوا هتاف الجماهير لعلي(عليه السلام) بالخلافة منفذاً ينفذون منه إلى أعماق الخليفة، حتى أنهم استصدروا منه أمراً لإخراج الإمام(عليه السلام) عن المدينة، ثم عادوا - تحت ضغط الرأي العام - فطلبوا إليه العودة إليها لتهدئة الثائرين، ثم طلب إليه الخليفة أن يخرج من جديد، وكان حامل الرسالة إليه في هذه المرة ابن عباس يقول صاحب نهج البلاغة: ((ومن كلام له (عليه السلام) قاله لعبد الله بن عباس وقد جاءه برسالة من عثمان، وهو محصور يسأله الخروج إلى ماله بينبع، ليقلّ هتف الناس باسمه للخلافة بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل، فقال (عليه السلام): يا ابن عباس ما يريد عثمان إلاّ أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب، أقبل وأدبر، بعث إليّ أن أخرج ثم بعث إليّ أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إليّ أن أخرج، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً))(٢).

وفي العقد الفريد عن ابن عباس أنه قال: ((أرسل إليّ عثمان فقال لي: اكفني ابن عمك، فقلت له: إن ابن عمي ليس بالرجل يُرى له، ولكنه يرى لنفسه، فأرسلني إليه بما أحببت، قال: قل له فليخرج إلى ماله بينبع فلا أغتمّ

---

(١) أنساب الأشراف ج٥: ٦٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٣: ٢٨٢.

به ولا يغتمّ بي، فأتيت علياً فأخبرته، فقال: ما اتخذني عثمان إلاّ ناضحاً، ثم أنشد يقول:

فكيف به إنّي أداوي جراحه　　　فيدوى فلا ملّ الدواء ولا الداءُ

... إلى أن يقول: فخرج علي إلى ينبع))[١].

(٦)

ولكن الإمام(عليه السلام) - مع ذلك - لم يغير من سياسته تجاه عثمان، فلم يشترك في تحريض عليه و لم يأذن بثورة مسلحة ضده، حتى أن المصريين - وقد عثروا على الراكب الذي كان معه كتاب عثمان بقتل بعضهم وصلب آخرين - استأذنوا أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في العودة إلى عثمان فأذنوا لهم، إلاّ الإمام(عليه السلام).. يقول عمر بن الأصم: ((كنت فيمن أرسلوا من ذي خشب، فقالوا: سلوا أصحاب النبي(صلى الله عليه وسلم) واجعلوا علياً آخر من تسألونه، قال: فسألناهم فقالوا: أقدموا إلاّ علياً فإنه قال: لا آمركم، فإن أبيتم فبيض سيفرّخ))[٢]، وكان يهدّدهم بما سيعقب حركتهم هذه من أخطار.

وتأزّم الموقف بعد عودة المصريين ((واشتد طلحة بن عبيد الله - فيما يقول البلاذري - في الحصار، ومنع أن يدخل إليه الماء، حتى غضب علي بن أبي طالب من ذلك، فأدخلت عليه روايا الماء))[٣].

---

(١) العقد الفريد ج٢: ١٩٣.

(٢) أنساب الأشراف ج٥: ٧١ .

(٣) المصدر السابق .

وأشرف عثمان يوماً على الثائرين فسأل عن علي عليه السلام فأجابوه أنه ليس حاضراً، فقال: ألا أحد يبلّغه فيسقينا ماءً، يقول الراوي: ((فبلغ ذلك علياً فبعث إليه بثلاث قرب مملوءة ماءً، فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أميّة حتى وصلت))(١).

وكان - في أثناء الحصار - يصلي صاحبنا بالناس أحياناً(٢).

وحان موعد الحج وخشي الخليفة إن أمّر أحداً من قرابته على الحاج أن لا يستجيب إليه الناس، وربّما حدثت من أجل ذلك مناوشات بين السلطة وبين بعضهم، قد لا تنتهي إلى خير، فرأى أن يتلافى الأمر ابتداءً باختيار رجل لا يتمارى أحد في الانقياد له، وكان هذا الرجل هو عبد الله بن عباس فانتدبه لهذه المهمة.

يقول عبد الله: ((قال لي عثمان: إني قد استعملت خالد بن العاص بن هشام على مكة، وقد بلغ أهل مكة ما صنع الناس، وأنا خائف أن يمنعوه الموقف فيأبى، فيقاتلهم في حرم الله جلّ وعزّ وأمنه وقوماً جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم فرأيت أن أولّيك أمر الموسم))(٣) وكان لابدّ له أن يمرّ على الإمام (عليه السلام) ؛ ليخبره، ويمرّ فلا يمانع في سفره، ويتأهّب للحج ويخرج.

وهي أول مرّة يتولى فيها إمارة هامة كهذه، وفي الصلصل - وهي موضع بنواحي المدينة على سبعة أميال منها - التقى عائشة،

---

(١) أنساب الأشراف ج٥: ٦٨-٦٩.

(٢) انظر الرياض النضرة ج٢: ١٦٢.

(٣) تأريخ الطبري ج٥: ١٤٠.

وكانت قد خرجت إلى الحج قبله فقالت: ((يا ابن عباس أنشدك الله - فإنك قد أُعطيت لساناً إزعيلاً - أن تخذّل عن هذا الرجل، وأن تشكك فيه الناس، فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم))[١]، وفي لفظ البلاذري: ((إن الله قد آتاك عقلاً وفهماً وبياناً، فإياك أن تردّ الناس عن هذا الطاغية))[٢].

ومن طريف المفارقات أنها حاولت أن تقنع ابن عباس لجرّه إلى حزبها الذي كانت تعمل له، وتعتقد أنه لابد أن يتولى الحكم بعد مقتل هذا الخليفة، فقالت - كما في رواية الطبري -: ((وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح، فإن يلِ يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر (رض))). يقول ابن عباس: فقلت: ((يا أمّه لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلاّ إلى صاحبنا، فقالت: إيهاً عنك إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك))[٣].

وفي مكة التقى خالد بن العاص فعرض عليه أمر عثمان، وطلب إليه أن يحج بالناس فأبى وقال: ((هل لي طاقة بعدواة من ترى؟ فأبى أن يحج، وقال: فحج أنت بالناس، فأنت ابن عم الرجل - يعني علياً - وهذا الأمر لا يفضي إلاّ إليه، وأنت أحق أن تحمل له ذلك يقول: فحججت بالناس))[٤].

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ٦٨-٦٩.

(٢) أنساب الأشراف ج٥: ٧٥.

(٣) تأريخ الطبري ج٥: ١٤٠.

(٤) المصدر السابق.

وأخال أن ابن عباس كان في طليعة من ملؤوا هذا المنصب كفاءة وحسن إدارة وأداء لأهم وظائفه، وقد استغلّ وجود هذه الجماهير المجتمعة من مختلف البلدان، فدأب على إفادتها، وهو من نعرف عمق ثقافة وسعة أفق، وقد كشف في مواقفه الخطابيّة عن قدرة نادرة في فن الخطابة لا تكاد تُجارى، يقول أبو وائل: ((خطب ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة البقرة فجعل يقرؤها ويفسّرها، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله لو سمعته فارس والروم لأسلمت))[1].

وفي روايته الأخرى أن ذلك كان عام قتل عثمان، وفيها سورة النور بدل سورة البقرة[2]، وقد يكون سماعه له أكثر من مرّة في هذا الموسم، وفي كل مرة كان يقرأ من القرآن شيئاً غير ما قرأه أولاً ويفسّره.

وفي إحدى خطبه وافاه نافع بن طريف بكتاب من عثمان، يستنجد به من حضر الحج من المسلمين، ففسح له المجال لإلقائه بنفسه، فألقاه عليهم حتى إذا أتمه نافع مضى ابن عباس بخطبته،ولم يعرض - فيما يقول ابن قتيبة - لشيء من شأنه[3]. كما أنه لم يحدّث أحد عنه أنه عرض لكتاب عثمان - الذي أرسله معه وألقاه قبل التروية بيوم - بشيء من التعليق[4]، ولعلّه كان يائساً من جدوى ما يأتي به من حديث، بعدما تأزّمت الحوادث عليه، وتكثّرت الأحداث منه ومن بطانته، على نحو لا يمكن الاعتذار عنها بحال.

---

(١) البداية والنهاية ج٨: ٣٠٣.

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر الإمامة والسياسة ج١: ٣٤ .

(٤) انظر تأريخ الطبري ج٥: ١٤٢.

وعاد بعد أن أنهى حجّه إلى المدينة ؛ ليستقبل أحداثاً هامّة تكاد تستأثر بأهم ما له من تأريخ وأولها مقتل عثمان وبيعة الإمام (عليه السلام).

مع الإمام علي في خلافته

(١)

أمّا متى وصل المدينة فهنا تختلف الأخبار وتضطرب، فالذي يظهر من بعضها أنه وصل قبل أن تتم بيعة الإمام(عليه السلام) بأيام[١]. وفي بعضها أنه حضر اجتماع الناس عليه في الدار، يطالبونه بالحضور لبيعتهم وهو يقول: ((لا تفعلوا، فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً))، وهم يقولون: ((لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، فيقول الإمام(عليه السلام): ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفيا، ولا تكون إلاّ عن رضى المسلمين))[٢]. يقول سالم بن أبي الجعد: ((فقال عبد الله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يُشغب عليه، وأبى هو إلاّ المسجد، فلمّا دخل، دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس))[٣].

وهذه الرواية تحدد في بدايتها مجيء الناس إليه حين مقتل عثمان، يقول محمد بن الحنفية - فيما يروي عنه سالم بن أبي الجعد -:

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٥: ١٦٥.

(٢) المصدر السابق ج٥: ١٥٢.

(٣) المصدر السابق.

((كنت مع أبي حين قُتل عثمان، فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وسلم)..الخ))[1]. وكما يبدو منها أن صاحبنا كان حاضراً معهم، وكان في لهفة لإتمام الأمر لبطله بأسرع صورة، فهو لا يرضى بالتأخير حتى يجتمع الناس في المسجد ؛ لئلاّ يُشغب عليه.

وأخال أن هذه الرواية لا تصحّ بحال، فما كان ابن عباس بهذه السذاجة ليرضى لبيعة صاحبه أن تتمّ في البيت وفي مثل هذه السرعة، وهو يعلم أنها جاءت على أعقاب ثورة شعبية عارمة، أطاحت بخليفة له أنصاره ومواليه، وفيهم الطامع في الحكم كمعاوية بن أبي سفيان، وله من طاعة أهل الشام رصيد لا يستهان به، وفي الثائرين والمحرّضين والساكتين من يرجوها لنفسه، أو يرجوها له أصحابه، أمثال طلحة والزبير وابن عمر وسعد، ولكل منهم حزب يعمل له.

ولو كان صاحبه من الانتهازيين أو الوصوليين الذين يعبرون إلى مآربهم من أي طريق لهان الأمر، ولقلنا إنه أراد له أن يتشبث بالحكم، ثم يعود فيمكّن له منه بمختلف الوسائل، أما وصاحبه الإمام (عليه السلام)، وهو من يعرف مدى واقعيته بما خبر من خلقه، وعهده ليس ببعيد بإبائه على عبد الرحمن بن عوف أن يضيف إلى شرط البيعة كلمة لا يؤمن بالالتزام بها، وهي سيرة الشيخين، مع أنه كان يستطيع أن يعبر من طريق التغافل عنها إلى الحكم الهادىء المستقر.

ومن الطبيعي جداً أن الإمام(عليه السلام) لم يقبلها إلاّ بعد أن اضطروه إليها اضطراراً، وتدافعها المرشحون واحداً واحداً،

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٥٢.

ووجدوا فيه المنقذ الوحيد لهذه الأمّة من أزمتها، و لم يقبلها إلاّ بعد أن لوّح لهم بمبادئه المعروفة.. يقول سيف: ((فقالوا لهم - يعني الثائرين -: دونكم يا أهل المدينة فقد أجّلناكم يومين، فوا لله لئن لم تفرغوا لنقتلنّ غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً، فغشي الناس علياً، فقالوا: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى، فقال علي: دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، فقالوا: ننشدك ا لله ألا ترى ما نرى؟! ألا ترى الإسلام؟!ألا ترى الفتنة؟! ألا تخاف ا لله؟! فقال: قد أجبتكم لما أرى، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنّما أنا كأحدكم إلاّ أني أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم))(١).

ومع ذلك لم يجئ إلى الحكم إلاّ بعد أن وقف الزبير فأعلن ترشيح ذوي الرأي للإمام(عليه السلام) بخطبته التي قال فيها: ((أيها الناس إن ا لله قد رضي لكم الشورى، فأذهب بها الهوى وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه))(٢).

وتمت البيعة للإمام(عليه السلام) في المسجد بعد خمسة أيام من مقتل عثمان - على تقدير رواية سيف - وجاء صاحبنا - كما تصرّح بقيّة الروايات - بعد تمام البيعة له، و لم يشهدها كما تصرّح هذه الرواية.

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٥٦.

(٢) الإمامة والسياسة ج١: ٤٤.

(٢)

وما أخال أن ابن عباس - وقد سرّه عودة حقهم في الحكم إليهم على يد بطله بعد أن أخرجوهم عنه، وعرفنا مدى ما تركه هذا التأخير في نفسه من انفعالات - ليجهل أن الأمر لم يأتهم هنيئاً ميسّراً، بل جاءهم وهو في زحمة من الأزمات والمشاكل، وأمامه زحمة أخرى عبّر عنها الإمام (عليه السلام) فأبلغ بقوله: ((فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان،لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول)).

فطبيعة الثورة التي قضت على سلفه، وجاءت به إلى الخلافة رغماً، لم تكن ثورة على شخص بعينه، وإنّما كانت ثورة على أسلوب في الحكم ونظام في الإدارة، تمثل بذلك العهد وعلى يد هذا الخليفة، ثم على مفاهيم للعدالة الاجتماعيّة استحدثت من قبل القائمين بالحكم، ولم توافق كتاب الله ولا سنّة نبيّه ولا سيرة الشيخين.

وكان على الإمام الجديد إذا أراد القضاء على جذور الثورة، وإعادة الاستقرار إلى الأمة، أن يعمل على تغيير التشكيلة الإداريّة التي كانت مبعث الشكوى والنقمة من قبل الشعوب، ثم إلى تصحيح المفاهيم التي حُوّرت لصالح الحكام، بعد أن كانت مشرّعة لصالح الجمهور، فكان لابدّ للإمام (عليه السلام) أن يسارع إلى تطهير جهاز الحكم، وإحلال طبقة صالحة نزيهة تطمئن إليها النفوس مكانها، فيعزل الحكام والولاة من بني أميّة،

الذين استغلّوا قربهم من الخليفة للعبث بمقدّرات الناس، وكانوا من أهمّ مصادر الثورة السابقة عليه.

وما أخال أن الرأي العام - وكان هو المالك لزمام الموقف بعد - ليرضى للخليفة الجديد بغير هذا الحلّ مهما كلّف الأمر، فكيف إذا كانت طبيعة الخليفة الجديد تأبى عليه أن يداهن أو يصانع مثل هؤلاء؟!.

وصاحبنا وهو مَن هو بصراً بالسياسة، وغوصاً على دقائق الأمور، لم يكن ليرضى لأميره - عادة - الصبر على أمثال هؤلاء؛ ليكون إقرارهم ولو إلى أمد أقوى حجة بيد الانتهازيين وخصوم الإمام (عليه السلام)، وربّما استغل بعضهم لإثارة الرأي العام عليه وهو بعد متهيئ للثورة، فكيف إذا كان لأميره هذه الطبيعة التي لا تعرف المداهنة والمصانعة في ذات الله؟! وهو أعرف الناس بها ؛ لكثرة ما خبر من خلقه منذ عاشره وهو طفل، واتخذ منه بطلاً يتأثر حركاته وسكناته، فكان لابدّ لصاحبنا - لو استشير في إبقائهم من قبل الإمام(عليه السلام) - أن لا يشير عليه بذلك أصلاً، ولكنّ كثرة من الرواة يأبون عليه ذلك، فيجعلونه من موافقي المغيرة بن شعبة، الذي أشار على الإمام(عليه السلام) أن يبقي الولاة على مواضعهم - ولا أقلّ من إبقاء معاوية - حتى يستحكم له الوضع، يحدّث بعضهم عنه أنه قال: ((دعاني عثمان فاستعملني على الحج، فخرجت إلى مكة، فأقمت للناس الحج وقرأت عليهم كتاب عثمان إليهم، ثم قدمت المدينة وقد بويع لعلي، فأتيته في داره فوجدت المغيرة بن شعبة مستخلياً به، فحبسني حتى خرج من عنده، فقلت: ماذا قال لك هذا؟! فقال: قال لي قبل مرّته هذه: أرسل إلى عبد الله بن عامر وإلى معاوية وإلى عمال عثمان بعهودهم، تقرّهم على أعمالهم ويبايعون

لك الناس، فإنهم يهدّئون البلاد ويسكّنون الناس، فأبيت ذلك عليه يومئذ وقلت: والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي ولا ولّيت هؤلاء، ولا مثلهم يولّى، قال ثم انصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنه يرى أني مخطيء، ثم عاد إليّ الآن فقال: إني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت عليك وخالفتني فيه، ثم رأيت بعد ذلك رأياً، وأنا أرى أن تصنع الذي رأيت، فتنزعهم وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله، وهم أهون شوكة مما كان، قال ابن عباس: فقلت لعلي: أمّا المرة الأولى فقد نصحك وأمّا المرة الآخرة فقد غشّك، قال له علي: ولِمَ نصحني؟ قال ابن عباس: لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلّبون عليك فينتفض عليك أهل الشام وأهل العراق مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرّا عليك، فقال علي: أما ما ذكرت من إقرارهم، فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا لإصلاحها، وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان، فوالله لا أولي منهم أحداً أبداً، فإن أقبلوا فذلك خيرٌ لهم، وإن أدبروا بذلت لهم السيف، قال ابن عباس: فأطعني وادخل دارك والحق بمالك بينبع وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم؛ ليحملنّك الناس دم عثمان غداً، فأبى علي فقال لابن عباس: سر إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس: ما هذا برأي، معاوية رجل من بني أميّة، وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقي لعثمان، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسني، فيتحكّم عليَّ، فقال له علي: ولِمَ؟ قال: لقرابة ما بيني وبينك، وإن كل ما حُمل

عليك حُمل عليٌّ، ولكن اكتب لمعاوية فمنّهِ وعِدْهُ، فأبى علي وقال: والله لا كان هذا أبداً))(١).

وهذا المضمون موجود في عدّة روايات، وإن اختلفت أساليبها في الأداء وفي الزيادة والنقيصة، كأن تنقص بعضها إشارته عليه بالخروج إلى ماله بينبع، وتزيد ((فقلت: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست بأرِب بالحرب ؛ أما سمعت رسول الله يقول: الحرب خدعة، فقال علي: بلى، فقال ابن عباس: أما والله لئن أطعتني لأصدرن بهم بعد ورود، ولأتركنّهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها، في غير نقصان عليك، ولا إثم لك، فقال: يا ابن عباس لست من هنياتك وهنيات معاوية في شيء، تشير عليَّ وأرى، فإذا عصيتك فأطعني، قال: فقلت: أفعل، إن أيسر ما لك عندي الطاعة))(٢).

وما أدري أيصحّ نسبة مثل هذا الكلام إلى ابن عباس؟! وهو يرى أمام عينيه أن نقمة الشعوب وثورتها على عثمان لم تكن لتحدث لو أصاخ عثمان لرأي الثائرين بتبديل ولاتهم من بني أميّة، ومثل هؤلاء هل يقبلون من الخليفة الجديد أن يقرّ سياسة سابقة في الاحتفاظ بالولاة أنفسهم؟ وما شأن المصريين أو البصريين - مثلاً - والمدينة ما تزال تعجّ بجماهيرهم الناقمين على ولاتهم، ومفتاح الثورة ما يزال بأيديهم، إذا علموا بأن أصحابهم الذين نقموا منهم ما يزالون ولاة يستطيعون التحكم برقابهم إذا عادوا إلى بلادهم؟ ثم أيصحّ نسبة مثل هذا الكلام إليه؟ وهو يقترح على الإمام(عليه السلام)

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٥٩-١٦٠.

(٢) المصدر السابق ج٥: ١٦١.

أن يترك المدينة؟! وما أدري كيف يتركها الإمام(عليه السلام) وقد قبل من رعاياه بيعتهم، وعاهدهم وعاهدوه على السير بهم على كتاب الله وسنّة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)؟!.. وماذا يكون جوابه لهم إذا كاتبوه بعهده و لم تبدر منهم أيّة بادرة من عصيان أو تمرّد؟!.. يقول: أخضعوا لي معاوية وغيره من الولاة، وأنا أعود إليكم، أم ترى أن هؤلاء الولاة إذا علموا ذلك بادروا مسرعين وقدّموا له البيعة عن يد وهم صاغرون؟!.

ومثل هذا الكلام كان يمكن أن يقال قبل أن تتم البيعة للإمام (عليه السلام) أو في أثناء الثورة ؛ لتضعف حجّة الأمويين في توجيه التهمة إليه بالمشاركة فيها على صاحبهم على أنها لا تضعفها بحال ؛ لأن أصحابها لا يريدون معرفة الجاني حقيقة، وإنما يريدونه أن يكون هو الإمام مهما كلف الأمر؛ ليتمّ لهم إبعاده عن الحكم، ولديهم من وصوليتهم ما يبيح لهم أفانين الكذب والتمويه.

ولكن ابن عباس لم يقل هذا الكلام في وقته، بل أشار على الإمام(عليه السلام) بالبقاء، وخالف أسامة بن زيد في رأيه، يقول البلاذري: ((وقال أسامة بن زيد بن حارثة لعلي بن أبي طالب: والله يا أبا الحسن والله لأنت أعزّ عليَّ من سمعي وبصري، فأطعني واخرج إلى أرضك بينبع، فإن عثمان إن قتل وأنت بالمدينة رُميت بدمه، وإن أنت لم تشهد أمره لم يعدل الناس بك، فقال ابن عباس لأسامة: يا أبا محمد أتطلب أثراً بعد عين؟! أبَعْدَ ثلاثة من قريش ينبغي لعلي أن يعتزل؟!))[1].

---

(١) أنساب الأشراف ج٥: ٧٧.

والطبيعي في الحادثة - فيما أخال - أن ابن عباس سأل الإمام (عليه السلام) عن رأي المغيرة فلما كشف له عن وجهي نظره قال له: غشك في الأولى ونصحك في الثانية، على العكس مما جاء في هذا الحديث، وقد غُيِّر الحديث وزُيِّد فيه ؛ ليسلم لأعداء الإمام(عليه السلام) من الوضاعين أن يُسمِعوا الناس نقد سياسة الإمام(عليه السلام) من لسان ابن عمه وأعز الناس عليه، وسنسمع لهذا نظائر، والذي يؤيد هذا ما حدّث به البلاذري: من أن المغيرة بن شعبة أشار على علي(عليه السلام) بأن يثبّت معاوية على الشام، ويولّي طلحة والزبير مصري العراق ؛ ليستقيم له الأمر، وأن عبد الله بن عباس عارض هذا الرأي بأن البصرة والكوفة هما عين المال ومصدر الفيء، فإذا وليهما هذان الشيخان ضيّقا على الخليفة المقيم بالمدينة، وبأن ولاية معاوية للشام تضر علياً(عليه السلام) أكثر مما تنفعه.. يقول: فاستمع علي لرأي ابن عباس ولم يقبل مشورة المغيرة بن شعبة[1]. ولنا وقفة عند رأيه في طلحة والزبير فيما يأتي من حديث.

(٣)

وكانت الخطوة الثانية للإمام(عليه السلام) - وقد تكون هي الأولى في تقدّمها الزماني - هي تغيير تلك المفاهيم المستحدثة للعدالة الاجتماعية، والعودة بها إلى التشريعات الأولية الإسلامية، التي كان يستوي عندها الناس بما لهم من طبقات مزعومة لا يعترف بها الإسلام.

---

(١) انظر أنساب الأشراف ج٢: ٢٠٩.

وكانت نظرة الإمام(عليه السلام) في منتهى الأصالة حين وضع يده على أساس الداء فعالجه بقوة وصرامة وصراحة.

وأساس الداء في ذلك كلّه، هو سوء التوزيع للموارد الاقتصادية بين المسلمين، حتى أحدث ما أحدث من تفاوت طبقي كبير وثروات طائلة بيد فئة خاصة، تقابلها فئة أخرى مسرفة بالعوَز والفاقة والفقر، وهي معرّضة لإفراغ نقمتها على السلطة - منشأ فقرها - في أي وقت، وكان مبعث هذا التفاوت في بدايته هو الخليفة الثاني - كما قدّمنا - وقد سبق لنا أن ذكرنا أنه لمس بيديه ما أحدثه تشريعه من مفارقات بين المسلمين، فقال قولته: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسّمتها على فقراء المهاجرين))(١).

ثم جاء الخليفة الثالث فوجد الباب أمامه مفتوحاً، فنفذ منه بعد أن وسّعه وغيّر فيه إلى ما تحدّثنا عنه من سياسته المالية المعروفة، التي شاركت في تعجيل مصيره المحتوم، فكان لابدّ للإمام(عليه السلام) أن يسارع إلى إعلانها حرباً شعواء على أولئك الذين أثروا على حساب الآخرين إثراءً غير مشروع حرصاً على إعادة ما فقده المجتمع من التوازن، ورفعاً لما دخل على الطبقة الضعيفة من الحيف.

وقد أعلنها في اليوم الثاني لبيعته وضمّنها منهاج حكمه، وقد حضر صاحبنا فيما يبدو خطبته، وحدّث عن ذلك.. يقول أبو صالح: إن ابن عباس حدّثه: ((أن علياً خطب في اليوم الثاني من بيعته فقال: أيها الناس إنما أنا رجل منكم، لي ما لكم، وعليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم،

---

(١) تأريخ للطبري ج٥: ٣٣.

ومنفّذ فيكم ما أُمرت به، ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فإن الحق القديم لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرّق به البلدان لرددته إلى حاله، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عنه الحق فالجور عنه أضيق[(١)]، وتتمّة الخطبة: ((ألا لايقولن رجالٌ منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصائف المرققة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) يرى أن الفضل له على سواه لصحبته، فإن الفضل النير غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله فصدّق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسويّة، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً وما عند الله خير للأبرار. فإذا كان غد إن شاء الله فاغدوا علينا، ولا يتخلفنّ أحد منكم عربي أو عجمي - كان من أهل العطاء أو لم يكن - إلاّ حضر إذا كان مسلماً حراً))[(٢)].

وبالطبع إن هذا الخطاب أحدث هزّة في نفوس أرباب الثروات المحرّمة وأفلتها عليهم، وتركهم في حيرة من مستقبل أموالهم، كما أحدث هزّة

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٩٠.

(٢) المصدر السابق ج٢: ١٧١.

في نفوس الوصوليين والانتهازيين، ممن حرموا من الثروات في أيام عثمان لبعض الاعتبارات، أو كانوا على أمل في ازدياد ثرواتهم على يد خليفتهم الجديد، سواء كانوا زعماء أم ذوي سابقة في صحبته أو جهاده، ورضي عنه سواد الناس وغوغاؤهم من فقراء ومستضعفين وموالي وغيرهم.

وكان موضع الغرابة - فيما أخال - سرعته في تنفيذ منهاجه حرفياً، وأمره بالوقت: ((أن تسترجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها))[١] ،حتى إذا جمع لديه شيء من المال أمر بتوزيعه على السواء، وبذلك أعاد للنظام الاقتصادي في الإسلام جدّته وروعته، بعد أن بعُد به العهد وتقادم، منذ تشريع الخليفة الثاني لنظام الطبقات.

ومن الطريف أن يأتي إليه بعض مَن أصابهم الغرم بهذا التوزيع وهم متقمصون ثوب الناصحين له، ليُدلّوا إليه بنصيحتهم بالعزوف عن هذه السياسة والعودة بهم إلى النظام السابق؛ مراعاة لميول الطبقة المرفّهة، فيجيبهم الإمام(عليه السلام) بقوله: ((أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وُلّيت عليه، والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً، ولو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟! ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة))[٢]، وكأنه يقول: إن لدي حاجزين عن تقبّل نصيحتكم.. حاجز ديني يمنعني من الانتصار بالجور ؛ لأن المال مال الله، ووظيفتي أن أسوّي بين عباده، كما صرّح بذلك دستورنا الإسلامي، وحاجز نفسي يمنعني من حرمان الضعيف،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٩٠.

(٢) المصدر السابق ج٢: ٣٠٥.

لا لشيء إلاّ لأنه ضعيف، ولو كنت أنا مالك المال لأبت عليٍّ نفسيتي أن أفاوت في توزيعه على الناس ، فكيف والمال مال الله؟!.

وقد كان هذا الإجراء الصارم السريع من الإمام(عليه السلام) بمثابة المنبّه لوعي أصحاب رؤوس الأموال من المسلمين حيث بدأت موازناتهم - فيما أخال - بين الاحتفاظ بدينهم،وذلك بتقبّل هذه السياسة ونظائرها من الإمام(عليه السلام)، وهي تذكّرهم بسياسة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ومنهاجه في الحكم، والاحتفاظ بأموالهم وثرواتهم وقيمهم الاجتماعيّة.

وكان أكثر المهاجرين والأنصار وأبنائهم ممن تركّزت مبادئهم في أعماقهم في جنب سياسة الإمام(عليه السلام) فأقبلوا معه على التضحية، لا بأموالهم فحسب، بل بنفوسهم وما يملكون، وقد أسلموا له القياد إلى حيث يوجه بهم في الحياة، وأما من أسلم من قريش متأخّراً، ومعهم بعض المهاجرين والأنصار من ذوي المصالح الخاصّة، فإنهم آثروا الاحتفاظ بها مهما كلّفهم الأمر. ويأتي على رأس هؤلاء طلحة والزبير ومن يعمل لهما، ثم الأمويون، وابن العاص، ونظائرهم من الناس.

(٤)

ولطلحة والزبير حديث خاصّ وعاه صاحبنا - فيما أخال - منذ رافقهما في أيام عثمان، بل منذ عهد الشورى، حين تركت في نفوسهم الميل إلى الخلافة والسعي نحوها، وقد رآهما على رأس حزبين قويين في أيام عثمان، ورأى مدى ما بذلاه من نشاط في إقلاق الرأي العام،

وكانت كفّة طلحة - من كفّتيهما - هي الراجحة، وكان يظن أن الخلافة صائرة إليه حتماً ؛ بما شارك في قيادة الثورة على الخليفة السابق، وما جمع حوله من أنصار، وكان له من عائشة - أم المؤمنين - ركيزة قويّة يعتمدها في المهمات. وصاحبنا لم ينس بعدُ محاولتها لجره إلى حضيرتها، وهي تذكّره بمقام طلحة وحسن سيرته، ثم لم ينسّ موقفها من عثمان، وإنه ليعلم أنها ما خرجت من المدينة حتى حرّقت عليه البلاد على حدّ تمّثل مروان، وذلك حين طلب إليها أن تتأخّر لتردّ عن صاحبه الناس فأبت عليه... يقول الراوي: فقام وهو يقول:

((وحرّق قيس عليَّ البــلا   د حتى إذا اضطرمت أجذما

فقالت عائشة: يا مروان وددت والله أنه - تعني عثمان - في غرارة من غرائري هذه، وأني طوّقت حمله حتى ألقيه في البحر))[١].

ولما بلغها قتله بشراف لم تشك - كما يقول المدائني -: ((في أن طلحة هو صاحب الأمر، وقالت: بُعداً لنعثل وسحقاً، إيهٍ ذا الإصبع، إيهٍ أبا شبل، إيهٍ يا ابن عم، لكأني انظر إلى إصبعه وهو يُبايَع له.. ثم قالت: حثوا الإبل ودعدعوها))[٢].

وقد كان من إيمان صاحبها بانتهاء الأمر إليه أنه أخذ مفاتيح بيت المال - بعد مقتل عثمان - ونجائبَ كانت له في داره، يقول المدائني: ((ثم فسد أمره فدفعها إلى علي بن أبي طالب))[٣].

---

(١) أنساب الأشراف ج٥: ٧٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٢: ٧٧، نقلاً عن المدائني في كتابه الجمل.

(٣) المصدر السابق.

وما كان الزبير - فيما أخال - يأمل أن الأمر سينتهي إليه مع وجود الإمام (عليه السلام)، ولكنّه كان يطمع أن يكون له شأن من الشأن في ولايته (عليه السلام) نظراً لوقوفه في جنبه منذ حادثة السقيفة، وربّما اعتبر نفسه هو المرشح الوحيد بعده لها، وما كان يظن - فيما أعتقد - أن الإمام(عليه السلام) سيسوّي بينه وبين سائر المسلمين ممن لهم سابقة، وربّما قدّم عليه من المغمورين من يطمئن إلى دينه وتقواه ومحافظته على دستوره ومنهاجه أكثر منه، وكانت في الزبير غمزات استدعتها ثروته الواسعة، والتسامح في جمعها من جهة، واستيلاء ولده عبد الله عليه، مع ما فيه من نواح لا يمكن لمثل الإمام(عليه السلام) أن يطمئن إليها من جهة ثانية، ومثل هذه الغمزات لابدّ أن تثير في نفس الإمام(عليه السلام) شكوكاً لا يصحّ معها التسرع بإفساح المجال أمامه للاستيلاء على رقاب الناس.

ومثل هذه الغمزات موجودة في أخيلة طلحة أيضاً، فمن الطبيعي إذاً أن لا يجد هذان الشيخان ما كانا ينتظرانه لأنفسهما في هذا العهد الجديد، وأن يهجس معاوية ذلك؛ فيعمل على إفساد قلوبهما على الإمام(عليه السلام)، وما كان ليخفى عليه أن الزبير كان أركز في نفوس الناس من طلحة، وأكثر علقة بالإمام(عليه السلام) من صاحبه، فإبعاده عن الإمام (عليه السلام) ثروة لا تعادلها ثروة، فكتب لذلك إليه: ((لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، سلام عليك، أما بعد فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليهما ابن أبي طالب فإنه لا شيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهرا الطلب بدم عثمان وادعوا

الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، أظفركما الله وخذل مناوئيكما)) يقول الراوي: ((فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سرّ به، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه، فلم يشكّا في النصح لهما من قِبَل معاوية، وأجمعا عند ذلك على خلاف علي(عليه السلام)))(١).

وكانت بداية الخلاف أنهما جاءا إلى الإمام(عليه السلام) يطلبان إليه أن يولّيهما البصرة والكوفة، وكان جواب الإمام(عليه السلام) قاطعاً عندما طلب إليهما إمهاله حتى يرى الرأي، ثم لوّح لهما بمقياسه في التولية بقوله - كما في بعض الروايات -: ((واعلما إني لا أشرك في أمانتي إلاّ من أرضى بدينه وأمانته من أصحابي)) وكان هذا المقياس وحده كافياً لبعث اليأس في نفسيهما، يقول الراوي: ((فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس))(٢).

وعلى طريقة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في استشارة أصحابه فيما يعِنّ له من أحداث، يقال: إن الإمام(عليه السلام) استشار المغيرة في أمرهما، فأشار عليه بتوليتهما؛ حتى يستقيم له أمر الناس، ولكن الإمام (عليه السلام) لم يأخذ برأيه وأخذ برأي صاحبنا، وكان أبصر بهما وأعمق نظرة، وذلك حين خلا به واستشاره في أمرهما، فأجابه قائلاً: ((يا أمير المؤمنين إن الكوفة والبصرة عين الخلافة وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمت ولست آمنهما إن ولّيتهما أن يحدثا أمراً، يقول محدّث الحديث: فأخذ علي(عليه السلام) برأي ابن عباس))(٣)،وهذا هو الطبيعي

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٧٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

أيضاً لما نعرف من عمق صاحبنا وإخلاصه لبطله، وبصره بشؤون السياسة، وحسن معرفته بهما، ولكن بعض من أراد أن يُسمع الناس نقد سياسة الإمام(عليه السلام) من لسان ابن عباس؛ لما اشتُهر عنه من العمق وعدم التهمة، أراد له أن يكون في جنب المغيرة في إشارته بتوليتهما ؛ ليتمّ لهم بعد حين أن يقولوا إن الإمام(عليه السلام) لو أخذ برأي هذين الداهيتين وولاّهما، لما وقعت في عهده هذه الحروب.

وما أدري ما كان قيمة رأيهما لو استقل معاوية بالشام، وطلحة بالبصرة، والزبير بالكوفة، وقد رأينا سرورهما بكتاب معاوية لهما، وأين يكون موقع إشارة هاتين الداهيتين من مصلحة الإمام(عليه السلام) لو عمل برأيهما؟! - إن صحّ أن صاحبنا قد أشار بذلك مع المغيرة - وسنرى من وصولية هذين الشيخين - فيما يجدّ من أحداث - ما يكشف لنا عن مدى تقيّدهما بما يعطيانه من عهود.

(٥)

ولو كان للإمام(عليه السلام) خلق بعض السياسين - الذين سوّغوا لأنفسهم الأخذ بالجريرة قبل حدوثها، فضربوا على المشتبه بهم سياجاً من حديد قبل أن تقوم عليه حجّة يصحّ الاستناد إليها في خنق حرياتهم - لكان له مع هذين الشيخين حديث آخر، وإلاّ فما كان الإمام(عليه السلام) ولا كان صاحبنا بغافلين عنهما، وعمّا ينطويان عليه من غدر حين ارتأيا منعهما من الولاية.

ثم ما كان الإمام(عليه السلام) بغافل عن ذلك أيضاً، حين جاءا يستأذنانه بالعمرة، فحذّرهما مغبّة خروجهما، ولوّح لهما بما ينويان القيام به.. يقول الراوي: ((دخل الزبير وطلحة على علي‏عليه السلام فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرة تريدان، فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة، فحلفا بالله ما الخلاف عليه، ولا نكث بيعته يريدان، وما رأيهما غير العمرة، قال لهما: فأعيدا البيعة لي ثانية فأعاداها بأشد ما يكون من الأيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده قال لمن كان حاضراً: والله لا ترونهما إلاّ في فتنة يقتتلان فيها، قالوا: يا أمير المؤمنين فمر بردّهما عليك، قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولا))[1].

وكانت هذه الالتزامات والأيمان وحدها كافية لأن تصدّهما عن القيام بأية حركة، لو كان هناك وازع من ضمير يحسن التصرف في سلوك أمثالهما من الناس.

وكان موقف الإمام(عليه السلام) مع غيرهما من أمثال مروان بن الحكم ونظائره من بني أميّة وقريش، ممن بايعوا الإمام(عليه السلام)، لا يختلف عن موقفه معهما في التسامح وعدم الحجر، قبل أن تقوم الحجّة عليهم، وقد كان من ذلك أن اجتمع على عائشة بمكة لفيف غريب، لا يمكن أن يلتقي في ميوله بغير بغض الإمام(عليه السلام).

ولعائشة - ما دمنا بصدد حديثها - مع الإمام(عليه السلام) في عهد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حديث قديم وهو ذو شعب وشجون

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٧٧.

يهمنا تفصيلها الآن، وربّما كانت بعض أصولها معروضة فيما سبق لنا من حديث، وقد يشير إلى بعضها حديثها الآتي مع أم سلمة. وحسب صاحبنا أن يعطينا عنها فكرة إجمالية بما سبق له من قول، وكانت لا تطيب له نفسها بخير، ثم جاءت حوادث السقيفة فأزادتها تعقيداً على تعقيد، وجاء بعد ذلك عهد عثمان، ولمسنا موقفها منه وتحريضها عليه، ودعوتها في الأثناء إلى طلحة، وتوثّقها بأن الأمر سينتهي إليه بما مهّدت له، وما كانت لتظن - فيما أخال - بأن صاحبها سيخفق في نضاله، وتذهب تلكم الجهود الواسعة سدى، ولكنها تفاجأ وهي عائدة من مكة بقريبها ابن أم كلاب يحمل لها أكثر من خيبة أمل واحدة أثارت في نفسها أعقد رواسبها القديمة - وربّما ذكّرتها بقولة ابن عباس: ((يا أمّه لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلاّ إلى صاحبنا)) - قال: ((قتل عثمان وبقوا ثمانية، قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا على بيعة علي، فقالت: ليت هذه انطبقت على هذه، إن تمّ الأمر لصاحبك، ردوني.. ردوني.. فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل وا لله عثمان مظلوماً، وا لله لأطلبنّ بدمه، فقال لها: ولِمَ؟ وا لله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت.. وقالوا.. وقولي الأخير خيرٌ من قولي الأول، فقال لها ابن أم كلاب:

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا إنه قد كفر

إلى آخر الأبيات..))[١]، ثم تلت بعد ذلك كتاباً من طلحة والزبير جاء به ابن أختها عبد الله قبل مجيئ الشيخين، يأمرانها بتخذيل الناس عن الإمام(عليه السلام) وإظهار الطلب بدم عثمان، فكاشفت الناس بذلك، وأظهرت الطلب بدم عثمان[٢].

ومن طريف المفارقات أن يجتمع هؤلاء - على ما بينهم من تباين وترات - على المطالبة بدمه، مع أنهم موزعون في موقفهم منه، بين قائد للثورة عليه كطلحة، ومحرّض ملحف في التحريض كعائشة والزبير، وخاذل كبعض ولاة بني أُمية، ممن استنصرهم فأبطؤا عنه، وموغر لقلوب الناس عليه بسوء تصرفاته، كمروان وأشباهه من بطانته، وقد عرفنا - بما عرضنا من فصول - مدى موقف الإمام(عليه السلام) من عوامل الفتنة، وموقف أمثال هؤلاء، وعلى أيّهم تقع تبعة قتل عثمان. وربّما عرّفنا ابن عباس فيما يأتي من أحاديث أطرافاً مهمة تكشف عن كثير من أسرار هذه المفارقات.

وأطرف من ذلك أن تطمع عائشة في أم سلمة وتعمل جاهدة على حملها معها للنهوض، مع ما بينهما من تباين في الخلق والمزاج والنظرة لآل البيت، وفيما دار بينهما من حديث صورة من صور ذلك التباين، يقول أبو مخنف: ((جاءت عائشة إلى أم سلمة تخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان، فقالت لها: يا بنت أبي أُمية، أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنت كبيرة أمهات المؤمنين، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقسم لنا من بينك، وكان جبرائيل

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٠٢.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ج٢: ٧٧.

أكثر ما يكون في منزلك))، فقالت أم سلمة - وقد أدركت بثاقب وعيها أن هذا الثناء غير طبيعي من ضرّتها، ولابدّ أن وراءه ما وراءه - فاستفسرتها قائلة: ((لأمرٍ ما قلت هذه المقالة، فقالت عائشة: إن عبد الله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان، فلما تاب قتلوه صائماً في شهر حرام، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة، ومعي الزبير وطلحة، فاخرجي معنا، لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا)). قالت أم سلمة - وقد هالها أن يبلغ الأمر بعائشة هذا المبلغ فتنتهي إلى مثل هذه المفارقات فأرادت أن تعود بها من طريق الوعظ والتذكير إلى وظيفتها كأمٍ للمؤمنين -: ((أنا أم سلمة - وكأنها تذكّرها أن مثل هذه اللغة لا يمكن أن ينطلي عليها ما تهدف إليه من ورائها - إنك كنت بالأمس تحرّضين على عثمان، وتقولين فيه أخبث القول، وما كان اسمه عندك إلاّ نعثلاً، وإنك لتعرفين منزلة علي بن أبي طالب (عليه السلام) عند رسول الله(صلى الله عليه وآله)، أفأذكّرك؟ قالت: نعم قالت: أتذكرين يوم أقبل(عليه السلام) ونحن معه، حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال، خلا بعلي يناجيه فأطال، فأردتِ أن تهجمي عليهما، فنهيتك فعصيتني، فهجمت عليهما، فما لبثت أن رجعت باكية، فقلتُ: ما شأنك؟ فقلتِ: إني هجمت عليهما وهما يتناجيان، فقلتِ لعلي: ليس لي من رسول الله(صلى الله عليه وآله) إلاّ يوم من تسعة أيام، أفما تدعني يا ابن أبي طالب ويومي؟ فأقبل رسول الله(صلى الله عليه وآله) عليَّ وهو غضبان محمر الوجه فقال: ارجعي وراءك، والله لايبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلاّ وهو خارج من الإيمان، فرجعتِ نادمة ساخطة، قالت عائشة: نعم أذكر ذلك.

قالت:وأذكّرك أيضاً كنت أنا وأنت مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأنت تغسلين رأسه، وأنا أحيس له حيساً، وكان الحيس يعجبه، فرفع رأسه وقال: يا ليت شعري أيتكنّ صاحبة الجمل الأذنب، تنبحها كلاب الحوأب، فتكون ناكبة عن الصراط، فرفعت يدي من الحيس وقلتُ: أعوذ بالله وبرسوله من ذلك، ثم ضرب على ظهرك وقال: إياك أن تكونيها، ثم قال: يا بنت أبي أُمية إياك أن تكونيها يا حميراء، أمّا أنا فقد أنذرتك، قالت عائشة: نعم أذكر هذا.

قالت:وأذكّرك أيضاً كنت أنا وأنت مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) في سفر له، وكان علي يتعاهد نعلي رسول الله فيخصفها، ويتعاهد أثوابه فيغسلها، فنقبت له نعل، فأخذها يومئذ يخصفها، وقعد في ظل سمرة، وجاء أبوك ومعه عمر فاستأذنا عليه، فقمنا إلى الحجاب ودخلا يحادثانه فيما أرادا ثم قالا: يا رسول الله إنّا لا ندري قدر ما تصحبنا، فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعاً؟ فقال لهما: أمّا إني قد أرى مكانه، ولو فعلت لتفرقتم عنه، كما تفرّقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران، فسكتا ثم خرجا، فلما خرجنا إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله) قلتِ له - وكنت أجرأ عليه منّا -: من كنت يا رسول الله مستخلفاً عليهم؟ فقال: خاصف النعل، فنزلنا فلم نرَ أحداً إلاّ علياً، فقلتِ: يا رسول الله ما أرى إلاّ علياً، فقال: هو ذاك، فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك. فقالت: فأيّ خروج تخرجين بعد هذا، فقالت: إنّما أخرج للإصلاح بين الناس، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله.

وكان هذا الإصرار من عائشة - رغم هذا الوعظ والتذكير - مبعث يأس في نفس أم سلمة، فقالت لها: ((أنت ورأيك))[1]. ثم رأت أن تكتب للإمام(عليه السلام) بهذا الحديث، فكتبته إليه فيما يقول راويه.

ثم كتبت إليه بعد تصميم القوم على الخروج - فيمايروي ابن الكلبي-: ((أما بعد، فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة، يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ومعهم ابن الحزان عبد الله بن عامر بن كريز، ويذكرون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنهم يطلبون بدمه، والله كافيهم بحوله وقوته، ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج وأمرنا به من لزوم البيوت، لم أدع الخروج إليك، والنصرة لك، ولكني باعثة نحوك ابني عِدل نفسي عمر بن أبي سلمة، فاستوص به يا أمير المؤمنين خيراً))[2].

وفي تأريخ ابن خلدون أن والدة صاحبنا - أم الفضل - هي التي بعثت بخبر طلحة والزبير إلى الإمام(عليه السلام)[3]. وأخال أن ذلك جاء من خلط الرواة بينها وبين أم سلمة، وإلاّ فالذي قرّبناه - فيما سبق - أنها توفيت في عهد عثمان، قبل وفاة زوجها بقليل.

ويبدو أن حديث أم سلمة وتذكيرها لعائشة بقول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ترك في نفس عائشة قلقاً كبيراً، وقف دون نسيانها للحديث أو تناسيه، وظهر أثر ذلك القلق عندما شاهدت كلاب الحوأب وهي تنبحها في أثناء الطريق.. يقول صاحبنا - فيما حدّث عنه أبو صالح - وغير صاحبنا

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٧٧-٧٨.

(٢) المصدر السابق ج٢: ٧٨.

(٣) انظر تأريخ ابن خلدون ج٢: ٤٠٨.

من رواة الحادثة: ((لما خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكة إلى البصرة، طرقت ماء الحوأب، وهو ماء لبني عامر بن صعصعة، فنبحهم الكلاب فنفرت صعاب إبلهم، فقال قائل منهم: لعن الله الحوأب فما أكثر كلابها، فلما سمعت عائشة ذكر الحوأب قالت: أهذا ماء الحوأب؟! قالوا: نعم، فقالت: ردوني.. ردوني، فسألوها ما شأنها ما بدا لها، فقالت: إني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول كأني بكلاب ماء يدعى الحوأب قد نبحت بعض نسائي، ثم قال لي: إياك يا حميراء أن تكونيها، فقال لها الزبير: مهلاً يرحمك الله، فإنا قد جزنا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك من يشهد بأن هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب؟ فلفّق لها الزبير وطلحة خمسين أعرابياً جعلا لهم جعلاً، فحلفوا لها وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوأب، فكانت هذه أول شهادة زور في الإسلام))[1].

ويبدو أن هذه الشهادة المزوّرة كان لها أثرها في تخفيف ما وقعت فيه من ضغط الضمير، وكانت من التبريرات التي يلتمسها اللاشعور عادة ؛ لتسكين ثورته الكامنة. ويظهر أن حادثة الحوأب، وتحذير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لها كانت مشهورة لدى أهل البيت (عليهم السلام)، فقد حدّث بها ابن عباس عكرمة فيما يروي، وفيها زيادة على المضمون السابق: ((يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة، كلهم في النار، وتنجو بعدما كادت))[2]. وفي رواية الطبري وابن الأثير أنها قامت في الموضع لا تبرحه يوماً وليلة، حتى جاءها عبد الله

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٤٩٧، وانظر تأريخ الطبري ج٥: ١٧١.

(٢) المصدر السابق ج٢: ٤٩٧.

- بعد أن أعجزته الحيل في إقناعها على المسير- وهو يقول: ((النجاء النجاء قد أدرككم والله علي بن أبي طالب))[١].

(٦)

وكان الإمام(عليه السلام) في أثناء ذلك، وكان صاحبنا معه، يتأهبون لغزو الشام قبل أن يبدأهم معاوية، بعد أن أعلن معارضته وأظهر تباكيه على عثمان، وإلقاء التبعة على الإمام(عليه السلام)، وشرع في إعداد أهل الشام للحرب، وكان من ثقة الإمام(عليه السلام) بصاحبنا، وكفاءته وحسن قيادته، أن اختاره قائداً لميمنة جيوشه[٢]، وهو اختيار في موضعه.. كما سنشاهد بعد حين دلائل ذلك.

وبينما هم يتأهبون وإذا بالمخبر يخبرهم بخروج طلحة والزبير وعائشة، فكان لابدّ لهم أن يسارعوا ليقطعوا عليهم الطريق، ولكن القوم كانوا أسرع منهم ففاتوهم، وبلغ الإمام(عليه السلام) ذلك وهو بالربذة فأقام بها، ثم بعث برسله إلى أهل الكوفة على دفعات يستنفرونهم للجهاد، وكان في جملة الرسل ابن عمه، ودارت هناك محاورات عدة بينهم وبين أبي موسى الأشعري والي الكوفة من قبل عثمان، ثم من قبل الإمام(عليه السلام) وكان يميل في أعماقه إلى ابن عمر، ويعمل له تحت الستار، فكان يخذّل

---

(١) تأريخ الطبري ج٥: ١٧١، تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٠٤.

(٢) انظر تأريخ ابن خلدون ج٢: ٤٠٦.

عن الإمام(عليه السلام) ويدعو الناس إلى الخلود إلى السكون والهدوء[1] حتى تنجلي هذه المعارك، وكاد يُحدث في نفوسهم بلبلة، لولا أن تتعاون عليه ألسنة صاحبنا ومحمد بن أبي بكر وابن جعفر ثم الإمام الحسن عليه السلام وعمار، ثم مالك الأشتر وقد سبق له أن زكّاه لدى الإمام(عليه السلام) ورغّب إليه بإبقائه والياً على الكوفة، وما كان ليظن أن الأمر يبلغ به هذا المبلغ، فأرسله الإمام(عليه السلام) ليصلح من أمره ما أفسد.. فأقبل إلى قصر الإمارة رأساً فاحتلّه وأخرج منه خدمه، فجاؤا يهرعون وهو على المنبر يثبّط الناس، والإمام الحسن عليه السلام يقول له:((اعتزل عملنا - لا أمّ لك - وتنحّ عن منبرنا))، وهم ينادون: ((أيها الأمير هذا الأشتر قد دخل القصر فضربنا وأخرجنا))[2]. ونزل عن المنبر وأقبل على القصر،فنهره الأشتر ومنعه عن الإقامة فيه،ثم هرعت الكوفة إلى نصرة الإمام(عليه السلام)،وكان قد ارتحل من الربذة إلى ذي قار، فاستقبلهم بذي قار،واستقبلهم معه ابن عباس فيما يقول ابن الأثير[3]. وكانت عدتهم كما أخبر عنها الإمام(عليه السلام) قبل مجيئهم اثني عشر ألف رجل ورجل واحد، لم يزيدوا و لم ينقصوا، كما حدّث بذلك أبو الطفيل[4].

ومن الطريف أن يحدّث صاحبنا عن قيمة الحكم في نفس الإمام (عليه السلام) بحديث وقع له معه قبل أن يرحل من هذا المكان،

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج٣: ٢٩٤.

(٢) تأريخ الطبري ج٥: ١٩٠.

(٣) انظر تأريخ ابن الأثير ج٣: ١١٦.

(٤) انظر تأريخ الطبري ج٥: ١٩٩.

يقول: ((دخلت على أمير المؤمنين(عليه السلام) بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل، فقلت: لا قيمة لها فقال(عليه السلام): والله لهي أحب إليَّ من إمرتكم إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً))[١].

وفي الربذة أو ذي قار -على اختلاف في الرواية- جاءهم عثمان بن حنيف وهو أمرد، وكان والياً من قبل الإمام(عليه السلام) على البصرة، فلما رأى الإمام(عليه السلام) بكى وقال له: فارقتك شيخاً وجئتك أمرد فقال الإمام(عليه السلام): إنا لله وإنا إليه راجعون[٢].

ومأساة عثمان هذا، وموقف طلحة والزبير وعائشة منه يرويها صاحبنا مفصّلاً، ويرويها غيره من الرواة، وهي تصوّر لك كيف تطغى شهوة الحكم في بعض النفوس على جميع ما تملكه من قيم، فتنسيها حتى أبسط مبادئ اللياقة.

وملخص هذه القصة: أن عثمان هذا لم يشأ أن يبادئ القوم بحرب، رغم اجتماع أكثريّة البصرة عليه، وبيده القوة والمال، ورغم إشارة جماعة من زعمائها عليه بذلك، إلاّ أن خُلقه كان يأبى عليه ذلك، شأن تلاميذ الإمام(عليه السلام)، ولأنه كان ينتظر أمر إمامه بهم، بعد أن راسله في ذلك. وقد حاولوا أن يدخلوا البصرة بالرغم عليه، فمنعهم ودارت بينهم معارك انتهت في غير صالحهم[٣] وهم يتذرعون بالطلب بدم عثمان، وكان فيمن جاءهم عاذلاً لهم عبد الله بن حكيم التميمي، ومعه كتب كان طلحة

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ١٧٦.

(٢) انظر تأريخ الطبري ج٥: ١٨٦، انظر تأريخ ابن خلدون ج٢: ٤١٤.

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ج٢: ٥٠٠.

والزبير قد كتباها إليه فقال لطلحة: ((يا أبا محمد أما هذه كتبك إلينا؟ قال: بلى قال: فكتبت أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله حتى إذا قتلته أتيتنا ثائراً بدمه! فلعمري ما هذا رأيك، لا تريد إلاّ هذه الدنيا))(١).

وكان آخر ما انتهى إليه الفريقان المتحاربان بعد معركة دامية هو التصالح بشروط سجّلوها بهذا الكتاب:

((هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الأنصاري ومن معه من المؤمنين، من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وطلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما، أن لعثمان بن حنيف دار الإمارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأن لطلحة والزبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شاؤا من البصرة، ولا يضارّ بعضهم بعضاً في طريق ولا فرضة ولا سوق ولا شرعة ولا مرفق، حتى يقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فإن أحبّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة وإن أحبّوا لحق كل قوم بهواهم وما أحبّوا من قتال أو سلم، أو خروج أو إقامة، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه، وأشدّ ما أخذه على نبي من أنبيائه من عهد وذمّة))(٢).

وكان تقيّد الشيخين بما جاء فيه من عهود لا يختلف عن تقيّدهما بما أعطياه للإمام(عليه السلام) في أثناء بيعته وبعد بيعته.. يقول المحدّث: ((فلما استوثق لطلحة والزبير أمرهما خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ومعهما أصحابهما، قد ألبسوهم الدروع وظاهروا فوقها بالثياب، فانتهوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر، وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه.. وأقيمت الصلاة،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٥٠٠.

(٢) المصدر السابق، وأنظر تأريخ الطبري ج٥: ١٧٧.

فتقدم عثمان ليصلي بهم فأخّره أصحاب طلحة والزبير، وقدّموا الزبير، فجاءت السبابجة -وهم الشرط حرس بيت المال- فأخرجوا الزبير وقدّموا عثمان، فغلبهم أصحاب الزبير فقدّموا الزبير وأخّروا عثمان، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع، وصاح بهم أهل المسجد: ألا تتقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس!! فغلب الزبير فصلّى بالناس، فلما انصرف من صلاته صاح بأصحابه المستسلحين: أن خذوا عثمان بن حنيف، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفيهما، فلما أُسر ضُرب ضرب الموت ونتف حاجباه وأشفار عينيه وكل شعرة في رأسه ووجهه، وأخذوا السبابجة وهم سبعون رجلاً فانطلقوا بهم وبعثمان بن حنيف إلى عائشة، فقالت لأبان بن عثمان: أخرج إليه فاضرب عنقه، فإن الأنصار قتلت أباك وأعانت على قتله، فنادى عثمان: يا عائشة ويا طلحة ويا زبير إن أخي سهل بن حنيف خليفة علي بن أبي طالب على المدينة، وأقسم با لله إن قتلتموني ليضعنّ السيف في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم فلا يبقي منكم أحداً. فكفّوا عنه))[1]، ثم عمدوا إلى السبابجة فذبحوهم جميعاً كما يذبح الغنم، وضمّوا بذلك إلى نكث البيعة نقض العهد وسفك الدماء، وهكذا انتهت مأساة هذا العبد الصالح الذي ذهب إلى البصرة شيخاً -كما يقول- فعاد منها وهو أمرد.

وسارالإمام(عليه السلام) بعد ذلك بمن جاءه من الكوفة،ومن انضم إليه من أهل المدينةومن القبائل في أثناء الطريق،وكان علىمقدمته

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٥٠٠.

عبدالله بن العباس[١]،حتى بلغ البصرة فدخلها مما يلي الطّف، يقول المنذر بن الجارود وهو يصف موكبه الرائع: ((فورد موكب نحو ألف فارس يقدمهم فارس على فرس أشهب، عليه قلنسوة وثياب بيض، متقلد سيفاً معه راية، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة، مدجّجين في الحديد والسلاح، فقلت: من هذا فقيل: أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، وهؤلاء الأنصار وغيرهم، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض، متقلد سيفاً متنكب قوساً، معه راية، على فرس أشقر، في نحو ألف فارس، فقلت: من هذا فقيل: هذا خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين))، وهكذا تتابع في وصف من مرّ عليه كعمار بن ياسر في عدة من الصحابة مهاجرين وأنصاراً وأبنائهم، وقيس بن سعد في الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان.. إلى أن يقول: ((ثم مر بنا فارس على فرس أشهل، ما رأينا أحسن منه، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه بلواء، قلت: من هذا قيل: هو عبد الله بن العباس في عدة من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)))، وكانت الراية العظمى مع محمد ابن الحنفية، وهو أمام الإمام(عليه السلام) وحولها فتيان هاشم، ومشايخ أهل بدر من المهاجرين والأنصار، يقول المحدّث: ((فساروا حتى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية، فصلى أربع ركعات وعفر خديه على التربة، وقد خالط ذلك دموعه، ثم رفع يديه يدعو: اللهم ربّ السموات وما أظلّت، والأرضين وما أقلّت، وربّ العرش العظيم، هذه البصرة أسألك من خيرها وأعوذ بك من شرّها، اللّهم أنزلنا فيها خير منزل وأنت خير

---

(١) انظر تأريخ خليفة بن خياط ج١: ١٦٤.

المنزلين، اللّهم هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي وبغوا عليّ ونكثوا بيعتي، اللّهم احقن دماء المسلمين))(١).

(٧)

وعلى خطة الإمام(عليه السلام) ونهجه في دعوته للسلام وحقن الدماء، لم يبادئ القوم بقتال، وكان جلّ همّه أن يعود بهم من طريق المفاوضات والتفاهم إلى حضيرته، فكان صاحبنا من أهم سفرائه للتفاهم، أرسله مرة إلى الزبير، وكان طمعه فيه أكثر من طمعه في صاحبه، يقول الرضي - ومن كلام له لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير، قبل وقوع الحرب يوم الجمل؛ ليستفيئه إلى طاعته -: ((لا تلقينَّ طلحة، فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعب ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة، فقل له يقول ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق فما عدا مما بدا !))(٢) وفي رواية أبي مخنف أنه قال له: ((إن أمير المؤمنين يقول لكم: ألم تبايعني طائعاً غير مكره، فما الذي رابك مني فاستحللت به قتالي؟!)). وذهب صاحبنا فأدّى رسالته، وما كان جواب الزبير عليها إلاّ أنه قال: ((إنّا مع الخوف الشديد لنطمع)) ولم يقل غير ذلك، قال أبو إسحق: سألت محمد بن علي بن الحسين(عليهم السلام) ما تراه يعني بقوله هذا فقال: ((أما والله ما تركت ابن عباس حتى سألته

---

(١) مروج الذهب ج٢: ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ١٦٩.

عن هذا فقال: يقول إنّا مع الخوف الشديد مما نحن عليه نطمع أن نلي مثل الذي وُلّيتم))[١].

وبعثه مرة ثانية - فيما يبدو- إلى طلحة والزبير معاً، ومعه كتاب الله يدعوهما إليه، يحدّث هو عن نفسه: ((بعثني علي يوم الجمل إلى طلحة والزبير، وبعث معي بمصحف منشور، وإن الريح لتصفق ورقه، فقال لي: قل لهما هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فما تريدان؟ فلم يكن لهما جواب إلاّ أن قالا: نريد ما أراد، كأنهما يقولان المُلك، فرجعت إلى علي فأخبرته))[٢].

وفشلت كل محاولة للإمام(عليه السلام) في جرّهما إلى الصلح، وتعبّأوا للقتال، وبلغ الإمام(عليه السلام) ذلك فعبّأ أصحابه، ووضع صاحبنا على مقدمة جيشه[٣]. ((وبعث إليهم من يناشدهم الله في الدماء، وقال: علامَ يقاتلونني؟ فأبوا إلاّ الحرب، فبعث رجلاً من أصحابه يقال له مسلم، معه مصحف يدعو إلى الله، فرموه بسهم فقتلوه، فحُمل إلى علي، وقالت أمّه:

يا ربّ إنّ مسلماً أتاهم   يتلو كتاب الله لايخشاهم
فخضّبوا من دمه لحاهم   وأُمّه قائمة تراهم

وأمر علي أن يصافّوهم ولا يبدؤوهم بقتال، ولا يرموهم بسهم ولايضربوهم ولايطعنوهم برمح حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٤٩٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر الإمامة والسياسة ج١: ٦٥.

الخزاعي من الميمنة بأخ له مقتول، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رُمي بسهم فقُتل، فقال علي: اللهم اشهد))[١].

ثم ألقى الإمام(عليه السلام) بتعاليمه إلى جيشه فقال فيما قال: ((أيها الناس إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتبعوا مولّياً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثّلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستراً، ولا تقربوا من أموالهم إلاّ ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله))[٢].

وكان الإمام(عليه السلام) ما يزال طامعاً في الزبير، ((فخرج علي بنفسه حاسراً على بغلة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، لا سلاح عليه فنادى: يا زبير اخرج إلي فخرج شاكّاً في سلاحه، وعلمت عائشة بذلك فصاحت واحرباه يا أسماء، فقيل لها إن علياً حاسر فاطمأنت، واعتنق كلٌّ صاحبه، فقال له علي: ويحك يا زبير ما الذي أخرجك، قال: دم عثمان، قال: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما تذكر يوم لقيت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في بني بياضة، وهو راكب حماره فضحك إليّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وضحكت أنت معه، فقلت أنت: يا رسول الله ما يدع عليٌّ زهوه، فقال لك: ليس به زهو، أتحبّه يا زبير؟ فقلت: إني والله لأحبّه، فقال لك: إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم، فقال الزبير: أستغفر الله لو ذكرتها ما خرجت، فقال: يا زبير ارجع، فقال: كيف أرجع الآن؟! وقد التقت حلقتا البطان، هذا والله العار الذي لا يُغسل،

(١) مروج الذهب ج٢: ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق ج٢: ٢٤٦-٢٤٧.

فقال: يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار))[١]. فعاد الإمام (عليه السلام) لأصحابه وهو يبشّرهم بترك الزبير لقتالهم؛ للحديث الذي حدّثه به، وفرح أصحابه بذلك وقالوا: ((الحمد لله يا أمير المؤمنين، ما كنا نخشى في هذه الحرب غيره، ولا نتّقي سواه، إنه لفارس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحواريه، ومن عُرفتْ شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب، فإذا قد كفانا الله فلا نعدّ مَن سواه إلاّ صرعى حول الهودج))[٢].

وقال الزبير لعائشة وقد رجع إليها بعد لقائه: ((يا أمّاه ما شهدت موطناً قطّ في الشرك ولا في الإسلام إلاّ وليَ فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن، فإنه لا رأي لي فيه ولا بصيرة، وإني لعلى باطل))، وأرادت أن تهيجه عائشة فقالت: ((خفت سيوف بني عبد المطلب))[٣]. وحاول ولده ذلك أيضاً فلم يفلح، وقيل: إنه أغضبه فحمل على جيش الإمام (عليه السلام) ثلاث حملات، فقال لهم الإمام(عليه السلام): أفرجوا له فقد هاجوه، ثم عاد إلى ابنه فقال: أيفعل هذا جبان، وترك الجيش ومضى، وكان ما كان من اغتيال ابن جرموز له، ومجيئه بسيفه للإمام(عليه السلام) وقول الإمام(عليه السلام) وهو يقلّب سيفه: ((سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله))[٤].

---

(١) مروج الذهب ج٢: ٢٤٧.

(٢) الإمامة والسياسة ج١: ٦٧-٦٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تأريخ الطبري - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، سنة الطبع ١٣٩٨هـ - ج٤: ٥٣٥.

وفي مروج الذهب: ((ثم نادى علي(رض) طلحة حين رجع الزبير: يا أبا محمد ما الذي أخرجك، قال: الطلب بدم عثمان، قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأنت أول من بايعني ثم نكثت، وقد قال الله عز وجل: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾[1]، فقال: أستغفر الله ثم رجع، فقال مروان بن الحكم: رجع الزبير ويرجع طلحة ما أبالي رميت هاهنا أم هاهنا فرماه في أكحله فقتله))[2]. وفي تأريخ الطبري لن طلحة ظلّ مصراً على القتال حتى مقتله[3].

واحتدم القتال بعدها واشتدّ، وتطايرت أيدٍ ورؤوس، ونظر الإمام (عليه السلام) صاحبنا وهو يمشي بين الصّفين في ذلك اليوم، فقال - فيما يحدّث الزهري-: ((أقرّ الله عين من له ابن عم مثل هذا))[4]، وهي كلمة تدل على إعجاب كبير واعتزاز وارتياح من الإمام(عليه السلام) بموقف ابن عمه في ذلك الموقف الرهيب.

وتجمّع الناس حول الجمل، وعائشة تحرّض الناس على النضال، والجيوش متكافئة، وصبر الفريقين على الجلاد عظيم، حتى التفت الإمام(عليه السلام) إلى من حوله وقال: اعقروا الجمل فإنه شيطان، وتحامل عليه أصحاب الإمام(عليه السلام) حتى عقروه، فانهزم أهل البصرة ومن معهم

---

(١) الفتح : ١٠.

(٢) مروج الذهب ج٢: ٢٤٨-٢٤٩.

(٣) انظر تأريخ الطبري ج٤: ٢٠٦.

(٤) البداية والنهاية ج٨: ٢٩٩.

من قريش وبني أمية، وبعث الإمام(عليه السلام) منادياً ينادي: ((ألا لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور))[١]. وأمر بحمل هودج عائشة من بين القتلى، وقيل: إن الذي تولّى حمله هو أخوها محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وقال لأخيها: اضرب عليها هودجاً، ((وانظر هل وصل إليها شيء من جراحة؟ فأدخل أخوها رأسه في هودجها فقالت: من أنت؟ فقال: أبغض أهلك إليك، قالت: ابن الخثعميّة؟ قال: نعم، قالت: يا بأبي، الحمد لله الذي عافاك))[٢] وقيل: إنها قابلته وقابلها بجفاء لا يخلو من قسوة[٣]. وفي الليل أدخلها أخوها البصرة، وأنزلها دار عبد الله بن خلف الخزاعي، ثم أذن الإمام(عليه السلام) بدفن القتلى بعد أن صلّى عليهم، فدُفنوا، ودخل البصرة في يوم الاثنين، فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة، ووزّع ما وجد في بيت المال من الأموال، فأصاب أصحابه خمسمائة خمسمائة[٤].

وبالطبع لم يكن لابن عباس من العطاء ما يفضل به عن غيره، ما دام إمامه(عليه السلام) نفسه لم يصبه أكثر من أي أحد من صحابته، وحتى نصيبه الخاص لم يأخذه، بل أعطاه إلى رجل جاءه متأخراً وقال له: ((يا أمير المؤمنين كنت شاهداً معك بقلبي وإن غاب عنك جسمي، فأعطني من الفيء شيئاً، فدفع إليه الذي أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهم))[٥].

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٢٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) انظر تأريخ الطبري ج٥: ٢٢٣.

(٥) شرح نهج البلاغة ج١: ٨٣ .

وضرب الإمام(عليه السلام) في ذلـك اليوم أعلى الأمثال في الصفح والعفوعن كل مَن شهد المعركة وشمل عفوه حتىعبد ا لله بن الزبير ومروان بن الحكم وأشباهه من بني أمية ممن ألحّوا في التأليب عليه(١).

وكان لابدّ لعائشة أن لا تبقى في البصرة بعد الذي كان منها، فأرسل إليها الإمام(عليه السلام) صاحبنا ليأمرها بالرحيل إلى المدينة، وجاء إليها فقابلته بشئ من الجفوة لم يصبر عليها، وهو صاحب اللسان الإزعيل -كما سبق أن وصفته - ودار بينهما حوار تحكّمت فيه كوامن اللاشعور، وطغت عليه، فكشفت عما يكنّه كلّ منهما لصاحبه من انفعالات، يقول ابن عباس: ((فأتيتها فدخلت عليها، فلم يوضع لي شئ أجلس عليه، فتناولت وسادة كانت في رحلها فقعدت عليها، فقالت يا ابن عباس - وكأنها أرادت أن تأخذه من الناحية التي اشتهر فيها وهي الفقه -: أخطأت السنّة قعدت على وسادتنا في بيتنا بغير إذننا)) وكان أعرف بمواضع السنّة حين أجابها بلسانه الإزعيل: ((ليس هذا بيتك الذي أمرك ا لله أن تقرّي فيه، ولو كان بيتك ما قعدت على وسادتك إلاّ بإذنك)). وأراد أن يكتفي بهذا المقدار ليؤدي مهمته التي جاء من أجلها، وإلاّ فما جاء للجدل والمماراة يقول: ((ثم قلت: إن أمير المؤمنين أرسلني إليك يأمرك بالرحيل إلى المدينة))، ولكن عائشة - فيما يبدو - كانت ما تزال ثائرة فقالت: ((وأين أمير المؤمنين ذاك عمر)) فأجابها: ((عمر وعلي)) قالت: ((أبيت))، وثار ابن عباس لهذه المماراة فاندفع عليها بقوله: ((أما وا لله ما كان أبوك إلاّ قصير المدة عظيم المشقة قليل المنفعة ظاهر الشؤم بيّن النكد، وما عسى أن يكون

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج١: ٨٣.

أبوك، والله ما كان أمرك إلاّ كحلب شاة حتى صرت لا تأمرين ولا تنهين ولا تأخذين ولا تعطين، وما كنت إلاّ كما قال أخو بني أسد..

ما زال إهداء الصغائر بيننا   نثّ الحديث وكثرة الألقاب
حتى نزلت كأن صوتك بينهم   في كل نائبة طنين ذباب

قال: فبكت حتى سُمع نحيبها من وراء الحجاب، ثم قالت: إني معجّلة بالرحيل إلى بلادي إن شاء الله تعالى، والله ما من بلد أبغض إليَّ من بلد أنتم فيه)) وعاود ابن عباس هدوءه وتطامنت ثورته النفسيّة فأجابها قائلاً: ((و لم ذاك فوالله لقد جعلناك للمؤمنين أماً، وجعلنا أباك صّديقاً قالت: يا ابن عباس أتمنّ علي برسول الله؟ قلت: ما لي لا أمنّ عليك بمن لو كان منك لمننت به عليّ)) وكان لهذا الكلام وقعه النفسي في نفس الإمام(عليه السلام) يقول: ((ثم أتيت علياً فأخبرته بقولها وقولي، فسرّ بذلك وقال لي: ﴿**ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم**﴾[1]، وفي رواية ابن أبي الحديد: ((أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك))[2].

(٨)

ولما تمّ للإمام(عليه السلام) كل شئ، فكّر فيمن يتولى إمارة البصرة من قِبَله، فانتهى بادئ ذي بدء إلى أن يوليها أبا بكرة، وكان ممن تقاعد عن الإمام(عليه السلام) و لم ينصره، يقول ابن الأثير: ((وأتاه عبد الرحمن بن أبي

---

(١) آل عمران:٣٤.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ج٢: ٨٢.

بكرة في المستأمنين أيضاً فبايعه، فقال له علي: وما عمل المتربص المتقاعد بي أيضاً -يعني أباه أبا بكرة- فقال: وا لله إنه لمريض وإنه على مسرّتك لحريص، فقال علي: امش أمامي، فمشى معه إلى أبيه، فلما دخل عليه علي قال له: تقاعدت بي وتربّصت ووضع يده على صدره، وقال هذا وجع بيّن، واعتذر إليه فقبل عذره يقول: وأراده على البصرة فامتنع، وقال: رجل من أهلك يسكن إليه الناس وسأشير عليه))[(١)]، وبعد تداول الرأي انتهوا إلى ضرورة تعيين عبد ا لله بن العباس أميراً، وزياد والياً على الخراج وبيت المال.

وأخال أن الإمام(عليه السلام) لم يؤثر أهل البصرة بتلميذه هذا إلاّ لشعوره بأهمية هذا المصر، وضرورة السيطرة عليه، وإعادة الأمن والاستقرار إليه، بعدما دبَّ إليه من القلق والاضطراب ما لمسناه في حادثة الجمل.

وكان لابدّ للإمام(عليه السلام) وهو يخلّفه أن يزوّده بوصاياه وتعاليمه، فكان مما قال له: ((سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان، واعلم أن ما قرّبك من ا لله يباعدك من النار، وما باعدك من ا لله يقرّبك من النار))[(٢)]. وفي رواية ابن قتيبة أنه قال له: ((أوصيك بتقوى ا لله عز وجل، والعدل على من ولاّك ا لله أمره، اتسعْ الناس بوجهك وعلمك وحكمك، وإياك والإحن فإنها تميت القلب والحق، واعلم أن ما قرّبك من ا لله بعدّك من النار، وما قرّبك من النار بعدّك من ا لله، اذكر ا لله كثيراً ولا تكن من الغافلين))[(٣)].

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٢٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج٤: ٢٣٦.

(٣) الإمامة والسياسة ج١: ٨٠ .

وفي تأريخ الطبري أن الذي أشار على الإمام(عليه السلام) هو زياد لا أبو بكرة[١]، كما جاء في تأريخ ابن الأثير، وأن الإمام(عليه السلام) أمر ابن عباس أن يسمع منه بعد أن ولاّه الخراج وبيت المال، وربّما كان ذلك -إن صحت الرواية- لخبرة زياد هذا في شؤون البصرة وأهلها؛ لإقامته مدة طويلة فيها، واتصاله بالحاكمين منذ عهد عمر، ولما يعرف عنه من أصالة الرأي. يقول ابن عباس: ((استشرته عند هنة كانت من الناس فقال: إن كنت تعلم أنك على الحق، وأن من خالفك على الباطل، أشرت عليك بما ينبغي، وإن كنت لاتدري أشرت عليك بما ينبغي كذلك، فقلت: إني على الحق وإنهم على الباطل، فقال: اضرب بمن أطاعك من عصاك ومن ترك أمرك، فإن كان أعز للإسلام وأصلح له أن يُضرب عنقه فاضرب عنقه))[٢].

وما أدري أأخذ بهذا الرأي في سياسته معهم أم أعمل رأيه الخاص؟.. والذي أتصوره أنه لم يأخذ به؛ لأنه يتنافى مع سياسة أمير المؤمنين (عليه السلام) في أمثال هذه المواضع، فهو إلى الرفق والأناة واستصلاح حالهم أميل، ولا يلتجئ إلى مثل هذه السياسة إلاّ إذا ألجؤوه إليها بالثورة أو التمرد والاعتداء، وأعجزته الحيل في استصلاحهم.

وهذا كتابه له، كتبه في جواب رسالة منه تصف اختلاف أهل البصرة بعد خروج الإمام(عليه السلام) منها، وفيه كشف لأصول السياسة التي كان ينتهجها إمامه(عليه السلام) في تدبير شؤون رعاياه، وقد جاء فيها: ((أما بعد فقد قدم عليَّ رسولك، وذكرت ما رأيت، وبلغك عن أهل البصرة

(١) انظر تأريخ الطبري ج٥: ٢٢٤.

(٢) تأريخ الطبري ج٥: ٢٢٤ .

بعد انصرافي، وسأخبرك عن القوم.. هم بين مقيم لرغبة يرجوها، أو عقوبة يخشاها، فأرغب راغبهم بالعدل عليه والإنصاف له والإحسان إليه، وحلّ عقدة الخوف عن قلوبهم، فإنه ليس لأمراء أهل البصرة في قلوبهم عظم إلاّ قليل منهم، وانته إلى أمري ولاتعده، وأحسن إلى هذا الحي من ربيعة، وكل مَن قِبَلك فأحسن إليهم ما استطعت إن شاء الله))[1].

وأخال أنه لم يعدُ رأي أمير المؤمنين(عليه السلام) في سياسته، فأنصف راغبهم بالعدل والإحسان إليه، وحلّ عقدة الخوف عن الخائفين منهم، وربّما كان هذا الاختلاف من أهل البصرة بعد خروج الإمام(عليه السلام) هو مبعث استشارته لزياد، ولم ترضه إشارته، فأراد أن يعرف رأي إمامه (عليه السلام) فكتب إليه ذلك الكتاب.

وأخال أن سرّ نجاحه واجتماع القلوب على اختلافها عليه بعد مدة من الزمن وجيزة -كما سنلمس آيات ذلك- كان وليد انتهاجه من جهة لما جاء في جواب الإمام(عليه السلام) وإغفاله لإشارة زياد ؛ ولتوفيره العطاء لهم من جهة ثانية، فقد جاء كتاب من الإمام(عليه السلام) يأمره فيه أن يوزّع ما تجمّع لديه من المال عليهم، وأن يغنيهم، ثم يبعث بفاضله له، ولسانه: ((أما بعد فانظر ما اجتمع عندك من غلاّت المسلمين وفيئهم، فاقسمه على من قِبَلك حتى تغنيهم، وابعث إلينا بما فضل، نقسمه فيمن قِبَلنا والسلام))[2] ؛ ولقوة شخصيته من جهة ثالثة.

---

(١) وقعة صفين -تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة المؤسسة العربية، مصر، ط٢، سنة الطبع ١٣٨٢هـ- : ١٠٥.

(٢) وقعة صفين: ١٠٦.

وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب سنقف طويلاً عند بحث شخصيته إن شاء الله؛ لنكشف جوانب القوة فيها، وحسبنا أن نعجل الآن بذكر كلام لصعصعة يتعلق بهذا البحث.

وما أخال أنني سأجد أبلغ منه في تصوير بعض جوانبها المهمة.. يقول صعصعة - وقد سأله الإمام(عليه السلام) على أثر مجيئه من البصرة عن صاحبنا بعد أن خلّفه الإمام(عليه السلام) عليها -: ((يا أمير المؤمنين إنه آخذ بثلاث وتارك لثلاث، آخذ بقلوب الرجال إذا حَدّث وبحسن الاستماع إذا حُدِّث وبأيسر الأمرين إذا خولف، وترك المراء، ومقارنة اللئيم، وما يُعتذر منه))[١]،وهو - على إيجازه - أقوى معبّر عن أسرار النجاح لأمثاله من الولاة، وكانت أبغض ما تكون إليه الوشاية بالآخرين.. ((سعى ساع إلى ابن عباس - فيما يقول ابن سلام - برجل فقال: إن شئت نظرنا، فإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن كنت صادقاً نفيناك، وإن شئت أقلتك قال: هذه))[٢]، فإذا أضفنا إلى ذلك ما استغله من ولايته لتثقيف رعاياه أدركنا مدى نجاحه، جاء في كتاب الطبقات: ((إن أول من عرف بالبصرة عبد الله بن عباس، قال: وكان مثّجة كثير العلم))[٣]، وقال الجاحظ: ((وكان عبد الله بن عباس أول من عرف بالبصرة صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران، ففسّرهما حرفاً حرفاً، وكان والله مثجاً يسيل غرباً، وكان يسمّى البحر وحبر قريش))[٤]

---

(١) البداية والنهاية ج٨: ٣٠٠.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ج٢:٣٣٤ .

(٣) طبقات ابن سعد ج٢ قسم٢: ١٢١.

(٤) البيان والتبيين ج١: ٢٦٢.

وفي البداية والنهاية: ((كان أهل البصرة مغبوطين به يفقههم ويعلم جاهلهم ويعظ مجرمهم ويعطي فقيرهم))[١]، ولأبي بكرة - وهو الذي أراد توليته الإمام(عليه السلام) كما سبق فأبى ورشّح لها صاحبنا - كلام طريف فيه، يكشف عن بعض هذه الجوانب في شخصيته يقول: ((قدم علينا عبد الله البصرة، وما في العرب مثله جسماً وعلماً وثياباً وجمالاً وكمالاً))[٢]، ومثل هذا لابدّ أن تجمع عليه القلوب وتغبط له مادامت قد توفّرت لديه كل هذه الصفات.

وأول ظاهرة لمسناها في إجماعهم عليه وانقيادهم له - على ما بينهم من اختلاف في القرب من الإمام(عليه السلام)والبعد عنه والحب والبغض له - حين جاءه كتاب إمامه يأمره فيه بالشخوص بأهل البصرة لحرب معاوية، بعد أن يئس من استصلاحه، وفيه يقول: ((أما بعد فأشخص إليّ مَن قِبَلك من المسلمين والمؤمنين، وذكّرهم بلائي عندهم، وعفوي عنهم، واستبقائي لهم، ورغّبهم في الجهاد، وأعلِمهم الذي لهم في ذلك من الفضل))[٣].

وما كنا بحاجة إلى إعمال الفكر لإدراك صعوبة مهمته في حملهم على التوجه معه، إذا تصورنا أن البصرة قد فقدت من أبطالها اللامعين في حرب الجمل أكثر من عشرة آلاف، وأن النوائح ماتزال قائمة عليهم في بيوتهم، وربّما نقم من نقم منهم على الفاتحين، وبخاصّة أولئك الذين لايخضعون

---

(١) البداية والنهاية ج٨: ٣٠٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين ج٣: ٥٤٥.

(٣) وقعة صفين: ١١٦.

في أعماقهم لوازع من دين يهوّن عليهم - بعد معرفتهم بقيمة الإمام (عليه السلام) - ما أحدثه المصاب في نفوسهم من لوعة وحزن وإن بعض من لم يشترك في القتال في يوم الجمل كبني تميم، وجدوا في اعتزالهم الحرب بقاءً لعزهم ومجدهم فيهم، وحفظاً للكثير من أبطالهم، فسوق مثل هؤلاء وهؤلاء إلى حرب جديدة ربّما يكون من أشق الأمور، ولكن ابن عباس كشف عن مدى تمكّنه من نفوسهم باستجابتهم له جميعاً، يقول نصر: ((فقام فيهم ابن عباس فقرأ عليهم كتاب علي، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس استعدوا للمسير إلى إمامكم، وانفروا في سبيل الله خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، فإنكم تقاتلون المحلّين القاسطين، الذين لايقرؤون القرآن، ولا يعرفون حكم الكتاب، ولا يدينون دين الحق، مع أمير المؤمنين، وابن عم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والصادع بالحق، والقيّم بالهدى، والحاكم بحكم الكتاب، الذي لايرتشي في الحكم، ولا يداهن الفجّار، ولا تأخذه في الله لومة لائم))[1].

على أننا لاننسى أن الذي شارك في تخفيف مهمّته أنه ندبهم إلى حرب معاوية، وليس له من المآثر الإسلامية ما يستحق أن يرتفع معها - في نظر الرأي العام المسلم - إلى مقابلة مثل الإمام(عليه السلام)، وإذا كان لعائشة وهي أم المؤمنين، ولطلحة والزبير وهما من ذوي السوابق في الإسلام ومن أهل الشورى، في ترشيح عمر، ما يبرر لهم - في أنظار بعضهم - ذلك، فليس لمعاوية على أي حال ما يبرر موقفه من الإمام(عليه السلام).

---

(١) وقعة صفين: ١١٦.

يقول نصر: فقام الأحنف بن قيس- وهو ممن اعتزل الحرب بيني تميم في يوم الجمل- فقال: وا لله لنجيبنّك، ولنخرجنّ معك على العسر واليسر، والرضا والكره، نحتسب في ذلك الخير، ونأمل من ا لله العظيم من الأجر، وقام إليه خالد بن المعمر السدوسي فقال: سمعنا وأطعنا، فمتى استنفرتنا نفرنا، ومتى دعوتنا أجبنا. وقام إليه عمرو بن مرجوم العبدي فقال: وفّق ا لله أمير المؤمنين، وجمع له أمر المسلمين، ولعن ا لله المحلّين القاسطين الذين لايقرؤون القرآن، نحن وا لله عليهم حنِقون، ولهم في ا لله مفارقون، فمتى أردتنا صحبك خيلنا ورجلنا))[1].

وهكذا نشط الناس وأجابوا وخفّوا معه، فخرج بهم ومعهم رؤوس الأخماس، وهم خالد بن المعمر السدوسي على بكر بن وائل، وعمرو بن مرجوم العبدي على عبد القيس، وصبرة بن شيمان الأزدي على الأزد، والأحنف بن قيس على تميم وضبّة والرباب، وشريك بن الأعور الحارثي على أهل العالية ، حتى قدم على الإمام(عليه السلام) وهو بالنخيلة، وخلّف مكانه أبا الأسود الدؤلي والياً على البصرة[2].

(٩)

وقبل أن ننتقل مع الإمام(عليه السلام) وصاحبنا من النخيلة إلى صفين، لنشهد حرب معاوية وأهل الشام، يحسن بنا أن نقف قليلاً لندرس حياة

(١) وقعة صفين: ١١٦- ١١٧.

(٢) انظر المصدر السابق.

معاوية من بدايتها، فربّما أعاننا ذلك على فهم الكثير من ملابسات خصومته للإمام(عليه السلام) ثم لصاحبنا.

ومعاويةهوابن أبي سفيان عدو رسول ا لله صلىا لله عليه وآله وسلم)، وقائد كل ثورة ضده في الجاهلية، أظهر الإسلام عام الفتح بتأثير من والد صاحبنا -كما سبق ان رافقنا كيفية إسلامه - وأسلمت زوجته هند الملّقبة بآكلة الأكباد - لمضغها لكبد حمزة بعد أن مثّلت به على أثر اغتيال وحشي له في يوم أحد - ثم أسلم ولدهم معاوية، ومنَّ عليهم النبي(صلى ا لله عليه وآله وسلم) فيمن منَّ يوم الفتح، فأطلق سراحهم، وتألّفهم في المؤلفة قلوبهم، واستكتب معاوية لبعض شؤونه. وصاحبنا ما يزال يذكر حين أرسله رسول ا لله(صلى ا لله عليه وآله وسلم) إليه يدعوه يقول: ((كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول ا لله(صلى ا لله عليه وآله وسلم) فتواريت خلف باب، قال: فجاء فحطأني حطأة، وقال اذهب فادع معاوية، قال فجئت فقلت: هو يأكل، ثم قال: اذهب فادع لي معاوية، قال: فجئت فقلت هو يأكل، فقال: لا أشبع ا لله له بطنه))[1]. وكان من آثار هذا الدعاء ما عُرف عن معاوية من كثرة الأكل وعدم الشبع.

وقد كان إسلامهم قلقاً لا يتجاوز الشفاه، وربّما بغوا له فأحبط بغيهم في وقته.. هذا أبو سفيان أراد أن يستغل الفجوة بين الإمام(عليه السلام) والخليفة أبي بكر؛ لينفذ منها إلى تفريق كلمة الإسلام، فوقف وقفته تلك، ووقف الإمام(عليه السلام) منه موقف الزاجر، رغم إظهار دعوته له، وطلب مبايعته. وقد عرفنا - سابقا - كيف اشتريت عواطفه من قبل السلطة بالرشوة

---

(١) أسد الغابة ج٤: ٣٨٦.

أولاً، وبالوعد بتولية بعض وِلده ثانياً، وقد وفّت لـه، فكـان يزيـد ابنـه واليـاً على الشام، ثم كان معاوية من بعده إلى نهاية أيام عثمان.

وأخالنا لم ننس بعد كلمته في بداية خلافة عثمـان: ((تلقّفوهـا يـا بـني أُمية تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، لاجنة ولا نار...)).

وكان من قلق إسلام معاوية ما حدّث به الزبير بن بكار في الموفّقيات عن المطرف ابن المغيرة عن أبيه، من حديث طويل جاء فيه أنه قال لمعاوية في إحدى خلواته به: ((إنك قد بلغت سناً يا أمير المؤمنـين، فلـو أظهـرت عـدلاً وبسطت خيراً، قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك مـن بـني هاشـم فوصلـت أرحامهم، فوا لله ما عندهم اليوم شئ تخافه، وإن ذلـك ممـا يبقـى لـك ذكـره وثوابه، فقال: هيهات هيهات.. أي ذكر أرجو بقاءه، ملك أخو تيم فعـدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل أبوبكر، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين، فمـا عـدا أن هلـك حتىهلـك ذكره إلاّ أن يقول قائل عمر، وإن ابن أبي كبشة!! ليصاح به كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول ا لله، فأي عمل يبقـى، وأي ذكـر يـدوم بعـد هذا - لاأباً لك - لا وا لله إلاّ دفناً دفناً))[1].

وقد استغل معاوية إقامته في الشام هذه المدة الطويلة - وهـو الوصـولي البارع - فربّاها تربيةً خاصة أفصح عنها -كمـا سـبق - بقولـه: ((إن بالشـام مائة ألف سيف لايعرفون علياً ولا سابقته..الخ))، وقال المسعودي: ((وذكـر بعض الإخباريين أنّه قال لرجل من أهـل الشام، من زعمـائهم وأهـل الـرأي

---

(١) الموفقيات: ٥٧٧.

والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصاً من لصوص الفتن))[١].

وفي عهد السفّاح وجّه إليه عبد الله بن علي أشياخاً من الشام من أرباب النعم والرياسة، فحلفوا لأبي العباس السفّاح إنهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى ولّيتم الخلافة))[٢]. وهذا بالطبع من آثار تلكم التربية، وقد بقيت مخلّفاتها إلى ذلك العهد.

وقد خالجته - فيما أخال - فكرة السعي للخلافة من قولة للخليفة عمر بعد أن عيّن أهل الشورى وقال لهم: ((إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم، غلبكم على هذا الأمر معاوية بن أبي سفيان))[٣]. وبدأ السعي الحثيث لها منذ ذلك الوقت، وقد قرّب بعض الباحثين المحدثين أن مقتل عثمان ربّما عاد في خطوطه الأولى إلى تآمر من قبل مروان ومعاوية وغيرهما من عقلاء بني أمية ؛ لأنهم يعلمون بأن الأمر لو ترك وشأنه لما عاد إليهم بوجه، ولأن مقتل هذا الشيخ يعطيهم حق المطالبة بدمه، والتشبث بالحكم من هذا الطريق.

يقول علي الوردي: إني أتّهم مروان بأنه كان السبب الأكبر في مقتل عثمان، وأتّهم معاوية بأنه هو الذي أوعز إلى مروان بذلك))، ودلائل التهمة أنه رأى مروان بعد مقتل عثمان على شئ من الاتزان والتروي وبُعد النظر، أمّا في أيام عثمان فقد كان طائشاً إلى أبعد حدود الطيش، فما هو السبب؟

(١) مروج الذهب ج٢: ٣٣٣.

(٢) المصدر السابق ج٢: ٣٣٤.

(٣) شرح نهج البلاغة ج١: ٦٢.

ثم يعرض بعد ذلك صوراً من التسوية التي صنعت بين عثمان والثائرين والمحاولات الاصلاحيّة التي كان يقوم بها بعض المصلحين، وكان عثمان يتقبلها ثم يعود عنها بتأثير مروان[١] على نحو ما صوّرناه في حديث سابق.

وقد تساءل طه حسين عن الأسباب في إبطاء عمال عثمان عن نصره؛ حتى أتيح للثائرين أن يحاصروه فيطيلوا حصاره، ثم تساءل عن أسباب عدم موافاتهم له في الموسم مع أنه عوّدهم أن يوافوه، ثم تساءل أخيراً عن الأسباب التي أخّرت عامله على مكة من موافاته، مع أن ابن عباس كان قد حمل كتاباً من عثمان يستنهض فيه من شهد الموسم لنصرته، وظل عامله عليها ساكناً، والجواب في نظره أنهم ملّوا طول عمره وملّوا سياسته[٢].

ولكن هذا الجواب لا يملأ النفس، فإذا كان الشعب قد ملّ فما بال الولاة والمرتزقة من الجيش لديهم، وهم من أكبر المنتفعين من عهده، يقول الشهرستاني: ((إن ولاة عثمان رفضوا مساعدة عثمان في محنته وخذلوه حتى أتى قدره عليه))[٣].

والغريب أن معاوية أرسل جيشاً لنجدة عثمان ولكنه أمره أن يتوقف في وادي القرى دون المدينة، وقد توقّف حتى قتل عثمان فرجع، ثم يقول الوردي: ((ومن المدهش أن ترى قميص عثمان الذي قتل فيه، وأصابع زوجته التي قطعت أثناء مقتله، ترسل حالاً إلى معاوية وكأنه أمر دبّر بليل)).. وينتهي بعد ذلك إلى قوله: ((ويبدو أن الخطة أُحكم تدبيرها،

---

(١) انظر وعّاظ السلاطين لعلي الوردي - لم تذكر المطبعة ولا سنة الطبع -: ٢١٧-٢٣٠.

(٢) انظر الفتنة الكبرى (عثمان) - دار المعارف، مصر، سنة الطبع ١٩٤٧م -: ٢١٩-٢٢٠.

(٣) الملل والنحل ج١: ٢٠-٢١.

ووضعت تفاصيلها بدقة وسار كل شئ على ما يرام))[١]، وسنرى فيما بعد كيف يلتقي الوردي بصاحبنا في توجيه التهمة إلى معاوية بذلك ثم إلى مروان.

ويبدأ النزاع بعد هذا بينه وبين الإمام(عليه السلام). والنزاع في حقيقته - كما صوّره أكثر الباحثين الموضوعيين من المحدثين - لم يكن بين شخصين، بل كان بين مزاجين وذهنيتين، مزاج لا يتحرّج من ارتكاب آية وسيلة للوصول إلى غايته، وإن كان لها ما لها من الدناءة، ومزاج مقيّد برواسب دينية وخلقية لا يستطيع أن يتعداها.

فكان الأول - بحكم مزاجه وخلقه - لا يتأثّم من ارتكاب آية خلّة تتنافى مع مبادئ الدين أو الشرف، كإيواء المجرمين أو الانتهازيين، وشراء عواطفهم بالولاية أو المال، ثم الكذب والدسّ والتبذير على حساب أطماعه، بحساب وبغير حساب، بينما يتقيد الآخر بالسير نحو نهج معلوم رسمه الكتاب، وطبّقته سنّة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم).

والغريب أن يحسب البعض أن في سلوك معاوية وسيرته دهاءً لا يجده في علي(عليه السلام)، ناسياً ما كان بين الرجلين من فوارق في الخلق والمزاج و((الذين يرون في معاوية دهاءً وبراعة لا يرونهما في علي، ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية إنما يخطئون في تقدير الظروف، كما يخطئون فهم علي وواجبه، لقد كان واجب علي الأول والأخير أن يردّ للتقاليد الإسلامية قوّتها، وأن يردّ إلى الدين روحه، وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي أُميّة في كبرة عثمان ووهنه، ولو جارى معاوية في إقصاء العنصر

---

(١) وعّاظ السلاطين: ٢١٧-٢٢٠.

الأخلاقي من حسابه، لسقطت مهمته، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين، فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية؟!.

إن علياً إما أن يكون علياً أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها، وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغب عنه - كرّم الله وجهه - وهو يقول: والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس))[1].وفي ضوء هذين المزاجين،نبدأ فنساير صاحبنا وإمامه (عليه السلام) لنشهد معه حرب صفين، ونلمس بأيدينا آثار ما يدور بينهما وبين خصمهما من صراع،ليستعمل الطرفان فيه كل ما يملكانه من سلاح.

(١٠)

وتحرّك الجيش بقيادة الإمام(عليه السلام) باتجاه صفين، وكان ابن عباس قائداً لجيش البصرة[2]، وفي الطريق صادفتهما حوادث قبل وصولهما - لا يهمّ التعرض لها الآن - حتى إذا بلغوها وجدوا أمامهم معاوية، وقد انتقى لجيشه أفضل المواقع الاستراتيجية، واحتل شريعة الفرات؛ ليمنع من ورودها جيش الإمام(عليه السلام)، وهو يعتقد بذلك أنهم سيموتون ظمأً، ويتمّ له النصر من أيسر طريق، وحجّته المضللة لأهل الشام أنه يحاول أن يكافئهم بالظمأ على ما صنعوا مع عثمان، حين منعوا عنه الماء، مع أن الأمويين الذين كانوا معه لابدّ أنهم حدّثوه عن موقف الإمام(عليه السلام)

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام - دار إحياء الكتب العربية، ط٤، سنة الطبع ١٣٧٣هـ - : ١٩٧- ١٩٨.

(٢) انظر الإمامة والسياسة ج١: ٩٧.

والهاشميين في إيصال الماء إليه غير مرّة، حتى كادوا يقتتلون مع الثوار في بعضها، على ما تحدّثنا عنه، ولكنَّ وصوليته تبيح له أكثر من هذا الكذب في سبيل إثارة النفوس على الإمام(عليه السلام).

وما كان الإمام(عليه السلام) ليظمأ ومعه أهل بيته، ثم معه أشاوس أهل العراق وغيرهم، وما كان إلاّ قليلاً حتى ملكوا الماء بعد حروب دامية، أذاقوا بها أهل الشام ما أذاقوهم من حرارة النضال.

وكان أخشى ما يخشاه معاوية أن يقابله الإمام(عليه السلام) بالمثل فيضطرّه إلى الاندحار، وما علم أن الإمام(عليه السلام) أسمى من أن يرتكب هذه الطرق الملتوية التي لا تلائم نفسيته، فكان الماء مباحاً للجميع، يلتقي عنده هؤلاء وهؤلاء، فيشربون ويتحدّثون[١].

وقد أراد أصحاب الإمام(عليه السلام) أن يعجّلوا على أهل الشام بعد اندحارهم عن الماء، فأبى الإمام(عليه السلام) إلاّ أن يقيم عليهم الحجة، على طريقته في المحافظة على السلم، وأقامها عليهم أكثر من مرة[٢]، وبخاصة في فترة الأشهر الحرم التي تعاقدوا على الهدنة فيها احتراماً للشهر الحرام، وطمعاً في الصلح، فلم يزد الأمر معاوية إلاّ إصراراً.

وتجهّز الفريقان للحرب وكتّبوا الكتائب فاستعمل علي(عليه السلام) على الخيل عمار بن ياسر، وعلى الرجّالة عبدالله بن بديل، ودفع اللواء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري، وجعل على ميمنته الأشعث بن قيس - ولما أثبت صاحبنا من كفاءة نادرة في حرب الجمل وهو من أكبر قواد

---

(١) انظر الفخري في الآداب السلطانية: ٨٠.

(٢) انظر تأريخ خليفة بن خياط ج١: ١٧٧.

المعركة فيها - جعله على الميسرة[١]، وكانت زعامة قريش وأسد وكنانة إليه[٢]، فهو قائد للميسرة وهو زعيم لهذه القبائل.

وبدأت الحرب بينهم في أول يوم من صفر. وخرج في ذلك اليوم مالك الأشتر على رأس من خرج من أهل العراق، وخرج حبيب بن مسلمة على رأس من خرج من أهل الشام، ((واقتتلوا يومهم قتالاً شديداً معظم النهار ثم تراجعوا، وقد انتصف بعضهم من بعض))[٣]، بعد أن ذهب من النهار معظمه، ثم تتالت الأيام، فخرج في خامسها صاحبنا على رأس من خرج من جيشه معه، وخرج على رأس أهل الشام الوليد بن عقبة، وتطاول الوليد على بني عبد المطلب وسبّهم، فأساء فتاهم ذلك، فدعاه إلى مبارزته وألحف عليه، فجبن عنه وأبى عليه مقابلته.. يقول نصر: ((فأرسل إليه ابن عباس أن ابرز إليّ، فأبى أن يفعل، وقاتل ابن عباس قتالاً شديداً، ثم انصرفوا وكل غير غالب))[٤].

والذي يبدو - من بعض الروايات - أن الإمام(عليه السلام) نهاه وإخوته عن المبارزة، كما نهى حسناً وحسيناً وولده محمد عن ذلك[٥]، وهو إن صحّ فلابد أن يكون بعد هذا الزمان، وإلاّ فلم يكن ابن عباس ليقدم على عصيان إمامه(عليه السلام) ويدعو الوليد للمبارزة.

---

(١) انظر وقعة صفين: ٢٠٥.

(٢) انظر الفخري في الآداب السلطانية : ٨٠ . وفي تأريخ خليفة بن خياط ج١: ١٧٧، أن زعامة قريش وأسد وكنانة لعبد الله بن جعفر.

(٣) تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٤٨.

(٤) وقعة صفين: ٢٢٢.

(٥) انظر المصدر السابق: ٤٦٣.

ولمّا كان يوم الخميس صلّى علي(عليه السلام) بغلس، وخرج بالناس إلى أهل الشام فزحف إليهم، وزحفوا معه، وكان على ميمنته عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعلى ميسرته عبد الله بن عباس. والقرّاء مع ثلاثة نفر، عمار بن ياسر وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل، والناس على راياتهم ومراكزهم، وعلي في القلب في أهل المدينة[1]. وإن أصحاب علي ليذكرون ((مكان علي من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وقول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لأصحابه: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فلما قالوا له: بلى، أخذ بيد علي وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه ويذكرون كذلك قول الله عز وجل: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين**﴾[2].

فهم كانوا يرون أنهم حين يقاتلون مع علي، كأنهم يقاتلون مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه، جهاداً في سبيل الله، فليس الغريب إذاً أن يطلبوا الشهادة ويتهالكوا عليها، وإنما الغريب أن يحجموا أو يدبروا أو يترددوا))[3].

والأغرب من ذلك ـ لولا تضليل معاوية لهم ـ أن يرتاب أهل الشام من أنفسهم، لحديث سمعه ذو الكلاع من ابن العاص قديماً، وسمعه منه حديثاً

---

(١) انظر تأريخ ابن الأثيرج٣: ١٤٩، وأنظر تاريخ الطبري ج٦: ٩.

(٢) التوبة: ٢٤.

(٣) الفتنة الكبرى (علي وبنوه) ـ مطبعةدارالمعارف،مصر،سنة الطبع١٩٥٣م ـ : ٨٦.

سمعه يحدّث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أن عماراً تقتله الفئة الباغية، ولا يرتابون!، وهم خارجون لحرب الإمام(عليه السلام)، مع أن الأحاديث الواردة فيه من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أهمّ من هذا الحديث بكثير، يقول أبو نوح الحميري - وقد جاءه ذو الكلاع ليسأله عن صحة الحديث وعن جَدّ عمار في محاربتهم -: ((واعجباه من قوم يعتريهم الشك في أمرهم لمكان عمار، ولا يعتريهم الشك لمكان علي، ويستدلون على أن الحق مع أهل العراق بكون عمار بين أظهرهم ولا يعبؤون بمكان علي، ويحذرون من قول النبي: تقتلك الفئة الباغية، ويرتاعون لذلك ولا يرتاعون لقوله(صلى الله عليه وآله وسلم) في علي(عليه السلام) : اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه ولا لقوله: لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق))[1].

ولـمّا رغب ذو الكلاع أن يجمع بين عمار وابن العاص ؛ ليسمعه جدّه في قتالهم واجتمعوا لذلك قال عمار لابن العاص فيما قال: ((وسأخبرك على ما أقاتلك عليه وأصحابك، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) أمرني أن أقاتل الناكثين فقد فعلت، وأمرني أن أقاتل القاسطين وأنتم هم، وأمّا المارقون فلا أدري أدركهم أو لا، أيها الأبتر ألست تعلم أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، فأنا مولى الله ورسوله وعلي مولاي بعدهما))[2].

وكان كل واحد من صحابة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الذين كانوا معه،وغيرهم من أهل العراق، على مثل هذا اليقين أو قريب منه،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٢٧١.

(٢) المصدر السابق ج٢: ٢٧٣.

وكانوا على بصيرة من دينهم، ومع ذلك فقد قام ابن عباس فيهم خطيباً ليزيدهم ثباتاً على ثبات، وبصيرة في الدين على بصيرة، وكان ذلك على إثر خطاب لعمرو بن العاص في أهل الشام، وقد جاء في خطابه بعد الحمد والتشهد: ((وقد ساقنا قدر الله إلى ما ترون؛ حتى كان فيما اضطرب من حبل هذه الأمة وانتشر من أمرها، أن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طغام أهل الشام أعواناً على علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله وصهره، وأول ذَكَر صلى معه، بدريّ، قد شهد مع رسول الله كل مشاهده التي فيها الفضل، ومعاوية وأبو سفيان مشركان يعبدان الأصنام.

واعلموا والله الذي ملك الملك وحده، فبان به وكان أهله، لقد قاتل علي بن أبي طالب مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وعلي يقول: صدق الله ورسوله، ومعاوية وأبو سفيان يقولان: كذب الله ورسوله، فما معاوية في هذه بأبرّ ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب منه في قتالكم، فعليكم بتقوى الله والجد والحزم والصبر، وإنكم لعلى الحق، وإن القوم لعلى الباطل، فلا يكوننّ أولى بالجدّ في باطلهم منكم في حقكم، أما والله إنّا لنعلم أن الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم، اللهم ربنا أعنّا ولا تخذلنا، وانصرنا على عدونا، ولا تخل عنا، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أقول قولي وأستغفر الله لي ولكم))(١).

وكان هذا اليوم مشهوداً من أيام صفين، فقد تقدّمت ميمنة أهل العراق وهي بقيادة ابن بديل، حتى بلغت معاوية أو كادت، واضطرب على معاوية أمره، لولا أن تجّمع عليه جميع أهل الشام، فترتد عنه منهزمة إلاّ فئة

---

(١) وقعة صفين: ٣١٨.

قليلة منها، وتعرضت في ذلك اليوم ميسرة أهل العراق وهي بقيادة صاحبنا لأعنف هجوم من قبل أهل الشام.. يقول ابن الأثير: ((وخرجت حمير في جمعها ومن انضم إليها من أهل الشام،ومقدمهم ذوالكلاع ومعه عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وهم ميمنة أهل الشام فقصدوا ربيعة وكانت ربيعة ميسرة أهل العراق وفيهم ابن عباس على الميسرة، فحملوا على ربيعة حملة شديدة فتضعضعت راية ربيعة،وكانت الرايةمع أبي ساسان حضين بن المنذر، فانصرف أهل الشام عنهم، ثم كرّ عبيد الله بن عمر، وقال: يا أهل الشام إن هذا الحي من أهل العراق قتلة عثمان وأنصار علي، فشدّوا على الناس شدّة عظيمة، فثبتت ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلاّ قليلاً من الضعفاء والفشلة، وثبت أهل الرايات وأهل الصبر والحفاظ وقاتلوا قتالاً حسناً))[١]. وانضم إلى ربيعة عبد القيس بني بكر فقاتلوا معهم وقتل ذو الكلاع وعبيد الله بن عمر، وكثرت القتلى من الطرفين.

وخرج عمار بن ياسر - ولعمار حديث لا يصحّ إغفاله في هذه الدراسة؛ لما اكتنفت حياته من ملابسات كان لها التأثير الكبير على نفسيّة الجيشين المتقابلين، وكان لها بطبيعة الحال أكبر الأثر على نفس صاحبنا وإمامه(عليه السلام)، فلنعطها لذلك شيئاً من الأهميّة - .

قال ابن الأثير: ((وخرج عمار بن ياسر على الناس فقال: اللّهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته، اللّهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبّة سيفي في بطني، ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلته، وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٥٥.

من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته، والله إني لأرى قوماً ليضربنكم ضرباً يرتاب منه المبطلون، وأيم الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هَجَر؛ لعلمت أنّا على الحق وأنهم على الباطل)).

ثم قال: ((من يبتغي رضوان الله ربه ولا يرجع إلى مال ولاولد، فأتاه عصابة فقال: اقصدوا بنا هؤلاء القوم الذين يطلبون دم عثمان، والله ما أرادوا الطلب بدمه، ولكنّهم ذاقوا الدنيا واستحبّوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه منها، ولم يكن لهم سابقة يستحقّون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخدعوا أتباعهم وقالوا: إمامنا قتل مظلوماً ؛ ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، فبلغوا ما ترون، فلولا هذا ما تبعهم من الناس رجلان. اللّهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم)).

يقول المحدّث: ((ثم مضى ومعه تلك العصابة فكان لا يمرّ بواد من أوديةصفين إلاّ تبعه من كان هناك من أصحاب النبي(صلىاللهعليهوآلهوسلم)، ثم جاء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص، وهو مرقال، وكان صاحب راية علي، وكان أعور فقال: يا هاشم أعوراً وجبناً! لا خير في أعور لايغشى البأس، اركب يا هاشم، فركب ومضى معه وهو يقول..

أعور يبغي أهله محلاّ   قد عالج الحياة حتى ملاّ

لا بدّ أن يَفلّ أو يُفلاّ   يتلّهم بذي الكعوب تلاّ

وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت تحت أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء وتزيّنت الحور العين، اليوم ألقى الأحبّة محمداً وحزبه.

وتقدم حتى دنا من عمرو بن العاص فقال له: يا عمرو بعت دينك بمصر تبّاً لك، فقال له: لا ولكن أطلب بدم عثمان، قال: أنا أشهد على علمي فيك أنك لا تطلب بشئ من فعلك وجه الله، وإنك إن لم تقتل اليوم تمت غداً، فانظر إذا أعطي الناس على قدر نيّاتهم ما نيّتك.. لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذه الرابعة ما هي بأبرّ وأتقى))[١].

وقاتل في ذلك اليوم قتالاً شديداً، يقول حبّة بن جوين العرني: ((قلت لحذيفة بن اليمان: حدّثنا فإنا نخاف الفتن فقال: عليكم بالفئة التي فيها ابن سمية، فإن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: تقتله الفئة الباغية الناكبة عن الطريق، وإن آخر رزقه ضياح من لبن - وهو الممزوج بالماء من اللبن - قال: فشهدته يوم قتل وهو يقول: ائتوني بآخر رزق لي في الدنيا، فأتي بضياح من لبن))[٢].

وأحدث موت عمار - بعد أن شاع - رجّة في الجيشين معاً، أما جيش الإمام(عليه السلام) فقد طبّقه الأسى والحزن، وأما جيش معاوية فقد سرت فيه موجة ارتياب لحديث ابن العاص، وكان من سوء حظهم أن يموت ذو الكلاع قبله بقليل، وكان عمرو بن العاص - على طريقته في الوصوليّة - يمنّيه أن سينتقل عمار إلى صفوفهم، فلما قتلا معاً، قال عمرو بن العاص لمعاوية: ((ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً بقتل عمار أوبقتل ذي الكلاع، والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام إلى علي)).

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٥٥-١٥٦.

(٢) المصدر السابق.

وطغت موجة الارتياب في صفوفهم، فاضطر معاوية أن يدلي بهذا التصريح الغريب: أنحن قتلناه إنما قتله من جاء به!!.. يقول الراوي: ((فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم - وقد نفّس عنهم هذا التصريح - وهم يقولون إنما قتل عماراً من جاء به،فلاأدري من كان أعجب أهو أم هم))[١].

وبلغ تصريح معاوية جيش العراق، وطبّق مسامع صاحبنا، فأدلى بجواب على تصريحه يفيض بالمرارة، وهو - على اختصاره - قامع لأية شبهة - لو كان لأهل الشام قلوب يعقلون بها - يقول الراوي: ((فقال ابن عباس: فقد قَتل رسول الله حمزة لأنه جاء به إلى الكفار))[٢].

وثار الإمام(عليه السلام) لمقتل عمار، فأقبل على ربيعة وهمدان، وقال لهم: أنتم درعي ورمحي فانتدب له نحو من اثني عشر ألفاً، وسار بهم إلى أهل الشام فلم يبق لهم صفٌ إلاّ انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية، والإمام(عليه السلام) يقول..

أقتلهم ولا أرى معاويه الجاحظ العين العظيم الحاويه

ثم نادى الإمام(عليه السلام) معاوية فقال: ((علامَ يُقتل الناس بيننا، هلمّ أحاكمك إلى الله، فأيّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور))، وهنا تبرز وصوليّة صاحبه ابن العاص بأبشع صورها يقول: فقال له عمرو: ((أنصفك، فقال له معاوية: ما أنصفت، إنك لتعلم أنه لم يبرز إليه أحد إلاّ قتله))[٣].

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٥٧.

(٢) دلائل الصدق ج٣ قسم١: ٢٠٩.

(٣) تأريخ ابن الأثير ج٣م: ١٥٧.

(١١)

ومن الغريب أن يطمع معاوية في ابن عباس، وهو يعلم مبلغ عقله ويقظته وإيمانه با لله وبطله الإمام(عليه السلام)؛ فيحاول خداعه، والتأثير على الإمام(عليه السلام) من طريقه؛ لما يعرف من تمكّنه من نفسه، حتى كأنها نفس واحدة.. يقول نصر: ((إن معاوية لما يئس من جهة الأشعث - وكان قد راسله؛ ليفسد قلبه على الإمام - قال لعمرو بن العاص: إن رأس الناس بعد علي هو عبدا لله بن عباس، فلو ألقيت إليه بكتاب لعلك ترقّقه، فإن قال شيئاً لم يخرج علي منه، وقد أكلتنا الحرب ولا أرانا نصل إلى العراق إلاّ بهلاك أهل الشام، قال له عمرو - وهو يعرف قيمة ابن عباس ويقظته -: إن ابن عباس لا يُخدع، ولو طمعت فيه لطمعت في علي، فقال معاوية: عليَّ ذلك، فاكتب إليه، فكتب إليه عمرو: أما بعد فإن الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء وساقته العافية، وأنت رأس هذا الجمع بعد علي، فانظر فيما بقي ودع ما مضى، فوا لله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرا، واعلموا أن الشام لا تملك إلاّ بهلاك العراق، وأن العراق لاتملك إلاّ بهلاك الشام، وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم، وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا، ولسنا نقول: ليت الحرب غارت، ولكنا نقول: ليتها لم تكن، وإن فينا من يكره القتال كما أن فيكم من يكرهه، وإنما هو أمير مطاع أو مأمور مطيع أو مؤتمن مشاور، وهو أنت، وأما الأشتر الغليظ الطبع القاسي القلب فليس بأهل أن يدعى في الشورى ولا في خواص أهل النجوى))، ثم ألحق الكتاب بهذه الأبيات:

طال البلاء وما يرجى له آس ... بعد الإله سوى رفق ابن عباس
قولا له قول من يرضى بحظوته ... لاتنس حظك إن الخاسر الناسي
يا ابن الذي زمزم سقيا الحجيج له ... أعظم بذلك من فخر على الناس
كل لصاحبه قرن يساوره ... أسد العرين أسود بين أخياس
لو قيس بينهم في العرب لاعتدلوا ... العجز بالعجز ثم الرأس بالراس
انظر فدى لك نفسي قبل قاصمة ... للظهر ليس لها راق ولا آسي
إن العراق وأهل الشام لن يجدوا ... طعم الحياة مع المستغلق القاسي
بسر وأصحاب بسر والذين هم ... داء العراق رجال أهل وسواس
قوم عراة من الخيرات كلهم ... فما يساوي به أصحابه كاسي
إني أرى الخير في سلم الشآم لكم ... والله يعلم ما بالسلم من باس
فيها التقى وأمور ليس يجهلها ... إلاّ الجهول وما النوكى كأكياس

يقول نصر: ((فلما قرأ ابن عباس الكتاب أتى به علياً فأقرأه شعره، فضحك وقال: قاتل الله ابن العاص ما أغراه بك يا ابن العباس؟! أجبه، وليردّ شعره الفضل بن العباس فإنه شاعر))[1].

وكان جواب ابن عباس من أروع الأجوبة في بابها، فقد وضع يده على جوانب المراوغة في كتابه السابق، وكشف عن أنحاء من وصوليّة ابن العاص، ومساومة معاوية له على مناصرته، وإن من أحطّ صور الوصوليّة أن يساوم الشخص على بيع دينه وضميره مساومة مكشوفة، ويكون الثمن يسيراً بالنسبة إليه..

---

(١) وقعة صفين: ٤١٠.

يقول في جوابه: ((أما بعد فإني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياءً منك، إنه مال بك معاوية إلى الهوى وبعته دينك بالثمن اليسير، ثم خبطت بالناس في عشوة طمعاً في الملك، فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع، فإن كنت ترضي الله بذلك فدع مصر وارجع إلى بيتك، وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلي. ابتدأها علي بالحق وانتهى فيها إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف، وليس أهل العراق فيها كأهل الشام. بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم، وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه، ولست أنا وأنت فيها بسواء، أردتُ الله وأردتَ أنت مصر، وقد عرفت الشيء الذي باعدك مني، ولا أرى الشئ الذي قرّبك من معاوية، فإن ترد شراً لانسبقك به، وإن ترد خيراً لاتسبقنا إليه.

ثم دعا أخاه الفضل بن العباس فقال له: يا ابن أم أجب عمراً، فقال الفضل:

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس	فاذهب فليس لداء الجهل من آسي
إلاّ تواتر طعن في نحوركم	يشجي النفوس ويشفي نخوة الراس
هذا الدواء الذي يشفي جماعتكم	حتى تطيعوا علياً وابن عباس
أمّا علي فإن الله فضّله	بفضل ذي شرف عال على الناس
إن تعقلوا الحرب نعقلها مخيّسة	أو تبعثوها فإنا غير أنكاس
قد كان منا ومنكم في عجاجتها	ما لايرد وكلّ عرضة الباس
قتلى العراق بقتلى الشام ذاهبة	هذا بهذا وما بالحق من باس
لابارك الله في مصر لقد جلبت	شراً وحظك منها حسوة الحاسي

يا عمـرو إنك عارٍ مـن مغارمهـا   والراقصات ومن يوم الجزا كاسـي))[١]

وقصة مصر وجعلها ثمناً لعواطف عمـرو بـن العـاص قصـة مشـهورة إذ ذاك، وقد ذكرها جلّ مـن أرّخ لـه، ففـي الإمامـة والسياسـة أن معاويـة كتـب لـه يستدعيه للقدوم عليه بعد حادثة الجمل، فاستشار ولديه في القـدوم فاختلفـا، وتردد بادئ ذي بدء، فأدرك مولاه وردان ما في نفسه من صراع، فقـال لـه: ((أما إنك إن شئت نبّأتك بما في نفسك، فقال عمرو: هات يا وردان فقال: اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت: مع علـي الآخـرة بـلا دنيـا ومـع معاوية الدنيا بغـير آخـرة، فـأنت واقـف بينهمـا، فقـال عمـرو: مـا أخطـأت ما في نفسي))[٢]. وفضّل أخيراً الدنيا على الآخرة، فرحل إليه، ودعاه معاوية إلى بيعته فقال عمرو: ((لا والله لا أعطيك من ديني حتى آخـذ مـن دنيـاك، قال معاوية: صدقت سل تعط فقال: مصر طعمة))، يقول الراوي: ((فغضـب مروان بن الحكم وقال: ما بالي لا أُشترى، فقال معاوية: اسكت يا ابـن العـم فإنما نشتري لك الرجال، فكتب معاوية لعمرو مصر طعمةً))[٣].

وفي حديث أنه قال لمعاوية: ((أترى إننا خالفنا علياً لفضـل منّـا عليـه، لا والله، إن هـي إلاّ الدنيـا نتكـالب عليهـا، وأيـم الله لتقطعـنّ لي قطعـة من دنياك وإلاّ نابذتك))[٤].

---

(١) وقعة صفين: ٤١٣-٤١٤.

(٢) الإمامة والسياسة ج١: ٩٠.

(٣) المصدر السابق ج١: ٩١.

(٤) معاوية بن أبي سفيان في الميزان للعقاد - كتاب الهلال - : ٥٥.

وهكذا انتهت عملية البيع والشراء، وكان المغبون في نظر صاحبنا هو من باع دينه بالثمن اليسير كما مرّ في الكتاب.

وكان لهذا الكتاب وقعه في نفس الإمام(عليه السلام) فقد قرّضه بقوله: ((لا أراه يجيبك بشيء بعدها إن كان يعقل، ولعله يعود فتعود عليه))، وبالعكس فقد ساء وقعه في نفس ابن العاص، وأنّب معاوية على إقحامه في هذا المأزق.. يقول الراوي: ((فلما انتهى الكتاب إلى عمرو أتى به معاوية فقال: أنت دعوتني إلى هذا، ما كان أغناني وإياك عن بني عبد المطلب))[1].

ولكن معاوية فيما يبدو سُرّ للفقرة الأخيرة فيه؛ لأنها لم تسد بوجهه باب المفاوضات في سبيل إنهاء الحرب التي يئس معاوية - فيما يبدو - من الظفر فيها، والعبارة: ((فإن ترد شراً لا نسبقك به، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه))، ويبدو أن عمراً لم يفهمها، فنبهه معاوية إلى ذلك، يقول: فقال: ((إن قلب ابن عباس وقلب علي واحد، كلاهما ولد عبد المطلب، وإن كان قد خشن فلقد لان، وإن كان قد تعظّم أو عظم صاحبه فلقد قارب وجنح إلى السلم))[2].

وكان معاوية - فيما يقال - يكاتب ابن عباس، وكانت أجوبة ابن عباس له أجوبة تمليها عليه حنكته، فكان يلاينه ويجاريه؛ حتى أفصح له معاوية برغبته في إنهاء الحرب، على أن تكون الشام له، ولعلّ هذه المراسلة جاءت على إثر جواب ابن عباس السابق لابن العاص، وفهم معاوية منه مقاربته وجنوحه إلى السلم، وكان كتاب معاوية بهذا اللسان

---

(١) وقعة صفين: ٤١٤.

(٢) المصدر السابق.

((أما بعد فإنكم معشر بني هاشم، لستم إلى أحد أسرع منكم بالمساءة إلى أنصار عثمان، فإن يك ذلك لسلطان بني أمية، فقد ورثها عَدي وتيم وقد وقع من الأمر ما قد ترى، وأدالت هذه الحرب بعضنا من بعض؛ حتى استوينا فيها، فما أطمعكم فينا أطمعنا فيكم، وما آيسكم منا آيسنا منكم، وقد رجونا غير الذي كان، وخشينا دون ما وقع، ولستم ملاقينا اليوم بأحدّ من حدّكم أمس، وقد منعنا بما كان منا الشام، وقد منعتم بما كان منكم العراق، واتقوا الله في قريش، فما بقي من رجالها إلاّ ستة، رجلان بالشام ورجلان بالعراق ورجلان بالحجاز، فأمّا اللذان بالحجاز فسعد وعبد الله بن عمر، وأمّا اللذان بالشام فأنا وعمرو، وأما اللذان بالعراق فعلي وأنت، ومن الستة رجلان ناصبان لك وآخران واقفان عليك، وأنت رأس هذا الجمع اليوم وغداً،ولو بايع الناس لك بعد عثمان،كنا أسرع إليك منا إلى علي))(١).

وقد أغاظ هذا الكتاب صاحبنا بما جمع من التبكيت والتهمة والإغراء والتهديد والطمع بالملك؛ فخرج على طريقته بالمراسلة، وأفصح له عن ذات نفسه بجواب بليغ، أخذ عليه منافذ القول وأسلمه إلى الغيظ واليأس المريرين.. يقول الراوي: فلما انتهى الكتاب إلى ابن عباس ((ضحك، ثم قال: حتى متى يخطب إليّ معاوية عقلي، وحتى متى أجمجم له عمّا في نفسي، فكتب إليه: أما بعد فقد جاءني كتابك، فأما ما ذكرت من سرعتنا بالمساءة إلى أنصار عثمان ولسلطان بني أمية، فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك، لقد استنصرك فلم تنصره ؛ حتى صرت إلى ما صرت إليه، وبيني وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة، وأما قولك:

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٠٥.

إنه لم يبق من رجال قريش غير ستة، فما أكثر رجالها وأحسن بقيّتها، وقد قاتلك من خيارها من قاتلك، و لم يخذلنا من خذلك، وأما إغراؤك أيانا بعَدي وتيم، فأبو بكر وعمر كانا خيراً منك ومن عثمان، كما أن علياً خير منك، وأما قولك: إنا لن نلقاك إلاّ بما لقيناك به، فقد بقي لك منا يوم ينسيك ما قبله، وتخاف له ما بعده، وأما قولك: أن لو بايعني الناس استقمت، فقد بايعوا علياً وهو خير مني فلم تستقم له، وأن الخلافة لا تصلح إلاّ لمن كان في الشورى، فما أنت والخلافة وأنت طليق الإسلام، وابن رأس الأحزاب، وابن آكلة الأكباد من قتلى بدر))[1].

ورغم ثورة ابن عباس النفسيّة في هذا الكتاب فقد حافظ على لباقته في الإجابة على جميع النقاط فيه، وأبدع تحميله لمسؤولية قتل عثمان؛ لتركه لنصرته رغم استنصاره؛ ليصير إلى ما صار إليه من البلوغ إلى الاستئثار بالملك والاحتفاظ بالشام باسم المطالبة بدمه، وما أجمل تخلصه من حديث تيم وعَدي بتفضيلهما على عثمان، ثم تفضيل عثمان عليه، وما أروع تهديده له ((وقد بقي لك منا يوم ينسيك ما قبله))، ثم غمزته له بعدم استحقاقه للخلافة؛ لكونه طليقاً وابن طليق، وكان أروع ما فيه جوابه على دسّه الرخيص في التفرقة بينه وبين الإمام(عليه السلام) بتفضيله عليه باجتماع الكلمة له، لو قدّر له أن يبايع من قبل الناس، تأمّلوا ((وأما قولك: إنه لو بايعني الناس استقمت، فقد بايع الناس علياً وهو خير مني فلم تستقم له)).

وأقلق هذا الكتاب معاوية، فتحامل على نفسه لكتابته له.. يقول الراوي:فقال:((هذا عملي بنفسي، لا وا لله لا أكتب إليه كتاباً سنة كاملة)).

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٠٥-١٠٦.

وفي شعره الذي نُسب له بعد وصول هذا الكتاب ما يكشف عن مدى انفعاله وتأثره له يقول..

((دعوت ابن عباس إلى حدّ خطة ... وكان امرءً أهدي إليه رسائلي
فأخلف ظني والحوادث جمة ... ولم يك فيما قال مني بواصل
وما كان فيما جاء ما يستحقه ... وما زاد أن أغلى عليه مراجلي
فقل لابن عباس تراك مفرّقا ... بقولك من حولي وإنك آكلي
وقل لابن عباس تراك مخوّفا ... بجهلك حلمي إنني غير غافل
فأبرقْ وأرعدْ ما استطعت فإنني ... إليك بما يشجيك سَبْط الأنامل))(١)

وذكروا للفضل جواباً على الشعر جاء فيه:

((دعوت ابن عباس إلى السلم خدعة ... وليس لها حتى تدين بقابل
فلا سلم حتى تشجر الخيل بالقنا ... وتضرب هامات الرجال الأماثل

ومنها..

وقلت له لو بايعوك تبعتهم ... فهذا علي خير حاف وناعل
وصي رسول الله من دون أهله ... وفارسه إن قيل هل من منازل
فدونكه إن كنت تبقي مهاجراً ... أشم كنصل السيف غيرحلاحل))(٢)

وكانت آخر محاولة لمعاوية في الاحتفاظ بالشام حين دعا أحد أصحابه الإمام(عليه السلام)، وعرض عليه أن يدع لهم الشام وللإمام(عليه السلام) العراق، وكان جواب الإمام(عليه السلام) للشامي قاطعاً فقد جاء فيه: ((ولقد أهمّني هذا الأمر وأسهرني، وضربت أنفه وعينيه، فلم أجد إلاّ القتال

---

(١) وقعة صفين: ٤١٦.

(٢) المصدر السابق.

أو الكفر بما أنزل الله على محمد(صلى الله عليه وآله وسلم). إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون، لايأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة الأغلال في جهنم))(١).

وصدق ابن عباس معاوية حين قال له: ((وقد بقي لك منا يوم ينسيك ما قبله))، فقد تزاحف بعضهم إلى بعض، فالأشتر في ميمنة الناس وصاحبنا في الميسرة وعلي عليه السلام في القلب(٢).

وكانت ليلة الهرير، فكانت أفظع ليلة تمر على أهل الشام ؛ لكثرة من قتل منهم ؛ وبان الوهن بهم، وحاول معاوية الهروب، واستدعى بفرسه ليركبه،لولا أن يتذكر شعر عمرو بن الأطنابة -كما في رواية ابن حاطب(٣)- وفي رواية صاحبنا أنه حدّثه: ((أنه كان يومئذ قد قرّب إليه فرساً له انثى بعيدة البطن من الأرض؛ ليهرب عليها، حتى أتاه آت من أهل العراق، فقال له: إني تركت أصحاب علي في مثل ليلة الصدر من منى فأقمت))(٤). واستفسر ابن عباس عن ذلك الرجل، فأبى عليه معاوية أن يخبره به(٥)، وربّما كان ذلك رسولاً من الأشعث بن قيس، أرسله بعد خطبته المهولة للحرب والمنذرة لهم من الفناء ؛ ليمهّد بها لقبول التحكيم - إذا صحّ ما يظنه بعضهم من اشتراكه في المؤامرة - فاضطر معاوية وابن العاص إلى خدعة التحكيم،

---

(١) وقعة صفين: ٤٧٤.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ج١: ١٨٨.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر المصدر السابق.

وفوجئ أهل العراق - وهم على أبواب النصر - بالرماح وهي تحمل المصاحف، وأمامها مصحف المسجد الأعظم، يمسكه عشرة رهط، وهم ينادون ((يا معشر العرب الله الله في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فَنيتم، الله الله في دينكم، هذا كتاب الله بيننا وبينكم))(١).

(١٢)

ونجح ابن العاص في مكيدته هذه، فقد استطاع أن يشقّ جيش العراق إلى نصفين... نصف يرى الحرب ويرى أن هؤلاء ليسوا أهل دين، وإنما هي مكيدة لجؤوا إليها ليسلموا من فشل الهزيمة، وقسم يرى أن يجابوا إليه، وعلى رأسهم الأشعث بن قيس. ويرى طه حسين أن موقف الأشعث لم يكن طبيعياً في ذلك اليوم، وربّما اتهمه بالتآمر مع ابن العاص على ذلك فهو يقول: ((فما أستبعد أن يكون الأشعث بن قيس وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم قد اتصل بعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً، ودبروا أن يقتتل القوم، فإن ظهر أهل الشام فذاك، وإن خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب علي وجعلوا بأسهم بينهم شديداً))(٢).

وملابسات هذه الحادثة ربّما تؤيد هذا الرأي وليس المهم عرضها الآن.

---

(١) وقعة صفين: ٤٧٨.

(٢) الفتنه الكبرى (علي وبنوه): ٨٩.

ومثل هذه المكيدة لا يمكن أن تنطلي على الإمام(عليه السلام) ولا على صاحبنا، ممن عرفوا معاوية وابن العاص، وغير معاوية وابن العاص من صحابتهم، وقد صحبوهم فقدّروا مقدار إيمانهم وتمسكهم بالقرآن، وربّماكان عهد صاحبنا غير بعيد بحديث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عنهما يقول: ((قال: سمع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) صوت رجلين يتغنيان وهما يقولان..

ولا يزال جوادي تلوح عظامه ذوا الحرب عنه أن يجن فيقبرا[1]

فسأل عنهما فقيل له: معاوية، وابن العاص، فقال: اللّهم أركسهما في الفتنة ركسا ، ودعّهما إلى النار دعّا))[2].

وقام الإمام(عليه السلام) فحذّر أصحابه مغبّة هذه المكيدة، وبصّرهم بحال أعدائهم وما يهدفون إليه منها فقال لهم: ((عباد الله امضوا على حقكم، وصدقكم قتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرَف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال، وَيْحَكم إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها، ولا يعلمون بما فيها، وما رفعوها لكم إلاّ خديعة ودهناً ومكيدة))[3].

---

(١) كذا البيت في المصدر ، وفي وقعة صفين:٢١٩

يزال حواريّ تلوح عظامه زوى الحرب عنه أن يحس فيقبرا

(٢) دلائل الصدق ج٣قسم١: ٢٢٩،ويوجد مضمون هذا الحديث في وقعةصفين:٢١٩ برواية أبي برزة الأسلمي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).

(٣) تأريخ الطبري ج٦: ٢٧.

واختلفت كلمة زعماء أهل العراق فمنهم المؤيد له في الحرب، ومنهم الداعي إلى قبول التحكيم، وقد طلب هؤلاء منه أن يرسل إلى الأشتر، وكان قريباً من النصر؛ أن يكفّ عن القتال، فأرسل إليه، وامتنع بادئ ذي بدء، ثم استجاب، وجاء إلى الإمام(عليه السلام) وهم محيطون به، فطلب إليه أن يمهله فواقاً، فقد طمع في النصر، فأبوا عليه فشتمهم وشتموه، وكان من رأيه أن يقلب الصف على الصف، ويستأصل شأفة الجميع، فأبى عليه الإمام(عليه السلام) .. وبعد أخذ ورد أعلن قبول التحكيم.

وجاء دور اختيار الحكمين، فأما أهل الشام - وطاعتهم لمعاوية معروفة - فلم تختلف لهم كلمة في تعيين مرشحهم، وأما أهل العراق فقد اختلفت كلمتهم أيضاً، فالإمام(عليه السلام) كان لا يرى لها غير ابن عباس، وكان يقدّر في نفسه أن أهل الشام لا يعدون ابن العاص في اختيارهم.. يقول محمد بن علي: ((لما أراد الناس علياً أن يضع الحكمين، قال لهم: إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وأنه لا يصح للقرشي إلاّ مثله، فعليكم بعبد الله بن العباس فارموه به، فإن عمراً لا يعقد عقدة إلاّ حلّها عبد الله، ولا يحلّ عقدة إلاّ عقدها، ولا يبرم أمراً إلاّ نقضه، ولا ينقض أمراً إلاّ أبرمه)).. وكان الأشعث لسان المعارضة.. فكان جوابه: ((لا والله لا يحكم فينا مضريّان حتى تقوم الساعة، ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن؛ إذ جعلوا رجلاً من مضر.. وأجاب الإمام(عليه السلام):إني أخاف أن يُخدع يَمَنيّكم؛ فإن عمراً ليس من الله في شئ إذا كان له في أمر هوى.. فقال الأشعث: والله لئن يحكما ببعض

ما نكره، وأحدهما من أهل اليمن، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريّان))(١).

وكان مرشح المعارضة هو أبو موسى الأشعري. يقول طه حسين في تتمّة حديثه السابق: ((وأكبر الظن عندي كذلك أن المؤامرة لم تقف عند هذا الحد، وإنما تجاوزته إلى ما هو أشد منه خطراً، وهو اختيار الحكمين، فلأمرٍ ما ألحّ الأشعث ومن تبعه من اليمانية في أن يختار علي أبا موسى الأشعري، ولم يطلقوا له الحرية في اختيار حكم يثق به ويطمئن إليه، وهم يعلمون أن أبا موسى قد خذّل الناس عن علي في الكوفة حتى عزله عن عمله، فقد كان علي إذاً مكرهاً على قبول التحكيم، ومكرهاً على اختيار أحد الحكمين، ولم تأت الأمور مصادفة، وإنما جاءت عن ائتمار وتدبير بين طلاب الدنيا من أصحاب علي وأصحاب معاوية جميعاً))(٢).

وألحّ الإمام على تعيين عبد الله بن عباس، وألحّوا على خلافه وكان من قوله لهم: ((إنكم قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أولّي أبا موسى))، وعلّل لهم ذلك بقوله: ((إنه ليس لي بثقة، قد فارقني وخذّل الناس عني، ثم هرب مني حتى آمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نولّيه ذلك، قالوا: ما نبالي إنك كنت أم ابن عباس، لانريد إلاّ رجلاً هو منك ومن معاوية سنواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر))(٣).

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ١٨٩.

(٢) الفتنه الكبرى (علي وبنوه): ٩٠.

(٣) تأريخ الطبري ج٦: ٢٨.

وأراد الإمام(عليه السلام) الأشتر مكانه[١] فأبوا عليه أيضاً ولم يسعه إلاّ أن يوافقهم، فوافقهم وهو يعلم أن لا خطر عليه ما دام الكتاب والسنّة هما المحكّمين، وحجته فيهما على خصومه أبرز من أن يتخوف عليهما من الغموض، وبلغ أهل الشام اختيار أهل العراق لأبي موسى الأشعري، فسرّهم - بالطبع - وساء منهم بعض من اعتزل الحرب، ولم يساند معاوية فيها أمثال أيمن بن خريم الأسدي، ولأيمن هذا أبيات أرسلها إلى معاوية تصوّر مدى أسفه لوقوع هذا الاختيار غير الموفق من أهل العراق.. نوردها لتعلقها بصاحبنا وتحدّثها عن كفايته يقول..

((لوكان للقوم رأي يعصمون به ... من الضلال رموكم بابن عباس

لله درّ أبيه أيما رجل ... ما مثله لفصال الخطب في الناس

لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن ... لايهتدي ضرب أخماس لأسداس

إن يخلُ عمرو به يقذفه في لجج ... يهوي به النجم تيساً بين أتياس

أبلغ لديك علياً غير عاتبة ... قول امرئ لا يرى بالحق من باس

ما الأشعري بمأمون أبا حسن ... فاعلم هديت وليس العجز كالراس

فاصدم بصاحبك الأدنى زعيمهم ... إن ابن عمك عباس هو الآسي))[٢]

ولكن ما يصنع الإمام(عليه السلام)، والفتنة واقعة في صفوفه، لو أصرّ عليه، وقد رأينا - قبل قليل - مدى حرصه على تمثيله في هذه الحكومة، والأبيات بعدُ تعطيك فكرة واضحة عن انتشار تركّز صاحبنا وأهميته في نفوس أمثال هذا الشاعر من أهل الشام، وما أجمل قوله في مطلع أبياته..

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٦: ٢٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ١٩٠.

لو كان للقوم رأي يعصمون بـه من الضلال رموكم بابن عباس

وأخيراً كُتب الكتاب.. وكان من جملة موقّعيه صاحبنا عن أهل العراق، وقيل: إن الذي كتبه ابن عباس.. فلما كتب: ((هذا ما قاضا عليه أمير المؤمنين لمعاوية بن أبي سفيان، قال عمرو بن العاص: امح أمير المؤمنين فإنا لا نعرفه، فلو عرفنا أنه أمير المؤمنين ما نازعناه، فقال أمير المؤمنين لابن عباس: أمحه، فقال ابن عباس: لا أمحوه، فمحاه أمير المؤمنين، وقال: أما والله لعلى يدي دار هذا يوم الحديبية حين كتبت الكتاب عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو، فقال سهيل: لا أجيبك إلى كتاب تسمّى فيه رسول الله لو أعلم أنك رسول الله لم أقاتلك.. الحديث))[١]. وحمله الأشعث إلى مختلف القبائل يقرؤه عليهم واحدة واحدة، والغريب أن يندم بالوقت بعض هؤلاء الخارجة الذين أصرّوا على الإمام(عليه السلام) في قبول التحكيم، فيدعونه إلى نقض ما أعطاه من عهد، ولكنَّ الإمام(عليه السلام) يأبى ؛ لأنه مأمور بحفظ العهود، ومثله لا ينقض عهداً أعطاه مهما كلف الحال[٢].

(١٣)

وكان أبو موسى الأشعري إذ ذاك بأرض من أرض الشام، فأُرسل إليه بالخبر.. ولما حضر أتاه ابن عباس وعنده وجوه الناس وأشرافهم،

---

(١) وقعة صفين : ٥٠٨ .

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ج١: ١٩٣.

وألقى عليه نهجاً لو قدّر له أن يتّبعه في حديثه مع ابن العاص لأخذ التأريخ مجرى آخراً، وقد حذّره من مكره فأبلغ.. يقول المدائني: ((فقال له - يعني صاحبنا -: أبا موسى إن الناس لم يرضوا بك و لم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك، ولكن أهل العراق أبوا إلاّ أن يكون الحَكم يمانياً، ورأوا أن معظم أهل الشام يمان، وأيم الله إني لأظن ذلك شراً لك ولنا، فإنه قد ضم إليك داهية العرب، وليس في معاوية خلّة يستحق بها الخلافة، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه، وإن يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك، واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق؛ استعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ويوجره ما يكره، ثم استعمله عثمان برأي عمر وما أكثر من استعملا ممن لم يدّع الخلافة، واعلم أن لعمرو مع كل شئ يسرّك خبأً يسوؤك. ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وإنها بيعة هدى، وإنه لم يقاتل إلاّ العاصين والناكثين))(١).

وما أعلم كلاماً أبلغ من هذا الكلام في الجمع بين تلقين الحجة وإعداد الجواب لما يحتمل أن يحتج به الخصم، والتحذير من خطر الطرف الثاني في الحكومة، وقد ترك هذا الكلام أثراً بليغاً في نفوس مستمعيه؛ حتى قام شاعر قريش فأنشد على إثره هذه الأبيات كما في رواية الموفقيات..

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ١٩٥.

((وا لله ماكلّم الأقوام من بشر بعد الوصي علي كابن عباس
أوصى ابن قيس بأمر فيه عصمته لوكان فيها أبو موسى من الناس
إني أخاف عليه مكر صاحبه أرجو رجاءمخوف شيب بالياس))[١]

وكأنّ أبا موسى بحكم عقدته النفسيّة - التي نشأت له من موقفه مع الإمام(عليه السلام) وموقف الإمام منه - استشعر التهمة له في الممالأة على حساب الإمام(عليه السلام) فدفعها عن نفسه بقوله: ((رحمك ا لله، وا لله مالي إمام غير علي، وإني لواقف عندما رأى، وإن حق ا لله أحب إليّ من رضا معاوية وأهل الشام، وما أنت وأنا إلاّ با لله))[٢].

وافترق بعد ذلك الجيشان على أن يجتمع المحكّمان في دومة الجندل أو أذرح في شهر رمضان من ذلك العام، كما في أكثر الروايات، وقيل: أنهما سارا من صفين إلى دومة الجندل[٣]. وفي الموعد المعين أرسل معاوية عمراً وأرسل معه أربعمائة رجل، وأرسل الإمام(عليه السلام) أبا موسى وأرسل معه أربعمائة رجل أيضاً، وجعل عليهم شريح بن هاني الحارثي، وأرسل معه ابن عباس ليصلّي بهم ويلي شؤونهم. وحمَّل الإمام(عليه السلام) شريح بن هاني رسالة إلى عمرو بن العاص رجاء استصلاحه وقد جاء فيها:

((إن علياً يقول لك: إن أفضل الناس عند ا لله عز وجل من كان العمل بالحق أحبّ إليه، وإن نقصه من الباطل وإن زاده، يا عمرو وا لله إنك لتعلم أين موضع الحق، فلِمَ تتجاهل؟ إن أوتيت طمعاً يسيراً كنت لله

---

(١) الموفقيات: ٥٧٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ١٩٥.

(٣) انظر الأخبار الطوال تحقيق عبد المنعم عامر،مطبعة عيسى البابي، مصر- : ١٨٤.

به ولأوليائـه عـدواً وكـان والله مـاأوتيت قـد زال عنـك، ويحـك فـلا تكـن للخائنين خصيماً وللظالمين ظهيراً. أما إني أعلم بيومك الذي أنت فيه نادم وهـو يوم وفاتك، تتمنى أنك لم تظهر لمسلم عداوة، ولم تأخذ على حكم رشوة))[١].

ويبدو أن طمع عمرو كـان أبلـغ في نفسـه تركّـزاً مـن أن يسـتمع إلى مثل هذه النصيحة، فقال لشريح - وقد تغيّـر وجهـه -: ((متـى كنـت أقبـل مشورة علي أو أنتهي إلى أمره أو أعتد برأيه، فقـال لـه: ومـا يمنعـك يـا ابـن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعـد نبيهـم مشـورته؟! فقـد كـان من هو خير منك، أبو بكر وعمر، يستشيرانه ويعملان برأيه))[٢].

وكان ابن عباس بمثابة الموجّه لأبي موسى، والمسدد لخطواته - لو كان أبو موسى ممن يقبلون التوجيه والتسديد - وكانت كتب الإمام(عليه السلام) توجَّه إليه كما توجَّه كتب معاوية إلى ابن العاص. وكان فضول أهل العـراق وتطلّعهم إلى معرفة جميع ما يتعلـق بشـؤون أميرهم، واستسـلام أهـل الشـام وإطاعتهم العمياء له، يضايق ابن عباس كثيراً ؛ لمـا فيـه مـن تعريـض أسـراره للشيوع؛ لكثرة ما يستفسرون، بينما يحتفظ الآخر بأسراره.. يقول المحدّث: ((وكان أهل العراق يسألون ابن عباس عن [كـل] كتـاب يصلـه مـن علـي، فإن كتمهم ظنـوا بـه الظنـون وقـالوا: أتـراه كتـب بكـذا وكـذا، فقـال لهـم ابن عباس: أما تعقلون.. أما ترون رسول معاوية يجيئ ولا يعلم أحد بما جـاء به ، ولا يسمع لهم صياح ، وأنتم عندي كل يوم تظنون فيَّ الظنون))[٣].

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٦٧.

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

وبدأت المفاوضات بين الطرفين، وحضرها بعض من اعتزل من قريش، كابن الزبير وابن عمر وسعد بن أبي وقاص - على قول - وحضر غير هؤلاء، ودارت بينهم أحاديث جمة لم يعطنا التأريخ خلاصة وافية لمختلف جلساتها، وكان -كما يبدو من رواية الأمالي لابن الأنباري- أكثر تخوّف جانب أهل الشام من يقظة صاحبنا.

يقول عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: ((حضرت الحكومة، فلما كان اليوم الفصل، جاء عبد الله بن عباس فقعد إلى جنب أبي موسى، وقد نشر أذنيه حتى كاد أن ينطق بهما، فعلمت أن الأمر لا يتمّ لنا ما دام هناك، وأنه سيفسد على عمرو حيلته، فأعملت المكيدة في أمره، فجئت حتى قعدت عنده، وقد شرع عمرو وأبو موسى في الكلام، فكلمت ابن عباس كلمة استطمعت جوابها فلم يجب، فكلمته أخرى فلم يجب، فكلمته ثالثة فقال: إني لفي شغل عن حوارك الآن، فجبهته وقلت: يا بني هاشم لا تتركون بأوكم وكبركم أبداً، أما والله لولا مكان النبوة لكان لي ولك شأن، قال: فحمي وغضب واضطرب فكره ورأيه، وأسمعني كلاماً يسوء سماعه، فأعرضت عنه وقمت فقعدت إلى جانب عمرو بن العاص فقلت: قد كفيتك التقوّي له - أي قد شغلت باله -بما دار بيني وبينه، فأحكم أنت أمرك، قال فذهل والله ابن عباس عن الكلام الدائر بين الرجلين، حتى قام أبو موسى فخلع علياً))(١).

ونظير هذه الرواية مع شيء من الاختلاف في مجالس ثعلب، ولكنها منسوبة إلى عتبة، قال: ((قال معاوية لعتبة يوم الحكمين: يا أخي أما ترى

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ٢٠٠ .

ابن عباس قد فتح عينيه ونشر أذُنيه؟ ولو قدر أن يتكلم بها فعل، وغفلة أصحابه مجبورة بفطنته، وهي ساعتنا الطولى فاكفنيه.. إلى آخر ما جاء))(١).

ورواية ثعلب لاتتم ما دام التأريخ يحدّث أن معاوية لم يكن حاضراً مع الحكمين في يوم التحكيم؛ ليقول لعتبة ما قال.. ورواية الأمالي ربّما شاركتها في عدم التمامية بصورتها المفصّلة؛ للطابع السري الذي كان يطغى على مفاوضتيهما، ولا أقل من سرّية الجلسة الأخيرة؛ ودهاء ابن العاص يأبى عليه أن يتحدث في مثل هذه الشؤون الهامة أمام مجتمع عام، على أن التأريخ يُجمع على أن صاحبنا لم يكن في ذهول حين حذّر أبا موسى من التقدم على ابن العاص، قبل إعلان النتائج التي انتهى إليها الفريقان المتفاوضان.

ومن الحق أن نعرض خلاصة لمختلف الأحاديث التي دارت بينهما لنلمس فيها موقع الكتاب والسنّة اللذين أُخذ العمل بهما أساساً للتحكيم فيما كُتب من عهد ؛ ثم لنلمس نفسية الحكمين بمختلف رواسبها، ومدى طغيانها على ما دار بينهما من حديث.. يقول أحمد بن داود وهو يؤرخ هذه الحادثة: ((ثم إن عمرو بن العاص جعل يظهر تبجيل أبي موسى وإخلاصه له، وتقديمه في الكلام وتوقيره، ويقول: صحبت رسول الله قبلي، وأنت أكبر سناً مني، ثم اجتمعا ليتناظروا في الحكومة، فقال أبو موسى: يا عمرو هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله؟.. قال: وما هو؟.. قال: تولّي عبد الله بن عمر؛فإنه لم يدخل نفسه في شئ من هذه الحروب،قال له عمرو: وأين أنت من معاوية؟.. قال أبو موسى: ما معاوية موضعاً لها، ولا يستحقها

(١) مجالس ثعلب -شرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة دار المعارف، مصر- قسم٢ : ٤٧٧.

بشئ من الأمور، قال عمرو: ألست تعلم بأن عثمان قُتل مظلوماً؟.. قال: بلى، قال: فإن معاوية ولّي دمه، وبيته بعد في قريش ما قد علمت، فإن قال الناس: لِمَ وُلِيَ الأمر وليست له سابقة؟ فإن لك في ذلك عذراً، تقول: إني وجدته وُلِيَّ عثمان، والله تعالى يقول: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾[1]، وهو مع هذا أخو أم حبيبة زوج النبي، وهو أحد أصحابه، قال أبو موسى: اتق الله يا عمرو! وأما ما ذكرت من شرف معاوية، فلو كان يستوجب بالشرف الخلافة، لكان من أحق الناس بها أبرهة بن الصباح، فإنه من أبناء ملوك اليمن التبابعة الذين ملكوا شرق الأرض وغربها، ثم أي شرف لمعاوية مع علي بن أبي طالب؟!.

وأما قولك: أن معاوية ولي عثمان، فأولى منه ابنه عمرو بن عثمان، ولكن إن طاوعتني أحيينا سنّة عمر بن الخطاب وذكره، بتوليتنا ابنه عبد الله الحَبر.

قال عمرو: فما يمنعك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه وقدم هجرته وصحبته، فقال أبو موسى: إن ابنك رجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الحروب غمساً، ولكن هلم نجعلها للطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر، قال عمرو: يا أبا موسى إنه لا يصلح لهذا الأمر إلاّ رجل له ضرسان، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر، قال أبو موسى: يا عمرو إن المسلمين قد أسندوا إلينا أمراً بعد أن تقارعوا بالسيوف، وتشاكّوا بالرماح، فلا نردّهم في فتنة، قال: فما ترى؟.. قال: أرى أن نخلع هذين الرجلين علياً ومعاوية،

---

(١) الإسراء: ٣٣.

ثم نجعلها شورى بين المسلمين، يختارون لأنفسهم مَن أحبّوا، قال عمرو: فقد رضيت بذلك، وهو الرأي الذي فيه صلاح الناس))[1].

وبذلك انتهت المفاوضات..فإذا سألت وأين موقع هذا الحكم من الكتاب والسنّة؟ ومتى كان النزاع في أحقية معاوية في الأمر من علي؟ ومتى شُك في شرعية خلافة علي عليه السلام ، وقد بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان؟ وبيدهم الحل والعقد ـ كما كانوا يرون ـ وهل تجاوزت دعوى معاوية اتهام الإمام(عليه السلام) بإيواء قتلة عثمان، ورغبته للدخول فيما دخل فيه الناس إذا سُلّموا إليه؟! وكان المجرى الطبيعي للدعوى أن يبحث في استحقاق معاوية للمطالبة بدمه وعدمها، ومدى شرعية طلبه، قبل أن يدخل فيما دخل فيه الناس، ويرفع قضيته إلى الإمام(عليه السلام)، ولكن الحكمين ـ كما رأيتم ـ تناسوا كل ذلك ابتداءً، وتكشفت نفسياتهما بأبشع صورها، أما أبو موسى فقد خضع لرواسبه؛ فتناسى إمامه، والمهمة التي اختير طرفاً للنظر فيها، ووجّه كل همّه لترشيح صاحبه عبد الله بن عمر والعمل له، وأما ابن العاص فقد طمع في جرها إلى ولده عبد الله، بعد أن أفحمه أبو موسى في رده لمؤهلات معاوية وتقديم الإمام(عليه السلام) عليه بهذا الميزان، ثم انتهيا إلى هذه النهاية الغريبة، وهي خلع الإمام(عليه السلام) ومعاوية، في حين أن معاوية لم يدّع الخلافة المشروعة ببيعة أو بمشورة، ولا ادُعيت له إلى ذلك الوقت، فكيف يعمد إلى خلعه؟!.. وقد طرب ابن العاص لهذه النتيجة، وبخاصة بعد أن بيّت ما بيّت من الغدر، وكان ابن عباس على عهدنا به من اليقظة والحزم، وقد أدرك أن صاحبه مخدوع فخلا به وقال:

---

(١) الأخبار الطوال : ٢٠٠.

((ويحك يا أبا موسى أحسب وا لله عمراً قد اختدعك، فإن كنتما قد اتفقتما على شئ فقدّمه قبلك ليتكلم، ثم تكلم بعده، فإن عمراً رجل غدار، ولست آمن من أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت به في الناس خالفك، قال أبو موسى: قد اتفقنا على أمر لا يكون لأحدنا على صاحبه خلاف إن شاء ا لله))(١).

ومضت توصيات صاحبنا وتحذيره في طريقها، ومضى أبو موسى في غير ذلك الطريق،فقد قال له عند إعلان نتائج المفاوضة:((اصعد المنبر فتكلم، فقال عمرو: ما كنت لأتقدمك وأنت أفضل مني فضلاً وأقدم هجرة وسناً.

فبدأ أبو موسى فصعد المنبر فحمد ا لله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنّا قد نظرنا فيما يجمع ا لله به ألفة هذه الأمة ويصلح أمرها، فلم نر شيئاً هو أبلغ في ذلك من خلع هذين الرجلين علي ومعاوية، وتصييرها شورى؛ ليختار الناس لأنفسهم من رأوه لها أهلاً، وإني قد خلعت علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولّوا عليكم من أحببتم، ثم نزل.

وصعد عمرو فحمد ا لله وأثنى عليه، ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، ألا وإني قد خلعت صاحبه كما خلعه، وأثبتّ صاحبي معاوية فإنه ولي أمير المؤمنين عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه، فقال له أبو موسى: لا وفقك ا لله غدرت وفجرت، وإنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، وقال له عمرو: ومثلك مثل الحمار يحمل أسفارا))(٢).

---

(١) الأخبار الطوال: ١٨٦، وأنساب الأشراف ج٢: ٣٥١.

(٢) المصدر السابق: ٢٠١.

وأثـرت هـذه الخديعـة أثرهـا في نفـوس أهـل العـراق، فحمـل شريح بـن هـاني على عمرو فضربـه بالسـوط، وحجـز النـاس بينهـم، وكان شريح يقول بعد ذلـك: ((مـا ندمـت على شئ ندامـتي على ضرب عمرو بالسـوط ولم أضربه بالسيف))[١].. وهـرب أبـو موسـى إلى مكـة، وظل ابن عباس يقول: ((لحى الله أبا موسى، لقد نبّهته فما انتبه، وحذّرته ما صار إليه فما انحاش.. وكان أبو موسـى يقـول: لقـد حذّرنـي ابـن عبـاس غدر عمرو فاطمأننت إليه،ولم أظن أنه يؤثر شيئاً على نصيحة المسلمين))[٢].

وكانت خدعة ابن العاص هـذه - مـع مـا فيهـا مـن صراحـة الغـدر، وعدم العمل بما شرط عليهما من الكتاب والسنة - كافية لأن تبعث في أهـل الشام طاقة تعيد إليهم ما فقدوه مـن ثقـة بأنفسـهم، في انهزامهـم أمـام أهـل العراق، وتوحـي لسـذّجهم صحـة خلافـة صـاحبهم، فقـد عـاد ابـن العـاص - كما يقول المؤرّخون - وعادوا معه فبايعوا معاوية بإمرة المؤمنين.

أمـا أهـل العـراق - وهـم أعـرف النـاس بمواقـع الخدعـة في كـلام ابن العاص - فلم تزعزع هذه الحادثة شيئاً من ثقتهم بإمـامهم(عليـه السـلام) وعلمهم بأحقيته بالأمر كتاباً وسنـّة، وقـد قـال صـاحبهم سعيـد بـن قيـس الهمـداني: ((والله لـو اجتمعنـا علـى الـهدى مـا زادنـا علـى مـا نحـن عليه بصيرة))[٣]، وقالوا جميعاً مثله، إلاّ أن تاثيرها النفسي عليهـم كـان بالغـاً للغاية ؛ لما أشعرتهم به من مرارة الخيبة بتفويت الفرصة على أنفسـهم وهـم

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٦٩.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٠١.

(٣) المصدر السابق: ٢٠٢.

على أبواب النصر ؛ ولما عرّضتهم لسخرية أهل الشام وغير أهل الشام، ممن شمتوا بهم، ومن مناوئيهم ومناوئي الإمام(عليه السلام)؛ ولشعور خصمهم بالانتصار عليهم، وقد عادوا وهم يتلاومون ويتدافعون المسؤولية فيما بينهم، بينما عاد خصومهم وهم منتشون، وسنعرف - بعد حين - مدى تأثير هذه الحادثة في نفوسهم، فيما يجدّ لدينا من أحداث.

ولصاحبنا خطبة - بعد عودته إلى الكوفة - خَطَبَها الناس، فيمن خطب من بني هاشم بدعوة من الإمام(عليه السلام)، عندما أرادوا معرفة رأيهم بالحكمين وكانت - على إيجازها - من أبدع ما يقال في موضعها، وقد جاء فيها.. ((إن للحق أهلاً أصابوه بالتوفيق فالناس بين راضٍ به وراغب عنه، فإنه بعث عبد الله بن قيس بهدى إلى ضلالة، وبعث عمرو بضلالة إلى هدى، فلما التقيا رجع عبد الله بن قيس عن هداه، وثبت عمرو على ضلالته، وأيم الله لئن كانا حكما بما سارا به، لقد سار عبد الله وعلي إمامه، وسار عمرو ومعاوية إمامه، فما بعد هذا من غيب ينتظر))[1].

وقد رويت هذه الخطبة بزيادة قليلة واختلاف يسير في الإمامة والسياسة لابن قتيبة[2] لايهم تحقيقها الآن.

وسُئل بعد ذلك صاحبنا عن المانع الذي منع الإمام(عليه السلام) من إرساله مكان أبي موسى الأشعري، فأجاب - بما لا يخلو من مرارة -.. يقول البلاذري: ((قيل لعبد الله بن عباس: ما منع علياً أن يبعثك مع عمرو يوم التحكيم، فقال: منعه حاجز القدر، ومحنة الابتلاء، وقصر المدة، أما والله

---

(١) العقد الفريد ج٢: ٢٠٧.

(٢) انظر الإمامة والسياسة ج١: ١٢٨.

لو كنت لقعدت على مدارج أنفاسه، ناقضاً ما أبرم، ومبرماً ما نقض، أطير إذا أسفّ وأسفّ إذا طار، ولكن قد سبق قدر وبقي أسف، ومع اليوم غد، الآخرة خير لأمير المؤمنين))[1].

وكأن السائل لم يسمع بملابسات القضية، وإصرار الإمام(عليه السلام) على إدخاله، وقوله من خطبة له: ((فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس، وخذوا مهل الأيام، وحوطوا قواصي الإسلام))[2].

وهكذا انتهت هذه المأساة وخلّفت ما خلّفت من رواسب في نفوس أهل العراق، وعاد صاحبنا بعد ذلك إلى مقر عمله في البصرة.

(١٣)

وكان من الرواسب أن يضرى هؤلاء المحكّمة، وينشطون لإعلان حركتهم التمردية على الإمام(عليه السلام) في الكوفة، وعلى صاحبنا في البصرة، بينما كان الإمام(عليه السلام) يعد العدة بخطبه البليغة لتخليص أهل العراق من تلكم الرواسب، وإعادة الثقة إلى أنفسهم، وتحفيزهم إلى العودة إلى عدوهم.

وقد علم صاحبنا بأن خوارج البصرة قد خرجوا للالتحاق بأصحابهم من أهل الكوفة؛ ليجمعوا كلمتهم على الثورة، فبعث إليهم أبا الأسود الدؤلي؛ ليلحق بهم ويردهم إليها، وأدركهم بالجسر الأكبر وكانوا خمسمائة،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١: ١٩٥-١٩٦ نقلاً عن البلاذري.

(٢) المصدر السابق ج٣: ٢٨٦.

وقد تركوا قيادتهم لمسعّر بن فدكي التميمي، فتواقفوا حتى حجز بينهم الليل، وفي الليل أدلجوا حتى لحقوا بعبد الله بن وهب بالنهر(١).

ولمّا أجمع الإمام(عليه السلام) أمره على الخروج إلى الشام كتب إلى صاحبنا: ((أما بعد فإنا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة، وقد أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل المغرب، فاشخص بالناس حتى يأتيك رسولي، وأقم حتى يأتيك أمري والسلام))، فقام في الناس خطيباً، وأمرهم بالشخوص مع الأحنف بن قيس، فلم يشخص معه غير ألف وخمسمائة رجل، فاستقلّهم عبد الله وساءه ذلك، فاضطر إلى إعمال شئ من العنف، فقام بهم خطيباً وقال فيما قال: ((أما بعد يا أهل البصرة فإنه جاءني أمر أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم، فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف بن قيس، و لم يشخص معه منكم إلاّ ألف وخمسمائة، وأنتم ستون ألفاً سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم.. ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدي، ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلاً، فإني موقع بكل من وجدته متخلفاً عن مكتبه، عاصياً لإمامه، وقد أمرت أبا الأسود الدؤلي بحشركم، فلا يلم رجل جعل السبيل على نفسه إلاّ نفسه))(٢). وكانت نتيجة هذه الخطبة -فيما يروي الطبري- خروج ألف وسبعمائة رجل انضموا إلى جارية، فسار الجيشان إلى النخيلة وانضموا بها إلى جيوش الإمام(عليه السلام).

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٦: ٤٣.

(٢) تأريخ الطبري ج٦: ٤٤.

وقد بلغ جيش البصرة - برواية الطبري - ثلاثة آلاف ومائتي رجل[1]، وهو عدد قليل جداً، يبعد أن يرضى عنه صاحبنا بعد صدور ذلك التهديد منه، والأنسب - فيما أخال - أن نأخذ برواية الدينوري، وهي تختلف عن تلكم الرواية في لسان الكتاب الذي كتبه له الإمام(عليه السلام) وفيه أمر بالشخوص إليه حين مجيء الكتاب لا الإقامة حتى يأتيه الأمر.. يقول الدينوري: ((فقدم عليه عبد الله بن عباس في فرسان البصرة، وكانوا زهاء سبعة آلاف رجل))[2].

والغريب من أمر طه حسين أنه قال: ((وقد رأينا أن ابن عباس لم يقدم على علي حين أراد الشخوص إلى الشام، ولم يشهد معه النهروان، وإنما أقام بالبصرة وسرّح الجند إلى علي، كأنه قد ضاق بهذه الحرب التي لاتغني، فقعد عنها وانتظر عاقبتها))[3]. وما أدري أي مصدر اعتمده؟! مع إنها جميعاً بين صريحة بشهوده النهروان، وبين ساكتة عن ذلك لا مصرحة بالعدم، وربّما أوهمت بعضها ذلك لقولها: بأنه أرسل هذين الجيشين إلى الإمام (عليه السلام) والإرسال يقضي بقاءه بالبصرة، كما يبدو ذلك من رواية الطبري السابقة، ولو صح هذا الوهم لقلنا أنه بقي في انتظار أمر الإمام (عليه السلام) فصريح كتابه السابق ((وأقم حتى يأتيك أمري))، ومقتضى الجمع بينها وبين الروايات المصرحة بشهوده للنهروان - عادة - أنه ظل فيها حتى جاءه الأمر، فالتحق بالإمام(عليه السلام). على أن رواية الطبري

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٦: ٤٤.

(٢) الأخبار الطوال:١٩١.

(٣) الفتنة الكبرى (علي وبنوه): ١٣٤.

- لو تمت - فهي معارضة برواية الدينوري السابقة، وهي صريحة بخروجه على رأس الجيش، وربّما يبدو من ذيل عبارة الطبري أن صاحبنا سبق الجيشين معاً إلى النخيلة، فهو يقول بعد الخطبة: ((فخرج جارية فعسكر، وخرج أبو الأسود فحشر الناس، فاجتمع إلى جارية ألف وسبعمائة، ثم أقبل حتى وافاه علي بالنخيلة، فلم يزل بالنخيلة حتى وافاه هذان الجيشان من البصرة))[1]. وبالطبع فالضمير في ((أقبَل)) لا يعود إلى جارية؛ لأنه كان على رأس أحد الجيشين وقد جاء متأخراً، وليس في الكلام معاد للضمير غيره وغير جارية، فصاحبنا إذاً هو الذي التقاه امامه.

وما أدري لِمَ تناس طه حسين أقوال مترجميه؟! مع أن أكثرهم صرّحوا بشهوده للنهروان معه، و لم أجد - فيما رأيت - من صرّح بعدم حضوره هذه الواقعة.. كل ذلك ليسلم له ما أراد من تمهيد لقصة بيت المال التي أخذ الدكتور بأفظع رواياتها، وحاكمه إليها، كما سنرى ذلك بعد حين..

ومهما يكن، فقد تهيأ الإمام(عليه السلام) - بعد تكامل جيشه - للمسير إلى الشام ولكنه فوجئ بتكتل الخوارج، وارتكابهم فظائع لا يصح السكوت عليها بحال، كقتلهم لعبد الله بن خباب الصحابي الجليل، والقضاء على زوجته بعد أن بقروا بطنها وقتلوا حملها، ثم قطعهم الطريق وتعرضهم لكل من يجدونه من المسلمين، وقد ضجّ عسكر الإمام(عليه السلام) لكثرة فظائعهم، وطلبوا إليه السير إليهم لتأديبهم[2]، ثم العودة إلى الشام، ووافق الإمام(عليه السلام) على ذلك، وأراد التوجه إليهم، فجاءه

---

(١) تأريخ الطبري ج٦: ٤٤-٤٥.

(٢) انظر المصدر السابق ج٦: ٤٦.

- فيما يحدّث صاحبنا - مسافر بن عوف بن الأحمر، وكان ينظر في النجوم، فنهاه عن مسيره في تلكم الساعة، وعيّن له ساعة للخروج، وضمن له الظفر بها، فثار الإمام(عليه السلام) على الإيمان بأمثال هذه الخرافات، وحاججه في ذلك، ونهاه عن النظر فيها، وهدده على ذلك، ثم أقبل على الناس وقال: ((إياكم وتعلّم النجوم إلاّ ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر.. الخ[1] وسار(عليه السلام) في الساعة التي نهاه عن المسير فيها فظفر بالخوارج))[2].

ولهؤلاء الخوارج قصة بدأت -كما سبق أن قلنا - بصفين ، حين وافق الإمام(عليه السلام) على التحكيم، بعد أن اضطروه إليه اضطراراً، ثم عدلوا وأعلنوا معارضتهم له، وطلبوا إلى إمامهم(عليه السلام) أن ينقض ما أعطاه من عهد، فأبى عليهم ذلك، وجاؤا إلى الكوفة فاشتدوا بالمعارضة وكان الإمام(عليه السلام) يلاينهم،ويستصلح أمرهم وقد اجتمع قسم منهم بحروراء فذهب إليهم بنفسه،وقيل: أرسل إليهم ابن عباس، فحاججهم أولاً،ثم أدركه الإمام(عليه السلام) فاتمّ الاحتجاج عليهم،وعادوا معه جميعاً إلى الكوفة بعد أن أفحمهم،ثم استأنفوا نهضتهم بعد إعلان نتائج التحكيم، وهربوا من الكوفة إلى النهر وانضم إليهم خوراج البصرة، فأدركهم الإمام فيها.

ومن بديع كلمات الإمام(عليه السلام) وقد شاهد بعضهم ما حدّث عنه ابن عباس فقال:((لماخرجنا إلىقتال الخوارج سمع علي(عليه السلام)رجلاً منهم يتهجد بالقرآن، فقال: نوم على يقين خير من صلاة في شك))[3].

---

(١) انظر تذكرة الخواص: ١٦٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ١١٣.

وعلى طريقة الإمام(عليه السلام) في الدعوة إلى السلام ما لم يلجئوه إلى الحرب، حاول أن يردّهم من طريق المحاججة تارة والوعظ أخرى، ويبدو من بعض الروايات أن صاحبنا كان طرفاً من قبل الإمام في الاحتجاج.

ومحاججة عبد الله هذه للخوارج رغم تواترها في كتب المؤرخين إلاّ أنهم مختلفون في مكانها وزمانها ونصوصها، فهي لدى بعضهم أنها بحروراء قبل ذهابه مع أبي موسى إلى دومة الجندل، ويبدو من بعضها أنها كانت بالنهروان بعد حادثة التحكيم، ثم هو لدى بعضهم مستقل بالاحتجاج، وأنه أفحمهم وعاد بألفين منهم إلى الإمام أو أربعة آلاف[1]، ولدى آخرين أن الإمام(عليه السلام) انضم إليه في المحاججة، ولدى ثالث أنه سمع حجتهم وكان الإمام(عليه السلام) معه فترك الجواب إليه[2].

وأخال أن الاحتجاج عليهم كان في حروراء أولاً، ثم كان في النهروان ثانياً، وليس ما يمنع هذا الفرض - وهو بمثابة الجمع بين الروايات المتعارضة - إذا وجدنا له أساساً في التأريخ، ومثل هذه الحادثة تدعو عادة إلى أكثر من احتجاج، واعتماد الإمام(عليه السلام) على ابن عباس وكفاءته معروف، وأساس هذا الفرض ما جاء في تأريخ اليعقوبي.. يقول: ((وصارت الخوارج إلى قرية يقال لها حروراء، بينها وبين الكوفة نصف فرسخ، وبها سموا الحرورية، ورئيسهم عبد الله بن وهب الراسبي وابن الكوّا وشبث بن ربعي، فجعلوا يقولون: لا حكم إلاّ لله، فلما بلغ علياً ذلك قال: كلمة حق أريد بها باطل، ثم خرجوا في ثمانية آلاف، وقيل: في اثني عشر ألفاً،

---

(١) انظر البداية والنهاية ج٧: ٢٨١، وتذكرة الخواص: ١٠٦.

(٢) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٦٨.

فوجّه إليهم علي(عليه السلام) عبد الله بن عباس فكلّمهم واحتجّوا عليه فخرج إليهم علي(عليه السلام) فقال: أتشهدون عليَّ بجهل؟ قالوا: لا، قال: فتنفذّون أحكامي، قالوا: نعم قال: ارجعوا إلى كوفتكم حتى نتناظر، فرجعوا من عند آخرهم، ثم جعلوا يقومون فيقولون: لا حكم إلاّ لله، فيقول علي(عليه السلام): حكم الله أنتظر فيكم، وخرجوا من الكوفة، فوثبوا على عبد الله بن خباب بن الأرت فقتلوه وأصحابه، فخرج إليهم علي(عليه السلام) فناشدهم الله ووجّه إليهم عبد الله بن عباس فقال: يا ابن عباس قل لهؤلاء الخوارج: ما نقمتم على أمير المؤمنين؟! ألم يحكم فيكم بالحق ويقيم فيكم العدل، ولم يبخسكم شيئاً من حقوقكم؟! فناداهم عبد الله بن عباس بذلك، فقالت طائفة منهم: والله لا نجيبه، وقالت الأخرى: والله لنجيبنّه ثم لنخصمنّه، نعم يا ابن عباس نقمنا على علي خصالاً، كلها موبقة، لو لم نخصمه منها إلاّ بخصلة خصمناه، محا اسمه من إمرة المؤمنين يوم كتب إلى معاوية، ورجعنا عنه يوم صفين فلم يضربنا بسيفه حتى نفيئ إلى الله، وحكّم الحكمين، وزعم أنه وصي فضيّع الوصية، وجئتنا يا ابن عباس في حلة حسنة جميلة تدعونا إلى مثل ما يدعونا إليه، فقال ابن عباس: قد سمعت يا أمير المؤمنين مقالة القوم، وأنت أحق بالجواب، فقال: حججتهم والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، قل لهم: ألستم راضين بما في كتاب الله وبما فيه من أسوة رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: فعلي بذلك أرضى، كتب كاتب رسول الله يوم الحديبية إذ كتب إلى سهيل بن عمرو وصخر بن حرب ومن قِبَلهما من المشركين من محمد رسول الله، فكتبوا إليه لو علمنا أنك رسول الله ما قاتلناك، فاكتب إلينا من محمد بن عبد الله لنجيبك،

فمحا رسول لله(صلى الله عليه وآله وسلم) اسمه بيده وقال: إن اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوتي وأمري،فكتب من محمدبن عبد الله.وكذلك كتب الأنبياء،كما كتب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)إلى الآباء ففي رسول الله أسوة حسنة.

وأما قولكم: إني لم أضربكم بسيفي يوم صفين؛ حتى تفيؤوا إلى أمر الله، فإن الله جل وعز يقول: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[1] وكنتم عدداً جمّاً، وأنا وأهل بيتي في عدة يسيرة.

وأما قولكم: إني حكّمت الحكمين، فإن الله عز وجل حكم في أرنب يباع بربع درهم فقال: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾[2] ولو حكم الحكمان بما في كتاب الله، لما وسعني الخروج من حكمهما.

وأما قولكم: إني كنت وصيّاً فضيّعت الوصية، فإن الله عز وجل يقول: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾[3]، أفرأيتم هذا البيت لو لم يحج إليه أحد كان البيت يكفر؟! إن هذا البيت لو تركه من استطاع إليه سبيلا كفر، وأنتم كفرتم بترككم إياي، لا أنا كفرت بتركي لكم.

فرجع يومئذ من الخوارج ألفان وأقام أربعة آلاف، والتحمت الحرب بينهم))[4].

---

(١) البقره:١٩٥.

(٢) المائدة: ٩٥.

(٣) آل عمران: ٩٧.

(٤) تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٦٧-١٦٩.

وهذا الخبر يدلنا على أن صاحبنا ذهب إليهم مرتين، إحداهما في حروراء، والثانية في النهروان، والاحتجاجات - بعد - على طولها وقصرها، منفرداً بها أومشتركاً مع الإمام(عليه السلام)، تحوم أفكارها العامّة حول ما ذكره الإمام(عليه السلام) في احتجاجه هذا عليهم، وإن اختلفت ألسنتها بالزيادة والنقيصة، فلا يهم الإطالة بذكرها وتمحيصها، وهي معروضة في أكثر مصادر التأريخ.

والخوراج قوم تظافرت الأحاديث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في الإخبار عن تمردهم على إمامهم ومروقهم من الدين ومما جاء عن صاحبنا قال: ((قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): يقرأ القرآن أقوام من أمتي، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية))[(١)]، وقد أخبر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام(عليه السلام) بأنه سيتولى قتلهم بالنهروان دون الجسر، وذكر عدّة من يتبقى منهم، ثم ذكر ذا الثدية من جملة قتلاهم، وأخبر الإمام(عليه السلام) بكل ذلك قبل حربهم فصدق في كل ما قال، وطلب بعد انتهاء القتال ذا الثدية هذا فلم يجده في القتلى، وطال البحث عنه، ثم وجدوه، ووجد فيه ما ذكره من صفات، فكبّر بأعلى صوته ثم سجد، وكبّر الناس كلهم معه[(٢)].

وقد روى هذه الحادثة كل من أرّخ لوقعة النهروان من المؤرخين، واعتبروها من دلائل النبوة التي لا تقبل الأخذ والرد، والذي يبدو أن إخبار النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذي الثدية كان معروفاً، حتى أن

---

(١) البداية والنهاية ج٧: ٣٠٢.

(٢) انظر أنساب الأشراف ج٢: ٣٧٦.

ابن العاص- بحكم وصوليته - يبعث إلى عائشة بأنه قتله بنيل مصر، ولما أُخبرت بأن الإمام(عليه السلام) هو الذي تولى قتله وتوثقت من ذلك بكتابة سبعين من أسباع الكوفة ، شهدوا لها بأنهم رأوه في القتلى، قالت: لعن الله فلاناً، وفي رواية المدائني تصريح ((لعن الله ابن العاص، فإنه كتب إليَّ أنه أصابهم بنيل مصر، ثم أرخت عينيها فبكت فلما سكنت عبرتها قالت: رحم الله علياً لقد كان على الحق، وما كان بيني وبينه إلاّ كما يكون بين المرأة وأحمائها))[1]. وفي رواية المدائني أنها قالت لمحدّثها: ((ألا إنه ليس يمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعت من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:يقتله خير أمتي من بعدي))[2].

ولو كان ابن عباس في حاجة إلى زيادة إيمان بقيمة بطله لكان لهذه الخوارق وأمثالها أوقع الأثر في نفسه، ولكن إيمانه بصاحبه كان قد تجاوز حد الحاجة إلى مثل هذه الأحاديث.

وعاد الإمام(عليه السلام) إلى الكوفة وذهب صاحبنا إلى مقر عمله بالبصرة ليستقبل بعض الأحداث.

(١٤)

وكان من أهمها حديث الخرّيت بن راشد الناجي، فقد قدّر لهذا الخارجي أن يخرج على إمامه(عليه السلام) بعد حادثة النهروان، ويخرج معه

---

(١) البداية والنهاية ج٧: ٣٠٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ٢٠٢.

جماعة من بني ناجية، ويهربوا من الكوفة سراً، ويعلم الإمام(عليه السلام) أنهم ذهبوا في اتجاه البصرة، فأتبعهم زياد بن خصفة ويأمره بالتوقف بدير موسى، ثم يكتب إلى عماله: ((أما بعد فإن رجالاً خرجوا هراباً، ونظنّهم توجهوا نحو بلاد البصرة، فسل عنهم أهل بلادك، واجعل عليهم العيون في كل ناحية من أرضك، واكتب إليَّ بما ينتهي إليك عنهم))[١].

فيجيبه أحد عماله بأنهم ذهبوا في اتجاه نفر بعد أن يذكر له بعض مقارفاتهم الإجرامية، كقتلهم مسلماً سألوه عن الإمام(عليه السلام) فقال: إنه أمير المؤمنين، وسيد البشر، ووصي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بينما عفوا عن ذمي كان معه، ويكتب إلى زياد أن يتبعهم فيتبعهم ويدركهم بالمذار، فيدعوهم إلى الدخول فيما خرجوا منه، ويأبوا عليه، فيواقفهم إلى الليل، وفي الليل هربوا منه واتجهوا نحو الأهواز، واتجه زياد إلى البصرة في انتظار أمر الإمام(عليه السلام)، ولما بلغ الإمام(عليه السلام) ذلك سيّر إلى الخرّيت معقل بن قيس على رأس ألفين من أهل الكوفة ثم كتب إلى صاحبنا: ((أما بعد فابعث رجلاً من قبلك صليباً شجاعاً معروفاً بالصلاح، في ألفي رجل فليتبع معقلاً، فإذا مرّ ببلاد البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلاً، فمعقل أمير الفريقين، وليسمع من معقل وليطعه ولا يخالفه، ومر زياد ابن خصفة فليقبل إلينا فنعم المرء زياد ونعم القبيل قبيله والسلام))[٢].

وسار معقل حتى أتى الأهواز، وبقي في انتظار أهل البصرة، واذا بكتاب ابن عباس إليه: ((أما بعد فإن أدركك رسولي بالمكان الذي كنت

---

(١) تأريخ الطبري ج٦: ٦٧.

(٢) المصدر السابق ج٦: ٧٠.

فيه مقيماً، أو أدركك وقد شخصت منه فلا تبرح المكان الذي ينتهي فيه إليك رسولي، واثبت فيه حتى يقدم عليك بعثنا الذي وجهناه إليك، فإني قد بعثت إليك خالد بن معدان الطائي، وهو من أهل الإصلاح والدين والبأس والنجدة فاسمع منه واعرف ذلك له والسلام)).

وسرّى هذا الكتاب عن معقل وسرّى عن جنده أيضاً، فهم قد هالهم ذلك الوجه، وبقي في انتظار الجيش حتى وافاه، وسار بالجميع إلى جماعة الخرّيت وقد انضم إليه أناس كثر، بعضهم من النصارى ممن أسلم ثم ارتد، وبعضهم من أهل الجزية، وآخرون امتنعوا عن دفع الصدقات. وبعد حروب ظفر بهم معقل، فأما المسلمون فقد أطلق لهم عيالهم وخلّى سبيلهم بعد أخذ البيعة، وأما المرتدون فقد استتابهم وأطلقهم أيضاً، وحمل أسرى النصارى مقبلاً بهم نحو الإمام(عليه السلام)، وفي طريقه على أردشير فزع الأسرى إلى مصقلة بن هبيرة فاشتراهم وأعتقهم، وبقي المال في ذمته، وطال أمد التسديد على الإمام فكتب إليه الإمام(عليه السلام): ((أما بعد فإن من أعظم الخيانة خيانة الأمّة وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام، وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف درهم، فابعث بها إليَّ ساعة يأتيك رسولي، وإلاّ فاقبل حين تنظر في كتابي، فإنني تقدمت إلى رسولي إليك ألاّ يدعك أن تقيم ساعة واحدة بعد قدومه عليك إلاّ أن تبعث بالمال))[1].

وجاء على إثر هذا الكتاب إلى البصرة فبقي فيها أياماً، فطالبه صاحبنا به، وكان عمال البصرة يحملون المال من كوَر البصرة إلى ابن عباس، ويكون

---

(١) تأريخ الطبري ج٦: ٧٥.

ابن عباس هو الذي يبعث به إلى علي[1]. فاستنظره أياماً وأقبل على الإمام(عليه السلام) فدفع إليه مائتي ألف درهم، ثم عجز عن دفع الباقي فهرب إلى معاوية، فقال الإمام(عليه السلام): ((ما باله برّحه الله فعل فعل السيّد، وفرّ فرار العبد، وخان خيانة الفاجر، أما والله لو أنه أقام فعجز ما زدنا على حبسه...))[2].

وكانت أهم الحوادث التي أقلقته - فيما أخال - وأشجته وآلمته ورود كتاب من إمامه(عليه السلام) ينعى فيه محمد بن أبي بكر، ويخبره عن فتح مصر، وتخاذل أهل الكوفة عن نصرته، وفيه من اللوعة والأسى ما يبعث أعمق الشجا في نفسه، ولسانه بعد البسملة والحمد: ((أما بعد فإن مصر قد افتتحت، وقد استُشهد محمد بن أبي بكر، فعند الله عز وجل نحتسبه وقد كنت كتبت إلى الناس وتقدمت إليهم في بدء الأمر وأمرتهم بإغاثته قبل الوقعة، ودعوتهم سراً وجهراً وعوداً وبدءً فمنهم الآتي كارهاً ومنهم المتعلل كاذباً ومنهم القاعد خاذلاً، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً، وأن يريحني منهم عاجلاً، فالله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة، وتوطين نفسي عند ذلك؛ لأحببت أن لا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً، عزم الله لنا ولك على تقواه وهديه إنه على كل شئ قدير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته))[3].

وكان تألّم ابن عباس - فيما أخال - لسأم الإمام(عليه السلام) من قومه؛ لتخاذلهم عنه، لا يقل عمقاً عن فتح مصر وقتل محمد هذا، فكان لابدّ

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٦: ٧٥.

(٢) المصدر السابق ج٦: ٧٦.

(٣) شرح نهج البلاغة ج٢: ٣٥.

له من تسرية عنه وتعزية، فكتب إليه في جواب بعد البسملة: ((سلام الله عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاح مصر وهلاك محمد بن أبي بكر، فالله المستعان على كل حال، ورحم الله محمد بن أبي بكر، وآجرك يا أمير المؤمنين، وقد سألت الله أن يجعل لك من رعيّتك التي ابتليت بها فرجاً ومخرجاً، وأن يعزّك بالملائكة عاجلاً بالنصرة، فإن الله صانع لك ذلك، ومعزّك ومجيب دعوتك وكابت عدوك. أخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربّما تثاقلوا ثم ينشطون، فارفق بهم يا أمير المؤمنين وداجنهم ومنّهم، واستعن بالله عليهم، كفاك الله المهم والسلام))[1].

وهذا الكتاب - على إيجازه - عميق الدلالة على ما أصاب صاحبنا من انفعال لهذه الحوادث أولاً، ولجوّ الإمام(عليه السلام) النفسي الذي تمثّل بكتابه ثانياً، والذي يبدو أنه رأى أن كتابه هذا لا يكفي في التسرية عن إمامه(عليه السلام)، وتخفيف حدّة انفعاله، ورأى نفسه مسؤولاً عن ذلك فركب إلى الكوفة بنفسه يعزّيه عنه، وخلّف على البصرة زياداً من بعده[2].

وقد استغل أنصار الأمويين في البصرة غياب صاحبنا عن بلدهم، فكتب عباس بن صخّار العبدي منهم إلى معاوية كتاباً يستحثه على بعث أيدٍ للطلب بدم عثمان، ويقول في ذيل كتابه: ((فإني لا أخال الناس إلاّ مجمعين عليك، وإن ابن عباس غائب عن المصر))[3].

---

(١) تأريخ الطبري ج٦: ٦٣.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) شرح نهج البلاغة ج١: ٣٥٠.

(١٥)

ومن الغريب أن يفرغ الكوفيون عن التفكير في ملابسات ما أحاط بهم من أحداث، أو يتجهوا إلى إثارة تساؤلات لاترتبط بصميم مشاكلهم، كأن يدخل على الإمام(عليه السلام) بعض أهل العراق، فيسألوه عن أبي بكر وعمر ويطلبوا رأيه فيهما وفي عثمان، ويجيب الإمام(عليه السلام) بمضض: ((أوَتفرغتم لهذا؟!.. وهذه مصر قد افتتحت، وشيعتي فيها قد قتلت، إني مخرج إليكم كتاباً أنبئكم فيه ما سألتموني عنه، فاقرؤوه على شيعتي))، ثم أخرج كتاباً مطولاً يذكره المؤرخون[1].

وأخال أن خطبته الشقشقية كانت في هذه الفترة من الزمان، لا كما ذكر سبط ابن الجوزي من أنها كانت عند بيعته بالمدينة[2] - فيما حدّث عن ابن عباس - ؛ لأن مضامينها لا تلتئم مع ذلك الوقت؛ لاشتمالها على الإخبار عن حوادث صدرت معه، ولم تكن صادرة إذ ذاك؛ ولملاءمة مضامينها لجو الإمام(عليه السلام) في هذه الفترة على الخصوص. ونظراً لأهمية هذه الخطبة تأريخياً واهتمام صاحبنا بها على الخصوص نوردها مقتطفة من نهج البلاغة، يقول:

((أما والله لقد تقمّصها فلان [ابن أبي قحافة] وإنه ليعلم أن محلّي منها محلّ القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليَّ الطير، فسدلت

---

(١) انظر الإمامة والسياسة ج١: ١٤٢-١٤٧ ، وجمهرة رسائل العرب ج١: ٥٦٢-٥٧٢.

(٢) انظر تذكرة الخواص: ١٣٣.

دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى، أرى تراثي نهباً حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى فلان [ابن الخطاب] بعده - ثم تمثّل بقول الأعشى -:

شتّان ما يومي على كورها ... ويوم حيّان أخي جابر

فيا عجباً! بينا هو يستقيلها في حياته إذعقدها لآخر بعد وفاته، لشدّما تشطّرا ضرعيها؛ فصيّرها في حوزة خشناء ،يغلظ كلمها، ويخشن مسّها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحّم، فمُني الناس - لعمر الله - بخبط وشماس، وتلّون واعتراض، فصبرت على طول المدّة وشدّة المحنة، حتى إذا مضى لسبيله، جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيالله وللشورى! متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم، حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر، لكنني أسففت إذ أسفّوا وطرت إذ طاروا، فصغى رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره مع هَنٍ وهَن.. إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه، بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث فتله، وأجهز عليه عمله،وكبت به بطنته،فما راعني إلاّوالناس -كعرف الضبع إليَّ- ينثالون عليّ من كل جانب ؛ حتى لقد وطئ الحسنان، وشُقّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً

والعاقبة للمتقين﴾(١)، بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولاسغب مظلوم؛ لألقيت حبلها على غاربها؛ ولسقيت آخرها بكأس أولها؛ ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز))(٢).

وكان ابن عباس في الأثناء يتطلع إلى الإمام(عليه السلام) باهتمام كبير، وكأنّ إعلان هذه المظلوميّة - بجميع أدوارها - لامس من نفسه مواقع العقدة المتأصلة فيها، وكان حريصاً على إتمامها لذلك، ولما قام إليه رجل من أهل السواد وسلّم الإمام(عليه السلام) كتاباً شغله النظر فيه عن الاستمرار في الخطبة قال له ابن عباس - فيما يقول الرواة -: ((يا أمير المؤمنين لو اطّردت خطبتك من حيث أفضيت)) فقال: ((هيهات يا ابن عباس تلك شقشقة هدرت ثم قرّت)) يقول صاحبنا - وهو يحدّث عن أثر هذه الخطبة في نفسه -: ((فوالله ما أسفت على كلام قطّ كأسفي على هذا الكلام، أن لا يكون أمير المؤمنين (عليه السلام) بلغ منه حيث أراد))(٣).

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ٥٠-٦٨.

(٣) يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١: ٦٩: ((حدثني شيخي أبو الخير مصدق بن شبيب الواسطي في سنة ثلاث وستمائة، قال: قرأت على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلما انتهيت إلى هذا الموضع قال لي: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن عمك أمر لم يبلغه في هذه الخطبة لتتأسف أن لا يكون بلغ من كلامه ما أراد، والله ما رجع عن الأولين ولا عن الآخرين، ولا بقي في نفسه أحد لم يذكره

وكانت هذه الخطبة، وذلك الكتاب السابق، وحديث الوصاية في احتجاجه على الخوارج وأمثالها مثار جدل وحديث - فيما أخال - بين أهل الكوفة، وربّما سرى من بعضهم - ممن يعمل لبني أميّة تحت الستار، أو يوافق الخوارج في مبدئهم - شئ من التشكيك وإثارة الريبة في تصديقه بدعوى الأحقيّة بالأمر؛ فاضطر الإمام(عليه السلام) إلى الاستشهاد بمن حضر من الصحابة قطعاً لذلك الجدل.. ففي مسند أحمد عن عبد الله بن عباس: ((جمع علي(رض) الناس في رحبة مسجد الكوفة، فقال أنشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول يوم غدير خم ما سمع، فقام سبعة عشر رجلاً وقالوا: إن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حين أخذ بيدك قال للناس: أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: نعم، قال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه))[1].

إلاّ رسول الله، قال مصدق: وكان ابن الخشاب صاحب هزل ودعابة، فقلت له: أتقول إنها منحولة؟ فقال: لا والله، وإني أعلم أنها كلامه كما أعلم أنك مصدق. قال: فقلت: إن كثيراً من الناس يقولون إنها من كلام الرضي (رض) فقال: أنى للرضي ولغير الرضي هذا النفَس وهذا الأسلوب، قد وقفنا على رسائل الرضي وعرفنا طريقته وفنه في الكلام المنثور وما يقع مع هذا الكلام في خل ولاخمر. ثم قال: والله لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة لقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها وأعرف خطوط من هو منَ العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضي)).

(١) ينابيع المودة -مطبعة العرفان، صيدا، لم تذكر سنة الطبع-: ج١: ٣٦ نقلاً عن مسند أحمد.

وعلى حين غرّة يتلقى ابن عباس من خليفته على البصرة كتاباً يحمل إليه خبراً مقلقاً ولسانه:

((للأمير عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد..

سلام عليك.. أما بعد فإن عبد الله بن عامر الحضرمي أقبل من قِبَل معاوية، حتى نزل في بني تميم، ونعى ابن عفان، ودعا إلى الحرب، فبايعه تميم وجلّ أهل البصرة، و لم يبق معي مَن أمتنع به، فلما رأيت ذلك استجرت بالأزد، بصبرة بن شيمان وقومه لنفسي، ولبيت مال المسلمين، ورحلت من قصر الإمارة، فنزلت فيهم، وإن الأزد معي، وشيعة أمير المؤمنين من فرسان القبائل تختلف إلي، وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمي، والقصر خالٍ منّا ومنهم، فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين ليرى فيه رأيه، وأعجل إليّ بالذي ترى أن يكون منه فيه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته))[1].

يقول الراوي: فرفع ذلك ابن عباس إلى علي، وبالطبع فقد تداول معه في وجوه الرأي، وربّما يكون الرأي الأول - باديء ذي بدء - أن يعجّل صاحبنا السفر إلى البصرة؛ ليمسك بنفسه زمام الموقف، ولكن هذا الرأي لا يستقيم إذا علمنا أن الفتنة كانت أضرى من أن تخمد بهذه السهولة، كما يبدو من كتاب زياد، فجلّ أهل البصرة بايعوه، بالإضافة إلى بني تميم، وزياد رجل لا يتهم بحزمه وقوته، ومع ذلك فقد اضطر إلى ترك القصر والاستجارة بالأزد، وعلى هذا فليس من الحزم أن يذهب ابن عباس وحده، والفتنة في أبانها، وربّما كان الأفضل أن لا يسير إلاّ على رأس جيش، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وأن يرسل إلى بني تميم من يخذّلها عن ابن الحضرمي،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ج١: ٥٧٧.

وليكن المرسل تميمياً، وهكذا كان.. فقد أرسل الإمام(عليه السلام) أعين بن ضبيعة المجاشعي؛ ليفرّق قومه عن ابن الحضرمي، وكتب معه إلى زياد:

((سلام عليك.. أما بعد فإني قد بعثت أعين بن ضبيعة ليفرّق قومه عن ابن الحضرمي، فارقب ما يكون منه، فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظن به، وكان في ذلك تفريق تلك الأوباش فهو ما نحب، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والتمادي في العصيان، فانبذ من أطاعك إلى من عصاك، فجاهدهم، فأن ظهرت فهو ما ظننت، وإن رأيت ممن قِبَلَك تثاقلاً وخفت ألاّ تبلغ ما تريد، فطاولهم وماطلهم،ثم تسمّع وأبصر، فكأن كتائب المسلمين قد أطلّت عليك،فقتل الله المفسدين الظالمين،ونصر المؤمنين المحقين والسلام))[1].

وقدم أعين على زياد، وقام بمهمته أفضل قيام، وكاد يتم له النجاح لولا أن يبعثوا له من يغتاله فيُقتل، ويرسل زياد إلى إمامه(عليه السلام) بالخبر، ويرجو أن يبعث لهم بجارية بن قدامة ((فإنه نافذ البصيرة مطاع في العشيرة، شديد على عدوّ أمير المؤمنين))[2]. ويقر الإمام(عليه السلام) وجهة نظره، فيبعثه إليهم ويرسل معه كتاباً إلى أهل البصرة، يستثيبهم فيه، ويتهددهم إن أصروا عل التمرد والطغيان، يقول في ختامه: ((وإني لظان أن لا تجعلوا إن شاء الله على أنفسكم سبيلاً، وقد قدمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم، ولن أكتب إليكم من بعده كتاباً، إن أنتم استغششتم نصيحتي،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ج١: ٥٧٨، وأنظر تأريخ الطبري ج٦: ٦٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١: ٣٥٣.

ونابذتم رسولي، حتى أكون أنا الشاخص لحوكم إن شاء الله تعالى والسلام))[1].

وجاء جارية فكلم قومه بالحسنى فلم يجيبوه، وشتمه أوباشهم، فناهضهم وقضى على ابن الحضرمي وجماعته، بعد أن خذله بنو تميم وبقية أنصار الأمويين، وتم له النصر فكتب زياد إلى الإمام(عليه السلام) بذلك.

والغريب من أمر طه حسين أنه يريد أن يحمّل مسؤولية انتقاض البصرة على ابن عباس، ويجعل ذلك كله وليد نكوله عن إمامه(عليه السلام)، فهو يقول بعد عرضه للحادثة:

((ولو قد أقام عبدالله بن عباس على عهد ابن عمه لهابه معاوية ولما طمع في ملك ضيّعه أصحابه؛ وتركوه نهباً لمن شاء أن ينهبه، بل لو أقام ابن عباس على عهد ابن عمه، لحال بين العصبية وبين هذا الظهور الفجائي البشع، ولجنّب إمامه هذه المحنة القاسية التي تضاف إلى محن قاسية أخرى فلا تزيدها إلاّ نكراً)).

وقال: ((وبعض المؤرخين يزعم أن هذه الأحداث حدثت حين كان ابن عباس قد ذهب إلى الكوفة، مواسياً لعلي، بعد مقتل محمد بن أبي بكر، واحتياز عمرو بن العاص لمصر، وهذا كلام لايستقيم، فلو قد كان ابن عباس عند علي؛ لعاد إلى البصرة مسرعاً، حين بلغته هذه الأنباء؛ ولما أقام عند علي، ينتظر أن يغني عنه زياد وأعين بن ضبيعة وجارية بن قدامة)).

((والواقع أن ابن عباس قد ضعف عن أمر ابن عمه بعد قضية الحكمين، فهو لم ينهض معه إلى الشام حين همّ بالنهوض إليها، ولم يشهد

---

(١) جمهرة رسائل العرب ج١: ٥٨٠-٥٨١.

معه النهروان، وإنما أرسل إليه جنداً من أهل البصرة، ثم لم يـزد علـى ذلـك، وإنما أقام حتى كان من أمره ما كان))(١).

وكلامه هذا متين على نكول ابن عباس، وحمله لبيت المـال قبـل هـذه الحادثة، مع أنني لم أجد في المؤرخين من قدّم قصة بيت المال إلى هذا التأريخ، فهم بين ساكت عن التحديد، ومحـدّد سنة أربعين لهـا، وكـأن طـه حسين - وقد أخذ بأفظع الصور المنقولة عنها - لم يقنع نفسياً بوفاء ما تبقّى من سنة أربعين - وهي السنة المحددة لذلـك - لتـداول كـل هـذه الكتـب، مـع جميـع ملابساتها، فقدّم بالحادثة اجتهاداً ؛ لتسلم له نتيجة ما أراد.

واجتهاده هذا له دعامتان:

أولاهما إرساله للجيش إلى الإمام(عليه السلام)، وعدم حضوره واقعـة النهـروان. وقـد رأينـا - فيمـا سبق - مـدى صحـة هـذا القـول، في كـثرة من صرح بشهوده للحادثة، أو حضوره على رأس الجيش.

وثانيهما أنه لو كان مع الإمام(عليه السلام) في الكوفـة - كمـا صـرّح بعض المؤرخين - عند مجيئ ابـن الحضرمـي ؛ لسـارع إلى البصـرة، و لم يـترك الأمر لزياد وغير زياد، مع أنّا رأينا - فيما سبق - كتاب زياد إلى ابن عبـاس، وهو يصور أهمية الحادثة، وليس من الحزم أن يسارع وحده، وربّمـا كـانت الفتنة أعمق من أن تطفأ بغير جيش، أفما كان انتظـاره لنتـائج استصلاحهم والسـير مـع الإمـام(عليـه السـلام) علـى رأس الجيـش أصـوب مـن مسـارعته وحده؟..ولو قدّر له أن يسارع فينزل دار الإمارة، أم يقصد الأزد مع زيـاد، فإن قصد الأزد مستجيراً مع خليفته كان في ذلك أكبر الوهن عليـه، وأقـوى

---

(١) الفتنة الكبرى (علي وبنوه): ١٤٦.

مشجع لاستمرار هؤلاء العصاة على حركتهم التمرديّة ، وإن قصد دار الإمارة.. أفيضمن أن يدخلها بسلام؟ ويتركه ابن الحضرمي دون أن يثير عليه الغبار! وحل أهل البصرة معه - كما قال خليفته في كتابه له - وليس معه من القوة ما يضمن معها النصر. ولو سلمنا أن حادثة بيت المال كانت قبل مجيئ ابن الحضرمي إليها أفترون عباس بن صحّار يغفل ذكرها في كتابه السابق إلى معاوية؟!.. وهي أهم نقطة ضعف تذكر في أمثال هذه الأحداث.

والحق إنني لم أوفق إلى فهم وجه الضرب على جلّ هذه النصوص التأريخية لا لشيئ إلاّ لتقريب صحة حادثة استل رواياتها طه حسين من بين عدة روايات تتنافى معها بصراحة، بالإضافة إلى أن جملة من الملابسات التي لا ترقى إليها أخيلة الواضعين عادة، تؤيد غيرها من الفروض.. كما سنرى في عرضنا لهذه الحادثة في موضعها.

ومهما يكن فقد كان لهذه الحادثة ذيول، ومن ذيولها أن يضرى أهل فارس وكرمان، ويطمعوا في كسر الخراج، ويخرجوا عمالهم، وكان العامل للإمام(عليه السلام) على فارس سهل بن حنيف، فيستشير الإمام أصحابه في مَن يولّيه أمرها، فيقترح جارية بن قدامة أن يولّي زياداً؛ لأنه رجل صليب الرأي عالم بالسياسة كافٍ لمن ولي. وربّما كان ذلك منه بعد اختباره في حادثة ابن الحضرمي، التي أبدى فيها زياد حزماً منقطع النظير، وقد أمر - فيما يقول الطبري - صاحبنا أن يوجّه بزياد إليهم.. يقول: ((وفي هذه السنة - يعني سنة تسع وثلاثين هجرية - وجّه ابن عباس زياداً عن أمر علي إلى فارس وكرمان، عند منصرفه من عند علي من الكوفة إلى البصرة))[1].

---

(١) تأريخ الطبري ج٦: ٧٩.

وفي رواية الشعبي: ((قال ابن عباس لعلي: أكفيك فارس، فقدم ابن عباس البصرة، ووجه زياداً إلى فارس في جمع كثير، فوطأ بهم أهل فارس، فأدّوا الخراج))[١].

فهو إذاً -كما ترون من صريح هذه الروايات - كان بالكوفة مع الإمام(عليه السلام) إلى ذلك التأريخ.

ويبدو أن ابن عباس جاء إلى البصرة بعد هذه الحادثة، وفي نفسه ثورة على بني تميم ؛ لانضمامهم إلى ابن الحضرمي ؛ ونقضهم لعهد إمامهم، وربّما اتخذ معهم إجراءات لا تخلو من عنف، وأخال أن الإمام(عليه السلام) كتب إليه في هذا العهد بالذات، بعد أن بلغه موقفه منهم: ((اعلم أن أهل البصرة مهبط إبليس ومغرس الفتن، فحادث أهلها بالإحسان إليهم، واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم، وقد بلغني تنمّرك لبني تميم وغلظتك عليهم، وإن بني تميم لم يغب لهم نجم إلاّ طلع لهم آخر، وإنهم لم يسبقوا برغم في جاهلية ولا إسلام، وإن لهم بنا رحماً ماسة وقرابة خاصة، نحن مأجورون على صلتها، وموزورون على قطيعتها، فاربع أبا العباس رحمك الله فيما جرى على لسانك ويدك من خير وشر، فإنا شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك، ولا يفلينّ رأيي فيك والسلام))[٢].

والحق أن للإمام(عليه السلام) مزاجاً لا يشبهه مزاج، وقد ضرب أعلى الأمثال - في جميع مواقفه - في الصفح والعفو وعدم مؤاخذة الجناة

(١) تأريخ الطبري ج٦: ٧٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٣: ٤٢٥.

بعد القدرة، مهما كان ذنبهم معه ما لم يتجاوزوا حداً من حدود الله، وإلحاحه بالعفو عن بني تميم مع موقفهم السابق منه من أقوى الأمثلة لذلك.

(١٦)

وفي هذا العهد بالذات وقعت قصة بيت المال، وكانت مسرحاً لعواطف المؤرخين والرواة على اختلافهم من القرب منه، والبعد عنه، وقد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً، وتعددت وجهات نظرهم، فمنهم النافي لها نفياً باتاً، ومنهم المتوقف في أمرها، ومنهم المثبت لها، وهؤلاء مختلفون، فبعضهم يثبتها وينقل الملاحاة بينه وبين الإمام(عليه السلام) حولها بكتب عدة تنتهي إلى استعفائه من العمل،وذهابه بالمال إلى مكة، بعد استعانته بأخواله، ووقوف أهل البصرة منه موقف الممانع، حتى كادت تنتهي القضية بينهم إلى قتال.

وفي مكة تبدأ ملاحاة أخرى تنتهي بتهديد ابن عباس بحمل المال إلى معاوية ؛ ليستعين به على الإمام(عليه السلام)، وبعضهم يعود به إلى الكوفة تائباً نادماً، وبعضهم يبقيه بالبصرة بعد إرجاعه للمال على إثر مكاتبة بينه وبين الإمام(عليه السلام).

وهؤلاء المثبتون يختلفون في عدد ما حمل من بيت المال، فقائل: ستة ملايين من الدراهم، وآخر مليونين، وثالث سبعمائة ألف، ورابع أربعمائة ألف، وخامس عشرة آلاف درهم، ويختلفون في المبرر الشرعي لفعله، فبعضهم يلتمسه له، وآخر ينفيه عنه.

ونظراً لأهمية الحادثة فإننا نعرضها بشيء من التفصيل، مع شيء من العرض لوجهات نظرهم.

أما النافون - وعلى رأسهم أبو عبيدة - فاعتمادهم ما أثر من أنه بقي في البصرة إلى عهد الحسن عليه السلام، وشهد الصلح معه، وأيّد ذلك عمرو ابن عبيد في حديث له مع سليمان بن علي حين نسب إلى الحسن: ((أنه كان يقول في عبد الله بن عباس: إنه يفتينا في القملة والقميلة، وطار بأموالنا في ليلة، فقال له عمرو: فكيف تقول هذا وابن عباس لم يفارق علياً حتى قتل وشهد صلح الحسن؟!))، ثم يقول: ((وأي مال يجتمع في بيت مال البصرة مع حاجة علي إلى الأموال؟! وهو يفرّغ بيت مال الكوفة في كل خمس ويرشّه؟ وقالوا: أنه كان يقيل فيه، فكيف يترك المال يجتمع بالبصرة؟! هذا باطل))(1).

وأما المثبتون، فأقدم ما قرأت من رواياتهم -ذات الغلوّ في تصويرها- رواية الطبري، وعنه - فيما يبدو- أخذ جملة المتأخرين؛ لاتّحاد لسان الرواية لديهم غالباً، فقد عرض هذه الحادثة مروية عن عمر بن شبّة قال: ((حدثني جماعة عن أبي مخنف ، عن سليمان بن راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود، قال: مر عبدالله بن عباس على أبي الأسود الدؤلي، فقال: لو كنت من البهائم كنت جملاً، ولو كنت راعياً ما بلغت من المرعى، ولا أحسنت مهنته في المشي، قال: فكتب أبو الأسود الدؤلي إلى علي: أما بعد فإن الله جل وعلا جعلك والياً مؤتمناً وراعياً مستولياً، وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمانة، ناصحاً للرعيّة توفّر لهم فيأهم، وتظلف نفسك عن دنياهم،

---

(1) أمالي المرتضى - مطبعة السعادة، مصر، ط1، سنة الطبع ١٩٠٧م - ج1: ١٢٣.

فلا تأكل أموالهم ولا ترتشي في أحكامهم، وإن ابن عمك قد أكل كل ما تحت يديه بغير علمك، فلم يسعني كتمانك ذلك، فانظر رحمك الله فيما هناك، واكتب إليّ برأيك فيما أحببت، أنته إليك والسلام.

فكتب إليه علي: أما بعد فمثلك نصح الإمام والأمّة وأدى الأمانة، ودلّ على الحق، وقد كتبت إلى صاحبك فيما كتبت إليّ فيه من أمره، ولم أعلمه أنك كتبت، فلا تدع إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمّة صلاح، فإنك بذلك جدير، وهو حق واجب عليك والسلام.

وكتب إلى ابن عباس في ذلك، فكتب إليه ابن عباس: أما بعد فإن الذي بلغك باطل وإني لما تحت يدي ضابط قائم له، وله حافظ، فلا تصدّق الظنون والسلام.

قال: فكتب إليه علي: أما بعد فأعلمني ما أخذت من الجزية؟ ومن أين اخذت؟ وفيم وضعت؟.

قال: فكتب إليه ابن عباس: أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزأة ما بلغك أني رزأته من مال أهل هذا البلد، فابعث إلى عملك من أحببت، فإني ظاعن عنه والسلام.

ثم دعا ابن عباس أخواله بني هلال بن عامر فجاءه الضحاك بن عبد الله، وعبدالله بن رزين بن أبي عمرو الهلاليان، ثم اجتمعت معه قيس كلّها، فحمل مالاً، قال أبو زيد: قال أبو عبيدة: كانت أرزاقاً قد اجتمعت، فحمل معه مقدار ما اجتمع له فبعثت الأخماس كلها، فلحقوه بالطف، فتواقفوا يريدون أخذ المال، فقالت قيس: والله لا يوصل إلى ذلك وفينا عين تطرف، وقال صبرة بن شيمان الحداني: يا معشر الأزد والله إن قيساً

لأخواننا في الإسلام وجيراننا في الدار، وأعواننا على العدو، وإن الذي يصيبكم من هذا المال لو ردّ عليكم لقليل، وهم غداً خير لكم من المال، قالوا: فما ترى؟ قال: انصرفوا عنهم ودعوهم، فأطاعوه فانصرفوا، فقالت بكر وعبد القيس: نعم الرأي رأي صبرة لقومه فاعتزلوا أيضاً، فقالت بنو تميم: والله لا نفارقهم، نقاتلهم عليه، فقال الأحنف: قد ترك قتالهم من هو أبعد منكم رحماً، فقالوا: والله لنقاتلنهم، فقال: إذن والله لا أساعدكم عليهم فاعتزلهم، قال: فرأسوا عليهم ابن المجاعة من بني تميم فقاتلوهم وحمل الضحاك على ابن المجاعة فطعنه، واعتنقه عبد الله بن رزين فسقطا إلى الأرض يعتركان، وكثر الجراح فيهم، ولم يكن بينهم قتيل، فقالت الأخماس: ما صنعنا شيئاً، اعتزلناهم وتركناهم يتحاربون، فضربوا وجوه بعضهم عن بعض، وقالوا لبني تميم: فنحن أسخى منكم أنفساً، حين تركنا هذا المال لبني عمكم وأنتم تقاتلونهم عليه. إن القوم قد حملوا وحموا فخلوهم، وإن أحببتم فانصرفوا. ومضى ابن عباس ومعه نحو عشرين رجلاً حتى قدم مكة))(١).

وهذه الرواية نفسها -فيما تبدو- رواها بنفس السند صاحب العقد الفريد بادئاً بأبي مخنف مع اختلاف يسير، ثم ضم إليها تتمة عن سليمان بن أبي راشد عن عبدالله بن عبيد عن أبي الكنود (كذا) وفيها أن أبا الكنود وكان من أصحاب ابن عباس ولكن لما رأى حمله لبيت المال ذهب إلى الإمام فأخبره فقال: ﴿واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾(٢). ثم كتب معه كتاباً إليه، وأرسله به

---

(١) تأريخ الطبري ج٦: ٨١-٨٢، وأنظر جمهرة رسائل العرب ج١: ٥٨٧-٥٩٠.

(٢) الأعراف:١٧٥.

إلى مكة، وهنا يذكر عدة رسائل تبودلت بينهما، وكان آخرها تهديد ابن عباس له بحمل المال إلى معاوية يستعين به عليه[١].

وأظن أننا في غنى عن التساؤل من أبي الكنود هذا، كيف استحصل على كل هذه الوثائق والمستندات الخطيرة؟ وهل مكّنه ابن عباس منها وهي تدينه في مضامينها؟! أو أن الإمام(عليه السلام) أعطاه صورة من رسائله ومن أجوبة ابن عمه له واختصه بها دون سواه؟! أو سطا هو على هذه الرسائل ففتحها واطّلع عليها في أثناء سفارته بينهما- إن كان هو الوسيط فيها جميعاً- ومع الغضّ عن هذه الناحية، وعن قيمة أبي الكنود من وجهة أمانته ووثاقته، والفجوات الموجودة في قصته هذه، فإن الجهالة في أسانيدها كافية لتوهينها، فالجماعة الذين حدّثوا الطبري عن أبي مخنف مجهولون عندنا، وربّما كانوا أناساً غير موثوقين . وصاحب العقد الفريد لم يتصل بأبي مخنف - بطبيعة الحال - لاختلاف زمنهما، ولم نعرف الواسطة بينهما؛ لنحكم على قيمة روايته، وربّما كان المصدر له الطبري، أو بعض هذه الجماعة، فالرواية من حيث أسانيدها لا تبعث على الاطمئنان، على أن مثلها لا تروى عادة بأحاديث الآحاد؛ نظراً لأهميتها من جهة وشهرة ابن عباس من جهة أخرى.

وفي كتاب الكشي طريق آخر لبعض الكتب التي تبودلت بينهما وهو بمكة، قال الكشي: ((قال شيخ من أهل اليماني يذكر عن معلّى بن هلال عن الشعبي قال: لما احتمل عبد الله بن عباس بيت مال البصرة، وذهب به إلى الحجاز كتب إليه علي))[٢].. الحديث.

---

(١) انظر العقد الفريد ج٢: ٢٠٨وما بعدها.

(٢) رجال الكشي: ٤١.

أمّا ابن أبي الحديد -وهو المتوقف في الأمر- فالذي يبدو منه أنه لم يقم وزناً لكل هذه الأحاديث، وإنما كان مبعث قلقه الكتاب الذي ذكره الرضي في النهج، ولم يذكر من أرسل إليه هذا الكتاب، فهو بحكم تصريح المؤرخين بأن الكتاب موجّه إليه بالذات، ولسان الكتاب يؤيد ذلك، ثم هو بحكم ما يذكره من بعض الملابسات التي تقتضي بقاءه بالبصرة حتى مقتل علي‌عليه السلام.. مال إلى التوقف.

والحقيقة - كما يذهب إلى ذلك منكروها وهم القلّة في المؤرخين - تأباه طبيعة البحث الموضوعي؛ لأن هذه القضايا الكبرى في التأريخ، والتي يكثر الحديث فيها لا تكون بغير منشأ انتزاع غالباً كما يعبّر الأصوليون مع أن عامة أهل السير فيما يبدو من الطبري[1] أو أكثرهم فيما يبدو من ابن الأثير[2] قد تعرّضوا لذكرها، وليس من السهل تكذيبهم جميعاً، وبخاصة وأن هناك بعض الملابسات ربّما تؤيد وجود أساس لها، كورودها على لسان ابن الزبير في ملاحاة له مع صاحبنا، وعدم إنكاره لها، وهي عادة مما لا يهتدي إليها الواضعون، وكورودها على لسان قيس بن سعد في بعض الروايات، حين خطب بعد صلح الحسن‌عليه السلام[3].

والإيمان بها بشكلها الواسع الذي ذكره الطبري، ونقله أو أخذ به جملة ممن تأخر عنه من ذوي الموسوعات والتراجم كابن الأثير[4]

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٦: ٨١.

(٢) انظر تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٩٦.

(٣) انظر مقاتل الطالبيين - شرح وتحقيق أحمد صقر، مطبعة دار المعرفة - :٣٥.

(٤) انظر تأريخ ابن الأثير ج٣: ١٩٦.

وابن خلدون[١] وابن كثير[٢]وغيرهم، وبخاصة إذا ضممنا إليه ضميمة ابن عبد ربه في العقد[٣] والكشي[٤] في رجاله.

قلت: الإيمان بهذا الشكل أمر لا يمكن الاطمئنان إليه أيضاً؛ لأن في ذلك تجاهلاً لوظيفة الوضّاع في تلكم العصور.

وقد ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب مختلف العوامل الداعية للوضع عليه في زمنه وبعد زمنه، وبخاصة في ما دار من ملاحاة بين السلطة في بداية العصر العباسي، وبين الثائرين من أئمة الزيدية على الحكم، والتماس كل منهما لجهات الطعن في مؤهلات الآخرين، على أنها لو كانت إذ ذاك مشهورة بهذا الشكل شهرة يُطمأن إليها؛ لكان الأولى لمحمد ذي النفس الزكية أن يتخذها طريقاً للتوهين في مؤهلات البيت العباسي للحكم، مع أنه اتخذ في كتابه إلى المنصور ما هو أهون منها بكثير، كانتسابهم لأمهات الأولاد، وككونهم من الطلقاء، وما شاكل ذلك[٥].

وحتى الشعراءمن مناوئي ابن عباس الذين تعرضوالهجوه لم يشيروا إلى هذه الحادثة ولو من طرف خفي، في حين إنهم تزيّدوا عليه بما هو أهون منها بكثير، أفترون أنهم كانوا يغفلونها وهي بهذه الصورة البشعة التي لا يمكن أن يخفى أمرها علىأمثالهم عادة؟!..فلوثبتت هذه السرقةفي وضح النهار - مثلاً - وما استتبعت من قتال وغيره لكان ذكرها في وثائق الإدانة أولىمن ذكر

---

(١) انظر تأريخ ابن خلدون ج٢: ٤٥١.

(٢) انظر البداية والنهاية ج ٧ : ٣٢٢.

(٣) انظر العقد الفريد ج٢: ٢٠٩.

(٤) انظر رجال الكشي: ٤٢.

(٥) انظر تأريخ الطبري ج٩: ٢١١.

غيرها عادة،ومما لا يصلح للإدانة بحال، على أنها لو كانت تمت بهذه الشهرة والفظاعة التي رويت بها،لما جرأ مثل سليمان على إثارة حديثها مع عمرو بن عبيد، وهو المعروف بإيمانه وصراحته وعدم ممانعته حتى قال عنه المنصور..

كلنا يطلب صيد كلنا يمشي رويد

غير عمرو بن عبيد

هذا عيينة بن مرداس المعروف بابن فسوة - وكان قد عوّده عمال الخلفاء على البصرة أن يشتروا لسانه بالمال - يجيئ إلى صاحبنا فيجيبه بقوله: ((ما جاء بك إليَّ يا ابن فسوة؟ فقال له: وهل عنك مقصر ووراءك معدى؟ جئتك لتعينني على مروءتي وتصل قرابتي، فقال له ابن عباس: وما مروءة من يعص الرحمن ويقول البهتان ويقطع ما أمر الله به أن يوصل، والله لئن أعطيتك لأعيننك على الكفر والعصيان، انطلق فأنا أقسم بالله لئن بلغني أنك هجوت أحداً من العرب لأقطعن لسانك. فأراد الكلام فمنعه من حضر، وحبسه يومه ذلك ثم أخرجه عن البصرة، فوفد إلى المدينة بعد مقتل علي عليه السلام فلقي الحسن عليه السلام وعبدالله بن جعفر، فسأله عن خبره مع ابن عباس فأخبرهما فاشتريا عرضه بما أرضاه))، فقال يمدحهما ويلوم ابن عباس:

أتيت ابن عباسٍ فلم يقض حاجتي ولم يرج معروفي ولم يخش منكري
حبست فلم أنطق بعذر لحاجة وشد خصاص البيت من كل منظر
وجئت وأصوات الخصوم وراءه كصوت الحمامِ في القليب المغوّر
وما أنا إذ زاحمت مصراع بابه بذي صولة باق ولا بحزوّر
فلوكنت من زهران لم ينس حاجتي ولكنني مولى جميل بن معمر
وباتت لعبد الله من دون حاجتي شميلة تلهو بالحديث المقتّر

ثم يتسلسل على هذا النحو من الهجاء[1].

فهو-كما ترون - يعرض لصوت الخصوم، واتهامه بمصانعة أنسبائه من زهران؛لأن زوجته شميلة منهم.. إلى آخر ما جاء فيها من دسّ رخيص، ومع ذلك يهمل هذه الثروة التي تستحق أعنف الهجاء، وكان أيسر من هذا كلّه - لو صحت الرواية - على أن يقول: منعني المال كما منع سائر المسلمين؛ لينهبه بعد حين، ويشتري الجواري بمكة.. إلى ما هنالك من عنيف الهجاء.

ثم حديث سليمان بن علي مع عمرو بن عبيد السابق، لا موضع له، ولم يكن ليجرؤ على إثارته عادة لو كانت القضية مكشوفة ومشهورة في البصرة بهذا الشكل الفظيع، ومثلها - بوصفها الذي ورد في الطبري، مع قرب العهد بها - لابدّ أن تكون معروفة لدى الجميع، ولو كانت بهذه المثابة لما أنكرها عمرو بن عُبيد مع شهرته بالتقدّس؛ ولالتمس لها المبررات الشرعية؛ لو كانت التقيّة وحدها هي الدافعة له على هذا التكذيب.

على أن هناك ملابسات غير ما ذكرنا، تمنع من تصديقها أشار إلى بعضها ابن أبي الحديد، كإغفال معاوية وابن العاص وغيرهم من أتباع الأمويين، وعدم تطرّق حتى وضّاعهم لها على كثرة مواقف صاحبنا الصارمة منهم، وكثرة ما حدث بينهم من تفاخر ومناقشات - سنأتي عليها في موضعها - عادة لا يغفل في أمثالها، مع تعرضهم لهنات أقل منها شأناً، وهي التي يجب أن يقام لها الوزن، وكسكوت أهل البيت(عليهم السلام) عنها، وعدم حدوث أية جفوة بين أي أحد منهم وبينه، مع أن مثل هذه الحادثة بما دار فيها من مكاتبات مشحونة بالجرأة وإساءة الأدب،بالنسبة لمقام

---

(١) انظر الأغاني ج١٩: ١٤٣-١٤٤.

الإمام(عليه السلام) لايمكن أن تمر بسلام، دون أن تحدث ما تحدث بينهم من عداء ، ودون أن يستغلها الأمويون أبشع استغلال، وكحدوث فجوات في التأريخ لا يمكن أن تملأ في هذا الحال.. وسنرى في عرض الحوادث الواقعة بعد هذا ما يشير إلى كل هذه الفجوات والملابسات، وبعضها لا ترقى إلى أخيلة الواضعين قطعاً.

على أننا لو حاكمنا نصوصها تأريخياً، وجدنا ما بأيدينا من الروايات المسندة إلى مشاهديها تنتهي إلى أبي الكنود أو الشعبي. والطريق إلى أبي الكنود في الطبري عمر بن شبة عن جماعة، فلو صححنا الجميع كانت الجهالة في الجماعة كافية لوهن الحديث، مع أن صاحب العقد يغفل ابن شبة في الجماعة، ويتحول رأساً إلى أبي مخنف، مع تعدد الوسائط بينهم بحسب الزمن عادة، والطريق إلى الشعبي في رجال الكشي رجل يماني، وجهالته كافية في وهن ما يرويه.

على أننا لو صححنا ما يقوله الطبري من ذكر عامة أهل السير لها على صورتها المروية لديّه؛ لانتهت إلينا عادة من عشرات الطرق؛ ولجرى هو فيها على ما عوّدنا عليه من ذكر مختلف الروايات بفوارق بسيطة للحادثة التافهة، فكيف بمثل هذه! وإذا أغفلنا هذه الجهة وعدنا إلى مضامينها، وجدنا أكثرها يتنافى مع أبسط مبادئ اللياقة، وأكثرها يدينه لمشاركته فيها، وهي لا يمكن أن تصدر من شخصيّة مركّزة جداً كشخصيّة ابن عباس.

فلهذه الاعتبارات وأمثالها لا نستطيع الإيمان بهذا التفصيل، كما لانستطيع الإيمان بأنها مختلقة من الأساس.

والطبيعي أن نقول: إن يده امتدت - لأي اعتبار- إلى بيت المال، فتجاوزت حدودها المرسومة من قبل الإمام(عليه السلام)، وإن أبا الأسود كتب بذلك إلى إمامه(عليه السلام) والإمام كتب إليه مؤنّباً؛ لأن الإمام (عليه السلام) لم يعوّد عماله السكوت على هناتهم، وهم المسؤولون عن حفظ حقوق الناس.

ثم دارت بينهما بعض المكاتبات انتهت بإرجاع ما أخذ من مال، ورضا الإمام(عليه السلام) عنه، وبقائه على موضعه بالبصرة.

ومثل هذا الفرض على بساطته - إذا حصلنا على سند تأريخي له - يملأ جميع الفجوات السابقة؛ لأن مثله لا يعلم به عادة إلاّ الأقلّون، وهو لا يستوجب وصمته إذا كان له مبرره - كما سنرى - ليتمسك به أعداؤه إذا علموا، كما أنه ينسجم مع تأريخه بعد هذه الفترة تمام الانسجام، وهذه التزيّدات التي حدثت بعد زمن طويل طبيعية جداً إذا أحطنا بدوافع الوضع عليه كما جاء في مقدمة هذا الكتاب، وإلاّ فمن المستحيل أن يجد من يهمّهم الوضع عليه كوّة ينفذون منها فلا يوسعونها، ويسلكون إلى انتقاصه من طريقها.

وهذا الفرض لا يتنافى مع مذهب النافين، إذا كان مصدرهم الوحيد هو بقاءه بالبصرة حتى وفاة الإمام(عليه السلام) وحتى صلح الحسن(عليه السلام)، ولا ينافي مذهب المثبتين في أساسه أيضاً، وإن نافاه في تفاصيله.

والذي أخاله أن حادثة استعانته بأخواله - ووقوف بني تميم منه، وخروج من خرج من أهل الأخماس للحجز بينهم - كانت صحيحة، ولكن في غير ما وضع لها من تأريخ، وتأريخها الذي أظنه كان بعد صلح

الإمام الحسن(عليه السلام) وخروجه من البصرة بمتاعه، وما فضل لديه من عمالته[١]، وإن بني تميم أرادوا الانتقام لأنفسهم منه بعد ذهاب السلطة من يده؛ لموقفه الصارم منهم بعد عودته من الكوفة - على ما شرحناه فيما سبق - وربّما

برروا خروجهم بالتهمة له بحمله لبيت المال، ولكنهم أخفقوا إذ لم يجدوا الصدى الكافي لما أحدثوه في النفوس فعادوا خائبين.

أما السند التأريخي لهذا الجمع بين الروايات فهو ما ورد في تأريخ اليعقوبي، وهو من أقدم الكتب التأريخية عهداً وأوثقها نقلاً قال: ((وكتب أبو الأسود الدؤلي - وكان خليفة عبدالله بن عباس في البصرة - إلى علي(عليه السلام) يعلمه أن عبد الله بن عباس أخذ من بيت المال عشرة آلاف درهم، فكتب إليه يقسم له بالله لتردّنها، فلما ردّها عبدالله بن عباس، أو ردّ أكثرها كتب إليه علي(عليه السلام): ((أما بعد فإن المرء يسرّه درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فما أتاك من الدنيا فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تكثر عليه جزعاً، واجعل همّك لما بعد الموت والسلام.. فكان ابن عباس يقول: ما اتّعظت بكلام قطّ اتعاظي بكلام أمير المؤمنين))[٢].

وهذا الكتاب يذكره أكثر المؤرخين، ويذكرون تأثر ابن عباس له هذا التأثر البالغ، ولكنهم لا يذكرون له مثيراً، ولسان الكتاب يختلف عن بقيّة ألسنة كتب الإمام(عليه السلام) له، بما فيه من تعزية وتسرية ووعظ، مما يدلّ على وجود مثل هذا المثير، وتأثر ابن عباس له، على أن جوه النفسي الخاص

---

(١) انظر تأريخ الطبري ج٦: ٨٢.

(٢) تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٨١.

كان مهيئاً لتقبّل مثل هذا النوع من الوعظ، وتصريحه بمدى تأثره به قد يكون وليد عوامل لاشعورية، انبعثت عن ملابسات هذه الحادثة.

أما التماس مبرر شرعي له، فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد عن أبى بكرة بن شيبة ما يصلح لذلك التبرير.. يقول: ((وكان عبد الله بن عباس من أحبّ الناس إلى عمر بن الخطاب، وكان يقدّمه على الأكابر من أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يستعمله قط، فقال له يوماً: كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفيئ على التأويل، فلما صار الأمر إلى علي فاستحل الفيئ على تأويل قول الله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى..الآية﴾[1] واستحلّه من قرابته لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)))[2] وهذا اجتهاد من قبل أبي بكرة استمده - كما ترون - من قبل معرفته لرأيه في الخمس وهو رأي مشهور معروف قد حدّث عنه في جوابه السابق، وجوابه للحروري عندما سأله عن رأيه في الخمس وقوله بأنه لنا.. الخ.

ولكنّ طه حسين لا يرتضي هذا التبرير فهو في رأيه أصحّ رأياً وأعقل عقلاً وأعلم بدينه من هذا التأوّل، فهو كان يعلم من غير شك أن حقه في هذا الخمس لن يعدو أن يكون كحق غيره من أولي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وكان يعلم أنه لا ينبغي، بل لا يحلّ له أن يأخذ حقه من هذا الخمس بنفسه، وإنما ينبغي أن يتلقاه من الإمام الذي نصب ليقسم

---

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) العقد الفريد ج٢: ٢٠٨.

يين المسلمين فيأهم، وينفق منه في مرافقهم، وهو الذي يقسم بين أولي القربى واليتامى والمساكين حقهم من هذا الخمس[١].

وهذه المناقشة قد لا تكون جارية على مقتضى الفن، إذا اعترفنا بأن له حقاً في المال بحكم كونه من آل البيت، وتوقف تسلّمه على إذن الإمام(عليه السلام) في خصوص حق ذوي القربى، أمر لا يقرّه الفقهاء، ولو سلّمنا له بذلك فهو بحكم نيابته عنه (عليه السلام) في توزيع الأموال على مستحقيها بالبصرة، يسوغ له أن يأخذ ما يراه من حقه كمستحق من المستحقين إلاّ أن يثبت ردع من إمامه (عليه السلام) عن تناوله لمصلحة يراها هو.

والحقيقه أن العنوان الأوّلي، بمقتضى نص الكتاب على الخمس، لا يمنع من أخذه، ومذهب أهل البيت(عليهم السلام) وعلى رأسهم الإمام في هذه القضية معروف، ولكن الذي يبدو من بعض الأحاديث أن الإمام (عليه السلام) لم يجبر على ما يقتضيه هذا العنوان لطرو عنوان ثانوي عليه، يكون هذا العنوان هو ما أشار إليه الإمام الباقر(عليه السلام) في جوابه لأبي إسحق.. يقول: ((سألت أبا جعفر محمد بن علي(عليه السلام)، قلت: أرأيت علياً حين ولّي العراق وما ولّي من أمر الناس كيف صنع في سهم ذوي القربى؟ قال: سلك بهم طريق أبي بكر وعمر قلت: كيف ولِمَ وأنتم تقولون ما تقولون؟ قال: أما والله ما كان أهله يصدرون إلاّ عن رأيه، فقلت: فما منعه؟ قال: كان يكره أن يدّعى عليه مخالفة أبي بكر وعمر))[٢].

---

(١) انظر الفتنة الكبرى (علي وبنوه): ١٤١.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٤: ٨٦.

والواقع إن كثيراً من الأحكام التي شرّعها سابقوه، وخالفهم فيها الإمام(عليه السلام) لم يعمل على تغييرها في عهده؛ لتركّزها في نفوس الرأي العام وتمسّكهم بها، وربّما كان يخشى من تغييرها حدوث بلبلة قد تنتهي إلى مفسدة.

وقد حاول في صلاة التراويح أن يعيدها إلى عهدها في أيام الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، فتنادى المسلمون: واعمراه[1] ووقفوا دون امتثال أمره في ذلك.

وقضية الخمس قضية حساسة لا ترقى إليها صلاة التراويح في أهميتها لدى الجماهير ؛ لما تدخل عليهم من المال، فلو أراد الإمام(عليه السلام) أن يصرّ على تقسيمها في أقاربه خاصة، بمقتضى الآية، لكان أيسر ما يقوله المهرجون منهم: علام قتلنا عثمان، ولربطوا بين السيرتين في مراعاة الأقارب دون إصغاء لما تقتضيه الآية أو غير الآية من الأحكام. وربّما اعتبر بعضهم أن ما يدخله توزيعه هذا من اليسر عليهم، وعلى أهل بيته، هدفاً من مطالبته بحقه بالخلافة لسابقيه، مع أنّا عرفنا - فيما حدثنا صاحبنا من قبل - مدى تقييمه للخلافة عندما وزنها بالنعل، ما لم يقم حقاً أو يدفع باطلاً.

فمنعه إذاً لأقربائه - لهذا العنوان الثانوي - أصلح للأمة ولهم من تعريضهم لما يحدثه هذا التغيير من فساد.

فإذا صحّ هذا وأردنا أن نلتمس المبرر لصاحبنا في حينه،وجدناه قائماً، فأخذه للمال بدافع الحاجة إليه من دون أن يثير حوله الغبار لتكتّمه له أمر لا يتنافى مع العنوان الأولي لحكم الخمس، وهو حق له، وموقف الإمام

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج٣: ١٧٨.

(عليه السلام) بعد كتاب أبي الأسود الدؤلي وأمره بإرجاعه إلى بيت المال طبيعي أيضاً؛ لطرو العنوان الثانوي الملزم بعد اطّلاع أبي الأسود، وخوفه من أن يدبّ التهامس بين الناس حول هذا الموضوع، وكان لابد له أن يرجع المال بعد إصرار الإمام(عليه السلام) عليه وعدم إقراره على وجهة نظره، وما كان لمثله أن يصبر على نهي إمامه، ففي مكارم الأخلاق للطبرسي: ((عن عبد الله بن عباس لما رجع من البصرة وحمل المال ودخل الكوفة، وجد أمير المؤمنين(عليه السلام) قائماً في السوق وهو ينادي بنفسه معاشر الناس..الخ قال ابن عباس: فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام، ثم قال: يا ابن عباس ما فعل المال؟ فقلت: ها هو يا أمير المؤمنين وحملته إليه فقرّبني ورّحب بي..))[1].

فأخذه إذاً كان بحق؛ لتوفّر العنوان الأولي فيه، وربّما تخيل أن أبا الأسود كان أقدر على فهم وجهة نظره هذه، وهو الذي عُرف بتلمذته عليه، وإرجاعه كان بحق أيضاً؛ لطرو العنوان الثانوي عليه، ومع هذا فأين موضع الخيانة واللصوصية من عمله ؛ حتى يلزم الإمام (عليه السلام) بعزله وتنحيته عن منصبه؟! وهو ينمّ على مدى تورّعه وصلوحه لما ينهض به.

وعلى أية حال فقد كانت له وجهة نظر لها أساس من الشرع في عقيدته، كما صرح قيس بن سعد في خطبته - كما يرويها أبو الفرج -: ((وهو يزعم أنها حلال))،وكماصرّح في جوابه لابن الزبير:((وأما حملي المال فإنه كان مالاً جبيناه، وأعطينا كل ذي حق حقه، وبقيت بقية هي دون حقنا

---

(١) مكارم الأخلاق - مطبعة النعمان، النجف، لم تذكر سنة الطبع - : ١٣١.

في كتاب الله، فأخذنا بحقنا))[1]، ولا أقلّ من اعتباره مجتهداً مخطئاً لا متحدياً لأهم مبادئ الدين كما هو فحوى كلام طه حسين.

أما مقدار ما أخذ من المال فالذي أقرّبه أنه لم يتجاوز العشرة آلاف درهم التي ذكرها اليعقوبي[2]، وإلاّ فمن البعيد جداً أن يتناول ستة ملايين أو مليونين أو حتى أربعمائة ألف - كما ذكر في روايات سابقة - وفي عزمه أن يخفي ذلك على الناس وعلى إمامه(عليه السلام)، وكأنه لم يصنع شيئاً. كما ربّما يدل على ذلك ما ذكروا من مراسلاته مع الإمام(عليه السلام) كقوله: ((إني لما تحت يدي ضابط))، وإن كان هذا المقدار لا يكون طبيعياً إذا صدّقنا رواية الطبري السابقة. وليس المهم بعد ذلك تحقيق الكمية التي أخذها إذا آمنّا مع اليعقوبي وغيره ببساطة الحادثة، وإرجاع المال، وبقائه في منصبه مدة بقاء الإمام(عليه السلام).. فلنعاود سيرنا معه في هذه الحقبة على هذا الضوء؛ لنرى ما جدّ له بعد هذه الحادثة من أحداث؛ ولنلمس بأيدينا بعض ما أشرنا إليه من ملابسات.

(١٧)

ومن الطبيعي جداً أن يستدعي الإمام(عليه السلام) صاحبنا بعد رضاه عنه ؛ليسرّي عن نفسه بعض ما علق بها من ألم لملابسات هذه الحادثة، وأن يسارع ابن عباس إلى إجابة الدعوة؛ ليتسنّى له شرح بواعثه على أخذ المال،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤: ٤٩٠.

(٢) انظر تأريخ اليعقوبي ج٢: ١٨١.

ولا يبعد أن يبدأ بالسفر، إذا لم تأته دعوة من إمامه(عليه السلام)، ولايكتفي بما دار بينهما من مراسلات، مهما قيل في روعة أدائها فإنها دون ما تأتي به المشافهة عادة من تطييب النفوس، وفهم وجهات النظر على اختلافها.

والرواية التي نسبها سبط ابن الجوزي إلى القيل فقال - بعد تعرضه لحادثة بيت المال -:((وقيل: إنه عاد إلى الكوفة))[1] لاتخلو - فيما أخال - من صحة،وطبيعة الحادثة تقتضيها، بالإضافة إلى تمشّيها مع جملة من الروايات صرحت بصدور بعض الحوادث عنه وهو بالكوفة في هذا العهد بالذات.

ولست أبعّد أن في شرحه لظروف الحادثة وبواعثها ما جلب عطف الإمام(عليه السلام) عليه واهتمامه بترضّيه، فكان يتفقده إذا غاب عن موضع يقتضي حضوره فيه ويسأل عنه، ففي الكامل للمبرد: ((يروى عن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه، أنه افتقد عبد الله بن العباس رحمه الله فقال: ما بال أبي العباس لم يحضر؟ فقالوا: وُلد له مولود، فلما صلّى علي رحمه الله قال: امضوا بنا إليه فأتاه فهنّأه فقال: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، ما سمّيته؟ قال: أو يجوز لي أن أسمّيه حتى تسمّيه؟! فأمر به فأُخرج إليه فأخذه وحنّكه ودعا له، ثم ردّه إليه، وقال: خذه إليك أبا الأملاك قد سميته علياً وكنّيته أبا الحسن))[2].

وفي بعض الروايات أن الذي سماه هو أبوه ((وقال: سميته باسم أحب الناس إليّ وكنّاه أبا الحسن))[3].

---

(١) تذكرة الخواص:١٦٢.

(٢) الكامل في اللغة والأدب -مطبعة مصطفى محمد، مصر، سنة الطبع ١٣٥٥هـ- ج١: ٣٦٧.

(٣) تأريخ ابن الأثير ج٥: ٩٢.

وفي أسلوب تفقّده هذا: ((ما بال أبي العباس لم يحضر))، ومسارعته إلى الحضور بنفسه لتهنئته، ماربما يشير إلى ذلك العطف.

وبالطبع كان لهذه الزيارة أوقع الأثر لا في نفسه فحسب، بل في نفوس أهل بيته جميعاً، وما أظنهم كانوا يحسبون بأن القدر قد خبأ لهم في تلك الليلة مايقضي على كل ماتبقّى لهم من فرح وسرور، حيث فاجأهم عبد الرحمن بن ملجم بقتل الإمام(عليه السلام) وهو يصلي بالناس صلاة الصبح في نفس ذلك اليوم، وقد حدد كثير من المؤرخين الذين عرضوا لولادة علي - هذا - ميلاده بليلة مقتل الإمام(عليه السلام)(١).

وأمضّ من ذلك أن هذه الحادثة جاءت بعد بارقة من الأمل في إعادة ما أفقدهم التحكيم من الظفر، فقد أسلمت الكوفة قيادها إلى إمامها (عليه السلام)، بعد تخاذل وتقاعس ونكول، حتى ملّهم إمامهم وتمنى لنفسه الشهادة من على منبرها وقال مراراً: ((ما يحبس أشقاكم أن يجيء فيقتلني، اللهم إني قد سئمتهم وسأموني فأرحني منهم وأرحهم مني))(٢).

وأخال أننا لا نستطيع أن ندرك هول الفاجعة في نفس صاحبنا، ومدى ما ألمّ به، إذا لم نحط خبراً بما صوّرناه من علائقه به منذ طفولته المبكرة، حيث اتخذ منه بطلاً يتأثره في حركاته وسكناته، ثم ملازمته له حتى ساعته الأخيرة، على نحو ما صوّرناه فيما سبق من فصول.

وقد ذكروا له أبياتاً قالها في رثائه، ربّما صوّرت جانباً من جوانب هول الواقعة في نفسه..

---

(١) انظر تأريخ ابن الأثير ج٥: ٩٢.

(٢) أنساب الأشراف ج٢: ٥٠١.

يقول:

((وهزّ عليٌّ بالعراقين لحيةً   مصيبتها حلّت على كل مسلم
وقال سيأتيها من الله نازل   ويخضبها أشقى البرية بالدم
فعاجله بالسيف شُلّت يمينه   لشؤم قطام عند ذاك ابن ملجم
فياضربة من خاسرضل سعيه   تبوّأ منها مقعداً في جهنم
ففاز أمير المؤمنين بحظه   وإن طرقت إحدى الليالي بمعظم
ألا إنما الدنيا بلاء وفتنة   حلاوتها شيبت بصاب وعلقم))[1]

فهو هنا يخبر عن إخبار الإمام(عليه السلام) بقتله على يد أشقاها، ومعاجلة هذا الأشقى له، وفوز الإمام(عليه السلام) بحظه من الشهادة (وإن طرقت إحدى الليالي بمعظم)، ثم يعقّب بهذه التجربة الخالدة، وكأنه يشير إلى اجتماع الحزن والسرور عليه في وقت واحد..

ألا إنما الدنيا بلاء وفتنة   حلاوتها شيبت بصاب وعلقم

ولعلّه يريد بالحلاوة والعلقم ما اجتمع له ولأسرته، في تلكم الليلة من سرور وشجو.

وظل الإمام(عليه السلام) ثلاثة أيام يعاني ألم الضربة وألم السم، وظل آله في أمضّ وأشجى حالة، حتى أسلم نفسه(عليه السلام) وجهّزه ولده الحسن(عليه السلام) وتولّى معه صاحبنا تغسيله[2] ودفن سراً.

وكان أهم ما يهم ابن عباس بعد ذلك أن يتمّ الأمر لولده الحسن(عليه السلام)، ولكن يريده أن يتم عن رضا الجماهير، فلابدّ إذاً من ترشيحه،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ٤٦.

(٢) انظر مقاتل الطالبين: ٤١، وانظر شرح نهج البلاغة ج٢: ٤٥.

وبالطبع إن الذي يخرج إلى الناس فيرشّحه لابدّ أن يكون من أبرز آل البيت شأناً، ومن هو أولى بهذه المهمة منه فليخرج إليهم إذاً، يقول المدائني:

((ولما توفي علي عليه السلام، خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس فقال: إن أمير المؤمنين عليه السلام توفي وقد ترك خلفاً، فإن أحببتم خرج إليكم، وإن كرهتم فلا أحد على أحد. يقول: فبكى الناس وقالوا: بل يخرج إلينا))(١). وفي رواية أبي مخنف - كما يذكرها أبو الفرج - إن قيام صاحبنا كان بعد خطبة الإمام الحسن عليه السلام يقول: ((ثم قام ابن عباس بين يديه فدعا الناس إلى بيعته فاستجابوا له قالوا: ما أحبه إلينا وأحقّه بالخلافة))(٢)، وقد قال كما في كشف الغمة: ((هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه))(٣).

ولما تم للإمام الحسن عليه السلام كل شيء وجّه بعماله إلى الأمصار وأعاد صاحبنا إلى موضع عمله بالبصرة(٤).

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤: ٨.

(٢) مقاتل الطالبين: ٣٥.

(٣) كشف الغمة - مطبعة محمد حسين الطهراني، كربلاء، سنة الطبع ١٢٩٤هـ - : ١٦١.

(٤) انظر المصدر السابق.

مع الإمام الحسن في خلافته

وعلم معاوية بقتل الإمام(عليه السلام) فسرّ لذلك أعظم السرور، وكان أكبر همه أن يفسد الكوفة والبصرة على الإمام الحسن(عليه السلام)، فدسّ إلى كل منهما رجلاً يكتب إليه بالأخبار، والذي أخاله أن مهمة الرجلين كانت أعمق من التجسّس له، وإلاّ فما أيسر الجواسيس في البلدين، وما أغناه عن إرسال رسل من الشام لتوليّ ذلك، وإنما كانت مهمتهما شراء عواطف الناس،وإحداث روح تمردية في نفوسهم، وأخال أن مهمة رسوله إلى البصرة كانت لاتقل عن مهمة الحضرمي الذي أرسله لبني تميم وكان ماكان من أمره وأمرهم - كما مر -، ولكنّ يقظة صاحبنا أحبطت مهمته من الأساس فقبض عليه في بني سليم وأُعدم فوراً، وكتب صاحبنا إلى معاوية: ((أما بعد فإنك ودسّك أخا بني القين إلى البصرة،تلتمس من غفلات قريش مثل الذي ظفرت به من يمانيتك لكما قال أمية -يعني ابن الأسكر- وفي الأغاني كما قال الشاعر..

لعمرك إني والخزاعي طارقـاً — كنعجة عادٍ حتفها تتحفّر
أثارت عليها شفرة بكراعها — فظلت بها من آخر الليل تجزر
شمتّ بقوم هم صديقك أهلكوا — أصابهم يوم من الدهر أعسر))(1)

وكان لهذا الكتاب وقعه في نفس معاوية فأجاب عليه: ((أما بعد فإن الحسن قد كتب إليّ بنحو ما كتبت به، وأنّبني مما لم أجز ظناً وسوء رأي، وإنك لم تصب مثلنا، ولكن مثلنا كما قال الشاعر طارق الخزاعي ..

---

(1) الأغاني ج١٨: ١٦٢. مقاتل الطالبيين:٣٦.

فوالله ما أدري وإني لصادق   إلى أيّ مَن يظنّني أتعذر
أعنّف إن كانت زبينة أهلكت   ونال بني لحيان شر ونفّروا

وتجاوز نشاط معاوية حده، واستعمل مختلف الأساليب لإحداث روح التمرد حتى في الولاة، فهو يتنقل بينهم بين الترغيب والتهديد، وقد كتب إلى زياد عامل صاحبنا على فارس، يتهدده بعد مقتل الإمام(عليه السلام) فيما يروي الشعبي، ولكن زياداً كان أقوى من أن يوهنه تهديد أو تخويف، فقام في فارس خطيباً وقال: ((العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورئيس الأحزاب، كتب إلي يتهددني، وبيني وبينه ابنا عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - يعني ابن عباس والحسن بن علي - في تسعين ألفاً، واضعي سيوفهم على عواتقهم لاينثنون. لئن خلص إلي الأمر ليجدني أحمز ضراباً بالسيف))[1].

والذي أظن أن هذه الحوادث وأمثالها هي التي حفّزت صاحبنا للكتابة إلى الإمام(عليه السلام) يستحثه على جهاد عدوه، ويعطيه خلاصةً لتجاربه في السياسة ورأيه في مناوئيه.

وكتابه هذا يعد في قمة ما كتبه من محاسن الكتب، وإن كنا نختلف معه في جدوى آرائه في معالجة المشاكل القائمة.. كتب إليه:((أما بعد فإن المسلمين ولّوك أمرهم بعد علي(عليه السلام) فشمّر للحرب، وجاهد عدوك، وقارب أصحابك، واشتر من الضنين دينه بما لايثلم لك دنيا، ووال أهل البيوتات والشرف، تستصلح بهم عشائرهم، حتى يكون الناس جماعة، فإن بعض ما يكره الناس - ما لم يتعد الحق وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل

---

(١) تأريخ الطبري ج٦: ٩٧.

وعزّ الدين - خير من كثير مما يحبه الناس، إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور، وذلّ المؤمنين وعزّ الفاجرين، واقتد بما جاء عن أئمة العدل فقد جاء عنهم أنه لايصلح الكذب إلاّ في حرب أو إصلاح بين الناس فإن الحرب خدعة، ولك في ذلك سعة إذا كنت محارباً مالم تبطل حقاً. واعلم أن علياً أباك إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه آسى بينهم في الفيء، وسوّى بينهم في العطاء، فثقل عليهم. واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله، فلما وحّد الرب ومحق الشرك وعزّ الدين، أظهروا الإيمان وقرأوا القرآن مستهزئين بآياته وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى، وأدّوا الفرائض وهم لها كارهون، فلما رأوا أنه لايعزّ في الدين إلاّ الأتقياء الأبرار، توسّموا بسيما الصالحين؛ ليظن المسلمون بهم خيراً، فما زالوا حتى أشركوهم في أماناتهم، وقالوا: حسابهم على الله فإن كانوا صادقين فإخواننا في الدين، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم، والله ما زادهم طول العمر إلاّ غيّاً، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلاّ مقتاً، فجاهدهم، ولاترض دنيّة ولاتقبل خسفاً، فإن علياً لم يجب إلى الحكومة حتى غُلب على أمره فأجاب، وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل، فلما حكموا بالهوى، رجع إلى ماكان عليه حتى أتى عليه أجله، ولاتخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك، والسلام))[1].

وهذه السياسة - بما فيها من واقعية دينية حكيمة - قد تكون مؤثرة إن نهج عليها ؛ لو كان لخصمهم شيء من الواقعية والتقيّد بالدين.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤: ٨-٩، وانظر جمهرة رسائل العرب ج٢: ١-٣.

وكان الكثير من زعماء القبائل في الكوفة لم يسأموا بعد من سياسة الإمام علي(عليه السلام) في مساواتهم بشعوبهم، و لم يتخلّوا عن رواسبهم الموروثة في إعطائهم حق الامتياز على أفراد قبائلهم، سواء في العطاء أم النفوذ والوساطة على حساب أصحاب الحقوق من الفقراء والضعفاء أم غيرها، ثم لم تبدأ المساومة وعملية البيع والشراء على الضمائر والمبادئ بين هذين الطرفين، وبَذَلَ الخصم أغلى الأثمان وأسخى الوعود في سبيل هذه الصفقة الرابحة.

أما وقد كان ذلك كله فمن الصعوبة بمكان أن تنفع في مسك زمام الموقف والسيطرة على الأمر، على أن الخروج على سياسة أمير المؤمنين (عليه السلام) في المؤاساة والمساواة، وإن أومأ إيماءة خفية إلى مبررها الشرعي بقوله: ((واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام)) فكأنه يقول: إذا كان هؤلاء هم أولئك، فاستعن عليهم كما استعان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)) بالتألّف ما دام طريق النصر منحصراً به.

ولكن الحقيقة أن المشكلة أعمق من أن تحل بتألّف الزعماء، ما دامت سياسة أهل البيت(عليه السلام) - وحتى التي نَهجها صاحبنا في كتابه هذا - مقيدة بقوانين، وفي يد خصمهم تحلّل من جميع المسؤوليات والقوانين، سواء في ترغيبه أم ترهيبه، وفي عواطف زعماء أهل الكوفة وصولية لاتشبع، ومجال إشباعها لدى الخصم أوسع وأوفى، فالزمن مع الخصم بما مهّد له من سياسة بعض السابقين، وأهل البيت(عليهم السلام) لايقوون على المخاصمة ما داموا لايملكون خلق الخصم فيها. هذا بالإضافة إلى أن تألّف الزعماء بانتهاج سياسة التفاوت المؤقتة التي يميل إليها صاحبنا لا أخال أنها تنجح في يد الإمام الحسن(عليه السلام) ؛ لاحتمال إثارتها للشعوب عليه، بما أدخل عليها التساوي

من الوفر والغنى وتعرّضه لنقمتها لو فاوت بالعطاء. لهذا وذاك لم يأخذ الإمام(عليه السلام) - فيماأخال - بمارسم صاحبنا من سياسةفي هذا الكتاب.

ويبدو لي أن الكتاب صدر منه بعد حديث بلغه عن محاولة الإمام (عليه السلام)لتقبل الصلح بعد يأسه من النصر،ولعلّ في ذيل الكتاب مايومئ إلى ذلك ((ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك)).

والظاهر أن ابن عباس لم يشهد الصلح مع الإمام الحسن(عليه السلام) ، ولو شهده لكان في جملة الموقعين عادة على كتاب الصلح ولَنُقِلَ ذلك كثيراً وربّما لم يستشر في أمره. وما جدوى استشارته ورأيه لدى الإمام الحسن(عليه السلام) معروف من كتابه هذا؟

وقد وقع بعض الخلط بينه وبين أخيه عبيد الله بن العباس الذي كان أميرا على مقدمة الجيش، وأغراه معاوية بالانضمام إليه وقصته معروفة، فلا يهم عرض ما وقع فيه بعض المؤرخين من اشتباه قد يكون مردّ أكثره إلى أخطاء النساخ؛ لتقارب في كتابة الاسمين، وربّما أيد عدم حضوره ماكتب إليه معاوية بعد ذلك، وما أجاب به يقول ناقل الكتاب: ((وكتب معاوية إلى ابن عباس(رض) عند صلح الحسن(عليه السلام) له كتاباً يدعوه إلى بيعته ويقول له فيه: ولعمري لو قتلتك بعثمان رجوت أن يكون ذلك لله رضاً وأن يكون رأياً صواباً، فإنك من الساعين عليه والخاذلين له والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني ولا بيدك أمان))[1].

وكان جوابه على هذا الكتاب جواباً قاطعاً بما فيه من قوّة الحجّة والثقة بالنفس، مع اعتراف بالواقع المرير يقول - والجواب فيما يظهر طويل

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤: ٥٨، وانظر جمهرة رسائل العرب ج٢: ١٧.

وقد اكتفى منه المحدّث بهذه الفقرات -: ((وأما قولك: إني من الساعين على عثمان، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني، فأقسم بالله لأنت المتربّص بقتله والمحب لهلاكه والحابس الناس قِبَلَكَ عنه على بصيرة من أمره، ولقد أتاك كتابه وصريخه يستغيث بك ويستصرخ، فما حفلت به ؛ حتى بعثت إليه معذّراً بآخره وأنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يقتل، فقتل كما كنت أردت، ثم علمت عند ذلك أن الناس لن يعدلوا بيننا وبينك، فطفقت تنعى عثمان وتلزمنا دمه، وتقول: قُتِل مظلوماً، فإن يك قتل مظلوما فأنت أظلم الظالمين، ثم لم تزل مصوّباً ومصعّداً وجاثماً ورابضاً تستغوي الجهّال، وتنازعنا حقنا بالسفهاء، حتى أدركت ما طلبت، وإن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين))[1].

والظاهر أن هذا الكتاب وجه إليه وهو بعد في البصرة بعد انتهاء الصلح مباشرة، وما كان معاوية مع شعوره بأهمية مركزه يتركه طويلاً من دون بيعة، وفحوى جواب صاحبنا بما يوحي به من مرارة الخيبة مع التماسك وخشونة الجواب، ربّما تؤيد ذلك.

وعلى أي حال فقد أصبح وجوده في البصرة غير ذي موضوع فتحمّل منها بأهله وبما بقي له من ثقل ومال، وكان ما كان من موقف بني تميم وأهل الأخماس معه إذا صح ما ارتأيناه سابقاً في تعيين زمن هذه الحادثة.

وبذلك ختمت صفحة من حياته كانت ملأى بالنشاط منذ بدايتها، وختم بها شبابه بما فيه من قوة وحركة، واستقبل كهولته بما خلّفته هذه الحياة من تجارب ورواسب.. سنلمسها فيما يأتي من فصل.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤: ٥٨، وانظر جمهرة رسائل العرب ج٢: ١٧-١٨.

الفصل الثالث

حتى الوفاة

مع معاوية في أيام حكمه

(١)

وأول ما يواجهنا في ذلك، مظاهر انصراف عن الاتصال بالسلطة وابتعاد عن أجوائها، إلاّ في حدود ما تدعو إليه ضرورة اقتصادية أو دينية. وهذا طبيعي إذا لاحظنا أوزان خصومه من القائمين على سياسة البلاد في نفسه، بالإضافة إلى ما تقتضيه طبيعة الخصومة بين أي شخصين.

وطبيعة الخصومة هنا طبيعة متأصلة لا بين شخصيهما أو بيتيهما فحسب، بل بين مبدأين ونفسيتين. وكان معنى تغلّب أحدهما هو تغلّب قيمة على قيمة ومبدأ على مبدأ، لا شخص على شخص أو بيت على بيت، وكان هو – بحكم رواسبه الإسلامية – يحتقر ذلك المبدأ وتلكم القيمة،ويحتقر القائم عليهما، فمن الطبيعي إذاً أن يبتعد جهده عن الوقوع في ركابه، وأن يتحين الفرص للوقوف دون تنفيذ خططه، سواء بتركيز المبادئ التي يدين بها في نفوس الرأي العام من طريق تثقيفه وتعليمه، أم بالتنديد بأساليب هذه السياسة ومناهجها تنديداً مباشراً وغير مباشر تبعاً لاختلاف الظروف.

وكانت هذه الظاهرة – ظاهرة احتقاره لخصمه – تبدو أكثر ما تبدو عندما يثار بينهما حديث من احتجاج أو مفاخرة. وفي أول اجتماع بينهما في المدينة – عندما قدمها معاوية بعد عام الجماعة – تجلّى ذلك الاحتقار.

وقبل أن نتحدث عن ذلك الاجتماع نعرض لشيء من سياسة معاوية خلال انفراده بالحكم بعد صلح الإمام(عليه السلام)، وموقف صاحبنا منها لنلقي بعض الأضواء على أسرار موقفه هذا منه.

وسياسة معاوية نستطيع أن نعرفها جيداً إذا علمنا أنه ما كان ليجهل أن غلبته على خصومه، وسيطرته على الحكم، لم تكن سيطرة طبيعية وغلبة اقتضتها عوامل تعود إلى امتياز فيه؛ لتوفر القيم التي خلقها الإسلام، وتواضع عليها المسلمون في طبعه، وتخلّيها عن خصومه من الهاشميين، أو لرجحانه عليهم في موازين تلكم القيم على الأقل، وإنما كان - لظروف طارئة - هو أعرف الناس بكيفية حدوثها وتكوّنها، والأساليب التي اتبعت في سبيل إتمامها، بما فيها من مكر وخداع ومساومة على المبادئ، وشراء للعواطف، إلى ما هنالك من الأساليب التي كان هو بالذات بطل استعمالها ضد خصومه، وهم لا يملكون منها شيئاً.

وإذا استطاع أن يجذب بها طبقة خاصة من قادة الرأي العام، الذين حرمهم الإسلام امتيازاتهم، ووقف منها الإمام(عليه السلام) موقفه المعروف، بينما أعادها هو عليهم بأوسع صورها، فإنه لا يأمن أن تثور الشعوب ثورتها فتعصف به وبالزعماء، ما دام رصيد خصومه من القيم الإسلامية متوفراً فيهم، وفي الشعوب أثارة من خلق إسلامي مركّز، وبينهما بقية موجّهة وهي لا تؤمن بغير أولئك الخصوم.

لهذا وذلك ولإبقاء الحكم بيده ويد ولده، يتوارثونه جيلاً بعد جيل، لابدّ من العمل على ضمان ذلك كله له بأي ثمن كان، وكانت أمامه عقبات مهمة:

أولاها : إعطاؤه ولاية العهد للإمام الحسن(عليه السلام) من بعده، وسنرى موقفه منها في قادم من الأحاديث..

ثانيهــا : توفــر أنصــار خصومــه مــن آل البيــت، وكـثرة محبيهــم من المسلمين، وبخاصّة أولئك الذين أدخلت عليهم عدالة الإمام(عليه السـلام) الاجتماعية شيئاً من الوفر ؛ لمساواته في العطاء ، ورفعه للامتيـازات الطبقيـّة التي خلقها بعض سابقيه.

ثالثها : أهميـّة رصيدهم من الفضائل والقيـم الإسلاميـّة ، وقـد جـاء ذكر الكثـير منهـا علـى لسـان النبي(صلـى الله عليـه وآلـه وسـلم)، وتداولـه المسلمون، وربّما ميّزهم بأحاديث تشير إلى صفات ينفردون بها مــن بينهـم، كما ورد في حق الإمام(عليه السلام) كثير من ذلك.

رابعهـا : فقـده وفقـد أسـرته لذلـك الرصيـد، واحتيـاجهم إلى مثلــه، لكسب عطف الشعوب المسلمة عليهم.

وضمان استمراره بالحكم أن يأتي على كل تلكم العقبات، مهما كلفه الأمر، فكانت أول خطوة له أن أصدر أمراً إلى عماله بتحريم رواية فضـائل الإمـام وأهـل البيـت(عليهـم السـلام)، يقـول المدائـني في كتـاب الأحـداث: ((كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعـد عـام الجماعـة: أن برئـت الذمـة ممن روى شيئاً من فضائل أبي تراب وأهل بيته))[1].

وكانت خطوته الثانية أن يعزّز رصيدهم من أحاديث المناقب ، فكتب إلى عماله أيضا: ((أن انظروا مـن قبلكـم مـن شيعة عثمـان ومحبّيـه ، وأهـل ولايتـه، والذيـن يـروون فضائلــه ومنــاقبهم ، فــأدنوا مجالســهم وقرّبوهــم وأكرموهم ، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهــم ، واسمـه واسـم أبيـه وعشيرته)) يقـول الـراوي: ((ففعلـوا ذلـك حتـى أكـثروا في فضـائل عثمـان

(١) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٥.

ومناقبه ؛ لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي ، فكثر ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في المنازل والدنيا ، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية ، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كتب اسمه وقرّبه وشفّعه))[(١)].

وكتب ثالثاً.. بعد أن فشت الأحاديث في عثمان: ((أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجهة وناحية ، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولاتتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وأتوني بمناقض له في الصحابة مفتعلة، فإن هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله))[(٢)].

وكانت نتائج هذه الكتب - فيما يحدّث الراوي -: ((أن رويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لاحقيقة لها ، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع ، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن ، وحتى علّموه بناتهم ونسائهم وخدمهم... الخ))[(٣)].

ثم قام بعد ذلك بحملة إرهابية قوية ، أسكت بها الشيعة عن الحديث في فضائل أهل البيت (عليهم السلام) ، وتجاوز ذلك بالكتابة

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

إلى عمــّاله..((أن لايجيزوا لأحـد مـن شيعة علي وأهـل بيتـه شـهادة))[١]، وكتب أيضا: ((انظروا إلى من قامت عليـه البينـة أنـه يحـب علياً وأهـل بيتـه **فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقـه..))**[٢]. **ثم تجـاوز ذلـك بالكتابـة** إليهم: ((من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره))[٣].

وبهذه الخطوات تصوّر معاوية أنه وضع يـده علـى زمـام الموقـف، بمـا كوّن له ولأسرته من الرصيد، وبما أضعـف مـن رصيـد خصومـه، واسـتأصل مـن أمـر شيعتهـم بالضغـط والتنكيـــل، غـافـلاً عــن أن طبيعــة الشعــوب - كطبيعة - لابدّ أن يفجّرها الضغط ولو بعد حين..

وكانت هذه الأعمال ونظائرها مما تبلغ سمع صاحبنـا وغـيره مـن أهـل البيت(عليهم السلام)، فلا يملكـون لدفعهـا سـبيلاً، اللهـم إلاّ أن يجنّـدوا مـن أنفسهم أبطالاً للتنديد بها وبأساليبها، ثم نشر ما حاولوا طمسه مـن فضـائل هذا البيت.

وبـالطبع إن مثـل هـذه المهمّـة لابـدّ أن تلقـى علـى عـاتق ابـن عبـاس بالدرجة الأولى، وما كان لمثله أن يسكت ولديه من ثقة الناس بصدقه وسـعة أفقه ووفرة رصيده ما يعزز كل حديث يصدر عنه.

وهكذا كان، فقد نشط للحديث بفضائل أهل البيت(عليهـم السـلام) ونشر ما يتعلق منها بالإمام(عليه السـلام) علـى الأخـص، وبـالطبع مـا كـان ليخفـى علـى معاويـة ذلـك، ومـا كـان ليهـون عليـه هـذا التحـدي السـافر

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

له ولسياسته، وفي أول اجتماع بينهما تكشفت عواطف كل منهما تجاه الآخر، بما في عواطف ابن عباس من مظاهر الاحتقار له.

حدّث الزبير بن بكّار قال: ((حج معاوية فجلس إلى ابن عباس، فأعرض عنه ابن عباس فقال معاوية: لم تعرض عني! فوالله إنك لتعلم أني أحق بالخلافة من ابن عمك)). فكانت هذه المفارقة مثار سخرية لصاحبنا، لم يطق الصبر عليها رغم احتقاره له بإعراضه عنه، فأجاب عليها بقوله: ((لم ذاك! لأنه كان مسلماً وكنت كافراً قال: معاوية:لا ولكن ابن عمي عثمان قتل مظلوماً)) قال ابن عباس: ((وعمر رحمه الله قتل مظلوماً))، وضاعت منافذ القول على معاوية بعد أن جُبه بهذه الحجة، وظهر الارتباك على جوابه حين قال: ((إن عمر قتله كافر، وإن عثمان قتله المسلمون)) فقال ابن عباس والسخرية على شفتيه:((ذاك أدحض لحجتك فسكت معاوية))[1].

وهذه الرواية ذكرها سُليم بن قيس الهلالي، وحدد زمنها على رواية بعد صلح الإمام الحسن(عليه السلام) ، أي بعد عام الجماعة وفي أول حجة حجّها معاوية، وفيها: ((أن معاوية مر بحلقة من قريش فلما رأوه قاموا إليه غير عبد الله بن عباس فقال له: يا ابن عباس ما منعك من القيام كما قام أصحابك؟ إلاّ لموجدة عليّ لقتالي إياكم يوم صفين)).. ثم يأتي على حديث الزبير بتغيير يسير، ثم ينتهي إلى نهي معاوية لصاحبنا عن التحدّث بفضائل أهل البيت(عليهم السلام) وتهديده له عليها، وازدراء ابن عباس له يقول معاوية: ((وكتبنا في الآفاق ننهى عن ذكر مناقب علي وأهل بيته، فكفّ لسانك يا ابن عباس، وأربع على نفسك))، وكان يظن أنه بهذا التهديد

---

(١) كشف الغمة: ١٢٨ نقلاً عن الزبير بن بكّار.

يقوى على إسكاته، ولكن ابن عباس أجابه بجواب قاطع لا يخلو من ازدراء قال: ((فتنهانا عن قراءة القرآن؟ قال: لا، قال: فتنهانا عن تأويله؟ قال: نعم، قال: فنقرؤه ولانسأل عما عنى الله به؟ قال: نعم، قال: فأيما أوجب علينا قراءته أوالعمل به؟ قال: العمل به، قال: فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا! قال: سل عن ذلك من تأوّله على غير ما تتأوّله أنت وأهل بيتك))، وساء صاحبنا أن تبلغ المفارقة بمعاوية إلى هذا الحد، فأجابه بتأثر بالغ: ((قال: إنما أنزل القران على أهل بيتي، فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط واليهود والنصارى والمجوس؟! قال: فقد عدلتنا بهم؟ قال: لعمري ما أعدلك بهم إلاّ إذا نهيت الأمة أن يعبدوا الله بالقرآن، وبما فيه من أمر ونهي أو حلال أوحرام أو ناسخ أو منسوخ أو عام أو خاص أو محكم أو متشابه، وإن لم تسأل الأمة عن ذلك هلكوا واختلفوا وتاهوا)). قال معاوية – وقد ضاق بمنطق ابن عباس –: ((فأقرؤا القرآن ولاترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم، ومما قال رسول الله، وارووا ما سوى ذلك.. ثم يقول: يا ابن عباس اكفني نفسك وكفّ لسانك، وإن كنت لابدّ فاعلاً فليكن سراً، ولاتسمعه أحداً علانية)).. تقول الرواية ((ثم رجع إلى منزله فبعث إليه بخمسين ألف درهم))(١)، وفي رواية اخرى ((بمائة ألف درهم))(٢)، ثم لم تحدّث بعد ذلك عن قبول هذا المبلغ أو ردّه ، والظاهر أنه لم يردّه.. وسنرى وجهة نظره في قبول أمثال هذه الأموال من خصمه.

---

(١) كتاب سليم بن قيس الهلالي – لم تذكر المطبعة ولا سنة الطبع –.:١٢٩.

(٢) المصدر السابق.

ولكن هل كان لهذا التهديد ولهذه الصلة مفعولها في نفسه؟ وهل أسكتته عن الجهر برسالته؟ أو قلّلت من مظاهر احتقاره لخصمه؟ الظاهر أنها لم يكن لها ذلك المفعول. وفي أحاديثه بعد هذا الزمن معه مايدل على استمراره من موقفه منه ومن مبدئه.. وسنأتي عليها في مباحث قادمة.

وقد لاحظ فيما يتعلق في احتقاره حتى بعد هذا الزمن بعض مؤرخيه، فسجّلوا انطباعاتهم عنها، ففي العقد الفريد ((اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية وفيهم عبد الله بن عباس، وكان جريئاً على معاوية حقّاراً له فبلغه عنه بعض ما غمّه)).

وربّما كان ما بلغه هو إصراره على التنديد بسياسته، ونشره لفضائل الإمام(عليه السلام)، فقال معاوية وهو يجمع بين ترضّيه واستجلاب عاطفته من جهة، وتوعيده وتهديده من جهة أخرى: ((رحم الله أبا سفيان والعباس كانا صفيين دون الناس، فحفظت الميت في الحي والحي في الميت، استعملك علي يا ابن عباس على البصرة، واستعمل عبيد الله أخاك على اليمن، واستعمل أخاك على المدينة، فلما كان من الأمر ما كان هنأتكم ما في أيديكم و لم أكشفكم عما وعت غرائركم، وقلت: آخذ اليوم وأعطي غداً مثله، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيّأتكم ما أكلتم، لايزال يبلغني عنكم ما تبرك له الإبل، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم. خذلتم عثمان بالمدينة وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وحاربتموني بصفين، ولعمري لبنو تيم وعدي أعظم ذنوباً منا إليكم، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر وسنّوا فيكم هذه السُنّة،فحتى متى أغضي الجفون

على القذى، وأسحب الذيول على الأذى، وأقول: لعلّ الله وعسى، ما تقول يا ابن عباس!)).

وكان جواب ابن عباس رائعاً جداً تناول بنفس اللباقة المعروفة عنه الإجابة على كل كلمة بكلمة أمضّ منها، بتعالٍ يشعر بهوان خصمه عليه: ((رحم الله أبانا وأباك كانا صفيين متفاوضين، لم يكن لأبي من مال إلاّ ما فضل لأبيك، وكان أبوك كذلك لأبي، ولكن من هنأ أباك بإخاء أبي أكثر ممن هنأ أبي بإخاء أبيك. نصر أبي أباك في الجاهلية وحقن دمه في الإسلام، وأما استعمال علي إيانا فلنفسه دون هواه، وقد استعملت أنت رجالاً لهواك لا لنفسك، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقُتل، وبسر بن أرطاة على اليمن فخان، وحبيب بن مرة على الحجاز فرُد، والضحاك بن قيس الفهري على الكوفة فحصّب)).

وما كان أيسر على معاوية - لو كان لأسطورة بيت المال نصيبها من الصحّة بالشكل الذي عرضه بعض المؤرخين - أن يجبهه وهو يعرّض بهذه اللهجة المتعالية بخيانة أصحابه بقوله: وأنت تقول ذلك ولك بطولة بيت المال بالبصرة، وخيانتك لصاحبك وموقفك منه لا تعدلها خيانة، وبذلك ينتقم لنفسه من هذا الخصم المتعالي عليه أمام هذا الحشد من القريشيين.

ثم يستمر ابن عباس بطلاقته فيجيب على تهديده بتهديد: ((ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها، ولو وضع أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسّنها. وأما خذلنا عثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا

فيه. وأما حربنا إياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل، وأما إغراؤك إيانا بتيم وعَدي فلو أردناها ما غلبونا عليها))[1].

ومن طريف ما يدخل في هذا الباب ما حدّثوا عنه من أنه قال: ((قدمت على معاوية وقد قعد على سريره وجمع أصحابه ووفود العرب عنده، فدخلت فسلّمت وقعدت فقال: مَن الناس يا ابن عباس؟)) وربّما انتظر أن يُسمع الحاضرين كلمة فيه تقال في أمثال هذه المقامات، ولو على سبيل المجاملة، ولكنه كان أعمق من أن يُؤخذ من هذه السبيل يقول: ((فقلت: نحن))، واحتملها معاوية، ثم استدرجه لعله يظفر بالمرتبة الثانية لهم ((فقال: فإذا غبتم، يقول: فقلت: لا أحد))، قال - وقد خرج عن إهابه -: ((أترى إني قعدت هذا المقعد بكم فقال: قلت: نعم فبمن قعدت؟ قال: بمن كان مثل حرب بن أمية، قلت: بل بمن أكفأ عليه إناءه وأجاره بردائه)).. تقول الرواية ((فغضب وقال: وارِ شخصك عني شهراً فقد أمرت لك بصلتك وأضعفتُها لك، فلما خرج ابن عباس قال لخاصّته: ألا تسألوني ما الذي أغضب معاوية))[2]، فلما سألوه شرح لهم قصة استجارة جده حرب بعبد المطلب من ابنه الزبير في حديث طويل...

---

(١) جمهرة خطب العرب - مطبعة مصطفى البابي، مصر، سنة الطبع ١٣٥٢هـ - ج٢: ٨٦-٨٧.

(٢) المحاسن والمساوئ - تصحيح محمد بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة، مصر، سنة الطبع ١٣٢٥هـ - ج١: ٦٧.

(٢)

ويبدو أن أهل البيت(عليهم السلام) كان موقفهم من معاوية يشبه هذا الموقف، وكان هو يضيق بهم وبه، وربّما جرّه الحديث إلى عتابهم فينبري ابن عباس إلى جوابه، يقول صاحب العقد: ((اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال: يا بني هاشم والله إن خيري لكم لممنوح، وإن بابي لكم لمفتوح، فلا يقطع خيري عنكم علّة، ولايوصد بابي دونكم مسألة، ولمّا نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً، إنكم لترون أنكم أحقّ بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطيّة فيها قضاء حقكم قلتم: أعطانا دون حقنا وقصّر بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب، والمسلوب لا حمد له، وهذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم))[1].

وبالطبع كان هذا الكلام بما اشتمل عليه من دالّة بإعطاء الهاشميين من خيره واعتبار ما يعطيه من أمواله الخاصة مثيراً لهم جداً، وأيّ هاشمي يحضر ويسمع هذا الكلام فلا يثور؟! وهم الذين عوّدوا الناس بصِلاتهم الخاصة، أفيحضرون أن يتقبلوا الصِّلات من أمثال معاوية على مابينه وبينهم من عداء متصل ترتفع رواسبه إلى بيتيهما قديماً وحديثاً، فكان لابدّ لصاحبنا أن يجيب وأن يوضح لمعاوية بأن تقبلهم لصِلاته وحضورهم لذلك لم يكن لو كان هو صاحب المال، وإنما كان ذلك من قبيل انتزاع الحق الذي يملكونه، وقد حال بينهم وبين بلوغه إليهم بحكم تحكّمه واستيلائه على جملة مواردهم الاقتصادية العامة، يقول:((والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه

---

(١) العقد الفريد ج٢: ٩٤.

ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه، ولئـن قطعـت عنـا خيرك، لله أوسـع منـك، ولئن أغلقت دوننا بابك، لنكفّن أنفسنا عنك، وأما هذا المال فليس لـك منـه إلاّ ما لرجل من المسلمين، ولنا في كتاب الله حقّان، حق في الغنيمـة، وحـق في الفيء، فالغنيمة ما غلبنا عليه، والفيء ما احتبيناه، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خفّ ولا حافر، أكفاك أم أزيدك)).

وهذا الحديـث ـ علـى إيجـازه ـ يمـلأ كثـيراً مـن الفجـوات في أسـرار تقبّلهم لصِلاته، مع مـا بينهـم مـن المفارقـات، فهـم لايعتـبرون لمعاويـة أكـثر مما لسائر المسـلمين مـن الحـق في بيـت المـال، وادعـاؤه التملـك لـه، ونسـبته إلى نفسـه، وتصرفـه الشـاذ في تبذيـره ،كـل ذلـك لا يجعلـه مالكـاً حقيقيـاً، وما دام المال للمسلمين لالخصمهم، وكانوا هم يملكون منـه أكـثر ممـا يملـك غيرهم بآية الخمس، ومادام خصمهـم قـد أمسـك بهـذا المـال عنهـم، فليـس لديهم ما يمنع من مطالبته وانتزاع هذا الحق منه في حدود ما تقتضيه ظروفهم الخاصـة.. تقـول الروايـة وكـان جـواب معاويـة: ((كفـاني فـإنك لا تُعـزّ ولا تُشجّ))[1] أي لاتغلب ولاتجرح.

(٣)

وربّما كانت وفادته على معاوية، ووفادة غيره مـن آل البيـت منبعثـة في بعض خطوطها عن هذا الباعث، وإن كنت أتخيل أن هذا البـاعث وحـده لايكفي في تفسير وفودهـم عليـه، وربّمـا خضـع آل البيـت لسياسـة التـآلف

(١) العقد الفريد ج٢: ٩٤-٩٥.

بمجاملته إتقاءً لشره، وتخفيفاً من ضغطه على أتباعهم وشيعتهم، وما يدرينا لعلهم - مع ذلك - كانوا يتوخون أن يعرّفوا أنفسهم على أهل الشام للقضاء على الرواسب التي كوّنها لهم معاوية تجاه أهل البيت (عليهم السلام) بتربيته التي عرضنا لبعض خطوطها في سالف من الأحاديث.. وسنرى بعد حين مدى تأثير ابن عباس في الشام وتخوّف معاوية منه.

ويبدو من بعض الأحاديث أن وفود صاحبنا عليه كان أكثر من مرة، وفي بعضها أنه لم يكن وحده، وإنما كان مع الإمام الحسن(عليه السلام)، وكانت كل رحلة لا تخلو من نقاش وأخذ وردّ.

وطبيعة اجتماع فئتين بينهما ما بينهما من الخصومة والمنافسة تدعو عادة إلى إثارة ما بينهما من شجون، وربّما جرّتهما إلى ألوان من التفاخر وعرض الأمجاد التي يتمتع بها كل فريق، أو عرض بعض المفارقات والهنات التي ينسبها بعضهم إلى بعض.

وقد ذكر المؤرخون وعارضو المحاسن والمساوئ جملة مفاخرات ومشاجرات جرت بين أهل البيت(عليهم السلام) وبين الأمويين، كان بطل الكثير منها الإمام الحسن(عليه السلام) وابن عباس، وكانوا يداً واحدة في جملة تلكم المخاصمات التي اشتركوا بها مع معاوية .

والذي يبدو على أكثر ما ذكروه أثر التعمّل وفقدان الطبيعية في الأحاديث، كما يبدو أثر الصنعة العباسية أوالجاحظية على بعضها، والظاهر أن مضامين قسم منها صحيحة تقتضيها طبيعة ظروفها، وإن لوّنت وأُضيف عليها بعد ذلك الشيء الكثير، وليس ما يمنع من عرض شيء منها في هذا الحديث كنموذج لما يقع فيه التحدث، أو لما يُتخيل وقوعه بينهم عادة.

يسأل معاوية يوماً جلساءه وفيهم ابن عباس: ((إذا جاءت بنو هاشم بقديمها وحديثها، وجاءت بنو أمية بأحلامها وسياستها، وبنو أسد بن عبد العزى بوافدها وديّاتها، وبنو عبد الدار بحجابتها ولوائها، وبنو مخزوم بأموالها وأفعالها، وبنو تيم بصدّيقها وجوادها، وبنو عدي بفاروقها ومتفكّرها، وبنو سهم بآرائها ودهائها، وبنو جمح بشرفها وأنوفها، وبنو عامر بن لؤي بفارسها وقريعها، فمن ذا يجمل مضمارها ويجري إلى غايتها؟)) ثم خص صاحبنا من بين هؤلاء بالسؤال: ((ما تقول يا ابن عباس؟)) قال: ((لا أقول ليس حي يفخرون بأمر إلاّ وإلى جنبهم من يشركهم إلاّ قريشاً، فإنهم يفخرون بالنبوة التي لايشاركون فيها، ولايساوون بها ولايدفعون عنها، وأشهد أن الله لم يجعل محمداً من قريش إلاّ وقريش خير البرية، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلاّ وهم خير بني هاشم، يريد أن يفخر عليكم إلاّ بما تفخرون به، أنْ بنا فتح الأمر وبنا يختم، لك ملك معجّل ولنا ملك مؤجّل، فإن يكن ملككم قبل ملكنا فليس بعد ملكنا ملك، لأنا أهل العاقبة والعاقبة للمتقين))[1].

ومثل هذا الحديث ربّما يوافق هوىً في نفوس السلطة العباسيّة الحاكمة، ويسرهم سماعه من ناقليه أو واضعيه ؛ لما يبدو فيه من التبشير بملكهم وامتداده إلى آخر الزمان.

وقد يكون طبيعياً في شطره الأول فمثل ابن عباس لابدّ أن يأخذ خصمه بالفخر برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، لو كان لهذا التفاخر أساس من الصحّة.

---

(١) جمهرة خطب العرب ج٢: ٩٠-٩١.

وفي رواية للمدائني قال: ((إن عبد الله وفد على معاوية مرة فقال معاوية لابنه يزيد ولزياد بن سمية وعتبة بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن أم الحكم: أنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس وما كان شجر بيننا وبينه وبين ابن عمه، ولقد كان نصبه للتحكيم فدفع عنه، فحرّكوه على الكلام لنبلغ حقيقة صفته، ونقف على كنه معرفته، ونعرف ما صرف عنا من شبا حدّه، ووري عنا من دهاء رأيه، فربّما وصف المرء بغير ما هو فيه، وأعطي من النعت والاسم ما لا يستحقه، ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس فلما دخل واستقر به المجلس ابتدأه ابن أبي سفيان فقال: يا ابن عباس ما منع علياً أن يوجّه بك حكماً؟ فقال: أما والله لو فعل لقرن عمراً بصعبة من الإبل، يوجع كتفيه مراسها، ولأذهلت عقله، وأجرضته بريقه، وقدحت في سويداء قلبه، فلم يبرم أمراً و لم ينقض إلاّ كنت منه بمرأى ومسمع، فإن نكثه أرمت قواه، وإن أرمه فصمت عراه، بغرب مقول لا يفلّ حدّه، وأصالة رأي كمتاح الأجل لاوزر منه، أصدع به أديمه وأفلّ به شبا حدّه وأشحذ به عزائم المعتنز وأزيح به شبه الشاكين))[1].

وهذا الكلام بالطبع غير جارٍ على مقتضى السؤال، فسؤاله عن ما منع علياً من أن يوجّه به، ولكن ابن عباس - فيما يبدو - استشعر أن السؤال لم يرد به ظاهره، وإنما أريد التعرض منه بكفاءته ومقدرته، وإلاّ فمعاوية لا يخفى عليه ما حاوله الإمام(عليه السلام) في إرساله حكماً، ووقوف الأشعث ونظائره دونه، فكان جوابه هذا وافياً في مجال المفاخرة، لذلك ثار

---

(١) جمهرة خطب العرب ج٢: ٩٢-٩٣.

له عمرو ابن العاص فقال: ((هذا والله يا أمير المؤمنين نجوم أول الشر، وأفول آخر الخير، وفي حسمه قطع مادته، فبادره بالحملة، وانتهز منه الفرصة، وأردع بالتنكيل به غيره، وشرّد به من خلفه)) فقال ابن عباس - وقد ساءه هذا التحدي له وإيغار قلب معاوية عليه -: ((يا ابن النابغة ضلّ والله عقلك، وسفه حلمك، ونطق الشيطان على لسانك، هلا تولّيت ذلك بنفسك يوم صفين، حين دعيت نزال وتكافح الأبطال، وكثُرت الجراح وتقصفت الرماح، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولاً، فانكفأ بالسيف نحوك حاملاً، فلما رأيت الكواثر من الموت أعددت حيلة السلامة قبل لقائه، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه، فمنحته رجاء النجاة عورتك، وكشفت له خوف بأسه سوأتك، حذراً أن يصطلمك بسطوته أو يلتهمك بحملته، ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته، وحسّنت التعرض لمكافحته، رجاء أن تكتفي مؤونته وتعدم صورته، فعلم غلّ صدرك وما انحنت عليه من النفاق أضلعك، وعرف مقرّ سهمك في غرضك، فاكفف غرب لسانك واقمع عوراء لفظك، فإنك بين أسد خادر وبحر زاخر، إن تبرّزت للأسد افترسك وإن عمت في البحر قمسك))(١).

واللباقة في هذا الحديث أنه استطاع أن يذكّره بأكثر من نقطة ضعف، ويوغر قلب معاوية عليه بتذكيره بالمفارقة التي جرت بينهما بصفين على أثر اقتراح عمرو أن يبارز معاوية علياً حين دعاه، واتهام معاوية له بأنه أراد بهذا الاقتراح أن يقضي عليه؛ ليصل إلى الحكم من هذا الطريق. ويبدو أن ابن العاص انقطع فتولى الجواب عنه مروان بن الحكم يقول: ((يا ابن عباس

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ١٠٥.

إنك لتصرف بنابك وتوري نارك، كأنك ترجو الغلبة وتؤمّل العاقبة، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصر أنامله، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره، ولعمري لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم، ولئن عفا عن جرائركم لقديماً ما نسب إلى ذلك)).

وكان جوابه على هذا الكلام بنفس اللباقة في إدارة الحوار وتبكيت الخصم وكشف نقاط الضعف فيه يقول: ((وإنك لتقول ذلك يا عدو الله وطريد رسول الله(صلى الله عليه وسلم) والمباح دمه، والداخل بين عثمان ورعيّته بما حمَلَهم على قطع أوداجه وركوب أثباجه. أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره، وأما قولك لي: إنك لتصرف بنابك وتوري نارك، فسل معاوية وعمراً يخبراك ليلة الهرير كيف ثباتنا للمثلات، واستخفافنا بالمعضلات، وصدق جلادنا عند المصاولة، وصبرنا على اللأواء والمطاولة، ومصافحتنا بجباهنا السيوف المرهفة، ومباشرتنا بنحورنا حدّ الأسنّة، هل حمنا عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبذل مهجنا للمتالف؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقام محمود ولا يوم مشهود ولا أثر معدود، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأقلقك، فاربع على ظلعك ولا تتعرض لما ليس لك، فإنك كالمغروز في صفد، لا يهبط برجل ولايرقأ بيد)).

وأراد زياد أن يحوّر مجرى الحديث - بعد أن عرف وزن صاحبيه فيه - بفتح ثغرة للحديث جديدة فقال: ((يا ابن عباس إني لأعلم ما منع حسناً وحسيناً من الوفود معك على أمير المؤمنين، إلاّ ما سوّلت لهما أنفسهما، وغرّهما به من هو عند البأساء يسلمهما، وأيم الله لو وليتهما لأدأبا في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ويقلّ بمكانهما لبثهما)).

وكان هذا التعرض لمقام الحسنين مع غيبتهما، وهذا التهديد والتعالي من زياد مبعث ثورة له تبدّت بجوابه حين قال: ((إذن والله يقصر دونهما باعك، ويضيق بهما ذراعك، ولو رمت ذلك لوجدت من دونهما فئة صدق صبرا على البلاء، لا يخيبون عن اللقاء؛ فلعركوك بكلاكلهم، ووطؤوك بمناسمهم، وأوجروك مشق رماحهم،وشفار سيوفهم ووخز أسنّتهم حتى تشهد بسوء ما أتيت، وتتبيّن ضياع الحزم فيما جنيت، فحذار حذار من سوء النيّة فإنها ترد الأمنية، وتكون سبباً لفساد هذين الحيين بعد صلاحهما، وسعياً في اختلافهمابعد ائتلافهما،حيث لايضرهما إبساسك ولايغني عنهما إيناسك)).

وكان بهذا التهديد والتبكيت والتحذير ـ بما أبان فيه من مقام الحسن والحسين(عليهما السلام) ـ مفحماً جداً؛ لذلك سكت عن جوابه زياد وتولى الحديث عبد الرحمن بن أم الحكم ـ وكان هذا أخبثهم نفساً وأقذرهم لساناً حين عبّر عن شماتته بقتل الإمام علي عليه السلام ـ بقوله: ((لله درّ ابن ملجم فقد بلغ الأمل وأمن الوجل وأحدّ الشفرة وألان المهرة وأدرك الثأر ونفى العار وفاز بالمنزلة العليا ورقى الدرجة القصوى))، فقال ابن عباس في جوابه: ((أما والله لقد كرع كأس حتفه بيده، وعجّل الله إلى النار بروحه، ولو أبدى لأمير المؤمنين صفحته، لخالطه الفحل القطم والسيف الخذم، ولألعقه صاباً، وسقاه سماماً، وألحقه بالوليد وعتبة وحنظلة، فكلهم كان أشد منه شكيمة وأمضى عزيمة، ففرى بالسيف هامهم، ورمّلهم بدمائهم، وقرى الذئاب أشلاءهم، وفرق بينهم وبين أحبائهم، أولئك حصب جهنم هم لها واردون، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً، ولا غرو إن ختل، ولا وصمة إن قتل، فإنّا لكما قال دريد بن الصمّة:

فإنّا للحم السيف غير مكرّه ونلحمه طوراً وليس بذي نكر
يغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر))

وكان حديثه مع المغيرة بعد هذا من أروع الأحاديث، فقد سبق للمغيرة أن أشار على الإمام(عليه السلام) بإبقاء معاوية على الشام وخالفه - فيما رأينا سابقاً - الإمام(عليه السلام) وابن عباس، وإن ذكر بعض المؤرخين موافقة ابن عباس له.

وقد أراد المغيرة أن يسجّل يده هذه على معاوية ويحرج صاحبنا في الجواب فقال: ((أما والله لقد أشرت على علي بالنصيحة، فآثر رأيه ومضى على غلوائه، فكانت العاقبة عليه لا له، وإني لأحسب أن خَلَفَه يقتدون بمنهجه))، فأجاب ابن عباس بما يكشف عن رأي الإمام (عليه السلام) في معاوية وأمثال معاوية غير مجامل ولا موارب حين قال: ((كان والله أمير المؤمنين (عليه السلام) أعلم بوجوه الرأي ومعاقد الحزم وتصريف الأمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه وعنّف عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿لاتجد قوماً يؤمنون با لله واليوم الآخر يوادون من حاد ا لله ورسوله﴾[1]ولقد وقفك على ذكر مبين وآية متلوة قوله تعالى: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾[2]. وهل كان يسوّغ له أن يحكّم في دماء المسلمين وفيء المؤمنين من ليس بمأمون عنده ولاموثوق به في نفسه؟! هيهات هيهات.. هو أعلم بفرض الله وسنّة رسوله أن يبطن خلاف ما يظهر إلاّ للتقيّة، ولات حين تقيّة مع وضوح الحق وثبوت الجنان وكثرة

---

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) الكهف: ٥١.

وكثرة الأنصار، يمضي كالسيف المصلت في أمر الله مؤثراً لطاعة ربه والتقوّي على آراء أهل الدنيا)).

ويبدو أن هذا الجواب بما اشتمل عليه من بيان وجهة نظر الإمام (عليه السلام) في معاوية قد أغاظ يزيد فأطلق لسانه قائلا: ((يا ابن عباس إنك لتنطق بلسان طلق ينبئ عن مكنون قلب حرق، فاطو على ما أنت عليه كشحاً فقد محا ضوء حقنا ظلمة باطلكم)) فقال ابن عباس: ((مهلاً يزيد فوالله ما صفت القلوب لكم منذ تكدرت بالعداوة عليكم، ولا دنت بالمحبة إليكم منذ نأت بالبغضاء عنكم، ولا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم، وإن تدل الأيام نستقض ما شذّ عنا، ونسترجع ما ابتزّ منا، كيلاً بكيل ووزناً بوزن، وإن تكن الأخرى فكفى با لله ولياً لنا ووكيلاً على المعتدين علينا)).

وهذه الصراحة في بغض الهاشميين للأمويين، والتهديد من قبل صاحبنا ليزيد أثار معاوية نفسه فقال:((إن في نفسي منكم لحزازات يابني هاشم،وإني لخليق أن أدرك فيكم الثأر وأنفي العار، فإن دماءنا قِبَلكم وظلامتنا فيكم)).

وأجاب على هذا التهديد بتهديد أشد منه، مع إشارة إلى إرغام لايمكن أن يتناساها معاوية فقال: ((والله إن رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسداً مخدّرة وأفاعي مطرقة، لايفثؤها كثرة السلاح ولا تعضّها نكاية الجراح، يضعون أسيافهم على عواتقهم يضربون قُدماً قُدماً من ناوأهم، يهون عليهم نباح الكلاب وعواء الذئاب، لايفاتون بوتر ولايسبقون إلى غير ذكر، قد وطّنوا على الموت أنفسهم وسمحت بهم إلى العلياء هممهم.. كما قالت الأزديّة:

قوم إذا شهدوا الهياج فلا ضرب ينهنهم ولا زجر
وكأنهم آساد غينة [قد] غرثت وبل متونها القطر

فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك، ولولا طغام من أهل الشام وقوك بأنفسهم وبذلوا دونك مهجهم، حتى إذا ذاقوا وخز الشفار وأيقنوا بحلول الدمار، رفعوا المصاحف مستجيرين بها وعائذين بعصمتها، لكنت شلواً مطروحاً بالعراء، تسفي عليك رياحها ويعتورك ذئابها، وما أقول هذا أريد صرفك عن عزيمتك، ولا إزالتك عن معقود نيّتك، لكن الرحم التي تعطف عليك والأوامر التي توجب صرف النصيحة إليك)).

وأراد معاوية أن يختم الحديث فاستعمل لغته المألوفة في تطييب خواطر خصومه بالتحلّم والملاينة لكسب عطفهم عليه، يقول الراوي: ((فقال معاوية: لله درّك يا ابن عباس ماتكشف الأيام منك إلاّ عن سيف صقيل ورأي أصيل، وبا لله لو لم يلد هاشم غيرك لما نقص عددهم،ولو لم يكن لأهلك سواك لكان ا لله قد كثّرهم، ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف))(١).

وهذه الرواية قد تكون من أسلم ما أثر عنه مع هؤلاء من احتجاج ومفاخرة، وأقربها إلى الصحّة، فليس في مضامينها ما يأبى ذلك، وإذا صحّت تأريخياً ففيها أقوى الأدلّة على تركّز ابن عباس وقوة نفسيّته وتماسكه أمام خصومه وحسن إدارته للحوار.

وأمثال هذه المفاخرات والمشاجرات جرت للإمام الحسن عليه السلام مع هؤلاء بمحضر معاوية، وكان عبد ا لله حاضراً في بعضها وقد أراد أن يتكلّم

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٢: ١٠٥-١٠٧،وانظرجمهرة خطب العرب ج٢: ٩٢-١٠١.

بعد الإمام الحسن(عليه السلام): ((فأقسم عليه معاوية أن يكفّ فكفّ)) ولما خلا صاحبنا بالإمام الحسن(عليه السلام) قبّل ما بين عينيه وقال: ((أفديك يا ابن عم والله ما زال بحرك يزخر، وأنت تصول حتى شفيت نفسي من أولاد البغايا))[1].

وله دفاع عن عبد الله بن جعفر على أثر انتقاص عمرو بن العاص له بمحضر معاوية يجري في أسلوبه هذا المجرى ويلتحق بهذه الفصول[2]. وهو إن صحّ - ولست أبعّد صحّته في خطوطه الأولى - فهو مما يدلّ على تعاضد البيت الهاشمي وأخذ بعضهم بيد بعض في أحرج الظروف.

ولصاحبنا بعد ذلك أحاديث جمّة مع ابن العاص في مكة ومعه في الشام وفي بعض مواسم العرب وعند الموت، نترك ذكرها خوف الإطالة فيما لا طائل فيه وربّما عرضنا لبعضها في الجزء الثاني؛ لالتماس بعض معالم شخصيته إن شاء الله..

(٤)

ويبدو أن معاوية - وقد اطمأن إلى نجاح خططه في إبعاد خصومه عن الحكم، بالقضاء على مآثرهم وفضائلهم التي لم يدع للمسلمين مجال ذكرها والتنويه بها، وخلق أمجاد لخصومهم في ظل ذلك العهد الإرهابي الذي لم تشاهد شيعة آل البيت نظيراً له بما لاقته من عنت وإرهاق وتعذيب وتنكيل - لم يكن له من الهمّ إلاّ أن يعدّ العدّة لنقض ما أعطاه للإمام الحسن(عليه السلام)

(١) المحاسن والمساوئ ج١: ٥٩-٦٠.

(٢) انظر المصدر السابق ج١: ٦٨.

من ولاية العهد، وتهيئة شعبه لقبول البيعة ليزيد، وكان أن جمع لذلك جمعاً من زعماء الأمصار، وأوعز إلى الضحاك بن قيس أن يقوم فيرشح يزيد لولاية العهد، وينظر مدى استجابة الجماعة لهذا الأمر.

وتكلم الضحاك، وتتابع الجماعة على الكلام بما يرضي معاوية، حتى إذا جاءت النوبة إلى الأحنف بن قيس قام فقال فيما قال - والخطاب لمعاوية -: ((..وقد حلبت الدهور وجرّبت الأمور، فاعرف من تسند إليه عهدك ومن تولّيه الأمر من بعدك، واعص رأي من يأمرك ولايقدر لك، ويشير عليك ولا ينظر لك، وأنت انظر للجماعة وأعلم باستقامة الطاعة، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لايرضون بهذا ولايبايعون ليزيد ما كان الحسن حياً)).

وثارت ثائرة الضحاك بن قيس، فقام وقال في ردّه فيما قال: ((ما للحسن ولذي الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه))، ثم نصح لأهل العراق بالطاعة بعد أن شتمهم أشنع شتيمة، فقام الأحنف - وكان صريحاً في جوابه إلى أبعد حدود الصراحة - فقال - بعد أن مهّد لكلامه بملاينة معاوية بالخطاب -: ((ولكنك أعطيت الحسن ابن علي من عهود الله ما قد علمت؛ ليكون له الأمر من بعدك، فإن تفِ فأنت أهل الوفاء، وإن تغدر تعلم والله أن وراء الحسن خيولاً جياداً وأذرعاً شداداً وسيوفاً حداداً، إن تدن له شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبّوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبّوهما، وما نزل عليهم في ذلك خبر من السماء، وأن السيوف التي شهروها عليك مع علي يوم صفين لعلى عواتقهم، والقلوب التي أبغضوك

بها لبين جوانحهم، وأيم الله إن الحسن لأحبّ إلى أهل العراق من علي))[١].

وكان هذا الكلام وشبهه من الأحنف مبصّراً لمعاوية في أن محاولاته تلك لم تأت بالثمرة المطلوبة له، وما دام الحسن موجوداً فإن محاولته في عزله لا تخلو من أخطار.

والذي يبدو من رواية ابن قتيبة أنه أعرض عن إثارة الحديث حولها بالشام، ولكنّه أثارها بالحجاز يقول: ((قالوا: فاستخار الله معاوية وأعرض عن ذكر البيعة حتى قدم المدينة سنة خمسين فتلقاه الناس، فلما استقر في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وإلى عبد الله بن عمر وإلى عبد الله بن الزبير، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر، فلما جلسوا تكلم معاوية..))، وقال فيما قال: ((أما بعد فإني قد كبر سني ووهن عظمي وقرب أجلي، وأوشكت أن أدعى فأجيب، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدي يزيد ورأيته لكم رضاً، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلاّ أنهما أولاد أبيهما، على حسن رأيي فيهما وشديد محبتي لهما، فردّوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله)).

وكان عبد الله بن عباس أسبقهم إلى الكلام، وكلامه - على إيجازه - كاف لبعث اليأس في نفس معاوية، فقد قال فأبدع، وكان مما قاله: ((أمّا بعد فإنك قد تكلمت فأنصتنا وقلت فسمعنا، وإن الله جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه اختار محمداً(صلى الله عليه وسلم) لرسالته واختاره لوحيه وشرّفه على خلقه، فأشرف الناس من تشرّف به وأولاهم بالأمر أخصّهم به،

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٥٦.

وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذ اختاره الله لها، فإنه إنما اختار محمداً بعلمه وهو العليم الخبير واستغفر الله لي ولكم)).

فهو هنا يرى أن أولاهم بالأمر أخصّهم به، يريد بذلك أهل البيت(عليهم السلام)، وأخال أن لكلامه تتمّة لم يذكرها المؤرخون وأشار إليها تمهيده ((وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذ اختاره الله لها، فإنه إنما اختار محمدا بعلمه))، وربّما كانت وقد اختار لها النبي من اختار من أهل بيته، وإلاّ فما جدوى قوله: وإنما على الأمة التسليم لنبيها إذا لم يصدر من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أمر في شأن الخلافة ليسلّم إليه؟ وقد سبق لابن عباس أن قال لعمر بن الخطاب نظير هذه الكلمة في محاججة سبقت له معه، وأتينا عليها في موضعها من هذا الكتاب.

وتتابع العبادلة في الجواب، كلٌ من زاويته الخاصّة، وردّ عليهم معاوية بقوله: ((قد قلت وقلتم، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء، فابني أحب إليّ من أبنائهم مع أن ابني [إن] قاولتموه وجد مقالاً، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف لأنهم أهل رسول الله، فلما مضى رسول الله ولّى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة، غير أنهما سارا بسيرة جميلة، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة، وقد أخرجك الله يا ابن الزبير وأنت يا ابن عمر منها، فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله)) يقول: ((ثم أمر بالرحلة، وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد))[1].

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٥٧-١٥٩.

(٥)

وكان فشله هذا في أخذ البيعة لابنه يزيد كافياً لإعطائه درساً بأنه سوف لايستطيع إتمام الأمر له والحسن بن علي عليه السلام في الأحياء ينتظر دوره لتولّي الحكم، ومعه أمثال ابن عباس والأحنف بن قيس، ونفوس الناس ما تزال معه. فضمان نجاحه موقوف على إبعاد الحسن عليه السلام عن طريقه بأي ثمن كان، فليدبر الأمر للقضاء عليه..

وهكذا تمّت محاولته الدنيئة في إغراء زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس بالمال، وبالوعد بتزويجها من ولده يزيد، إذا هي سمت الحسن عليه السلام، وقامت هي بدورها.. وقُضي على الإمام[1] وتمّ له ما أراد.

والغريب أن معاوية – مع ما عُرف عنه من ضبط الأعصاب والسيطرة على عواطفه – لم يكد يبلغه هذا الخبر إلاّ ويفقد توازنه ويبدي عواطفه سافرة . وكان ابن عباس إذ ذاك بالشام، كما في أصح الروايات وأشهرها.. يقول ابن قتيبة: ((فلما أتاه الخبر – يعني معاوية – أظهر فرحاً وسروراً، حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس، وكان بالشام يومئذٍ، فدخل على معاوية، فلما جلس قال معاوية: يا ابن عباس هلك الحسن بن علي فقال ابن عباس – واللوعة تأكل قلبه –: ((نعم هلك، إنا لله وإنا إليه راجعون ترجيعاً مكرراً. وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته، أما والله ما سدّ جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان

(١) انظر شرح نهج البلاغة ج٤: ٤.

خيراً منه جدّه رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، فجبر الله المصيبة، وخلّف علينا من بعده أحسن الخلافة)). وهنا لم يتمالك ابن عباس – على ما عرف به من صبر وجلد – وهو يتحدّث بهذا الحديث دون أن شهق وبكى، وأبكى مَن في المجلس، وبكى معاوية – كما تقول الرواية – ثم يقول راويها: ((فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم))، وكانت فترة صمت – تقتضيها طبيعة الموقف عادة – بدّدها معاوية بسؤال تقليدي، ربّما يقال في أمثال هذه الأحوال، قال والحديث موجه لابن عباس: ((إنه ترك بنين صغاراً؟))، قال ابن عباس – وهو بعد في ثورته النفسيّة –: ((كلّنا كان صغيراً فكبر..)) ثم أعقبتها فترة صمت ثانية.. بدّدها معاوية أيضا بهذا السؤال: ((كم أتى له من العمر؟)) وكان سؤاله – فيما بدا لصاحبنا غير طبيعي – فأجابه بثورته السابقة: ((أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده)).

ثم عادوا إلى الصمت وعاد معاوية إلى الكلام، وكان كلامه في هذه المرة لا يخلو من خبث في بواعثه.. يقول الراوي: ((فسكت معاوية يسيراً ثم قال: يا ابن العباس أصبحت سيد قومك من بعده))، وربّما كان كلامه هذا منبعثاً عن رغبته في إلقاء الشقاق بين أفراد هذا البيت، فهو إذا أوغر في نفس صاحبنا حديث الزعامة للهاشميين، والحسين عليه السلام – هو سيد قومه وإمامهم بعد أخيه بالطبع – استطاع أن يشق هذا البيت على نفسه.

وقديماً حاول غيره من السابقين مع أبيه العباس ذلك فلم يوفق كما مرّ في سابق من الأحاديث..

وكان ابن عباس أعمق من أن يُؤخذ بهذا الدسّ الرخيص وهو يعرف من مقام الحسين عليه السلام وجلالة قدره ما يعرف، فأجابه بجواب قاطع:

((أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا))، ويؤخذ معاوية بهذا الجواب فلا يتمالك دون أن يرسل فيه كلمة إعجاب: ((لله أبوك يا ابن عباس ما استنبأتك إلاّ وجدتك معدّاً))[١]، وفي رواية الزبير بن بكار: ((لله درّه ما هيّجناه قطّ إلاّ وجدناه سيداً))[٢].

ويبدو أن حادثة الإمام الحسن‹ع› قد أثّرت عليه أثرها الكبير، فكان يعتبرها - فيما أخال - هي الحد الفاصل بينه وبين عودة الحكم إليهم، وقد كان الحسن‹ع› هو أمله الوحيد في الوقوف دون تنفيذ خطط معاوية، في وضع كابوس الأمويين على رقاب العرب والمسلمين، من طريق تنقل الخلافة في بيت أمية، وموقفه من الإسلام معروف. وربّما كانت كلمة أبي سفيان لعثمان ما تزال تملأ سمعه: ((صارت إليك بعد تيم وعَدي فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك وما من جنة ولا نار..))[٣].

فهو يعتقد أن الذلّ لم يدخل على العرب قبل موت الإمام الحسن‹ع›. يحدّث محمد بن حبيب في أماليه عن ابن عباس أنه قال: ((أول ذلّ دخل على العرب موت الحسن عليه السلام))[٤].

ويبدو أن معاوية أقام عزاءً بعد موقف ابن عباس منه، أو أن ابن عباس نفسه أقام العزاء في الشام على ابن عمه، تقول رواية الزبير: ((ودخل على معاوية بعد انقضاء العزاء فقال: يا أبا العباس أما تدري ما حدث في أهلك؟

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٥٩-١٦٠.

(٢) كشف الغمة:١٢٧ نقلاً عن الزبير بن بكار.

(٣) النزاع والتخاصم:٣١.

(٤) شرح نهج البلاغة ج٤: ٤.

قال: لا، قال: هلك أسامة بن زيد فعظّم الله لك الأجر، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحم الله أسامة))[1].

والذي يظهر أن معاوية لم ييسّر له سبيل العودة إلى بلده حتى عزم – فيما يروي الزبير – على محاقّته، والمحاقّة: هي المخاصمة وطلب الحق، وربّما فهم معاوية عنه هذا الأمر، وصادف أن لاحظ انصراف الناس عنه إليه يسألونه عن الحلال والحرام، فخشي من بقائه في الشام. يقول الزبير بعد حديثه السابق: ((وخرج وأتاه بعد أيام، وقد عزم على محاقّته، فصلى في الجامع يوم الجمعة، واجتمع الناس عليه يسألونه عن الحلال والحرام والفقه والتفسير وأحوال الإسلام والجاهليّة وهو يجيب، وافتقد معاوية الناس فقيل: إنهم مشغولون بابن عباس، ولو شاء أن يضربوا معه بمائة ألف سيف قبل الليل لفعل)). وكان هذا الحديث مبعث قلق لمعاوية، وندم على تأخيره. يقول المحدّث: ((فقال: نحن أظلم منه، حبسناه عن أهله، ومنعناه حاجته، ونعينا إليه أحبته، انطلقوا فادعوه..)) يقول: ((فأتاه الحاجب فدعاه، فقال: إنّا بني عبد مناف إذا حضرت الصلاة لم نقم حتى نصلي، أصلي إن شاء الله وآتيه.. فرجع وصلى العصر وأتاه)).

وكان من مظاهر اهتمامه بأمره أنه لم يسأله حاجته – فيما تقول الرواية – إلاّ قضاها، وزاد على ذلك بفتحه لأبواب بيت المال أمامه وقوله له: ((أقسمت عليك لمّا دخلت بيت المال فأخذت حاجتك))، وكان هدفه من ذلك فيما يقول الزبير بن بكّار: ((أن يعرف أهل الشام ميل ابن عباس إلى الدنيا)). وما كان ليخفى ذلك عليه – وهو الغواص – فردّ عليه بلباقة

---

(١) كشف الغمّة: ١٢٧.

عزّزت من مركزه في نفوس الرأي العام.. يقول: ((فقال: إن ذلك ليس لي ولا لك، فإن أذنت أن أعطي كل ذي حق حقه فعلت))، فأعاد عليه معاوية قَسَمَه فدخل، وبدلاً من أن يأخذ من أمواله شيئاً عمد إلى برنس خز أحمر يقال أنه كان لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب فأخذه ثم خرج. وكان هذا الموقف من معاوية مطمعاً له في أن يطلب منه طلباً أهم من ذلك وأوقع على نفسه فقال: ((يا أمير المؤمنين بقيت لي حاجة، فقال:ما هي؟ قال: علي بن أبي طالب قد عرفت فضله وسابقته وقرابته، وقد كفاكه الموت، أحبّ أن لا يشتم على منابركم. فقال: هيهات يا ابن عباس هذا أمر دين، أليس فعل وفعل، فعدّد ما بينه وبين علي كرم الله وجهه)) فقال ابن عباس – وقد ساءه هذا الجواب –: ((أولى لك يا معاوية والموعد القيامة، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون، وتوجه إلى المدينة))[1].

وفي بعض الروايات أن ابن عباس كان عند موت الحسن عليه السلام بالمدينة وله مع مروان والسيدة عائشة حديث[2]..وربّما كان ذلك وليد الخلط بينه وبين أخيه عبيد الله إذا صحّ هذا القسم من الروايات.

(٦)

ونشط موقف معاوية بعد هذه الحادثة نشاطاً كبيراً، لإتمام الأمر لولده، وأشاع في المناطق الشيعية وبخاصّة الكوفة جوّاً من الرعب والخوف، تجاوز حتى حدوده المألوفة منه.

---

(١) كشف الغمّة:١٢٧.

(٢) انظر الإرشاد – المطبعة الحيدرية، النجف، سنة الطبع ١٣٨١هـ – : ١٩٣.

يقول بعض المؤرخين بعد عرضه لصور من مواقف السلطة وأحاديثهم: ((حتى مات الحسن بن علي فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلاّ وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض))[١].

ثم كانت حادثة حِجر بن عدي وأصحاب حجر، وتقتيلهم بتلكم الصور الفظيعة المشهورة في التأريخ[٢]، وكان موقف زياد – واليه – من كل شيعي لا يقلّ فظاعة عن ذلك، يقول ابن أبي الحديد: ((فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي، فقتّلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطّع الأيدي والأرجل وسمل العيون، وصلّبهم على جذوع النخل))[٣].. إلى ما هنالك من صور التعذيب والتنكيل.

وبعد أن أمن جانب المعارضة دعا إلى بيعة ولده فبويع له بالشام، وكتب إلى عامله بالمدينة يستحثه على طلب البيعة له من أهلها، والكتابة له في شأن من يبطئ منهم، فكان جوابه أن أهل المدينة كلّهم بطاء، ولاسيما أهل البيت من بني هاشم، فإنه لم يجبني منهم أحد.

وكتب معاوية إلى كل من الحسين وعبد الله بن العباس وابن جعفر وابن الزبير كتباً، وأمر عامله أن يوصلها إليهم، وأن يأتيه بجواباتها، وكان أشدّ الكتب وأكثرها تهديداً كتاب ابن عباس، فقد جاء فيه: ((أما بعد فقد بلغني إبطاؤك عن البيعة ليزيد بن أمير المؤمنين، وإني لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إليّ؛ لأنك ممن ألّب عليه وأجلب، وما معك من أمان فتطمئن به،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٦.

(٢) انظر تأريخ الطبري ج٤: ١٥٤.

(٣) شرح نهج البلاغة ج٣: ١٥.

ولا عهد فتسكن إليه، فإذا أتاك كتابي هذا فاخرج إلى المسجد والعن قتلة عثمان، وبايع عاملي، فقد أعذر من أنذر، وأنت بنفسك أبصر))(١).

وأخالكم تذكرون ما كتب معاوية قبل هذا إليه وذلك عند صلح الحسن عليه السلام فقد قارب كتابه ذاك لهجة هذا الكتاب.

والذي يبدو أن ابن أبي سفيان كان يعتبر عدم دخول ابن عباس في قائمة أهل الصلح نقطة ضعف يُغزى من قبلها عند الحاجة، فهو يلوّح له بها بين الحين والحين.

وقصة عثمان والتأليب عليه كانت - فيما يبدو - بيد السلطة هي شعار الخطر الأحمر الذي يكفي أن يلقى على أي شخص ؛ لينتهي به إلى مصيره المعروف، وكان الرأي العام الشامي يغتفر للسلطة أي إجراء تقوم به تجاه مَن يتهم بهذا الاتهام.

وأخال أن ابن عباس أدرك من هذا الكتاب ومن ترديد نفس النغمة فيه أن خصمه كان يستهدف من جوابه انتزاع كلمة تشعر بذلك ؛ ليشهد بها أمام أهل الشام وليبرر القضاء عليه.

والقضاء على ابن عباس - من دون عذر مبرَّر - أمر لا يقوى عليه خصمه،وبخاصة بعد أن ركّز نفسه بالشام علىالنحو الذي لمسناه قبل صفحات.ومايدريك لعلهذا التهديد والتشدّد عليه بالخصوص كان وليد ذلك التركيز،فهو يخشىعلىمركزه منه إذا لم يبعده عن وجهه بمثل هذا الأسلوب.

ولعل لذلك كان صاحبنا حذراً في جوابه إلى أبعد حدود الحذر، وبخاصة في إجابته على ما يتعلق بعثمان، وبالمقارنة بين جوابه السابق له

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٦٣.

على مثل هذه التهمة، وبين جوابه هذا ندرك أسرار حذره هذا.. يقول في جوابه وكان أول من أجاب: ((أما بعد فقد جاءني كتابك وفهمت ما ذكرت، وأن ليس معي منك أمان، وإنه والله ما منك يطلب الأمان يا معاوية، وإنما يطلب الأمان من الله رب العالمين، وأما قولك في قتلي، فوالله لو فعلت للقيت الله ومحمداً(صلى الله عليه وسلم) خصمك، فما أخاله أفلح ولا أنجح من كان رسول الله(صلى الله عليه وسلم) خصمه، وأما ما ذكرت من أني ممن ألّب في عثمان وأجلب، فذلك أمر غبت عنه، ولو حضرته ما نسبت إليّ شيئاً من التأليب عليه،وأيم الله ما أرى أحد غضب لعثمان غضبي، ولا أعظم أحد قتله عِظَمي،ولو شهدته لنصرته، أو أموت دونه، ولقد قلت وتمنيت يوم قتل عثمان:ليت الذي قتل عثمان لقيني فقتلني معه ولاأبقى بعده، وأما قولك لي: إلعن قتلة عثمان، فلعثمان ولد خاصة وقرابة، هم أحقّ بلعنهم مني، فإن شاؤوا أن يلعنوا فليلعنوا، وإن شاءوا أن يمسكوا فليمسكوا))(١).

وبهذا الجواب - إن صحّ - قطع على معاوية - فيما أخال - طريق الاستفادة منه، فهو بهذا التأكيد على بعده من قصة عثمان وإظهاره شدة التأثر، سدّ أمام خصمه أهم كوّة كان بوسعه أن ينفذ منها إليه، وبعد أن أمن هذا الجانب بدا أمامه متماسكاً إلى أبعد حدود التماسك في الإجابة على بقيّة نقاط الكتاب.

وتتابع الجماعة على الإجابة على هذا النحو، وكان أشدّ الكتب وأصرحها كتاب الإمام الحسين(عليه السلام) ، ففيه عرض وافٍ لمفارقات السلطة، وشرح لأسباب معارضتها، ومعارضة مرشحها لولاية العهد.

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٦٣-١٦٤.

ثم كتب إليه واليه أن لا مندوحة له من الشخوص بنفسه إذا أراد إتمام الأمر لولده بالمدينة.

وجاء موسم الحج فأقبل معاوية، وكان في مستقبليه الإمام الحسين‌عليه‌السلام وابن عباس، فلما التقاهما بالجرف قال: ((مرحباً يا ابن بنت رسول الله وابن صنو أبيه، ثم انحرف إلى الناس فقال: هذان شيخا بني عبد مناف، وأقبل عليهما بوجهه وحديثه فرحّب وقرّب، وجعل يواجه هذا مرّة ويضاحك هذا أخرى حتى ورد المدينة))[1].

وبعد أن استقر به المقام بالمدينة بعث على زعماء المعارضة فاجتمع بهم واحداً واحداً، ولاينهم فلم يظفر منهم بشيء.

وفي اليوم الثاني أرسل على الحسين‌عليه‌السلام وابن عباس وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس وإن قرب، وجاء ابن عباس أولاً فاستقبله معاوية استقبالاً حاراً، وأجلسه على يساره، وجعل يحادثه ويجامله، وكان من حديثه: ((يا ابن عباس لقد وفّر الله حظكم من مجاورة هذا القبر الشريف ودار الرسول))، فقال ابن عباس بلباقته المعهودة: ((نعم أصلح الله أمير المؤمنين، وحظّنا من القناعة بالبعض والتجافي عن الكل أوفر)) يقول الراوي: ((فجعل معاوية يحدّثه ويحيد به عن طريق المجادلة، ويعدل إلى ذكر الأعمار على اختلاف الغرائز والطبايع، حتى أقبل الحسين بن علي، فلما رآه معاوية جمع له وسادة كانت على يمينه فدخل الحسين وسلم فأشار إليه فأجلسه عن يمينه مكان الوسادة، فسأله معاوية عن حال بني أخيه الحسن وأسنانهم، فأخبره، ثم سكت)).

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٦٦.

ثم بدأ معاوية بكلام ساقه مساق الخطبة.. نأتي عليه وعلى جوابه لأهميته ؛ ولما فيه وفي جوابه من شرح لمختلف وجهات النظر بين السلطة ومعارضيها.

قال معاوية بعد المفتتح التقليدي بالحمد والصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ((ثم خلفه رجلان محفوظان، وثالث مشكوك، وبين ذلك خوض طالما عالجناه مشاهدة ومكافحة ومعاينة وسماعاً، وما أعلم منه فوق ما تعلمون، وقد كان من أمر يزيد ما سبقتم إليه وإلى تجويزه، وقد علم الله ما أحاول به من أمر الرعية من سد الخلل و لمّ الصدع بولاية يزيد، بما أيقظ العين وأحمد الفعل، هذا معناي في يزيد، وفيكما فضل القرابة وحظوة العلم وكمال المروءة، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ما أعياني مثله عندكما وعند غيركما، مع علمه بالسنّة وقراءة القرآن والحلم الذي يرجح بالصم الصلاب، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة قدّم على الصدّيق والفاروق، ومن دونهما من أكابر الصحابة وأوائل المهاجرين، يوم غزوة ذات السلاسل، مَن لم يقارب القوم، ولم يعاندهم برتبة في قرابة موصولة، ولا سنّة مذكورة، فقادهم الرجل بأمره وجمع بهم صلاتهم وحفظ عليهم فيأهم وقال و لم يقل معه، وفي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أسوة حسنة، فمهلاً بني عبد المطلب فإنا وأنتم شعبا نفع وجد، وما زلت أرجو الإنصاف في اجتماعكما، فما يقول القائل إلاّ بفضل قولكما، فردّا على ذي رحم مستعتب ما تحمد به البصيرة في عتابكما، واستغفر الله لي ولكما))[1].

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٦٨-١٦٩.

وهذه الخطبة تجمع إلى مؤهلات يزيد في نظر أبيه استدلالاً على جواز تقديمه على أمثال الحسين عليه السلام وابن عباس، مع فضلهما بعمل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في تأمير ابن العاص على مثل أبي بكر وعمر في غزوة ذات السلاسل، وما كانت لتخفى ما في خطبته على صاحبنا من مفارقات ((فتيسّر – فيما تقول الرواية – للكلام ونصب يده للمخاطبة فأشار إليه الحسين وقال: على رسلك فأنا المراد ونصيبي من التهمة أوفر، فأمسك ابن عباس، فقام الحسين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال: أما بعد يا معاوية، فلن يؤدي القائل وإن أطنب في صفة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) من جميع جزءً، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتنكّب عن استبلاغ البيعة، وهيهات هيهات يا معاوية، فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضّلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى بخلت، وجرت حتى جاوزت، وما بذلت لذي حق من أتمّ حقه بنصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر، ونصيبه الأكمل. وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان أحتويته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش، والحَمام السبق لأترابهن، والقينات ذوات المعازف، وضروب الملاهي تجده ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدّم باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم، حتى مُلئت

الأسقية، وما بينك وبين الموت إلاّ غمضة، فَتَقدِم على عمل محفوظ في يوم مشهود ولات حين مناص.

ورأيتك عرّضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة، وجئت لنا بها ما حججتم به القائم عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام، فأذعن للحجة بذلك، وردّه الإيمان إلى النصف؛ فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل، وقلتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله(صلى‌الله عليه وآله وسلم) وتأميره له، وقد كان ذلك ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول، وبيعته له، وما صار لعمرو يومئذ حتى أنِف القوم إمرته، وكرهوا تقديمه، وعدّوا عليه أفعاله، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): لاجرم معشر المهاجرين لايعمل عليكم بعد اليوم غيري، فكيف يحتجّ بالمنسوخ من فعل الرسول في أوكد الأحوال وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب؟! أم كيف صاحبت بصاحب تابعاً؟! وحولك من لايؤمن في صحبته ولايعتمد في دينه وقرابته وتتخطاهم إلى مسرف مفتون تريد أن تلبس الناس شبهة، يسعد بها الباقي في دنياه، وتشقى بها في آخرتك، إن هذا لهو الخسران المبين وأستغفر الله لي ولكم)).

وكان الإمام(عليه السلام) بليغاً جداً حين أجاب على كل نقطة نقطة، وشرح جوانب المغالطة في كلام معاوية، وأبان واقع يزيد وواقع سياسة أبيه، بما اشتملت عليه من ظلم وجور واستهتار بشؤون الرعيّة، وما أجمل فضحه

للمغالطة بقصة عمرو بن العاص، المنسوخ لازمها بكلام الرسول، إلى ما هنالك بما أبانه الإمام(عليه السلام) في خطبته من المغالطات.. يقول محدّث الحديث: ((فنظر معاوية إلى ابن عباس فقال: ما هذا يا ابن عباس؟! ولما عندك أدهى وأمر)).

وكان جواب ابن عباس من أبلغ الأجوبة حين كشف له - على إيجازه - عن تضامن أهل هذا البيت، وأخذ بعضهم بيد بعض يقول: ((فقال ابن عباس: لعمر الله إنها لذريّة الرسول عليه الصلاة والسلام وأحد أصحاب الكساء ومن البيت المطهّر، فالهَ عما تريد، فإن لك في الناس مقنعاً، حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين)).

وكان هذا الكلام كافياً لبث اليأس في نفس معاوية وإنهاء الجلسة بقوله: ((أعوَد الحلم التحلم، وخيره التحلم عن الأهل، انصرفا في حفظ الله))[1].

ثم بعث على الباقين ولم يظفر منهم بجواب يرضيه. وكانت آخر محاولة له أن ((أمر من حرسه وشرطته قوماً أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة، وهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأوصاهم معاوية قال: إني خارج العشيّة إلى أهل الشام، فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا وأسلموا، فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدّقني أو يكذّبني فيه فلا ينقضي كلامه حتى يطير رأسه!!)) يقول الراوي: ((فحذر القوم ذلك)).

وتتمّة هذه المأساة التي أعطت أبلغ درس للمحافظة على الحريات ما جاء في المصدر نفسه: ((فلما كان العشيّ خرج معاوية وخرج معه هؤلاء

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٧٠-١٧١.

النفر، وهو يضاحكهم ويحدّثهم، وقد ألبسهم الحلل، فألبس ابن عمر حلّة حمراء، وألبس عبد الله بن عباس حلّة خضراء، وألبس ابن الزبير حلّة يمانيّة، ثم خرج بينهم وأظهر لأهل الشام الرضا عنهم أي القوم، وأنهم بايعوا فقال: يا أهل الشام إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين فوجدهم واصلين مطيعين وقد بايعوا وسلّموا، قال ذلك والقوم سكوت لم يتكلموا شيئاً حذر القتل، فوثب أناس من أهل الشام فقالوا: يا أمير المؤمنين إن كان رابك منهم ريب فخلّ بيننا وبينهم حتى نضرب أعناقهم، فقال معاوية: سبحان الله ما أحلّ دماء قريش عندكم يا أهل الشام، لا أسمع لهم ذكراً بسوء، فإنهم قد بايعوا وسلّموا وارتضوني فرضيت عنهم رضي الله عنهم، ثم ارتحل معاوية راجعاً إلى مكة))[1].

ويبدو أن هذا الإجراء من معاوية قد اعتبره وافياً بإتمام الأمر لولده بالنسبة إلى جميع هؤلاء النفر عدا الإمام الحسين عليه السلام، فأضاف إليه خطوة عدائية صريحة تشلّ من حركتهم، وتقضي عليها من الأساس، فقد ((وزّع على الناس أعطياتهم وأجزل العطاء، وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها وأعطياتها، و لم يخرج لبني هاشم جائزة ولا عطاء)).

وقد أدرك ابن عباس ما يرمي إليه معاوية من هذه الخطوة، من القضاء عليهم اقتصادياً، وربّما تبعتها خطوات من قِبَله، مع العلم بأن السلطة إذ ذاك كانت هي المتحكمة في مواردهم الاقتصادية، وموارد أمثالهم من كبار المسلمين وذوي السابقة في الإسلام، فقام بإجراء سريع حازم ولحق بمعاوية - بالروحاء - وحاول معاوية أن يحجبه عن مواجهته فلم يأذن له،

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٧٣-١٧٤.

حتى إذا خرج ((وثب إليه عبد الله بن عباس فأخذ بلجام البغلة ثم قال: أين تذهب؟ قال: إلى مكة قال: فأين جوائزنا كما أجزت غيرنا قال: والله ما لكم عندي جائزة ولا عطاء حتى يبايع صاحبكم، قال ابن عباس: فقد أبى ابن الزبير فأخرجت جائزة بني أسد، وأبى عبد الله بن عمر فأخرجت جائزة بني عدي، فما لنا إن أبى صاحبنا وقد أبى صاحب غيرنا، فقال معاوية: لستم كغيركم لا والله، لا أعطيكم درهماً حتى يبايع صاحبكم)).

وربّما قال ذلك معاوية لما يعرف من تضامن الهاشميين واجتماعهم على الإمام الحسين‏عليه السلام، وما يدريك لعله قدّر في نفسه أنه سوف يستطيع بهذا الإجراء شقّ الهاشميين على إمامهم، أو حمله على المبايعة حملاً من قِبَلهم، ولكن ابن عباس أفهمه بأنه سوف لايقوى على هضم حقوقهم، وفيهم مثله ومقامه بالشام معروف.. يقول ابن قتيبة: ((فقال ابن عباس: أما والله لئن لم تفعل لألحقنّ بساحل من سواحل الشام، ثم لأقولنّ ما تعلم، والله لأتركنّهم عليك خوارج)).

وتراجع معاوية أمام هذا التهديد، ولعلّه ذكر تأثيره بالشام وتحوّل قائلهم بالأمس له.. والله لو شاء أن يضرب معه مائة ألف سيف لفعل، فقال: ((لا بل أعطيكم جوائزكم، فبعث بها من الروحاء))[1].

(٧)

واتجه معاوية إلى مكة بموكبه المعروف، واتجه ابن عباس معه - فيما أخال - إليها، ولكل منهما موكب لا يقل في ضخامته عن موكب

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٧٤.

صاحبه، وإن اختلف معه من حيث النوع، فمعاوية كان محاطاً بجنده وبالوصوليين وذوي الأطماع من الناس، وكان صاحبنا محاطاً بطلاّب العلم وهواة المعرفة، يقول يزيد بن الأصم: ((خرج معاوية حاجّاً معه ابن عباس، **فكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم))**[(١)].

وقد حجّ معاوية وهو ملك مرتين، إحداهما في سنة أربع وأربعين للهجرة، والأخرى في سنة خمسين للهجرة، وكانت له معه أحاديث في مكة، وما ندري في أيهما كانت، وليس المهم تعيين زمنهما فعبد الله هو عبد الله لا يختلف في جرأته وصلابته معه في أي زمن كان.

ومن تلك الأحاديث ما جاء عنه ((من أنه طاف مع معاوية بالبيت، فجعل معاوية يستلم الأركان كلّها، فقال له ابن عباس: لِمَ تستلم هذين الركنين ولم يكن رسول الله يستلمهما؟ فقال معاوية: ليس شيء من البيت مهجوراً، فقال ابن عباس: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة فقال معاوية: صدقت))[(٢)].

وشاهد ابن عباس ظاهرة غريبة عليه فساءته وألّمته، وعمد إلى إنكارها إنكاراً لا هوادة فيه.. شاهد أن الناس قد تركوا التلبية يوم عرفة، والتلبية - فيما يقول - زينة الحج، فسأل عن أسرار ذلك، فقيل له: إن معاوية نهى عنها، لأن علياً كان يُلبّي في مثل هذا اليوم، حدّث سعيد بن جبير قال: ((كنت مع ابن عباس بعرفات.. فقال: مالي لا أسمع الناس يُلبّون،

---

(١) الاستيعاب ج٢: ٣٥٣.

(٢) مسند أحمد ج١: ٢١٧.

فقلت: يخافون من معاوية، فخرج ابن عباس من فسطاطه فقال: لـــبّيك اللّهم لـــبّيك، لـــبّيك.. فإنهم قد تركوا السنّة من بغض علي))[١].

والغريب من أمر معاوية أنه كان يُخضع الأحكام الشرعيـــّة لعواطفـــه لحبّه ولبغضه، فهو هنا يترك السنّة بغضاً لعلي؛ لأن علياً(عليه الســـلام) كـــان يتقيد بالسنّة، وهو يُتمّ الصلاة في منى بعد أن كان قد صلاّها قصـــراً مجـــاراة لعواطف الأمويين وحفظاً لكرامة عثمان!! يقول المحدّث: ((لما صلّى بنا معاوية الظهر ركعتين نهض إليه مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان، فقالا له: ما عاب أحد ابن عمك بأقبح مما عبته به، فقال لهما: وما ذلك؟ قال: فقـــالا لـــــه: ألم تعلم أنه أتمّ الصلاة بمكـــة، قـــال فقـــــال لهمـــا: ويحكمـــا وهـــل كـــان غير ما صنعت؟! قد صليتهما مع رسول الله(صلى الله عليـــه وســـلم) ومـــع أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، قالا: فإن ابن عمك قـــد كـــان أتمهمـــا، وإن خلافك إياه عيب له، قـــال: فخـــرج معاويـــة إلى العصـــر فصلاّهـــا أربعاً بنـــــا))[٢].

وهاتان القصتان ـ ومثلهما بالطبع كثير ـ تكشفان عن مـــدى إيمـــان معاوية بأحكام الشريعة وتمسّكه بها من جهة، واستهتاره وعدم مبالاته بالرأي العام المسلم من جهة أخرى.

وهذا الاستهتار هو الذي دعا ابن عبـــاس أن يقف منه ذلك الموقف؛ فيجاهر بسبـــّه ويتحدّاه بالتلبية كما ورد في الحديث السابـــق.

---

(١) سنن النسّائي ج٥: ٢٥٣.

(٢) مسند أحمد ج٤: ٩٤.

(٨)

ثم كانت فترة بين أخذ البيعة ليزيد وموت معاوية، لا نعرف لابن عباس فيها - كأي معارض آخر - نشاطاً سياسياً ملحوظاً، وإنما كان منصرفاً فيها إلى ما عوّد الناس عليه من إلقاء محاظرات في الفقه أو التفسير أو الحديث وما إلى ذلك.. مما سنأتي عليه مفصّلاً عندما نبحث هذا الجانب من جوانب شخصيّته في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وفي هذه الفترة - فيما يبدو - ذهبت كريمتاه، وتركت آثارها العميقة في نفسه، ويبدو أنهما ذهبتا على التدريج، ففي حديث أنه ((قد أصيبت إحدى عينيه فنحل جسمه، فلما أصيبت الأخرى عاد إليه لحمه، فقيل له في ذلك فقال: أصابني ما رأيتم في الأولى شفقة على الأخرى، فلما ذهبتا اطمأن قلبي))[1].

وقد اختلفوا في تعليل ذلك، والذي عليه جملة من المنقّبين أن منشأه رؤيته لجبرئيل في حياة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومصدرهم في ذلك ما أثر عنه من أنه رأى رجلاً مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يعرفه، فقال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): أرأيته؟ قال: نعم قال: ذاك جبرئيل، أما إنك ستفقد بصرك. يقول الراوي: فعمي في آخر عمره[2].

وهذه رواية لها نظائر، وفي بعضها تعدد رؤيته، وقلّما يخلو كتاب يعرض لترجمته من ذكرها، ولسنا نملك لها تعليلاً طبيعياً، اللّهم إلاّ أن يكون

---

(١) البداية والنهاية ج٨: ٣٠٥.

(٢) انظر ذخائر العقبى: ٢٣٣.

من خصائص جبرئيل(عليه السلام) أن رؤياه تورث العمى! ولو بعد زمان طويل، وهو تعليل لابدّ من الأخذ به إذا كانت هذه الروايات وأضرابها صحيحة في نسبتها إلى الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم تكن للمنقّبين من أنصار بني العباس علاقة بها ؛ لملامستها لعواطف ملوكهم بما تدفع عن أبيهم من معرّة العمى، إن صحّ أن للعمى معرّة تستوجب أن يلتمس لدفعها أمثال هذه الأسباب.

وهناك تعليل آخر ذكره المسعودي وعزاه إلى بكاءه على علي، والحسن، والحسين(عليهم السلام)[1]. وذكر الحسين(عليه السلام) في هذا الموضع لا يلتئم مع الواقع التأريخي، فالظاهر أن ذهاب بصره كان قبل مقتل الحسين وبعد سمّ الحسن(عليهما السلام).

والتأريخ وإن حدّثنا عن مدى تأثره لفقدهما وبكائه عليهما،ولكنّه لم يحدّث عن كثرة البكاء واستمراره كل هذه المدة على نحو يؤثّر مثل هذا الأثر البليغ؛ ومثله يتواتر في الحديث عادة.

وقد حاول بعضهم أن يلتمس له تعليلاً آخر يرتبط بشدة احتياطه في الدين فقال: ((قيل: لأنه كان في وضوءه يدخل الماء في عينيه مبالغة في استقصاء))[2]. وما ندري أكان مصاباً بداء الوسوسة؟ وكثيراً ما يصاب به أمثاله من المتشرّعين، ومنشؤه المبالغة في الحيطة لأمر أو أكثر من أمور الدين، على نحو يفقدهم الثقة بالنفس في أدائها بسهولة. فهم محتاجون إلى تكرار الشيء ، والمبالغة في تتبّع أطرافه ؛ للتأكد من صحته ، ومع الأيام

---

(١) انظر مروج الذهب ج٣: ٤٥.

(٢) نكت الهميان: ١٨٢.

يصبح ذلك من أهم الأمراض النفسيّة التي يصعب معالجتها، وإذا كان.. فهل مثل هذا الاحتياط بإدخال الماء إلى عينيه مما يوجب إصابته بالعمى؟.. أبعد ذلك، فإن إصابته - في الظاهر - كانت وليدة نزول الماء على عينيه، وهو لا يرتبط بإدخال الماء من الخارج إليهما.

والذي أخاله أن لمرضه هذا جذوراً وراثيّة، فقد أصيب الكثير من بني هاشم بهذه الآفة، وأصيب هو، وأبوه، وجده، في أسنان متقاربة وقد تكون متحدة، وقد حدّثنا العلم عن وراثة نوع من أنواع العمى، أسموه بالوراثة المتحدة الأزمنة[1].

وعلى أيٍّ فعروض مثل هذه الآفة لا يحتاج إلى تجشم الأسباب، وربّما كان ذلك لعوارض وقتيّة نجهلها الآن، وتحقيقها لايهم كثيراً، وإنما المهم التماس أثر هذه العاهة في نفسه.

والذي أتخيله أنها كانت ذات أثر بليغ جداً، فقد جاءته وهو في صراع سياسي قوي، لمسنا خطوطه فيما سبق.. وربّما كان ينتظر دوره في الحكم ليتمكّن من أداء رسالته الدينيّة التوجيهيّة كاملةً، وذلك إذا استطاعت المعارضة أن تثبت وجودها بعد معاوية، وينجح مرشح أهل البيت.

وقد كان ابن عباس يعتبر لنفسه حقاً في الحكم - طبعاً في طول الحسين - ولا يمنعه وجود معاوية أن يجاهر به، فمن حديث لمعاوية معه ((وأقلّ من ذكر حقك، فإنه إن كان لك فقد تركته لمن هو أبعد منا حبّاً، وإن لم يكن فلا حاجة بك إلى ذكره، مع أنه صائر إليك، وكل آت قريب، ولتجدنا إذا كان ذلك خيراً لكم منا))، يقول ابن عباس: ((وأما ما سألتني

---

(١) انظر مجلة الاعتدال سنة:٤، عدد:٣.

من الكف عن ذكر حقي، فإني لم أغمد سيفي وأنا أريد أن أنتصر بلساني، ولئن صار هذا الأمر إلينا، ثم وليكم من قومي مثلي كما ولينا من قومك مثلك، لايرى أهلك إلاّ ما يحبون))[١].

فهو ينتظر أن يصير الأمر إليهم وأن يتولّى الأمّة مثله، وإنما قلت في طول الحسين فلأنه كان يرى أن الحسين(عليه السلام) مقدّم عليه بحكم إمامته فهو يروي عن النبي قوله: ((إن وصيي علي بن أبي طالب وبعده سبطاي الحسن والحسين..))[٢]،وقوله لمعاوية حين قال له:أصبحت سيّد قومك قال:((ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا))، وقوله للإمام الحسين(عليه السلام) : ((وإن نصرك لفرض على هذه الأمة كفريضة الصلاة والزكاة والتي لا يقدّر أن يتقبل أحدهما دون الأخرى))[٣].. يكشف عن ذلك. وقد بلغ من احترامه له أنه كان يمسك بركابه حتى يركب، جاء في تذكرة الخواص: ((وكان ابن عباس يمسك بركاب الحسن والحسين حتى يركبا،ويقول:هما ابنا رسول الله))[٤].

ومثل هذه العاهة لابدّ وأن تقعد به عن بلوغ هذا المرمى، ولا أقل من شعوره بذلك، وكلماته عندما دُعي لبيعة يزيد بعد موت معاوية تكشف لنا - إن صحّت - عن جانب من هذا الأثر، يقول عتبة بن مسعود: ((جاء رسول خالد بن الحكم إلى ابن عباس: أن انطلق فبايع، فقال للرسول: إقرأ

---

(١) العقد الفريد - تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، مصر، ط٢، سنة الطبع ١٣٧٢هـ - ج٥: ١٠٩.

(٢) ينابيع المودة - مطبعة العرفان، صيدا - ج٣: ٩٩، نقلاً عن فرائد السمطين.

(٣) الفتوح ج٥: ٢٦.

(٤) تذكرة الخواص: ٢٤٥.

الأمير السلام وقل له: والله ما بقي فيّ ما تخافون، فاقض من أمرك ما أنت قاض، فإذا سهل الممشى وذهبت حطمة الناس،جئتك ففعلت ماأحببت))[١].

فهو – كما ترون – يعتقد في أعماقه أنه لم يبق فيه – وطبعاً بعد ذهاب عينيه – ما يخاف الأمويون منه. وإذا قارنّا هذه الكلمة بكلامه السابق مع معاوية حتى نهاية المطاف، أدركنا مدى تأثّره لذلك، وشعره الذي قال بعد ما أصيب يكشف عن المحاولات التعويضيّة اللاشعوريّة كشفاً تاماً، فهو يقول – وكأنّه يقنع نفسه بأن ذهاب البصر لم يفقده شيئاً له أهميّته ما دام يملك هذه المعوضات –:

((إن يأخذ الله من عينيّ نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخلٍ وفي فمي صارم كالسيف مأثور))[٢]

وأخال أن في تعداد هذه الصفات، ولم يكن قد عوّدنا سابقاً على ذكر مثلها – في غير موارد الفخر طبعاً – محاولة في تأكيد الذات بعد ما زعزعت هذه النازلة ثقتها فيها، على أن هذا شيء طبيعي لمن هو في سنّه، وله مؤهلاته، فلو لم يطفح على لسانه بما يشير إليه لاهتدينا إلى ذلك من طريق الفرض عادة.

ومما يأتي من أحاديثه هذا المأتى، ما جاء عنه من أنه مرّ: ((بقوم ينالون من علي﵇ ويَسبّونه، فقال لقائده: أدنني منهم فأدناه، فقال: أيّكم السابّ لله؟ قالوا: نعوذ بالله أن نسبّ الله، فقال: أيكم السابّ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)قالوا:نعوذ بالله أن نسبّ رسول الله(صلى الله عليه وسلم)

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٨٥.

(٢) أسد الغابة ج٣: ١٩٥.

فقال: أيّكم السابّ علي بن أبي طالب؟ قالوا: أمّا هذه فنعم، فقال: أشهد لقد سمعت رسول الله(صلى الله عليه وسلم) يقول: من سبّني فقد سبّ الله ومن سبّ علي بن أبي طالب فقد سبّني، فأطرقوا.. فلما ولّى، قال لقائده: كيف رأيتهم؟ فقال:

نظروا إليك بأعين مزورّة   نظر التيوس إلى شفار الجازر))

إلى هنا والأمر طبيعي لايشير إلى شيء، ولكن استزادته بعد ذلك من قائده تشير إلى محاولته في تأكيد الذات، يقول الراوي: ((قال: زدني فداك أبي وأمي، فقال:

خزر العيون منكّسي أذقانهم   نظر الذليل إلى العزيز القاهر

فقال:زدني فداك أبي وأمي، قال: ما عندي مزيد، قال: ولكن عندي:

أحياؤهم تخزي على أمواتهم   والميتون فضيحة للغابر))[1]

والمهم هنا هي الاستزادة من معرفة أثر كلامه في نفوسهم، وهي لا تكون عادة لو كان في سلامة من هذه العاهة.

وما أدري.. أين التقى معاوية؟! - والظاهر أنه لم يسافر إليه، و لم يأت معاوية إلى الحجاز بعد أخذه البيعة - فقال له معاوية: ((ما بالكم تصابون في أبصاركم يا بني هاشم؟!))، وهي كلمة نابية لا يصلح لها غير ما أجاب عليه بقوله: ((كما تصابون في بصائركم يا بني أميّة))[2].

والقصة مأثورة لمعاوية مع عقيل بن أبي طالب، وقد تكون معهما معاً، لو صحّ أن صاحبنا كان قد اجتمع به بعد أن أصيب.

---

(١) مروج الذهب ج٢: ٢٢٩-٢٣٠، وانظر الرياض النضرة ج٢: ٢١٩.

(٢) نكت الهميان في نكت العميان: ١٨٢.

ويقول بعض مؤرخيه: ((إنه لما نزل الماء في عينيه فذهب بصره فأتاه الذي يثقب العين ويسيل الماء، فقال: خلّ بيننا وبين عينيك تسيل ماءهما، ولكن تمسك خمسة أيام عن الصلاة، قال: لا والله ولا ركعة واحدة، إني حدثت أن من ترك صلاة واحدة لقي الله وهو عليه غضبان)). وفي رواية ((إنه لما فقد بصره قيل له: نداويك ولكن تمكث كذا وكذا لا تصلي إلاّ على قفاك، فأبى وقال: بلغني أن رسول الله قال: من ترك صلاة لقي الله وهو عليه غضبان))(١).

وتطبيق هذه الكبرى – من ترك الصلاة – على الموضع تطبيق غريب، لايلتئم مع مانعرف من سعة معرفته في الفقه. فالمضطرّ – في حالة اضطراره – لا يشرع له غير هذا النوع من الصلاة، فكيف يصدق عليه أنه تارك! اللّهم إلاّ إذا كان من رأيه عدم مشروعية صلاة المضطر، إذا كان قد أوقع نفسه في الاضطرار بمحض اختياره. وتسليم نفسه إلى الطبيب هنا لمداواته مع علمه بأنه لايطيق الصلاة معها من قيام إيقاع لنفسه بالاضطرار، فلا تصح منه مثل هذه الصلاة. وليس هنا موضع مناقشة هذا الرأي، وربّما كانت الرواية مدخولة عليه من الأساس إبرازاً لشدة احتياطه في أمور الدين.

وعلى أيٍّ فالذي يهمنا من هذا الحديث هو إبراز أثر ذلك في نفسه، وقد قلنا إن هذا الأثر قد يكون طبيعياً لمثله، وربّما كان عمقه لا يقل – عما التمسناه سابقاً – من أثر (يوم الخميس)، وإن كان هذا الأثر كسابقه، سوف يضعف تدريجاً بالاعتراف به من جهة، والاعتياد عليه من جهة أخرى.

---

(١) ذخائر العقبى: ٢٣٤.

مع يزيد في أيام حكمه

(١)

وانقضت تلكم الفترة، ومات معاوية، فاستقبل ابن عباس فترة حافلة بأشد الأزمات وأعقدها، وما أخاله مرّ بعد فترة مرض النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وموته بما يشبهها مشاكل وأزمات أثّرت على نفسه أثرها الكبير، حتى أسلمته إلى نهايته المحتومة.

فكانت بيعته ليزيد بعد أن وقف منها في حياة معاوية موقفه السابق، وكان جلّ همّ يزيد يوم تسلّم زمام الحكم أن يؤمّن جانب المعارضة، بحمل المعارضين على بيعته حملاً، أو القضاء عليهم مهما كلفه الأمر، فكتب إلى عامله على المدينة ينعى إليه معاوية، ويؤكد على دعوة أهل المدينة لبيعته، وفيه يقول: ((وليكن أول من يبايعك من قومك وأهلنا الحسين، وعبد الله ابن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة بصدقة أموالهم غير عشرها، وجزية رقيقهم، وطلاق نسائهم،بالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم))[(١)].

وكان ابن عباس إذ ذاك بمكة، فلم يدع في جملة هؤلاء، وإنما دعاه - على بعض الروايات - عامل مكة على البيعة، وبايع بعد إلحاح وإلحاف

---

(١) الإمامة والسياسة ج١: ١٨٦.

من قبله[١]. وتقول رواية أخرى: أنه لم يؤذن بموت معاوية إلاّ بعد مدة من الزمن، وكان هو وابن عمر في طريقهما إلى المدينة، فالتقاهما الحسين‌عليه السلام وابن الزبير وهما خارجان منها، فقال ابن عمر: ((ما وراءكما؟ قالا: موت معاوية، والبيعة ليزيد بن معاوية)).. إلى أن تقول: ((وقدم ابن عمر وابن عباس إلى المدينة، فلما جاءت البيعة من الأمصار بايع ابن عمر مع الناس))[٢].

ثم سكتت عن ابن عباس، و لم تشعر بموقفه أو موقف السلطة منه، والظاهر أن السلطة لا يمكن أن تسكت عنه، وربّما حملته على البيعة حملاً، كما يبدو من الرواية الأولى، ولعل ليأسه من نجاحه في الاستمرار على المعارضة بعد إصابته بالعمى كما تشعر كلمته السابقة ((ما بقي فيّ ما تخافون))، أو ليأسه من معاضدة مجتمعه، وهو إنما يصول به كما تشعر به كلمته لعتبة بن مسعود حين قال له: ((أتبايع ليزيد وهو يشرب الخمر ويلهو بالقيان ويستهتر بالفواحش)) يقول عتبة ابن مسعود: فقال: ((مه فأين ما قلت لكم – يشير إلى حديث سابق – وكم بعده من آت يشرب الخمر، أو هو شرّ من شاربها أنتم إلى بيعته سراع، أما والله إني لأنهاكم وأنا أعلم أنكم فاعلون ما أنتم فاعلون))[٣].

تأمّلوا قوله: ((والله إني لأنهاكم وإني أعلم أنكم فاعلون ما أنتم فاعلون)) – إذا صح عنه – فإنه كاشف عن مدى يأسه من استجابة الناس له،

(١) انظر المصدر السابق ج١: ١٨٥.

(٢) البداية والنهاية ج٨: ١٤٨.

(٣) الإمامة والسياسة ج١: ١٨٥.

وقد كاد يحمله مثل هذا اليأس من استصلاحهم على هجرهم، والانقطاع عنهم، لولا أنه كان يخشى على نفسه أن تكون فكرته هذه من وحي الشيطان، ومن ذلك قوله:((ولولا الوسواس ما باليت أن لا أكلّم الناس))[1].

وربّما كان هذا اليأس في موضعه، إذا تصوّرنا اختلاف الزمنين، زمن امتناعهم عن البيعة على عهد معاوية وهذا الزمن، فمرور عشر سنوات كافٍ لأن يبدّل من جو الناس، بتأثير سياسة معاوية المعروفة بعناصرها الانتهازيّة وغيرها، مما عرضنا بعض خطوطه فيما سبق من حديث..

ومع هذا اليأس والعطل الذي أصابه بسبب عينيه، لا يبقى مجال لمناوأة سافرة يتحدّى بها السلطة، وهو لا يملك عدّة الدفاع، فالرواية التي تسجل عليه بيعته هي أقرب في عقيدتي إلى واقع صاحبنا من الروايات الأخرى الساكتة، أو المصرّحة بعدم البيعة - لو وجدت - على أن مصلحة البيت الهاشمي كانت تقتضيه - فيما أخال - ذلك ؛ ليتولى هو - والمبايعون من الأسرة - حفظ كيانها، لو قدّر لحركة زعيمهم الحسينعليه السلام أن لا تحصل على النجاح المأمول.

(٢)

وكانت حركة الحسينعليه السلام وامتناعه عن البيعة - وخروجه من المدينة إلى مكة ومعه ابن الزبير - مبعث اضطراب السلطة وتخوّفها، وما أسرع أن تلقّى صاحبنا من يزيد كتاباً يطلب إليه أن يتولى تسوية الموقف،

---

(١) البيان والتبيين ج١: ٢١٨.

وفيه يقول: ((أما بعد فإن ابن عمك حسيناً وعدو الله ابن الزبير التويا ببيعتي، ولحقا بمكة مرصدين للفتنة معرّضين أنفسهما للهلكة، فأمّا ابن الزبير فإنه صريع الفنا وقتيل السيف غداً، وأما الحسين فقد أحببت الإعذار إليكم أهل البيت مما كان منه، وقد بلغني أن رجالاً من شيعته من أهل العراق يكاتبونه ويكاتبهم، ويمنّونه الخلافة، ويمنّيهم الإمرة، وقد تعلمون ما بيني وبينكم من صلة وعظيم الحرمة ونتائج الأرحام، وقد قطع ذلك الحسين وبتّه، وأنت زعيم أهل بيتك وسيد أهل بلادك، فالقه فاردده عن السعي في الفرقة، وردّ هذه الأمة عن الفتنة، فإن قبل منك وأناب إليك، فله عندي الأمان والكرامة الواسعة، وأجري عليه ما كان أبي يجريه على أخيه، وإن طلب الزيادة فاضمن له ما أراك الله أنفذ ضمانك، وأقوم له بذلك، وله عليّ الأيمان المغلّظة، والمواثيق المؤكدة بما تطمئن به نفسه، ويعتمد في كل الأمور عليه، عجّل بجواب كتابي وبكل حاجة لك إليّ وقِبَلي والسلام))[1].

وما كانت لابن عباس من حاجة إلى مثله ليكتب إليه بها، وقد أحسّ أن وراء كتابه ما وراءه، فبعث إليه بالجواب ممنّياً وواعظاً ومحذّراً، بعد أن شرح له أسباب مجيء الإمام الحسين عليه السلام إلى مكة يقول: ((أما بعد فقد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحسين وابن الزبير بمكة، فأما ابن الزبير فرجل منقطع عنا برأيه وهواه، يكاتمنا مع ذلك أضغاناً يسرّها في صدره، يوري بها علينا وري الزناد، لا فكّ الله أسيرها، فاراً في أمره ما أنت راء، وأما الحسين فإنه لّما نزل مكة وترك حرم جده ومنازل آبائه، سألته عن مقدمه، فأخبرني أن عمالك بالمدينة أساؤوا إليه وعجّلوا عليه بالكلام الفاحش؛ فأقبل إلى حرم

---

(١) تذكرة الخواص: ٢٤٨-٢٤٩.

الله مستجيراً به، وسألقاه فيما أشرت إليه، ولن أدع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة ويطفيء به النائرة ويخمد به الفتنة ويحقن به دماء الأمة)). ثم عقّب ذلك بما يشير إلى تحسّسه وتخوّفه مما بيّت للإمام الحسين(عليه السلام) على رغم هذه الوعود، فيجابهه بقوله: ((فاتّق الله في السرّ والعلانية ولاتبيتن ليلة وأنت تريد لمسلم غائلة، ولاترصده بمظلمة، ولاتحفر له مهواة، فكم من حافر لغيره حفراً وقع فيه، وكم من مؤمّل أملاً لم يؤت أمله..)) ثم عقّب ذلك بشيء من الوعظ والتبكيت له على ارتكابه المنكرات: ((وخذ بحظّك من تلاوة القرآن ونشر السنّة، وعليك بالصيام والقيام، لاتشغلك عنهما ملاهي الدنيا وأباطيلها، فإن كل ما اشتغلت به عن الله يضرّ ويفنى، وكل ما اشتغلت به من أسباب الآخرة ينفع ويبقى والسلام..))[1].

ويبدو أن يزيد لم ينتظر سفارة ابن عباس ومحاولته التهدئة، بل بيّت للحسين(عليه السلام) الغائلة بإرسال جماعة من أتباعه لاغتياله في الحرم. وما كان ذلك ليخفى على الحسين(عليه السلام).

ومثل الحسين لايصحّ أن يعرّض مكة - وهي دار الأمان - لمعركة لابدّ أن تُنتهك فيها حرمتها، فكان لابدّ له أن يخرج عنها، وبخاصة قد وردت إليه من شيعته في الكوفة، ثم من رسوله إليهم مسلم بن عقيل، كتب تستحثّه على المبادرة إليهم، وسمع صاحبنا بعزيمته على إجابتهم، فعظم عليه ذلك، وحضّر أمامه كل ما لديه من رواسب عن غدر الكوفيين منذ حادثة صفين سواء بالإمام أم بولده الحسن(عليهما السلام)،وربّما تصوّر أن سياسة أمثالهم لاتنجح بحال، إلاّ إذا قامت دعائمها على ركيزتين، المساومة على العواطف

---

(١) تذكرة الخواص: ٢٤٩-٢٥٠.

بأموال المسلمين من جهة، واستعمال ضروب الإرهاب والتنكيل بحق وبغير حق من جهة ثانية. وكلا الركيزتين لايعتمدهما الإسلام ولا يقرّهما.

ومثل الحسين(عليه السلام) وهو إمام المسلمين وسيّدهم لايمكن له أن ينجح وهو لا يملك بحكم مزاجه الخاص - فضلاً عن تقيّده بالدين - شيئاً من عدّتها، وربّما كان مصيره مصير أبيه وأخيه الحسن(عليهما السلام) مع هؤلاء، وقد بادر لذلك إليه فقال له: ((يا ابن عم قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبيّن لي ما أنت صانع؟ قال: إني أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: فإني أعيذك بالله من ذلك، أخبرني رحمك الله أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم، فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم)). وفي رواية مروج الذهب: ((وما أنا لغدرهم بآمن))[١]، ((وان كانوا إنما دعوك إليهم - وأميرهم عليهم قاهر لهم وعمّاله تجبي بلادهم - فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يغرّوك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وإن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك. فقال له الحسين: وإني أستخير الله وأنظر ما يكون))[٢].

وخرج ابن عباس من عنده والقلق يساوره، وظلمة المصير تأخذ عليه جوانب تفكيره، ولم يصبر كثيراً دون أن عاد إلى إمامه(عليه السلام)، وهو يقول: ((يا ابن عم إني أبصر ولا أصبر، إني أتخوّف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال. إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنّهم، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز،فإن كان أهل العراق يريدونك - كما زعموا -

---

(١) مروج الذهب ج٣: ٤.

(٢) جمهرة خطب العرب ج٢: ٣٤-٣٥.

فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم؛ فإن أبيت إلاّ أن تخرج فسر إلى اليمن، فإن بها حصوناً وشعاباً، وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة؛ فتكتب إلى الناس وترسل وتبثّ دعاتك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية)) فقال الإمام: ((يا ابن عم إني لأعلم أنك ناصح، وعليّ شفيق، ولكن مسلم بن عقيل كتب إليّ باجتماع أهل المصر على بيعتي ونصرتي، وقد أجمعت على المسير)) فقال صاحبنا: ((إنهم من جرّبت وجرّبت، وهم أصحاب أبيك وأخيك)) ثم استبدت به العاطفة فأضاف: ((وقتلتك مع أميرهم، فإن عصيتني وأبيت فلا تخرجن نساءك وولدك معك، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه))، فأجابه الإمام وهو مؤمن في أعماقه بما سينتهي إليه من مصير: ((لئن أقتل والله بمكان كذا أحبّ إليّ من أن أستحلّ بمكة))[1]. وكانت فترة صمت قطعها ابن عباس بلهجة أسف ((لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز، والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك)). ثم ثارت به عاطفته من جديد فقال: ((لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك الناس أطعتني لفعلت ذلك)). تقول الرواية: ((ثم خرج ابن عباس من عنده فمرّ بعبد الله بن الزبير فقال: قرّت عينك يا ابن الزبير ثم قال..

يا لك من قبّرة بمعمر ... خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقّري

---

(١) مروج الذهب ج٣: ٥.

هذا حسين يخرج إلى العراق ويخليك الحجاز))[(١)].

وفي رواية عن طاووس عنه أنه قال: ((استشارني الحسين بن علي في الخروج، فقلت: لولا أن يزري بي وبك الناس لشبثت يدي في رأسك فلم أتركك تذهب، فكان الذي ردّ عليّ أن قال: لئن أقتل في مكان كذا وكذا أحب إليّ من أن أقتل بمكة، قال: فكان هذا الذي سلّى نفسي عنه))[(٢)].

(٣)

ويبدو أن هذا الحديث ونظائره - مما لم يروه المؤرخون - كان كافياً لأن يشدّه إلى الأمر الواقع، فيقنعه بوجهة نظر الإمام الحسين(عليه السلام)، ويسلّي نفسه عن الإصرار على وجهة نظره هو، فالحسين(عليه السلام) لايمكن أن يبقى بمكة ما دام أعداؤه لايقيمون حرمةً للبيت، ولايهمّهم أن يتّخذوا منه قاعدة حربيّة، وليس من خلق أهل البيت(عليهم السلام) فضلاً عما تقتضيه أحكام دينهم التفريط بكرامته مهما كلف الحال، وصاحبنا هو الذي يقول: ((لو لقيت قاتل أبي في الحرم ما قتلته))[(٣)].

وقصة دسّ يزيد رجالاً وأمرهم أن يقتلوا حسيناً(عليه السلام) ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة، لم تعد خافيةً عليهم، وسيأتي تصريح ابن عباس فيها.. فخروجه إذاً من مكة أمر لامعدى عن واقعه، أما ذهابه إلى اليمن وهو رأيه الذي سبق أن عرضه على الإمام الحسين(عليه السلام) فما أحال أنه كان جادّاً فيه،

---

(١) جمهرة خطب العرب ج٢: ٣٦.

(٢) البداية والنهاية ج٨ : ١٥٩-١٦٠.

(٣) أنساب الأشراف ج٤ قسم٢: ٣٠.

وهو أعرف الناس بموقعها الإستراتيجي وبعدها عن المراكز الحساسة في البلاد الإسلامية، بالإضافة إلى ضعف إمكانياتها الاقتصاديـّة، وعـدم تكوّن بـذور الثورة لديهم؛ لعدم تعرّض أهلها لنقمة الأمويين وظلمهم مباشـرة، اللّهـم إلاّ ماكان منهم في حادثة بسر بن أرطاة وغارته عليهم، وقتلـه لولـدي عبيـد الله بن عباس واليهم مـن قبـل الإمـام علـي‌عليه السلام. وقـد كشـفوا في تلـك الحادثـة عن عدم قدرتهم على المقاومة، مع قلّة الجيش الغازي لهم.

فلو قدّر للإمام الحسين‌عليه السلام أن يستجيب لهذا الرأي، لكان مـن أيسـر الأمور حصر دعوته في هذا النطاق الضيق، وخنقها في مهدها. وهذا بخـلاف الكوفة، فإن جميع إمكانيات الثورة متوفرة فيها.. من إحساس بظلـم، وهـدر كرامة، إلى وفرة في العقيدة، إلى موقـع اسـتراتيجي حسـاس.. إلى غـير ذلـك من أسبابها، فاقتراح إبدالها باليمن لم يكن عن جد، وإلاّ لكان إصـراره عليـه كبيراً. وإنما انبعث عن حماسة في التنفير عـن الكوفـة، ذات المواقـف المعروفـة في سرعة تبـدّل عواطفهـا، وكأنـه يقـول: إذهـب إلى أي مكـان شـئت فهـو أجدى عليك من الذهاب إليها، على أن الحسين‌عليه السلام - وهو عـالم بمصـيره - كان يتخير أنسب البقـاع لشـهادته، وأجداهـا في إحـداث النقمـة في نفـوس الجماهير. وكلمته: ((لئن أقتل في مكان كـذا وكـذا أحـب إليّ مـن أن أقتـل بمكة)).. ربما تشير إلى ذلك.

وربما كان حمله العيال معه يعود في بعض عوامله إلى محاولـة الاسـتفادة من وجودها لتحسيس الرأي العام بالخطر المحدق بالإسلام ؛ وذلك بشـرحها لأسـباب الثـورة الـتي أدت بريحانـة رسـول الله(صلـى الله عليـه وآلـه وسـلم) إلى الشهادة، على أن الأمويين ما كانوا ليتركوها بمكة والإمام(عليـه السـلام)

خارج للثورة عليهم، وربما اتّخذوا من إلقاء القبض عليها وأسرها وسيلة من وسائل إقناع الإمام(عليه السلام).

وما أدري أشرح الإمام(عليه السلام) لصاحبنا كل ذلك وغير ذلك، مما تخفى جوانبه علينا، فسلّى نفسه عن الإصرار على آرائه السابقة، لا أبعّد ذلك، وطبيعة علاقتهما تقتضيه، وإن لم يعرض لذكره مؤرخوه.

والغريب أنّا لم نجد في قتلى الطف من أولاد عبد الله بن عباس أحداً، وربما لم يكن أولاده الذين يطيقون حمل السلاح معه بمكة يوم خروج الحسينعليه السلام ليبعث بهم مع سيدهم.

أما هو فحسبه من شيخوخته وعماه معذر عن الخروج معه، هذا بالإضافة إلى ما ربما تقتضيه ضرورة بقائه بمكة؛ للتبشير بمبادئ الحسينعليه السلام، ولحفظ كيان الأسرة بعده لو قدّر لإمامهم(عليه السلام) أن يتنصر بنهضته. وهذا وحده كافٍ - فيما أخال - عن الاعتذار بمثل ما نُسب إليه من دفاع عن نفسه، وقد عوتب - فيما يقال - على عدم الخروج معه، فقال: ((إن أصحاب الحسينعليه السلام لم ينقصوا رجلاًولايزيدوا رجلاً نعرفهم بأسمائهم من قبل شهادتهم))كماحدّثوا عنه في روايات مرسلةلانعرف مدىصحتها[1].

(٤)

وأثّر عليه خروج الحسينعليه السلام - وانتظار المصير الذي يعتقده - أثراً لا يكاد يمحى عن ذاكرته، وربما عاوده طيفه مرات عديدة فأقضّ

(١) أنظر كتاب محمد بن الحنفية _ مطبعة سبهر، سنة الطبع ١٣٦٨هـ _ :٦٦

عليه مضجعه، ومن ذلك ما حدّث به زيد بن جدعان: ((قال: استيقظ ابن عباس من نومه فاسترجع وقال: قتل الحسين والله، فقال له أصحابه: لِمَ يا ابن عباس؟ فقال: رأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ومعه زجاجة من دم، فقال: أتعلم ما صنعت أمتي من بعدي، قتلوا الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعهما إلى الله))[1]. وفي رواية عمار بن أبي عمار عنه: ((قال: رأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في المنام نصف النهار أشعث أغبر، معه قارورة فيها دم، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم، قال عمار: فأحصينا ذلك اليوم فوجدناه قد قتل في ذلك اليوم))[2]، وفي الرواية السابقة: ((فكتب ذلك اليوم الذي قال فيه،وتلك الساعة، فما لبثوا إلاّ أربعة وعشرين يوماً حتى جاءهم الخبر بالمدينة، أنه قتل في ذلك اليوم وتلك الساعة)).

وهذا المضمون مأثور عنه في سند قوي، وقد قوّى ابن كثير سند رواية عمار بن أبي عمار[3]، وهو طبيعي لمثله، وقد عرفنا مدى تشاؤمه من هذه الرحلة في حديثه السابق مع الحسين(عليه السلام)، ولابد أن هذا التشاؤم كان قد بلغ مبلغاً ملأ عليه آفاق لاشعوره، فليس من الغريب إذاً - وقد سبق لنا أن رأينا مدى علقته بالإمام الحسين(عليه السلام) سيّد قومه، والبقيّة الباقية التي يرجو أن يعاد على يدها مجد النبوة والخلافة - أن يشغله حديثه في نومه ويقظته، وأن يتمثل تشاؤمه أمامه بمثل هذه الرؤيا،وإنما الذي يبدو غريباً أن تصدق إلى هذا الحد.

---

(١) البداية والنهاية ج٨: ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر المصدر السابق.

وإذا صحّ ما حدّثنا بعض علماء النفس عن وجود أمثال هذه الرؤيا الصادقة، والتماسهم لها تعليلاً يبعّدها عن الصدفة[١]، فليس ثمّة ما يدعو إلى مناقشتها والتشكيك بصدورها بحال.

ولك بعد أن تحدّث عن مدى استيائه عما ساوره من انفعالات حين اكتشف صدق رؤياه، عندما استقبلوا تفاصيل الحادثة بما رافقتها من فضائع تكشّف فيها لؤم الأمويين على أبشع صوره من قتل، ونهب، وسلب، وسبي[٢]، وبخاصة حين اجتمع بالأسرى عند عودتهم من الشام، وحدّثوه عن تفاصيل ما جرى عليهم من مفارقات، وكان علي بن الحسين عليه السلام - وهو البقيّة الباقية من هذا البيت - يزوره، فيستقبله بقوله: ((مرحباً بالحبيب ابن الحبيب))[٣]، وبالطبع ما كان يدور بينهما الحديث - في غالب أمره - إلاّ عن فظائع هذه الحادثة.

ومن غريب مفارقات يزيد ووقاحته، أن يبلغ به الصلف حداً يسوّغ له أن يتناسى كل ما فعله مع آل البيت، ويكتب إلى ابن عباس وقد بلغه امتناعه عن بيعة ابن الزبير، شاكراً له وممنياً وطالباً أن يعلن حسن رأيه فيه، يقول اليعقوبي: ((وأخذ ابن الزبير عبد الله بن عباس بالبيعة له فامتنع عليه، فبلغ يزيد بن معاوية أن عبد الله بن عباس قد امتنع على ابن الزبير فسرّه ذلك، وكتب إلى ابن عباس: أما بعد فقد بلغني أن الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته

---

(١) أنظر خوارق اللاشعور لعلي الوردي ـ لم تذكر المطبعة ولا سنة الطبع ـ : ١١٩ وما بعدها.

(٢) أنظر تأريخ الطبري ج٦: ٢٦٠-٢٦٢.

(٣) طبقات ابن سعد ج٥: ١٥٧.

وعرض عليك الدخول في طاعته ؛ لتكون على الباطل ظهيراً وفي المأثم شريكاً، وإنك امتنعت عليه واعتصمت ببيعتنا، وفاءً منك لنا وطاعةً لله فيما عرّفك من حقنا، فجزاك الله عن ذي رحم بأحسن ما يجزي به الواصلين لأرحامهم، فإني ما أنس من الأشياء فلست بناس برّك، وحسن جزائك، وتعجيل صلتك بالذي أنت مني أهله في الشرف والطاعة والقرابة برسول الله. فانظر رحمك الله فيمن قِبَلك من قومك ومن يطرأ عليك من الآفاق ممن يسحره الملحد بلسانه وزخرف قوله، فأعلمهم حسن رأيك في طاعتي والتمسك ببيعتي، فإنهم لك أطوع ومنك أسمع منهم للمُحلّ الملحد والسلام))[1].

وثارت ثائرته عند تسلّم هذا الكتاب، واستفظع ما جاء فيه من مفارقات، فامتناعه عن البيعة لابن الزبير لم يكن مجاملةً ووفاءً ليزيد، وأين موضع ذلك وهذه الفضائع التي ارتكبها بأهل بيته لاتبقي موضعاً لأي مجاملة؟! بالإضافة إلى استهتاره في شؤون الدين، ثم هذه المساومة الدنيئة على مبدئه بتعجيل عطائه - وكأنه ليس حقاً من حقوقه، أو هو دون حقه في كتاب الله - ما قيمتها في رأيه بعدما هدر من كرامة أهل البيت (عليهم السلام) ما هدر؟! وما أدري كيف يرجو له أن يعلن حسن رأيه فيه؟! وهو بعض ثأره لو تسنّى له أن يدرك منه ذلك الثأر. ومثل دم الحسين عليه السلام لا يمكن أن يسكت عليه.

وكان جوابه ثورة صاخبة تتزاحم فيها شتّى الانفعالات، وتلتقي بها عواطف كل حاقد على الأمويين لهذه الفظائع المستنكرة، وكأنه يعبّر

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج٢: ٢٢٠-٢٢٣.

عن لسان كلٍّ منهم فيما كتب.. ((من عبد الله بن عباس إلى يزيد بن معاوية.. أما بعد فقد بلغني كتابك بذكر دعاء ابن الزبير إيّاي إلى نفسه، وامتناعي عليه في الذي دعاني إليه من بيعته، فإن يك ذلك كما بلغك فلست حمدك أردت ولا ودّك، ولكن الله بالذي أنوي عليم.

وزعمت أنك لست بناس ودّي، ولعمري ما تأتينا مما في يدك من حقنا إلاّ القليل، وإنك لتحبس عنا منه العريض الطويل.

وسألتني أن أحثّ الناس عليك وأخذّلهم عن ابن الزبير، فلا ولا سروراً ولاحبوراً، وأنت قتلت الحسين بن علي، بفيك الكثكث، ولك الأثلب، إنك إن تمنّيك نفسك ذلك لعازب الرأي، وإنك لأنت المفنّد المهوّر.

لا تحسبني - لا أباً لك - نسيت قتلك حسيناً وفتيان بني عبد المطلب.. مصابيح الدجى ونجوم الأعلام، غادرهم جنودك مصرّعين في الصعيد مرمّلين بالتراب مسلوبين بالعراء، لا مكفّنين، تسفي عليهم الرياح، وتعاورهم الذئاب، وتنتابهم عرج الضباع، حتى أتاح الله لهم أقواماً لم يشتركوا في دمائهم فأجنوهم في أكفانهم.

وبي والله وبهم عززت وجلست بمجلسك الذي جلست يا يزيد.

وما أنسى من الأشياء فلست بناس تسليطك عليهم الدعي العاهر ابن العاهر البعيد رحماً، اللئيم أباً وأماً، وأمّا الذي في ادّعاء أبيك إيّاه.. ما اكتسب أبوك به إلاّ العار والخزي والمذلّة في الآخرة والأولى، وفي الممات والمحيا. إن نبي الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: الولد للفراش وللعاهر الحجر، فألحقه بأبيه كما يلحق بالعفيف النقي ولده الرشيد. وقد أمات أبوك السنّة جهلاً وأحيا البدع والأحداث المضلّة عمداً.

وما أنس من الأشياء فلست بناسٍ اطرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى حرم الله، ودسّك إليه الرجال تغتاله، فأشخصته من حرم الله إلى الكوفة، فخرج منها خائفاً يترقب، وقد كان أعزّ أهل البطحاء بالبطحاء قديماً، وأعزّ أهلها بها حديثاً، وأطوع أهل الحرمين بالحرمين.. لو تبوّأ بها مقاماً واستحلّ بها قتالاً. ولكن كره أن يكون هو الذي يستحلّ حرمة البيت وحرمة رسول الله(صلى الله عليه وآله سلم)، فأكبر من ذلك ما لم تكبر، حيث دسست إليه الرجال فيها ليقاتل في الحرم، وما لم يكبر ابن الزبير حيث ألحد بالبيت الحرام وعرّضه - كذا - وأنت لأنت المستحلّ فيما أظن، بل لا أشكّ فيه إنك للمحرق العريف، فإنك حلف نسوة، صاحب ملاهي. فلما رأى سوء رأيك شخص إلى العراق، و لم يبتغك ضراباً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ثم أنك الكاتب إلى ابن مرجانة أن يستقبل حسيناً بالرجال، وأمرته بمعاجلته، وترك مطاولته، والإلحاح عليه حتى يقتله ومن معه من بني عبد المطلب.. أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. فنحن أولئك لسنا كآبائك الأجلاف الجفاة الأكباد الحمير.

ثم طلب الحسين بن علي إليه الموادعة، وسألهم الرجعة، فاغتنمتم قلّة أنصاره، واستئصال أهل بيته، فعدوتم عليهم فقتّلتموهم، كأنكم قتلتم أهل البيت من الشرك والكفر.

فلا شيء عندي أعجب من طلبك ودّي ونصري وقد قتلت بني أبي، وسيفك يقطر من دمي، وأنت أحد ثأري، فإن يشأ الله لا يطل لديك دمي، ولا تسبقني بثأري، وإن سبقتني به في الدنيا فقبلنا ما قتل النبيون وآل النبيين،

وكان الله الموعد وكفى به للمظلومين ناصراً، ومن الظالمين منتقماً، فلا يعجبنك أن ظفرت بنا اليوم؛ فوالله لنظفرن بك يوماً.

فأما ما ذكرت من وفائي، وما زعمت من حقي فإن يك ذلك كذلك، فقد والله بايعت أباك وإني لأعلم أن بني عمي وجميع بني أبي أحق بهذا الأمر من أبيك)).

ثم هاجت نفسه على ذكر حقهم، وبرزت آثار عقدته النفسية الناشئة عن موقف يوم الخميس السابق فقال: ((ولكنكم معاشر قريش كاثرتمونا فاستأثرتم علينا سلطاننا، ودفعتمونا عن حقنا، فبعداً على من اجترأ على ظلمنا واستغوى السفهاء علينا، وتولى الأمر دوننا، فبعداً لهم كما بعدت ثمود، وقوم لوط وأصحاب مَديَن، ومكذبو المرسلين)).

ثم تذكّر قصة أسرى الطف وما رافقتها من أحداث، فقال والحسرة تأكل قلبه: ((ألا ومن أعجب الأعاجيب - وما عشت أراك الدهر العجيب - حملك بنات عبد المطلب وغلمة صغاراً من ولده إليك بالشام كالسبي المجلوب، تري الناس أنك قهرتنا، وأنك تأمّرت علينا، ولعمري لئن كنت تصبح وتمسي آمناً لجرح يدي، إني لأرجو أن يعظم جراحك بلساني ونقضي وإبرامي، فلا يستغر بك الجذل ولا يمهلك الله بعد قتلك عترة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلاّ قليلاً، حتى يأخذك أخذاً أليماً، فيخرجك الله من الدنيا ذميماً أثيماً، فعش - لا أباً لك - فقد والله أرداك عند الله ما اقترفت، والسلام على من أطاع الله))[(١)].

---

(١) تأريخ اليعقوبي ج٢: ٢٢٠-٢٢٣. وانظر أنساب الأشراف ج٤ قسم٢: ١٩. وانظر تذكرة الخواص: ٢٨٦-٢٨٧.

فهو - كما ترون - يجيب على كل فقرة فقرة من الكتاب بهـذه اللغـة المتحدية الصارخة، وهو يعلم جيداً مدى ما يتركه هذا الكلام في نفـس يزيـد من آثار، وكأنما آثر صاحبنا أن يُستشهد على يد هذا الطاغية ليلتحق بالإمام الحسينعليه السلام ، وإلاّ فمثل يزيد الذي أحاله سوء التربية إلى قطعـة مـن غـرور، بالإضافـة إلى مـا كسبه مـن نصر بالقضـاء علـى ألـدّ خصومـه لا يمكـن أن يسكت على مثل هذا التهديد والتحدي.

والكتاب في واقعه يصور مدى تأثير الحادثة على نفسـه، بما كـرر مـن ذكرها فيه، وبخاصة عندما يصل إلى قصة السبي ((ألا ومن أعجب الأعاجيب - وما عشت أراك الدهر العجيب - حملك بنات عبد المطلب.. الخ)).

ولقدحدّث الواقدي عن تأثيرهذا الكتاب علىنفس يزيدبقوله:((فلما قرأ يزيدكتابه أخذته العزّة بالإثم وهمّ بقتل ابن عباس،فشغله عنه ابن الزبير))[(١)].

والذي يبدو أنه لم يرد أن يقتلـه بهـذا الكتـاب، وإنما أراد أن يتـذرع أمام أهل الشام - ومقام ابـن عبـاس لديهـم معـروف - بالذريعـة الـتي كـانوا يلجؤون إليها، كلما ضاق ضائقهم بأحد الصحابة فكتب إليه ((كتاباً يـأمره فيه بالخروج إلى الوليد بن عتبة ومبايعته له، وينسبه إلى قتل عثمـان والممـالاة عليه)). يقـول الـراوي: ((فكتـب ابـن عبـاس إليـه أيضـاً كتابـاً يقـول فيـه.. إني كنت بمعزل عن عثمان، ولكن أباك تربّص به وأبطأ عنه بنصره، وحبـس من قِبَله عنه حين اسـتصرخه واستغاث بـه، ثـم بعـث الرجـال إليـه معـذراً، حين علم أنهم لا يدركونه حتى يهلك))[(٢)].

---

(١) تذكرة الخواص: ٢٨٧.

(٢) أنساب الأشراف ج٤ قسم٢: ١٩.

فهو هنا مع احتفاظه بدفع التهمة عن نفسه ؛ ليقرّر واقعاً ؛ وليقطع على خصمه - الذي حاول أن يستفيد من غضبه، بما يجري على لسانه من كلام - طريق الاستفادة منه، حمّل أباه مسؤولية قتل عثمان بنفس اللّهجة المتعالية، وأحال أن الظروف خدمته بإشغال يزيد عنه في ابن الزبير، وإلاّ لما انتهى أمره إلى غير ما انتهى إليه أمر الحسينعليه السلام.

(٥)

ويبدو أن هذه الحادثة - بما أعطته من روح الاستهانة بالحياة والتحدي لخصومه - أيقظت فيه روح النشاط والعمل السياسي، بعد فترة من الاستجمام، تعقبت ابتلاءه بآفته، ورأينا آثارها فيما سلف من حديث، وربما أنسته حكمته القائلة: ((يا لسان قل خيراً تغنم، واسكت عن شرٍ تسلم، فإنك إن لا تفعل تندم))[(١)]، والتي كانت فيما يبدو من وحي اليأس .

وكان من أمثلة نشاطه مباركته لقسم من الحركات الانتفاضية التي وقعت إذ ذاك، وشجبه لقسم آخر منها، وكانت هذه الفترة - التي وقعت بين قتل الحسينعليه السلام ووفاته هو - مليئة بالقلق والانتفاضات، وكأن ثورة الحسينعليه السلام كانت بمنزلة الصمام لفوهة بركان ثائر، فلما رفع ذلك الصمام بقتله انطلق البركان يرسل قذائفه هنا وهناك.. فكانت ثورة بالمدينة، وأخرى بمكة، وثالثة بالكوفة. وحديث الحسينعليه السلام وإباؤه، وفظائع ما ارتكبه الأمويون معه، بمنزلة الوقود لهذه الثورات جميعاً، وفي حدود ما يرتبط ببحثنا سنعرض لبعض هذه الثورات بشيء من الكلام.

---

(١) البداية والنهاية ج٨: ٣٠٤.

وأول هذه الثورات وأهمها بالنسبة إليه ثورة ابن الزبير. وكانت بدايتها بعد مقتل الحسين(عليه السلام)، حين خطب الناس على أثر مجيء خبر شهادته إلى مكة، فعرّض بفظائع ما ارتكبه الأمويون وأهل الكوفة مع الإمام (عليه السلام) وعرض لمنكرات يزيد في خطبة طويلة، قام على أثرها أصحابه وقالوا له: ((أظهر بيعتك، فإنك لم يبق أحد إذ هلك الحسين ينازعك هذا الأمر، وقد كان يبايع سراً ويظهر أنه عائذ بالبيت))[1]. ثم أعلن بعد ذلك تمرده ودعا إلى بيعته.

وكان من طريف مفارقاته أن يدعو ابن عباس إلى البيعة فيمن يدعوهم، وكان امتناعه عن الإجابة طبيعياً، إذا عرفنا رأيه في ابن الزبير، والفجوات التي كانت بينهما منذ نشأته، وبخاصة بعد موقفه من الإمام علي(عليه السلام) في وقعة الجمل، والتلاعب بعواطف أم المؤمنين عائشة، وإفساده لقلب أبيه وشقّه على الإمام(عليه السلام) حتى قال الإمام (عليه السلام) فيه: ((ما زال الزبير يعدّ منّا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله))[2].. إلى ما هنالك مما سبق أن عرضنا لبعض أطرافه في أحاديث سابقة. وقد سبق لصاحبنا أن أشار إلى مجمل رأيه فيه في كتابه الأسبق إلى يزيد ((فأما ابن الزبير فرجل منقطع عنا برأيه وهواه، يكاتمنا مع ذلك أضغاناً يسرّها في صدره، يوري بها علينا وري الزناد،لا فكّ الله أسيرها، فاراً في أمره ما أنت راء..)) كما سبق لصاحبنا أن أفصح عن رأيه حين صادفه بعد خروجه من الحسين(عليه السلام) وهو يائس من تأخيره في مكة بإنشاده ..

---

(١) تأريخ ابن الأثير ج٤: ٥١.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٤: ٤٨٠.

يـا لـك مـن قبّرة بمعمـر خلا لك الجو فبيضي واصفري

وقوله حانقاً: ((هذا حسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز)).

وقد روى الجاحظ طرفاً من هذه القصة عـن الشعبي، وأتمـّها بحديث دار بينهما على أثر ذلـك، نذكـره - وإن كنـا لا نعـرف مـداه مـن الصحـة، وربما كان له جذور تقتضيها طبيعة الواقعة - .

قال: فغضـب ابـن الزبـير وقـال: ((والله إنـك لـترى أنـك أحـق بهـذا من غيرك، فقال ابن عباس: إنما يرى من كان في حال شك، وأنـا مـن ذلـك على يقين، قال: وبأي شيء تحقّق عنـدك أنـك أحـق بهـذا الأمـر مـني، قـال ابن عباس: لأنا أحق بمن يُدلّ بحقه، وبأي شيء تحقق عنـدك أنـك أحـق بهـا من سائر العرب إلاّ بنا، فقال ابن الزبير: تحقق عنـدي أنـي أحـق بهـا منكـم لشرفي عليكم قديماً وحديثاً، فقال: أنـت أشـرف أم مـن شـرُفت بـه، فقـال: إن من شرُفت به زادنـي قـد كـان لي قديمـاً وحديثـاً شـرفاً إلى شـرفي، قـال: أفمنّي الزيادة أم منك، قال: بل منك. فتبسم ابن عباس، فقال : يا ابن عباس دعني من لسانك هذا الذي تقلّبه كيف شئت، والله لاتحبوننـا يـا بـني هاشـم أبداً، قال ابـن عِبـاس: صدقـت نحـن أهـل بيـت مـع الله عـز وجـل لا نحـبّ من أبغضه الله، فقـال: يـا ابـن عبـاس أمـا ينبغـي لـك أن تصفـح عـن كلمـة واحدة، فقال: إنما يصفح عمن أقرّ، وأما من هرّ فلا، والفضل لأهل الفضل.

قـال ابـن الزبـير: فـأين الفضـل، قـال: عندنـا أهـل البيـت لا تصرفـه عـن أهلـه فتظلـم، ولا تضعـه في غـير أهلـه فتنـدم، قـال ابـن الزبـير: أفلسـت مـن أهلـه قـال: بلـى إن نبـذت الحسـد

ولزمت الجدد..))[(١)].

وما أخال أن التكلّف يخفى في مثل هذا الكلام وبخاصة في حواره الأخير.

ومما يشير إلى جذور مابينهما من خلاف، محاورة جرت بينهما بمحضر مروان بن الحكم أيام ولايته على المدينة، يقول المحدّث: ((وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سريره،فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك. فأذن مروان يوماً للناس وإذا سرير آخر قد أحدث تجاه سرير مروان،فأقبل ابن عباس فجلس على سريره،وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المحدث)). ثم تكلم ابن الزبير وكأنه يعرّض بصاحبنا، ويوغر قلب مروان عليه: ((إن أناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وفلتة ومغالبة، إلاّ أن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا، ويزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم، والله ما كان من أصحاب النبي أحد أثبت إيماناً ولا أعظم سابقة من أبي بكر، فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله، فأين هم حين عقد أبو بكر لعمر، فلم يكن إلاّ ما قال، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ، وجدّهم في جدود، فقسّمت تلك الحظوظ، فأخّر الله سهمهم، وأدحض جدّهم، وولّى الأمر عليهم من كان أحق به منهم، فخرجوا عليه خروج اللصوص على التاجر خارجاً من القرية، فأصابوا منه غرّة، فقتلوه ثم قتلهم الله به كل قتلة، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب)).

---

(١) المحاسن والمساوئ ج١: ٦٦، وانظر المحاسن والأضداد _ مطبعة السعادة، مصر، ط١، سنة الطبع ١٣٢٤هـ _ : ٩٩.

ويبدو أن قسماً من الرواسب كان منشؤها بينهما يعود إلى علاقة ابن الزبير بأبي بكر من جهة أمّه أسماء بنت أبي بكر.

ومعروف رأي أهل البيت(عليهم السلام) في خلافة أبي بكر والنزاع الذي حدث بينهما،وعهدنا - بيوم الخميس وملابساته وموقف صاحبنا منه - غير بعيد، وهذا الدس الرخيص والتعريض به أمام مروان لم يقم له صاحبنا أيّ وزن، وأجاب بلباقته المعهودة على كل فقرة فقرة، قال المحدّث: ((فقال ابن عباس: على رسلك أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً إلاّ وصاحبنا خير مما نالا، وما أنكرنا تقدّم من تقدّم لعيب عبناه عليه، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل)).

فالمسألة إذاً مسألة عقيدة لا مسألة التماس للعيوب، ثم استدرك وكأنه خشي أن يحمل كلامه على التخاذل فاشتدّ قائلاً: ((ولولا أنك إنما تذكر حظ غيرك وشرف امرئ سواك لكلّمتك، ولكن ما أنت وما لا حظّ لك فيه، اقتصر على حظك ودع تيماً لتيم، وعَديّاً لعَدي، وأمية لأمية، ولو كلّمني تيمي أو عدوي أو أموي، لكلّمته وأخبرته خبر حاضر عن حاضر، لا خبر غائب عن غائب)).

فابن عباس لم يتبنّ فكرة الخلافة ومؤاخذة السابقين إلاّ لأنه شهد بعينه خبرها، وجملة من ملابساتها، وتابعها بوعي - كما سبق أن ذكرنا - على الرغم من صغر سنّه إذ ذاك، فخبره في ذلك خبر حاضر لا غائب، ثم استدرك وهو يسجل على صاحبه مفارقة غريبة: ((ولكن ما أنت وما ليس عليك، فإن يكن في أسد بن العزى شيء فهو لك، أما والله لنحن أقرب

بك عهداً، وأبيض بك يداً، وأوفر عندك نعمة ممن أمسيت تظن أنك تصول به علينا، وما أخلق ثوب صفية بعد، والله المستعان على ما تصفون))[١].

وما لنا نطيل وصريح قول ابن الزبير له: ((إني لأسرّ بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة))[٢].

---

(١) جمهرة خطب العرب ج٢: ١٠٩.

(٢) مروج الذهب ج٣: ٢٦.

مع عبد الله بن الزبير

(١)

وكانت وقعة الحرّة بما رافقها من فظائع، ثم كان من أمر ابن الزبير مع جيش يزيد ما كان، وكان ابن عباس في أثناء ذلك ينهى عن مساعدة الطرفين، ويدعو الناس إلى الهروب منهما. ومن أقواله في ذلك: ((إن هذا الأمر بدأ بنبوة ورحمة وخلافة، وإنه اليوم ملك عقيم، فمن سمع مقالتي فليهرب من بني أمية وآل الزبير، فإنهم يدعون إلى النار))(١).

وكان من حديثه مع أبي حمزة حين استفتاه في المقاتلة مع ابن الزبير أن نهاه عن ذلك، يقول أبو حمزة: ((قلت لابن عباس: إني بايعت ابن الزبير فأعطاني وحملني على فرس أفأقاتل معه؟))، يقول: ((قال: لا تقاتل معه، وردّ عليه ما أعطاك، واشتر بغلاً أو بغلين وغلاماً، واغز المشركين، فإن قتلت على ذلك كنت شهيداً إن شاء الله تعالى)). فقال أبو حمزة: ((فرددت على ابن الزبير ما أخذت منه))(٢).

وحين تغلّب ابن الزبير بعد موت يزيد، كان من همّه أن يبايع له صاحبنا، وابن الحنفية، يقول المحدّث: ((فلما جاء نعي يزيد بن معاوية وبايع ابن الزبير لنفسه ودعا الناس إليه، دعا ابن عباس ومحمد بن الحنفية إلى البيعة

---

(١) أنساب الأشراف ج٥: ١٩٥-١٩٦.

(٢) المصدر السابق ج٥: ١٩٦.

له، فأبيا يبايعان له وقالا: حتى يجتمع لك البلاد، ويتّسق لـك النـاس، فأقامـا على ذلـك مـا أقامـا، فمـرّة يكاشرهما، ومـرّة يلـين لهمـا، ومـرّة يباديهمـا، ثم غلظ عليهما فوقع بينهم كلام وشر))(١) .

وقد امتنع على أثر ذلك عن ذكـر النبي(صلـى الله عليـه وآلـه وسـلم) في خطبـه حتـى في خطبـة الجمعـة، وقـد عوتـب علـى ذلـك فقـال: ((والله ما تركت ذلك علانية إلاّ وأنا أقوله سراً وأكثر منه، لكني رأيـت بـني هاشـم إذا سمعوا ذكره اشرأبوا وأحمرّت ألوانهم وطالت رقابهم، والله ما كنت لآتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه))، ثم استبدّت به عاطفته فقال:((بيت سوء لا أوّل لهم ولا آخر، والله ما ترك فيهم نبي الله خيراً، استفرغ نـبي الله صدقهـم فهـم أكذب الناس)) يقول الـراوي:((فقـام إليـه محمـد بـن سـعد بـن أبـي وقـاص - وكان بغض بني هاشم متركّزاً في أعمـاق هـذا البيـت - فقـال: وفّقـك الله يا أمير المؤمنين أنا أول من أعانك في أمرهم. فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال: والله مـا قلـت صوابـاً ولاهممـت برشـد، أرهـط رسـول الله تعيب! وإيـاهم تقتـل! والعـرب حولـك، والله لـو قتلـت عدّتهـم أهـل بيـت من الترك مسلمين ما سوّغه الله لك، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره، فقال: اجلس أبا صفوان، فلست بنا موس))(٢) .

ويبلغ ابن عباس هذا الحديث فيسوؤه أن يبلغ الحقد بهذا الرجـل هـذا المبلغ، حتى يعبّر عن آل الرسول بأنهم لا أول لهـم ولا آخـر ويخـرج مغضبـاً مع ابنه حتـى يـأتي المسـجد، فيصعـد المنبر فيحمـد الله ويثـني عليـه ويصلـي

(١) طبقات ابن سعد ج٥ قسم١: ٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٤: ٤٨٩ .

على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم يقول والحمم يخرج من فمه: ((أيها الناس إن ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ولا آخر، فيا عجباً كل العجب لافترائه وتكذّبه، والله إن أول من أخذ الإيلاف، وحمى عيرات قريش لهاشم، وإن أول من سقى بمكة عذباً، وجعل باب الكعبة ذهباً لعبد المطلب، والله لقد نشأت ناشئتنا مع ناشئة قريش، وإن كنا لقالتهم إذا قالوا، وخطباءهم إذا خطبوا، وما عدّ مجد كمجد أولنا، ولا كان في قريش مجد لغيرنا؛ لأنها في كفر ماحق ودين فاسق، وضلة وضلالة في عشواء عمياء، حتى اختار الله تعالى لها نوراً وبعث لها سراجاً، فانتجبه طيّباً من طيّبين، لا يسبّ بمسبّة ولا يبغي عليه غائلة، فكان أحدنا وولدنا وعمنا وابن عمنا، ثم إن أسبق السابقين إليه منا وابن عمنا، ثم تلاه في السبق أهلنا ولحمتنا واحداً بعد واحد، ثم إن لخير الناس بعده أكرمهم أدباً وأشرفهم حسباً وأقربهم منه رحماً. وعجباً كل العجب لابن الزبير.. يعيب بني هاشم، وإنما شرف هو وأبوه وجده بمصاهرتهم، أما والله إنه لمسلوب قريش، ومتى كان العوّام بن خويلد يطمع في صفية بنت عبد المطلب؟!.. قيل للبغل: من أبوك يا بغل فقال: خالي الفرس))(١).. وقد وردت جملة: ((أما والله إنه لمسلوب قريش)) مقحمة، وما أدري من أين جاءت؟! وربما كان لجانبها الغيبي أثر في هذا الإقحام.

وكان أكثر حقده - فيما يبدو - موجهاً إلى صاحبنا؛ لعلمه بمدى ما يحسنه ابن عباس من تقييمه، ومن جرأة صاحبنا عليه، واجتماع الطبقة المثقفة حوله، فكان لذلك لا يفتأ يحاول من تهوين شأنه بانتقاصه،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤: ٤٨٩، وانظر جمهرة خطب العرب ج٢: ١١٢-١١٣.

لكن ابن عباس كان أقدر منه على الدفاع عن نفسه، وأسلط لساناً في رد الهجوم بهجوم مماثل، ومن ذلك ما أثر عنه أنه خطب الناس بمكة، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر، فقال: ((إن ههنا رجلاً قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره، يزعم أن متعة النساء حلال من الله ورسوله، ويفتي في القملة والنملة، وقد احتمل بيت مال البصرة بالأمس، وترك المسلمين يرتضخون النوى، وكيف ألومه في ذلك وقد قاتل أم المؤمنين وحواري رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ومن وقاه بيده)) يقول الراوي: ((فقال ابن عباس لقائده سعد بن جبير بن هاشم مولى بني أسد بن خزيمة - وكان ابن عباس قد كفّ بصره -: استقبل بي وجه ابن الزبير، وارفع من صدري، فاستقبل قائده وجه ابن الزبير وأقام قامته، فحسّر عن ذراعيه، ثم قال: ((يا ابن الزبير ..

قد أنصف القارّة مَن راماها إنّا إذن ما فئة نلقاها

نردّ أولاها على أخراها حتى تصير حرضاً دعواها

يا ابن الزبير أما العمى فإن الله تعالى يقول: ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾[1]، وأما فتياي في القملة والنملة فإن فيها حُكمين لا تعلمهما أنت ولا أصحابك، وأما حملي المال فإنه كان مالاً جبيناه فأعطينا كل ذي حق حقه، وبقيت بقية هي دون حقنا في كتاب الله فأخذناها بحقنا)).

وقد سبق أن تحدثنا عن قصة بيت المال وانتهينا إلى ما انتهى إليه في هذا الحديث. وكانت هذا القصة بواقعها لا تستدعي أن تذكر لولا تشبّث

---

(١) الحج:٤٦.

خصومه بأقلّ ما يشتبه بالهنات، وكان جوابه هنا كافياً لأن يقطع على خصمه طريق الاستفادة منها بالتشنيع.

وكان جوابه عن المتعة طريفاً جداً حين قال: ((وأما المتعة فسل أمك أسماء إذ نزلت عن بردي عوسجة)).

ثم جاء حديثه عن أم المؤمنين: ((وأما قتالنا أم المؤمنين فبنا سمّيت أم المؤمنين لا بك وبأبيك، فانطلق أبوك وخالك إلى حجاب مدّه الله عليها، فهتكاه عنها، ثم اتخذاها فتنة يقاتلون دونها، وصانا حلائلهما في بيوتهما، فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أن أبرزا زوجة نبيه وصانا حلائلهما.

وأما قتالنا إياكم فإنا لقيناكم زحفاً، فإن كنا كفاراً فقد كفرتم بفراركم منّا وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا، وأيم الله لولا مكان صفية فيكم ومكان خديجة فينا؛ لما تركتُ لبني أسد بن عبد العزى عظماً إلاّ كسرته)).

ومن الطريف أن يعود ابن الزبير بعد هذه المحاورة الطريفة إلى أمه ليسألها عن بردي عوسجة، وما ندري بماذا أجابته عنها، فلم يذكر المؤرخون ذلك، وإن ذكروا تأنيبها له بقولها: ((ألم أنهك عن ابن عباس وعن بني هاشم فإنهم كُعم الجواب إذا بدهوا، فقال: بلى وعصيتك، فقالت: يا بني احذر هذا الأعمى الذي ما أطاقته الإنس والجن، واعلم أن عنده فضائح قريش ومخازيها بأسرها، فإياك وإياه آخر الدهر))[١]. وقد رويت في العقد الفريد[٢] على غير هذا الوجه وإن قاربته مضموناً، وليس المهم تحققها،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤: ٤٩٠.

(٢) أنظر العقد الفريد ج٢: ٢٣٥ .

وربما كان النقل في إحداهما بالمعنى، وكذا في مروج الذهب[(١)] وليس فيها حديث بيت المال، وألحقها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة أبياتاً لأيمن بن خزيم بن فاتك الأسدي في ذكر الواقعة يقول..

((يا ابن الزبير لقد لاقيت بائقة — من البوائق فالطف لطف محتالِ
لاقيته هاشمياً طاب منبته — في مغرسيه كريم العم والخالِ
مازال يقرع عنك العظم مقتدراً — على الجواب بصوت مسمع عالِ
حتى رأيتك مثل الكلب منجحراً — خلف الغبيط وكنت البازح العالي
إن ابن عباسٍ المعروف حكمته — خير الأنام له حال من الحالِ
عيّرته المتعة المتبوع سنّتها — وبالقتال وقد عيّرت بالمالِ
لما رماك على رسلٍ بأسهمه — جرت عليك كسوف الحال والبالِ
فاحتزّ مقولك الأعلى بشفرته — حزاً وحيّاً بلا قيلٍ ولا قالِ
واعلم بأنك إن عاودت غيبته — عادت عليك مخاز ذات أذيالِ))[(٢)]

وفي كتب الأدب تروى له معه مناظرات في مجال الفخر، يقرب بعضها في مضامينه من حكايات الأساطير، وأثر الصنعة بارز في أكثرها، فلا نثقل عليكم بنقلها في هذا الحديث.

(٢)

واشتد ابن الزبير على بني هاشم، وعلى صاحبنا ومحمد بن الحنفية على الأخص، وكان يضايقه منه اجتماع كثير من الناس عليه، يطلبون

---

(١) أنظر مروج الذهب ج٣:٢٧ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج٤:٤٩٠ .

ما لديه من معارف وعلوم وانصرافهم عنه، وربما سمع من بعض من يشفقون عليه، ما يسوؤه لذلك، ومن ذلك حديث عبد الله بن صفوان بن أمية وقد ((مر يوماً بدار عبد الله بن عباس بمكة، فرأى فيها جماعة من طالبي الفقه، ومر بدار عبيد الله بن عباس فرأى فيها جماعة يتنابونها للطعام، فدخل على ابن الزبير فقال له: أصبحت والله كما قال الشاعر ..

فأن تصبك من الأيام قارعة   لم نبك منك على دنيا ولا دين

يقول المحدّث: ((فقال له: وما ذاك يا أعرج قال: هذان ابنا عباس أحدهما يفقّه الناس والآخر يطعم الناس، فما أبقيا لك مكرمة)). وأثّر حديثه في نفس ابن الزبير وكان -كما يبدو من حديثه- من خاصته وذوي الدالّة عليه، فأرسل على عبد الله بن مطيع وقال: ((انطلق إلى ابني عباس فقل لهما: يقول لكما أمير المؤمنين: أخرجا عني أنتما ومن انضوى إليكما من أهل العراق وإلاّ فعلت وفعلت)). وساء صاحبنا ذلك ((فقال لابن الزبير: والله ما يأتينا من الناس إلاّ رجلان.. رجل يطلب فقهاً ورجل يطلب فضلاً فأي هذين نمنع))، وقد تألم أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني وكان حاضراً في المجلس فاندفع يقول..

((لادرَّدرُّ الليالي كيف تضحكنا   منها خطوب أعاجيب وتبكينا
ومثل ما تُحدث الأيام من عبر   في ابن الزبير عن الدنيا تسلّينا
كنا نجيء ابن عباسٍ فيسمعنا   فقهاً ويكسبنا أجراً ويهدينا
ولا يزال عبيد الله مترعة   جفانه مطعماً ضيفاً ومسكينا
فالبر والدين والدنيا بدارهما   ننال منها الذي نبغي إذا شينا
إن النبي هوالنور الذي كشطت   به عمايات ماضينا وباقينا

ورهطه عصمـــة في ديننا لهــم   فضل علينا وحق واجــب فينـــا
ففيم تمنعنا منهــم وتمنعهــم   منا وتؤذيهم فينـا وتؤذينـــا
فلست فاعلم بأولاهم به رحمـاً   يا ابن الزبير ولا أولى بــه دينـا
لن يأتي الله انساناً ببغضهــم   في الدين عزاً ولافي الأرض تمكينا))[١]

ويبدو لي أن الحوادث بعد ذلـك أزّمـت مـا بينهمـا، فـأمر ابـن الزبـير بإبعاد ابن عباس إلى الطـائف، وإبعـاد ابـن الحنفيـة إلى رضـوى. وإن رواحـه إلى الطائف لم يكن مرة واحدة، وإنما سُيّر أولاً ثم عـاد إلى مكـة. وفي المـرة الثانية لم يخرج إليها قسـراً، وإنمـا خـرج ومعـه جيـش أهـل العـراق، ومعهـم محمد بن الحنفيـة احتفاظـاً بـالبيت الحـرام أن تـراق فيـه الدمـاء، وبقـي فيهـا حتى توفي.

وعن المرة الأولى كان يحـدّث المدائـني عـن مـدى تـأثره وانفعالـه لهـذا الإبعاد عـن بيـت الله.. يقـول: ((لما أخـرج ابـن الزبـير عبـد الله بـن عبـاس من مكة إلى الطائف، مرّ بنعمان فنزل فصلـى ركعتـين ثـم رفـع يديـه يدعـو فقال: اللهم إنك تعلم أنه لم يكن بلد أحب إليّ من أن أعبدك فيـه مـن البلـد الحرام، وإنني لا أحب أن تقبض روحي إلاّ فيه، وإن ابن الزبير أخرجـني منـه ليكون الأقوى في سلطانه، اللهم فأوهن كيده واجعل دائرة السوء عليه))[٢].

ولما بلـغ أهـل الطـائف نبـأ قدومـه عليهـم سـرت فيهـم موجـة فـرح وسـرور، وخرجـوا إلى استقباله وهـم يهتفـون ((مرحبـاً بـابن عـم رسـول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، أنـت والله أحـبّ إلينـا وأكـرم علينـا

---

(١) الاستيعاب ج٢: ٣٥٥-٣٥٦ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج٤:٤٨٧ .

ممن أخرجك، هذه منازلنا تخيّرها فانزل منها حيث أحببت))[١].

وفي تأريخ اليعقوبي: ((وأخرج عبد الله بن عباس إلى الطائف إخراجاً قبيحاً))[٢]. ويبدو أن ذلك الإخراج قد بلغ ابن الحنفية فكتب إليه من رضوى يسرّي عنه: ((أما بعد فقد بلغني أن عبد الله بن الزبير سيّرك إلى الطائف، فرفع الله بك أجراً، واحتطّ عنك وزراً، يا ابن عم إنما يبتلى الصالحون، وتعدّ الكرامة للأخيار، ولو لم تؤجر إلاّ فيما نحب وتحب قلّ الأجر، فاصبر فإن الله قد وعد الصابرين خيراً والسلام))[٣].

وكان في الطائف موضع حفاوتهم، وقد استغل أهلوها وجوده بين أظهرهم، فاجتمعوا عليه يأخذون عنه ويستمعون إليه، وكان هو لا يترك التنديد بسياسة خصومه، فكان ((يحمد الله ويذكر النبي والخلفاء بعده ويقول: ذهبوا فلم يدعوا أمثالهم ولا أشباههم ولا من يدانيهم، ولكن بقي أقوام يطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون جلود الضأن تحتها قلوب الذئاب والنمور ؛ ليظنّ الناس أنهم من الزاهدين في الدنيا، يراؤون الناس بأعمالهم، ويسخطون الله بسرائرهم، فادعوا الله أن يقضي لهذه الأمة بالخير والإحسان، فيولّي أمرها خيارها وأبرارها، ويهلك فجّارها وأشرارها.. ارفعوا أيديكم إلى ربكم وسلوه ذلك))[٤]. ويفعل مستمعوه - كلما أمرهم - ذلك فيدعون الله بدعواته.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٤:٤٨٨ .

(٢) تأريخ اليعقوبي ج٣:٩ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) جمهرة رسائل العرب ج٢: ١٤١.

وبالطبع لم تكن عيون ابن الزبير لتخفي عليه هذا الأمر، و لم يطق هو الصبر عليه، وكان من إجراءاته أن كتب إليه يتهدده.. ((أما بعد فقد بلغني أنك تجلس بالطائف العصرين، فتفتيهم بالجهل، تعيب أهل العقل والعلم، وإن حلمي عليك واستدامتي فيأك جرآك عليّ، فاكفف - لا أباً لغيرك - من غربك، واربع على ضلعك، واعقل إن كان لك معقول، وأكرم نفسك فإنك إن تهنها تجدها على الناس أعظم هواناً.. ألم تسمع قول الشاعر ..

فنفسك أكرمها فإنك إن تهن   عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما

وإني أقسم بالله لئن لم تنته عما بلغني عنك لتجدن جانبي خشناً، ولتجدنني إلى ما يردعك عني عجلاً، فإن أشقى بك شقاؤك على الردى فلا تلم إلاّ نفسك))[(١)].

وكان جواب ابن عباس على عادته قوياً متماسكاً، يأخذ جوانب الضعف في كل فقرة فقرة فيه، فيردّها عليه فيقول: ((أما بعد فقد بلغني كتابك.. قلت: اني أفتي الناس بالجهل وإنما يفتي بالجهل من لم يعرف من العلم شيئاً، وقد آتاني الله من العلم ما لم يؤتك. وذكرت أن حلمك عني واستدامتك فيئي جرّآني عليك، ثم قلت: اكفف من غربك، واربع على ضلعك، وضربت لي الأمثال. متى رأيتني لعرامك هائباً، ومن حدّك ناكلاً، وقلت: لئن لم تكفف لتجدن جانبي خشناً، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا أرعى عليك إن أرعيت، فوالله لا أنتهي عن قول الحق وصفة أهل العدل والفضل وذمّ الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا

---

(١) جمهرة رسائل العرب ج٢: ١٤١.

وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً والسلام))[1]. وهكذا ظل عند رأيه لا يقيم لخصمه وزناً مهما اشتد في تهديده واستعمال القوة ضده.

(٣)

ويبدو لي أنه عاد بعد ذلك إلى مكة، وعاد ابن الحنفية من رضوى إليها، وكانت في الأثناء ثورة المختار وتمرّده على ابن الزبير وإخراج عامله ابن مطيع عن الكوفة ثم محاولته الدعوة إلى بني هاشم، وقد ((كتب كتاباً إلى علي بن الحسين السجاد، يريده على أن يبايع له، ويقول بإمامته ويظهر دعوته، وأنفذ إليه مع ذلك مالاً كثيراً))[2]. ولكن الإمام(عليه السلام) - وهو أعرف الناس بنجاح مثل هذه الدعوة - لم يقم لهذا الكتاب وزناً، وبعد اليأس منه كتب إلى محمد بن الحنفية، وكان رأيه من رأي الإمام (عليه السلام)، وحاول - فيما يقال - أن يشهّر بالمختار واستشار ابن عباس في ذلك فقال له: ((لا تفعل فإنك لا تدري ما أنت عليه من ابن الزبير))، يقول الراوي: ((فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار))[3].

وكان يعطف في نفسه على ثورة المختار، لا لأنها ثورة على ابن الزبير فحسب ؛ بل لأن حركتها كانت هادفة في الدرجة الأولى إلى الأخذ بثأر الحسين(عليه السلام) . وقد عرفنا فيما سبق مدى انفعاله لقتله، ولما رافق قتله

---

(١) جمهرة رسائل العرب ج٢:١٤٢ .

(٢) مروج الذهب ج٣:٢١.

(٣) المصدر السابق ج٣: ٢٢.

من مآس لم يقع لها نظير في التاريخ، وقد أوقع بقتلة الحسين(عليه السلام) واستأصلهم أو كاد، وكان ممن قتل عمر بن سعد وعبيد الله بن زياد، وكان لقتل عبيد الله بن زياد صدى في نفوس الهاشميين أجمع، وبخاصة ابن عباس، وكان يحفظ له هذا الجميل ويجاهر به، ومما كان يقول: ((أصاب بثأرنا وآثرنا ووصلنا))[(١)]. وكان هو وابن عمر ومحمد بن الحنفية يقبلون هداياه[(٢)].

وقد ازداد على أثر ذلك - فيما يبدو - حنق ابن الزبير، فقام بآخر محاولة للبيعة، وكان أكثر همه - بعد حركة المختار - هو محمد بن الحنفية لأن المختار قد اتخذ منه إماماً يدعو الناس إلى الثورة باسمه، فإذا بايع له هذا الإمام فقد قطع على خصمه طريق الاستفادة من ذلك، ولكنّ محمداً وجميع الهاشميين أبوا عليه أمره فأمرهم ((أن يلزموا شعبهم بمكة، وجعل عليهم الرقباء، وقال لهم فيما يقول: والله لتبايعن أو لأحرّقنكم بالنار))[(٣)].

والذي يبدو أنه فرّق بين صاحبنا ومحمد؛ ليقطع عليهم سبيل التشاور، فحبس محمداً في زمزم ومنع الناس من الدخول عليه.. ((قال سليم أبو عامر: فرأيت محمد بن الحنفية محبوساً في زمزم، والناس يمنعون من الدخول عليه، فقلت: والله لأدخلنّ عليه.. فدخلت فقلت: ما بالك وهذا الرجل فقال: دعاني إلى البيعة، فقلت: إنما أنا من المسلمين، فإذا اجتمعوا عليك فأنا كأحدهم، فلم يرض بهذا مني))[(٤)].. ثم بدا له أن يتخذ منه رسولاً

---

(١) طبقات ابن سعد ج٥:٧٣ .

(٢) أنظر أنساب الأشراف ج٥:٢٧٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ج٥:٧٤ .

(٤) المصدر السابق ج٥:٧٤.

إلى ابن عمه، يسأله رأيه في البيعة بعد هذا الضغط، فقال له فيما يقول: ((فاذهب إلى ابن عباس فاقرأه مني السلام، وقل: يقول لك ابن عمك: ما ترى؟ قال سليم: فدخلت على ابن عباس وهو ذاهب البصر، فقال: من أنت، قلت: أنصاري فقال: رُبّ أنصاري هو أشد علينا من عدونا، فقلت: لا تخف أنا ممن لك كله، قال: هات فأخبرته بقول ابن الحنفية فقال: قل له لا تطعه ولا نعمت عين))[(١)]. ثم أقسم عليه أن يبلّغ ولا يزيد.

ثم بدا لابن الزبير أن يُلقي بآخر سهم لديه في سبيل ذلك، فجمع محمداً وعبد الله بن عباس ومعهم أربعة وعشرون هاشمياً في حجرة زمزم، ووضع عليها الحطب وهددهم بحرقها إن لم يبايعوه - بعد أن ضرب لهم موعداً - وارتئي أن يستنجد محمد بالمختار، فكتب إليه: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن علي ومن قِبَله من آل رسول الله إلى المختار بن أبي عبيد ومن قِبَله من المسلمين.. أما بعد فإن ابن الزبير أخذنا فحبسنا في حجرة زمزم، وحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو لنبايعنّه أو ليضرمنها علينا بالنار.. فياغوثاه))[(٢)].

وقبيل انتهاء الموعد فوجئت مكة ببعث المختار بقيادة أبي عبد الله الجدلي.. يقول الراوي: ((فقطع المختار بعثاً إلى مكة فانتدب منهم أربعة آلاف، فعقد لأبي عبد الله الجدلي عليهم وقال له: سر فإن وجدت بني هاشم في الحياة فكن لهم أنت ومن معك عضداً، وأنفذ لما أمروك به، وإن وجدت ابن الزبير قد قتلهم فاعترض أهل مكة حتى تصل إلى ابن الزبير،

---

(١) طبقات ابن سعد ج٥: ٧٤.

(٢) تأريخ اليعقوبي ج٣: ٨ .

ثم لا تدع من آل الزبير شَعراً ولا ظفراً، وقال: يا شرطة الله لقد أكرمكم الله بهذا المسير، ولكم بهذا الوجه عشر حجج، وعشر عُمَر.

وسار القوم ومعهم السلاح حتى أشرفوا على مكة، فجاء المستغيث: أعجلوا فما أراكم تدركونهم، فقال الناس: لو أن أهل القوة عجّلوا، فانتدب منهم ثمانمائة رأسهم عطية بن سعد بن جنادة العوفي حتى دخلوا مكة، فكبروا تكبيرة سمعها ابن الزبير فانطلق هارباً حتى دخل دار الندوة، ويقال بل تعلق بأستار الكعبة وقال: أنا عائذ الله))[(١)].

وهناك نترك لعطية بن سعد مجال التحدث عما شاهده من ضغط ابن الزبير، وكيفية حصاره للهاشميين.. يقول: ((ثم مِلنا إلى ابن عباس وابن الحنفية وأصحابهما في دور قد جُمع لهم الحطب، فأحيط بهم حتى بلغ رؤوس الجدر، لو أن ناراً تقع فيه ما رئي منهم أحدحتى تقوم الساعة، فأخّرناه عن الأبواب وعجّل علي بن عبد الله بن عباس - وقد أحس بنشوة الظفر - وهو يومئذ رجل فأسرع في الحطب يريد الخروج فأدمى ساقيه، وأقبل أصحاب ابن الزبير فكنا نحن وهم في المسجد نهارنا ونهاره، لانتصرف إلاّ إلى صلاة، حتى أصبحنا وقدم أبو عبد الله الجدلي في الناس فقلنا لابن عباس وابن الحنفية: ذرونا نريح الناس من ابن الزبير))[(٢)].

وهنا يتجلى الفارق بين النفسيتين.. بين نفسية آل البيت التي تركت الحسين عليه السلام يخرج عن مكة لئلا يستباح به حريمها، وخصومهم من الأمويين وآل الزبير، وقد عرفنا موقفهم من هتك حرمتها في الحرب التي عرّضت

---

(١) طبقات ابن سعد ج٥:٧٤ .

(٢) المصدر السابق ج٥: ٧٥ .

الكعبة للحريق. فكان جواب ابن عباس وصاحبه - على ما كان لديهما من ثورة نفسيّة وتألم من موقف خصمهما منهما، ثم إحساسهما بالظفر -: ((هذا بلد حرّمه الله، ما أحلّه لأحد إلاّ للنبي عليه السلام ساعة، ما أحلّه لأحد قبله، ولا يحلّه لأحد بعده، فامنعونا وأجيرونا))[١]. ثم خرجوا بهم إلى منى ((وإن منادياً لينادي في الجبل ما غنمت سريّة بعد نبيها ما غنمت هذه السريّة، إن السرايا تغنم الذهب والفضة، وإنما غنمتم دماءنا))[٢]. وفي منى أقاموا ما شاء الله أن يقيموا، ثم خرجوا بهم إلى الطائف.

ومن طريف المفارقات أن يعرض عروة بن الزبير إلى هذا الموقف من أخيه تجاه الهاشميين، ولقد لحقه عارها، فيحاول تبريره بالاعتذار بأنه لم يرد حرقهم، و ((إنما أراد بذلك إرهابهم؛ ليدخلوا في طاعته، كما أرهب بنو هاشم وجمع لهم الحطب لإحراقهم إذا أبوا البيعة فيما سلف))[٣].

وكأنّه يشير إلى حادث السقيفة، وما جرى فيه لأهل البيت (عليهم السلام)، فكأن وجود مشابه لهذه الحادثة فيما سلف كان كافياً لتبرير هذه الجرأة!! بتعريض هذه الأسرة إلى الحرق لو أصاب ذلك الحطب شرار منَ نار، ولو كان عابراً.

وما أدري أي المشهدين أعظم أثراً في نفس صاحبنا، وقد كُتب له أن يكون بطلاً فيهما، وقد سبق أن التمسنا أثر أولهما فيه، فماذا كان أثر الثاني؟...

---

(١) طبقات ابن سعد ج٥: ٧٥.

(٢) المصدر السابق، وانظر أسد الغابة ج٣:١٩٥.

(٣) مروج الذهب ج٣:٢٤ .

آخر المطاف

والـذي أخالـه أن مـرض وفاتـه كـان مستنداً في بعـض عواملـه إليـه، فحسبه - من كبر السن وازدحام الحوادث عليه وتنوعها علـى نحـو مـا مـر - ما يكفي لتهيئة جو للتأثر بأية صدمة مـن هـذا النـوع، فقـد كُتـب لصاحبنـا أن لا يطـول أمـده بعـد خروجـه إلى الطـائف، وأن يفاجـأ بمـرض الوفـاة. والمؤرخون لا يحددونه، فلا نملك أن نقول فيه كلمة.

وكأنني أتمثله وقد قعد به المرض وهو يعـرض صـوراً مـن حياتـه مليئـة بالأسى، وربما وقف فأطال الوقوف في الفـترة الـتي قضاهـا مـع بطلـه الإمـام (عليه السلام)؛ لشدة علقتـه بـه وإعجابـه بسـيرته، وهـا هـو ذا أحـد عـوّاده يحدّث عنه فيما يحدّث، وقد أغمي عليه وهو في البيت فـأخرجوه إلى صحـن الدار، ولما أفاق سمعه يردد بهذا الدعـاء: ((اللهـم إنـي أحيـى علـى مـا حيـي عليه علي بن أبي طالب، وأموت على ما مات عليه علي بن أبي طالب))[1].

وقد صدق في شهادته علـى نفسـه، ولـه - مـن سـيرته الـتي عرضناهـا وبعض صفاته التي سنعرضها - شاهد على ذلك.

وكـان آخـر قربـان قدّمـه بـين يديـه هـو إيمانـه بولايـة علـي بـن أبي طالب(عليه السلام)، وقد سمعنا - فيما سبق - صداهـا في نفسـه في مختلـف أدوار حياته، وها هو ذا يسمعنا إياها وقد حضرته الوفاة، أخـرج أحمـد بـن حنبـل في مسنده عن السدّي عن أبي صالح: ((لما حضرت عبد الله بن عباس الوفـاة

---

(١) رجال الكشي: ٥٤-٥٥.

قال: اللّهم إني أتقرب إليك بولاية علي بن أبي طالب))[١]. وفي قول يحيى بن الحسن بن البطريق أنها كانت خاتمة عمله[٢].

وهكذا انتهت حياته وأعلن خبر الوفاة، وبالطبع كان لهذا الخبر أسوء الوقع في نفوس أهل الطائف عامة، وتلامذته وأهليه على الأخص.

وقد رافق موته بعض الظواهر، ولا نعرف مدى صحتها، وقد أجمع أو كاد على روايتها مؤرخوه، وربما ناغمت عواطف أبنائه من خلفاء بني العباس، فكان لأتباعهم فيها نصيب.

والذي أقرّبه أن لبعضها نواة من الصحة، وقد يكون للصدفة فيها بعض الأثر.. وإلاّ فمن البعيد أن يُجمع مؤرخوه على ذكرها وهي مختلقة من الأساس.. يقول سعيد بن جبير فيما يُؤثر عنه: ((لما مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته، فجاء طائر أبيض لم ير على خلقه، فدخل في نعشه ولم ير خارجاً منه))[٣]. وفي رواية بعضهم أنه الغرنوق[٤]. وربما سقط هذا الطائر على نعشه صدفة، وشاهده المحدّث وغيره، ولم يلتفتوا له عندما طار.

ومثل هؤلاء المحدّثين كانوا ينطوون على إكباره وتقديسه بحكم صحبتهم له، وخبرتهم لجملة صفاته، وفي بعضها ما يلحقه بمقام القديسين،

---

(١) الدرجات الرفيعة ـ المطبعة الحيدرية، النجف، سنة الطبع ١٣٨١هـ ـ :١٤٠ نقلاً عن مسند أحمد، وانظر بشارة المصطفى -المطبعة الحيدرية، النجف سنة الطبع ١٣٨٣هـ- : ٢٢٩.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) أسد الغابة ج٣: ١٩٥.

(٤) انظر الإصابة في تمييز الصحابة ج٢: ٣٣٤.

فليس من البعيد أن لا يخطر في أذهانهم وقد شاهدوا هذه الظاهرة غير تفسيرها بما يعود إلى الكرامات.. يقول عفان: ((وكانوا يرون علمه وعمله))[(١)]. وفي بعض الروايات أن الطائر خرج من قبره، لا وقع على نعشه، فأوّلوا ذلك علمه خرج إلى الناس[(٢)].

ولك - بعد ذلك - أن تتساءل عن علاقة علمه أو عمله بالطائر الأبيض، ولِمَ تشكّل علمه بشكله دون غيره من الطيور؟! وهل سبق أن تجسد علم أو عمل لأحد الأولياء وشاهده الناس؟! ولِمَ اختص هو بهذه الكرامة؟!.. إلى ما هنالك من تساؤلات لا أعرف لها جواباً.

ومهما يكن، فمثل هذه الأحاديث إن فقد مدلولها الغيبي، بالتماس تأويل لها من الصدفة أو غيرها، فلن تفقد دلالتها - على تقدير صحّتها - على تركّزه في نفوس الناس، حتى كاد يلتحق بمقام القديسين والأولياء في أنظار معاصريه، وتُلتمس له أمثال هذه التأولات.

وما يقال عن هذه يقال عن الهاتف الذي سُمع يقول - وقد دلّيت الجنازة في قبرها -: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[(٣)] يقول الراوي: ((ولا يدرى من تلاها))[(٤)].

---

(١) البداية والنهاية ج٨:٣٠٦ .

(٢) انظر ذخائر العقبى:٢٣٧ .

(٣) الفجر: ٢٧-٣٠.

(٤) المستدرك على الصحيحين ج٣:٥٤٤ .

ومثلها حديث السحابة التي أمطرت قبره ثلاثة أيام، حتى قال يزيد بن عتبة مسجلاً هذه الظاهرة ..

((صبّت ثلاثاً سماء الله رحمتها   بالماء مرت على قبر ابن عباس

قد كان يخبرنا هذا ونعلمه   علم اليقين فمن واع ومن ناسي

إن السماء يروّي القبر رحمته   هذا لعمري أمر في يد الناس))[1]

وقد أقحمت من الراوي على هذه الأبيات أبياتاً أخرى من قصيدة ثانية، قالها شاعرها في مدحه بعد حادثة الحكمين، وقد سبقت الإشارة إليها وهي..

لو كان للقوم رأي يعصمون به   عند الخطوب رموكم بابن عباس

لله درّ أبيه أيما رجل   هل مثله عند فصل الخطب في الناس

لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن   لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس[2]

وقد تولى أمره والصلاة عليه ابن عمه محمد بن الحنفية، ومن أولى به منه، وقال في تأبينه: ((اليوم مات ربانيّ هذه الأمّة))[3]، وفي رواية: ((مات والله اليوم حَبر هذه الأمّة))[4].

وقيلت كلمات في تأبينه ربما جئنا عليها عند تقييمنا لعلمه، كقول رافع بن خديج: ((مات اليوم من كان يحتاج إليه من بين المشرق والمغرب من العلماء))[5]، وكقول جابر بن عبد الله - حين بلغه موت ابن عباس

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٣:٥٤٤.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ج١: ١٩٠.

(٣) ذخائر العقبى:٢٣٧ .

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ج٢:٣٣٤ .

(٥) البداية والنهاية ج٨:٣٠٠ .

وصفق بإحدى يديه على الأخرى - : ((مات اليوم أعلم الناس وأحلم الناس، وقد أصيبت به هذه الأمّة مصيبة لا تُرتق))[١]. وضرب محمد بن الحنفية على قبره فسطاطاً[٢].

أما متى كانت وفاته فالذي عليه أكثر مؤرخيه - بل نقل في الإصابة[٣] الاتفاق عليه - هو سنة ثمان وستين من الهجرة، ولكنّ روايات شاذة - لا تستحق أن يطال فيها الحديث - تروي غير ذلك، ففي بعضها أنه توفى سنة ثلاث وستين، وفي أخرى سبع وستين، وثالثة تسع وستين، ورابعة سبعين، وخامسة ثلاث وسبعين، وكلها كلمات - كما في البداية والنهاية - شاذة غريبة مردودة[٤]. ويبدو من بعض الروايات أنه أدرك من هذه السنة - الثامنة والستين أو التي بعدها - مقتل المختار، وكان المخبر له عبد الله بن الزبير، وما أدري أين اجتمع به فتوجّع له، يقول المحدّث:((وقال عبد الله بن الزبير لابن عباس وقد أخبره بأمر المختار فرأى منه توجّعاً وإكباراً لقتله: أتتوجع لابن أبي عبيد وتكره أن تسميه كذّاباً؟ فقال له: ما جزاؤه ذلك منّا، قتل قَتَلتنا، وطلب بدمائنا، وشفى غليل صدورنا))[٥]. ثم يذكرون له حديثاً مع عروة بن الزبير بعد أن أخبره بقتل المختار والمجيء برأسه، فقد قال له: ((قد بقيت لكم عقبة إن صعدتموها فأنتم أنتم، يعني عبد الملك

---

(١)البداية والنهاية ج٨: ٣٠٠ .

(٢) انظر ذخائر العقبى:٢٣٧ .

(٣) انظر الإصابة في تمييز الصحابة ج٢: ٣٣٤ .

(٤) انظر البداية والنهاية ج٨: ٣٠٦ .

(٥) أنساب الأشراف ج٥: ٢٦٥ .

وأهـل الشـام))[١]. ويقـال أنـه ذكـر عنـده المختـار - وظـاهر الدعـاء أنـه بعد مقتله - فقال: ((صلّى عليه الكرام الكاتبون))[٢].

وما أدري قيمة هذه الروايات وقربها من الصحّة، وملابسات الأحوال كلّها لا تساعد على تقبّلها.

وفي بعض الأحاديث محاولة لمد عمره إلى ما بعد مقتل ابن الزبير، ففـي حديث هشام بن عروة قـال: ((قـال عبـد الله بـن عبـاس للجـائز بـه: جنّبـني خشبة ابن الزبير، فلم يشعر ليلة حتى عثر فيها، فقال: ما هذا؟ فقال: خشـبة ابن الزبير. فوقف ودعا له فقال: لئـن علتـك رجـلاك لطالما وقفـت عليهمـا في صلاتك، ثم قال لأصحابه: أما والله ما عرفتـه إلاّ صوّامـاً قوّامـاً، ولكنـني ما زلت أخاف عليه منذ رأيته أن تعجبه بغلات معاوية الشهب. قال: وكـان معاوية قد حج فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شـهباء، عليهـا رحـائل الأرجوان، فيها الجواري عليهن الجلابيب والمعصفرات ففتن الناس))[٣].

وأثـر الافتعـال علـى هـذه الروايـة ظـاهر، والأمـر لا يدعـو إلى إطالـة الحديث فيها وفي أمثالها، بعد ما صح لدينا ما عرضناه من تحديد سنة الوفاة .

فلنختم الحديث في هـذا الجـزء فنتحـول إلى التحـدث عـن شخصيـّته وعرض آثاره ، وهو ما يشكل الجزء الثاني لهذا الكتاب..

---

(١) أنساب الأشراف ج٥:٢٦٥.

(٢) المصدر السابق ج٥: ٢٦٦.

(٣) العقد الفريد ـ تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، مصر، ط٢، سنة الطبع ١٣٧٢هـ ـ ج٥:١٥٧ .

فهرس المواضيع